كشكول الوائلي

تأليف
الشيخ أحمد الوائلي

إعداد وإشراف
مصطفى آل مرهون

«الجزء الرابع»

مؤسسة المصطفى ﷺ للتحقيق والنشر

كشكول الوائلي/ج٤


بسم الله الرحمن الرحيم

موقف اليهود من الأديان السماوية

إن النبي عيسى عليه السلام قد رفعه الله تبارك وتعالى إليه بعدأن خطّط اليهود لقتله وصلبه حين وشى به أحدهم ممّن تلبّس صفة تلامذته، لكن حكمة الله سبحانه وتعالى ارتأت أن تجعل من وشى به شبيهاً له، فكان من قتلوه وصلبوه هو ذلك الواشي، وليس النبي عيسى عليه السلام. وهذا ما يعبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾[1].

الإرادة هي العنصر الأهم في الجريمة

لكن ينبغي هنا الإشارة إلى أمر هامّ في المقام يتعلّق بالإرادة والنيّة على الإقدام على فعل شيء ما؛ كي نرى حقيقة موقف اليهود من محاولة قتل النبي عيسى عليه السلام، فاليهود صحيح أنهم لم يقتلوا النبي عيسى عليه السلام، وأنهم قد قتلوا شبيهه، لكنهم مع ذلك لم يخلصوا من تبعة الجريمة، بل إنهم يبقون مجرمين بحقّه عليه السلام؛ لأن إرادة القتل كانت موجودة عندهم، وهي أهم عنصر من عناصر الجريمة؛ ولذلك فإننا نرى أن الشرع الحنيف والقانون يحاسبان على الإرادة.

وكمثال على هذا فإن الشخص الذي يقتل إنساناً خطأ يكون حكمه غير حكم ذلك الشخص الذي يقتل إنساناً عن عمد؛ لأن عنصر الإرادة

---

(١) النساء: ١٥٧.

غير متوفّر عند الأوّل، في حين أنه متحقق وموجود عند الثاني؛ فلانعدام المتعلّق وهو الإرادة اختلف الحكم.

إذن فالشرع يحاسب على الإرادة، ويرتّب أثراً عليها؛ لأنها عنصر له دخل رئيس بالموضوع، وهي ذات التأثير على أفعال الإنسان وحركاته، وبالتالي إقدامه على ذلك الفعل وقيامه به.

موقف الفاتيكان من اليهود

وإننا إذ نقرّر هذه الحقيقة فإننا نقول في الوقت نفسه ببالغ الأسف: إن هناك حقيقة أُخرى مرة، وهي أن ركام التاريخ الموبوء والمليء بالأكاذيب، قد جعل مؤسسة الفاتيكان في الوقت الحاضر تقف من اليهود موقفاً إيجابياً، فتبرّئهم من تلك الجريمة الشنيعة، مدعية أنهم لم يكن هدفهم قتل عيسى عليه السلام. بل الأنكى من ذلك أنه راح يصورهم على أنهم مجتمع معتدى عليه، وأنهم مجتمع تعرض للإبادة وللإحراق.. تلك المحرقة التي طبّل لها المغرضون وزمّروا في محاولة لإظهار مظلومية الشعب اليهودي، وأنه شعب مقهور ومحروم، ومستهدف ومعتدى عليه، وأنه شعب مسلوب ليس له وطن. مع أننا نعرف أن تلك المحرقة لم يكن لها أصل كما صرح بذلك الكثير من الكتاب[1].

وطبعاً كان هذا كما ذكرنا قبل قليل نتاجاً لذلك الركام الهائل من

---

(١) وهي ما يطلق عليها اسم «الهولوكوست»، وممّن فندها ودحض دعواها الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي حتى إنه خضع للمحاكمة بسبب ماذهب إليه بالدليل القاطع في محكمة فرنسية.

التاريخ المليء بالأكاذيب والأضاليل.. التاريخ الذي يسخّر الأقلام ويحبّر المطابع التي تخرج علينا كلّ فترة بمجموعة من الكتب التي تحاول أن تؤصل هذه الفرية وهذه الأُكذوبة، وأن تجعلها حقيقة واقعة، وهو ما يؤدي إلى غسل أدمغة الشعوب والمجتمعات الأُخرى؛ ليقتنعوا بأن هذا المجتمع هو فعلاً مجتمع معتدى عليه ومجتمع مسكين، وأن اليهود ضحايا النظرة العصبية، والتفرقة القائمة على أساس العرق أو الدم، وأنهم قد سلب حقهم ووطنهم، فتكون فلسطين من حقهم ولهم، ولا يحقّ لأحد إنكار ذلك عليهم.

الاستعمار يستغلّ بدعة الهولوكوست

وهذا هو الذي حدا بالاستعمار ـ لانطلاء تلك الكذبة الساذجة عليه، أو لغرض في نفوس أصحابه يتذرّعون به للسيطرة على ثروات الآخرين ومقدّراتهم بعد أن أجازوا ذلك لأنفسهم، وسوّغوه لها، أو للأمرين معاً ـ إلى أن يوطئ اليهود أرضنا المقدسة. وهكذا شاء الله أن يبتلينا بهم وإن لم نكن أهلاً لهذا البلاء؛ فإننا اليوم ـ ببالغ الأسف مع كوننا قد ابتلينا بهم ـ بدلاً من أن نقاتلهم وأن نتحد لقتالهم نجد أن المسلمين يقاتل بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم بعضاً، ويحارب بعضهم بعضاً محاولين بثّ جذور التفرقة في المجتمع الإسلامي الواحد وبين أبناء الدين الإسلامي والواحد، وهي أصابع يهودية تعمد إلى هذا؛ كي تشغل المسلمين عن التوجه إليهم وإلى قتالهم.

تاريخ اليهود

إننا كمسلمين حينما ابتلينا أيام النبي ﷺ باليهود كان الإسلام يعيش في قلوب أبنائه آنذاك، ويترعرع بين جوانحهم، ويتملك عقولهم وأفكارهم، ويأخذ بأيديهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله الكريم ﷺ، وإلى الوحدة لقتال كلّ من تمتد يده لينال من عزّة الإسلام ومنعته وكرامته، أما الآن فنحن بدلاً من أن نقاتل اليهود دفاعاً عن الإسلام، نجد أنفسنا يقاتل بعضنا بعضاً، يقول أحد الأُدباء:

محمد هل لهذا جئت تسعى — وهل أتباعك الهمل الرعاعُ
أإسلام وتغلبهم يهود — وآساد وتأكلهم ضباعُ
شرعت لهم منار الحق لكن — أضاعوا مجدك السامي فضاعوا
أيشغلهم عن الجلّى نزاع — وهذا نزع موت لا نزاعُ

شخصية حبيب النجار

إن هؤلاء حينما أرادوا قتل النبي عيسى عليه السلام، واختار الله تبارك وتعالى رفعه إليه، أرسل عليه السلام اثنين من الحواريين إلى أنطاكيا ليرشدوا الناس، وعندما وصلوا إليها التقوا بهذا الرجل الذي جاء يسعى، والذي لم تذكر الآية الكريمة اسمه، غير أن بعض المفسرين[١]، ومنهم الطبري[٢] يرى أن

(١) مجمع البيان ٨: ٢٦٤، تفسير الثعلبي ٨: ١٢٦.
(٢) جامع البيان ٢٢: ١٩١.

اسمه حبيب النجار.

وحبيب النجار هذا هو الذي اتهموا به السيدة العذراء مريم عليها السلام: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾[(١)].

جذور العقيدة في النفس البشرية

وعلى أية حال فإن هذا الرجل المسمى عند بعض المفسرين بحبيب النجار كان مصاباً بمرض الجذام، وكان عمله صناعة الأصنام والإشراف على خدمتها وبيعها. وينبغي أن نلتفت هنا إلى مسألة هامة، وهي أن قضية تغيير الأديان والعقائد عند الناس؛ المجتمعات والأفراد على حدّ سواء هي مسألة صعبة جداً، بل في غاية التعقيد، وليست سهلة بحال من الأحوال، فليس من السهل أو اليسير على امرئ أن يؤثر في غيره ويجعله يترك عقيدته وموروثه حتى وإن كانت تلك العقيدة أو تلك الموروثات التي هو عليها فاسدة في واقع حالها.

العقائد وأصحاب الشهادات العليا

ومن الدليل العملي والوجداني على هذا أننا نعرف جميعاً ـ وقد رأيت أنا كذلك بعيني ـ أن البعض من أصحاب الشهادات العليا ومن ذوي الاختصاصات العلمية كانوا حينما يحين وقت عبادتهم يخرجون أصناماً من جيوبهم أو من حقائبهم ليسجدوا لها، أو أن يعمد البعض إلى خشبة أو

---

(١) مريم: ٢٨.

معزى أو بقرة ليعبدها وليسجد لها. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن موضوع العقائد هو موضوع تصعب زحزحته من قلوب الناس وأفكارهم وتغييره عندهم.

آلية الدعوة إلى الله عند الرسل عليهم السلام

على أية حال فهذان الحواريان (رضي الله عنهما) طلبا من حبيب هذا أن يؤمن بالله تعالى، وكان به جذام، فكان يطوف بالأصنام يدعوها، فلم يغنِ ذلك عنه شيئاً، فلما سمع كلامهما قال: إن معي ذهباً، فهل تأخذانه مني وأتبعكم، وتدعوَا الله لي؟ فقالا: لا نريد ذهبك، ولكن اتبعنا. ثم دعوَا الله له فبرئ، فلما رأى ما فعلا معه قال: ﴿**يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾؛ لأنهما رفضا أخذ الذهب منه.

وهكذا فإن الله تبارك وتعالى حينما منحه الشفاء التام والبرء الكامل من مرضه ودائه الذي كان هو فيه، آمن وراح يبشّر برسالة السماء. وعلى رأي المفسرين فإنه برئ تماماً، وأصبح يسعى ويعدو بعد أن كان لا يقدر على الحركة إلّا بالجهد، فكان أن عمد إلى مساعدة هذين الحواريين في دعوتهما إلى الله تبارك وتعالى. وهكذا بدأ ينشر تلك الفكرة التي وصلت إلى ملك زمانهم وكان وثنياً، فأرسل خلفهما وعذّبهما وضربهما ثمّ سجنهما. ولما دعاه حبيب النجّار إلى الإيمان قتله، فقيل له: ﴿**ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ**﴾[1]، أي وجبت

(١) يس: ٢٦ ـ ٢٧.

لك الجنة؛ لموتك شهيداً[١].

وفي بعض الروايات أنهما (رضي الله تعالى عنها) لما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات وهو حبيب صاحب إلياس، فسلما عليه، فقال الشيخ: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى يدعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن.فقال: أمعكما آية؟ قالا: نعم، نشفي المرضى ونبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى. فقال الشيخ: إن لي ابناً مريضاً صاحب فراش منذ سنين. قالا: فانطلق بنا إلى منزلك نتطلع حاله.

فأتى بهما إلى منزله، فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله صحيحاً، ففشا الخبر في المدينة وشفا الله على يديهما كثيراً من المرضى، وكان لهم ملك من ملوك الروم يعبد الأصنام، فانتهى الخبر إليه فدعاهما، فقال لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى. قال: وما آيتكما؟ قالا: نبرئ الأكمه والأبرص، ونشفي المرضى بإذن الله تعالى. قال: وفيم جئتما؟ قالا: جئناك ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر. فقال الملك: أو لنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم، من أوجدك وآلهتك. قال: قوما حتى أنظر في أمركما. فتتبعهما الناس، فأخذوهما وضربوهما كلّ واحد منهما مئة جلدة، ثم أودعوهما في السجن، فذلك قوله عزّ من قائل في الآية الكريمة: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾[٢].

(١) تفسير الثعلبي ٨: ١٢٤ ـ ١٢٨ تفسير ابن زمنين ٤: ٤٢ – ٤٣.

(٢) يٓس: ١٤.

دور الحاشية في حياة أصحابها

فما كان من النبي عيسى عليه السلام إلّا أن أرسل خلفهما حوارياً ثالثاً هو شمعون الصفا رضي الله عنه الذي أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾(١).

حيث إنه عليه السلام بعد أن عرف بسجن رسوليه أشار إلى رأس الحواريين شمعون الصفا بأن يذهب خلفهما، فجاء شمعون إلى تلك المدينة من مسلك آخر ومن طريق غير الطريق الذي سلكه أخواه الحواريان اللذان سجنهما الملك، وراح يفكر بطريقة عملية فاعلة وناجعة ليؤثر بها في الملك، فخطر في باله أن يدخل عليه من حاشيته.

ونحن نعرف أن الحاشية جهة مؤثرة على صاحبها في الأغلب الأعم من الأحوال، فهو لا يستطيع أن يخالفهم؛ لأنه جعلهم عيوناً له على غيرهم، وآذاناً له يستمعون بها ما يدور حوله وينقلونه إليه؛ وبهذا فإنه غالباً يكون قد سلّم نفسه إليهم بشكل شبه كامل. ومن هنا فإن للحاشية عادة تأثيراً كبيراً في السلطان أو الملك؛ سواء كان ذلك التأثير تأثيراً ينحو منحى الخير، أو منحى الشرّ؛ باعتبار أن المستشار والعين ذوا تأثير كبير جداً في من وضعهما؛ ولهذا فإننا نجد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «مَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِيْ عُقُولِهَا»(٢).

وهكذا فإن شمعون رضي الله عنه رأى أن أفضل طريقة للوصول إلى الملك، وأقصر طريق لبلوغ مأربه، وأحسن وسيلة للتأثير فيه هو أن يتجه إليه عن طريق حاشيته. وفعلاً اتصل بهم فترة من الزمن، فرأوه إنساناً قوياً لا

(١) يس: ١٤.
(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ١٦١.

غبار عليه، وأنه مستقيم السيرة وإنسان صالح، ويزن الأمور بعقل وحكمة وتدبر، وأنه فوق كلّ هذا متجه إلى خالقه ومعبوده بـإخلاص وانـقطاع كاملين بالإضافة إلى ما كان يمارسه من شـؤون عـبادية تـرى آثـارها واضحة عليه.

فلما رأوه على تلك الحال وثقوا به واعتزوا به اعتزازاً كبيراً، فكان أن رفعوا أمره إلى الملك مخبرين إياه بأن هناك رجلاً يعيش بينهم منذ فترة وهو رجل صالح، وتبدو عليه سيماء الإيمان والإخلاص، فأمـر المـلك بإحضاره عنده ليراه ويستمع إليه، فلما أُدخل على الملك أنس به وأحبّه، ورضي عشرته، وسُرّ به فأدناه وأكرمه. فكان أن استغلّ تلك الفرصة التي حظي بها عنده بعد فترة، فخاطبه قائلاً: أيها الملك، بلغني أنك حـبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك، فهل كـلمتهما وسمعت قولهما؟ فقال الملك: حال الغضب بيني وبين ذلك. قـال: فـإذا رأى الملك دعاهما حتى نستطلع ما عندهما.

فدعاهما الملك، فقال لهما شمعون: من أرسلكما إلى ها هنا؟ قالا: الله الذي خلق كلّ شيء، وليس له شريك. فقال لهما شمعون: فصفاه وأوجزا. فقالا: إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. قال شمعون: وما آيتكما ؟ قالا له: ما تتمناه. فأمر الملك حتى جاؤوا بغلام مطموس العينين موضع عينيه كالجبهة. فما زالا يدعوان الله تعالى له حتى انشق موضع البصر، فأخذا بندقتين من الطين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين فبصر بهما.

فتعجب الملك، فقال شمعون للملك: أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع

صنيعاً مثل هذا، فيكون لك الشرف ولإلهك. فقال له الملك: ليس عندي سر، إن إلهنا الذي نعبده لا يبصر ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفع.

وكان شمعون إذا دخل الملك على الصنم يدخل بدخوله ويصلي كثيراً ويتضرع ، حتى ظنوا أنه على ملتهم. فقال الملك للرسولين: إن قدر إلهكما الذي تعبدانه على إحياء ميت آمنا به وبكما. قالا: إلهنا قادر على كلّ شيء. فقال الملك: إن هاهنا ميتاً مات منذ سبعة أيام، وأنا أخرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه، وكان غائباً. فجاؤوا بالميت وقد تغير، فجعلا يدعوان الله علانية، وجعل شمعون يدعوه سرّاً، فقام الميت وقال: إني قد مت منذ سبعة أيام، ووُجدت مشركاً فأُدخلت في تسعة أودية من النار، وأنا أُحذركم ما أنتم فيه، فآمنوا بالله(١).

وهذه الواقعة التي يرسمها لنا المفسرون هي التي يشيرون إليها عندما يمرون بتفسير هذا المقطع من الآية الكريمة، وهو قوله تعالى: ﴿**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى**﴾.

عبرتان تستفادان من القصة

ويلاحظ هنا أن هذا الرجل الذي ذكرنا أن بعض المفسرين يسميه حبيباً النجار عندما استدل على صحة دعوى هذين الحواريين، وبعدما تأكد من أنهما على حق، وأن النبي الذي أرسلهما وهو النبي عيسى عليه السلام

(١) انظر مجمع البيان ٨: ٢٦٤ ومابعدها، التفسير الأمثل ١٤: ١٨٩ ومابعدها، معاني القرآن ٥: ٤٨٦ ومابعدها، قصص الأنبياء (ابن كثير) ١: ٣٨٠ ومابعدها، وغيرها كثير.

هو رسول السماء نجد أنه قد اقتنع بما طلبوه منه وهو الإيمان بهذه الدعوة الجديدة. أي أنه حينما اكتشف أن لهؤلاء صلة بالسماء اقتنع وآمن بهذا الدين الجديد، بل إنه فوق ذلك راح يدعو إلى اتباع النبي عيسى عليه السلام حتى كانت دعوته السبب في استشهاده (رضوان الله عليه).

والذي نستفيده من هذا عبرتان، هما:

الأُولى: أن ابن الحضارة والمدنية أسرع من غيره إلى تقبّل الآراء والدعاوى الجديدة، وإلى الاقتناع بالفكر الوافد ما داما قائمين على الدليل، ومستندين إلى الحجّة القاطعة والبرهان الناصع.

الثانية: أن الإنسان إذا ما اطمأن إلى أمر وفق قواعد العقل والدليل، ثم وقف على حقيقة ما فإنه سوف يؤمن بها وينقاد إليها برغبته وإرادته، بل يدعو إليها وإلى نشرها بأي طريق من الطرق، أو بأي وسيلة من الوسائل بل إن عليه أن يكون كذلك إن كان واقعياً متبعاً للدليل.

فما دام يعرف أن معتقده هو الصحيح، وأنّ ما هو عليه هو الطريق الصواب، وأنّها دعوى صحيحة وواقعية، فإنه سوف يؤمن بها، ويلتزم بقوانينها، ويعمد إلى الدفاع عنها ونشرها، والمحاربة من أجلها.

واقع المسلمين على ضوء هذه العبرة

وبناء على هذا فإننا نقول بحسرة وألم: ليت في روافدنا الإسلامية التي تنتشر هنا وهناك مثل هذا المعنى الذي أشرنا إليه عن حبيب النجار، وإلى اقتناعه بالحق والحقيقة، ودفاعه عنهما ودعوته إليهما، غير أننا نجد في تاريخنا من يشذّ عن هذا المنهج، ويبتعد عن هذا الأسلوب الذي ذكره

القرآن الكريم في سياق المدح، وهذا ما يشعر كل من له غيرة على دينه بالأسف والأسىٰ.

مصطفى السباعي والتحكّم الأعمى

وكمثال توضيحي على ما أود أن أقوله نتناول ما تطرّق إليه أحد الكتاب المسلمين وهو مصطفى السباعي صاحب كتاب (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي)، فهذاالمؤلف حينما يمرّ بالخوارج يدعي القول عنهم إنه قد بحث عن دليل علمي يثبت له أن الخوارج كذّابون وضّاعون للحديث فلم يجد، بل إنه على العكس من ذلك وجد أن التاريخ يبرهن له برهاناً قاطعاً على أنهم من أصدق الناس، وأنهم غير منحرفين عن هذا الدين، بل إنه رأى أن أكذب الناس وأشرهم هم الروافض؛ فهم يضعون الحديث وليس عندهم شيء من الصدق أبداً. ومن عباراته قوله: «لم أعثر على حديث وضعه خارجي، وبحثت كثيراً في كتب الموضوعات فلم أعثر على خارجي عد من الكذّابين والوضّاعين... ولم نعثر لهم على حديث واحد موضوع»[1].

ويقول في موضع آخر: «لقد حاولت أن أعثر على دليل علمي يؤيّد نسبة الوضع إلى الخوارج، لكني رأيت الأدلّة على العكس تنفي عنهم هذه التهمة»[2]. ثم يقول: «على أني أعود فأقول: إن المهم عندنا أن نلمس

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: ٩٩.

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: ١٠٠.

دليلاً محسوساً يدل على أنهم ممّن وضعوا الحديث وهذا ما لم أعثر عليه حتى الآن»[١].

ينعقون مع كلّ ناعق

وهذا التهريج طبعاً ليس كلام السباعي هذا، بل إنه كلام ابن تيمية، فهذا الرجل يذهب إلى أن الخوارج هم من أوثق الناس وأعدلهم وأصحّهم عقائدَ، بل إنه كلام غيره من العلماء ممن يرى عدلهم وأحقّيّتهم، ويذهب إلى أنهم من أوثق الناس وأعدلهم وأصحّهم عقائدَ.

لقد كان ابن تيمية يقول عنهم: «وصحّ فيهم الحديث عن النبي ﷺ من عشرة أوجه رواها مسلم في صحيحه روى البخاري ثلاثة منها: ليسوا ممّن يتعمّد الكذب، بل هم معروفون بالصدق حتى يقال: إن حديثهم من أصحّ الحديث، لكنهم جهلوا وضلّوا في بدعتهم، ولم تكن بدعتهم عن زندقة وإلحاد، بل عن جهل وضلال في معرفة معاني الكتاب. وأما الرافضة فأصل بدعتهم عن زندقة وإلحاد، وتعمّد الكذب كثير فيهم، وهم يقرون بذلك حيث يقولون: ديننا التقية، وهو أن يقول أحدهم بلسانه خلاف ما في قلبه»[٢]. ويقول: «وليس في أهل الأهواء أصدق ولا أعبد من الخوارج»[٣].

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: ١٠٠ ـ ١٠١.

(٢) منهاج السنة النبوية ١: ٦٨.

(٣) منهاج السنة النبوية ٥: ١٥٧.

وقفة مع كلام السباعي

إننا لابدّ أن نقف هنا وقفة بسيطة نتعرف من خلالها على الخوارج وحقيقتهم ومذهبهم، وعلى ما رميت به الشيعة من أكاذيب، وما اُلصق بهم من تهم باطلة. إن معالجة الاُمور بهذا الشكل الذي يذهب إليه أمثال هؤلاء الكتاب كابن تيمية أو السباعي هو في حقيقته حالة ترضية تعيث في تاريخنا، وتشكل نقطة ترضية حرجة فيه؛ لأنها تجعله تاريخاً موبوءاً يتأكّل من داخله.

فضائح الخوارج

وعليه فلابد من معالجة مثل هذا الداء، ولمناقشة ما يذهب إليه هؤلاء الكتّاب وإبراز كذبهم وبطلان دعواهم نقول: إن هذا يتمّ عبر عدة ملاحظات على أمثال هذه الآراء وهذا المنحى الذي ينحوه هؤلاء، نذكر منها:

الأُولى: حقيقة عقائد الخوارج

إن هؤلاء الذين يطلق عليهم أنهم أوثق الناس وأعدلهم وأصحهم عقيدة لو رجعنا إلى تاريخهم لوجدنا أنهم يكفرون المسلمين قاطبة إلّا من تمذهب بمذهبهم، أي إلّا من يرى رأي الخوارج في العقائد والفروع والأحكام. فكل مسلم لا يشترك معهم في قتال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أو في قتال الأُمويين فهو في نظرهم كافر. وكان لهم قدرة وقابلية كبيرتان على استدراج الناس إليهم واستمالتهم إلى صفهم.

الخوارج وسبرة بن الجعد

ومن هذا ما حصل مع سبرة بن الجعد الذي كان سميراً للحجاج ومن ندمائه مع أن سبرة يرى رأي الخوارج؛ فقد استطاعوا التأثير فيه، وجرّه إلى جانبهم، وكان من أصحاب قطري بن الفجاءة المزني، وكان قطري يومئذٍ يحارب المهلب، فبلغه ما كان من أمر سبرة مع الحجاج، فكتب إليه يوماً كتاباً يعنّفه فيه، فلما قرأ كتابه بكى، وركب فرسه، وأخذ سلاحه، ولحق بقطري، وطلبه الحجاج فلم يقدر عليه، ولم يرَ الحجاج إلّا وكتاب فيه شعر قطري الذي كان كتب به إلى سبرة، وبعد حين جاء الحجاجَ كتاب من سبرة، فلما فتحه وإذا من جملته:

فمن مبلغ الحجاج أن سميره ... قلى كلّ دين غير دين الخوارجِ
رأى الناس إلّا من رأى مثل رأيه ... ملاعين ترّاكين قصد المناهجِ
فأي امرئ أي امرئ يا بن يوسف ... ظفرت به لو نلت علم الولائجِ
إذن لرأيت الحقّ منه مخالفاً ... لرأيك إذ كنت امرأً غير فالجِ
يسائلني الحجّاج عن أمر دينه ... وليس هواه للصواب بواشجِ
فأضلل به من واشج خلجت به ... عن الدين والإسلام إحدى الخلائجِ

فطرح الكتاب إلى عنبسة بن سعيد، وقال: هذا من سميري الشيباني، وهو خارجي ولا نعلم به(١).

---

(١) كتاب الفتوح ٧: ٣٦ ـ ٣٧، وفيات الأعيان ٢: ٣٦ ـ ٣٧، الوافي بالوفيات ١٥: ٢٧٨.

وجاء في كتاب قطري هذه الأبيات التي حملت سبرة على اللحوق به كما في المصدر

وحينما ندقق في هذه الأبيات، وننعم النظر في عبارة: «أن سميره قلى كلّ دين غير دين الخوارجِ»، وقوله: «ملاعين ترّاكين قصد المناهج »، فإننا سنعرف يقيناً أن الفكرة السائدة عندهم هي تكفير جميع المسلمين ماعدا الخوارج، فهذه المقطوعة صريحة في هذا المعنى، وفي أن كل من هو ليس بخارجي فهو لا يمكن اعتباره مسلماً عندهم فكلّ من خالفهم فهو كافر أو مشرك.

الثانية: تهافتات الخوارج

يتميّز تاريخ الخوارج بكثير من المفارقات والتهافتات التي كانت السمة البارزة له ولهم، فكانوا يعومون في خضمّ بحر متلاطم من التناقضات الفكرية والعملية بما يشتمل عليه من تداعيات وخلفيات سوداء أدّت بهم إلى اتخاذ مثل تلك المواقف وبناء مسيرتهم على ضوئها

أعلاه:

لشتان ما بين ابن جعد وبيننا إذا نحن رحنا في الحديد المظاهرِ
نجالد فرسان المهلب كلنا صبور على وقع السيوف البواترِ
وراح يجرّ الخز نحو أميره أمير بتقوى ربه غير آمرِ
أبا الجعد أين العلم والحلم والتقى وميراث آباء كرام العناصرِ
ألم ترَ أن الموت لابدّ نازل ولابدّ من بعث الأُلى في المقابرِ
فسر نحونا إن الجهاد غنيمة نفدك ابتياعاً رابحاً غير خاسرِ
هي الغاية القصوى العظيم ثوابها إذا نال في الدنيا الغنى كلّ تاجرِ

مع ما كانت تحفل به من ابتعاد واضح عن جوهر الإسلام الناصع، ومعدنه الواضح، بل عن قالبه، وما يحمل من انقطاع عن شريعة السماء، وما تتّسم به من مروق عن قواعدها، وتخلٍّ واضح عن دستورها وقوانينها مع وضوح الرؤية لمن أرادهما، وسطوع البرهان والدليل لمن شاء اتباعهما. ومن هذه التهافتات نذكر:

الأُولى: قتل المسلمين وتأمين المشركين

إن هؤلاء الذين يدّعى لهم بأنهم أهل صدق ومبدأ، كانوا يكفّرون جميع المسلمين كما أشرنا، بل يقتلون كلّ من تقع يدهم عليه منهم، وكانوا في الوقت نفسه، وفي الظروف عينها يؤمنون المشركين ويتركونهم دون أن يؤذوهم، أما المسلم فكانوا يقتلونه بمجرد أن يصلوا إليه[1].

قتل عبد الله بن خباب رضي الله عنه

ونحن نذكر هنا دليلاً على تلك التهافتات من أنهم كانوا يقتلون كلّ مسلم تناله أيديهم فعلتَهم الشنيعة بعبد الله بن خباب بن الأرت رضي الله عنه في أيام أمير المؤمنين عليه السلام. ومسألة قتله هي إحدى المسائل التي حدت بالإمام علي عليه السلام إلى مقاتلتهم كما تنص الرواية التي تقول: إن عبد الله بن خبّاب بن الأرتّ رضي الله عنه لقيهم وفي عنقه مصحف، وهو على حمار، ومعه

(١) كما مرّ من قصة رأس المعتزلة عطاء بن واصل معهم حينما احتال عليهم بأن ادعى أنه مشرك يريد أن يذهب إلى دار الإسلام فيسلم، فكان أن أبلغوه إلى حيث يريد دون أن يمسّوه بأذى.

امرأته وهي حامل، فقالوا له: ما هذا الذي في عنقك؟ فقال لهم: هذا كتاب الله؛ فأنا مسلم. فقالوا له: إن هذا الذي في عنقك ليأمرنا بقتلك. فقال لهم: ما أحياه القرآن فأحيوه، وما أماته فأميتوه.

فرأى رجل منهم رطبة سقطت من نخلة على الأرض، فوثب فوضعها في فيه، فصاحوا به، فلفظها مدعياً الورع، وعرض لرجل منهم خنزير فضربه فقتله، فقالوا: هذا فساد في الأرض. وأنكروا قتل الخنزير، فلقي الرجل صاحب الخنزير فأرضاه من خنزيره، فلما رأى عبد الله بن خباب رضي الله عنه ذلك منهم، قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى، ما عليّ منكم بأس، ووالله ما أحدثت حدثاً في الإسلام، وإني لمؤمن، وقد آمنتموني، وقلتم لي: لا روع عليك. فقالوا له: حدثنا عن أبيك. فقال: إني سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**ستكون بعدي فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يمسي مؤمناً ويصبح كافراً**». فكن عبد الله المقتول، ولا تكن القاتل.

قالوا: فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى خيراً، قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم، وفي عثمان في السنين الست الأخيرة؟ فأثنى خيراً، فقالوا: فما تقول في علي بعد التحكيم والحكومة؟ قال: إن عليا أعلم بالله وأشد توقياً على دينه، وأنفذ بصيرة. فقالوا: إنك لست تتبع الهدى، إنما تتبع الرجال على أسمائهم. ثم قربوه إلى شاطئ النهر، فأضجعوه فوق الخنزير، فذبحوه، ثم أقبلوا إلى امرأته، فقالت: إنما أنا امرأة، أما تتقون الله؟ فبقروا بطنها، وقتلوا معها ثلاث نسوة، فيهن أُم سنان التي صحبت

النبي صلى الله عليه وآله.

فبلغ أمير المؤمنين عليه السلام خبرهم، فبعث إليهم الحارث بن مرة، لينظر فيما بلغه من أمر قتلهم عبد الله بن خباب رضي الله عنه والنسوة، ويكتب إليه بالأمر، فلما انتهى إليهم ليسائلهم، خرجوا إليه فقتلوه، فقال الناس: يا أمير المؤمنين، تدع هؤلاء القوم وراءنا يخلفوننا في عيالنا وأموالنا، سر بنا إليهم، فإذا فرغنا منهم نهضنا إلى عدونا من أهل الشام.

فلما التقوا استنطقهم أمير المؤمنين عليه السلام قبل القتال حول جريمتهم، هذه فاعترفوا بأنهم قد ارتكبوها، وأنهم قد قتلوا عبد الله بن خباب رضي الله عنه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لو اعترف أهل الأرض جميعاً بقتله لقاتلتهم**»[1].

فهؤلاء ما داموا يحملون هذا الفكر التكفيري في تعاملهم مع المسلمين فإن الواجب على خليفة المسلمين يقتضي حماية المسلمين، ومقاتلة أولئك الذين يكفرونهم دون سبب ودون دليل.

الفكر التكفيري في القرن العشرين

ونحن الآن بعد أن وصلنا إلى القرن العشرين لنا أن ندقق فيما يفعله خوارج العصر في وقتنا هذا ممّا يقومون به مع المسلمين ومع غير

---

(١) الأخبار الطوال: ٢٠٦ ـ ٢٠٧، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٨١ ـ ٢٨٢، أُسد الغابة ٣: ١٥٠، تاريخ الإسلام ٣: ٥٨٨، الإمامة والسياسة ١: ١٢٦ ـ ١١٢٧.

ويروى أنهم ساوموا رجلاً نصرانياً في ثمر نخلة له، فقال: هو لكم، فقالوا: ما كنا لنأخذه إلّا بثمن. فقال: وا عجباه! أتقتلون مثل عبد الله بن خباب، ولا تقبلون جنى نخلة إلّا بثمن؟ شرح نهج البلاغة ٢: ٢٨٢.

المسلمين؛ فهم يذبّحون الناس رجالاً ونساءً وأطفالاً دون أدنى شفقة أو رحمة. وهذا اللون من الناس الذين هم في حقيقتهم ذئاب بشرية بما يفعلونه مع بني الإنسان تبعاً للخوارج الذين يكفرون الإمام علياً عليه السلام وكل من سار علىٰ نهجه، ويرون أنّ المسلم هو الذي يقتدي بعقيدتهم وبأفكارهم. فهم يوالون الشيخين ويبرؤون من الصهرين. وهذه هي نظريتهم التي اشتهرت عنهم، فقد كانوا يكفرون الإمام علياً عليه السلام، وعثمان وحزبه ويوالون أبا بكر وعمر.

الثالثة: أن عندهم أحكاماً تخالف الشريعة الإسلامية

وكمثال على هذا فإن الميمونية، وهم طائفة من العجاردة ـ وهم أتباع ميمون بن عمران ـ كانوا يجوزون للإنسان أن يتزوج ابنة ابنه أو ابنة ابنته أو ابنة ابن أخيه[1]. وهذا كفر واضح وصريح؛ لأنه معاندة لله تبارك وتعالى ونقض لأحكامه، وتشريع لأحكام أخرى مباينة لأحكامه وإزاءها.

الرابعة: أنهم لا يؤمنون بأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو خاتم الأنبياء

إن التاريخ يذكر لنا أن أحد علمائهم كان يذهب إلى أنه سوف يبعث الله تبارك وتعالى نبياً في آخر الزمان من غير العرب، فيمسخ شريعة الإسلام وشريعة النبي محمد صلى الله عليه وآله[2].

---

(١) الأنساب ٥: ٤٣٨ ـ ٤٣٩، دراسات في الحديث والمحدّثين: ١٥١.

(٢) هو يزيد بن أنيسة صاحب فرقة اليزيدية الخارجية. انظر المواقف ٣: ٦٩٤، ٧٠٠، الأنساب ٥: ٦٩٣، اللباب في تهذيب الأنساب ٢: ٤١٢، قالا: وهؤلاء من أكفر أصناف الخوارج، شرح المواقف ٨: ٣٩٤، الملل والنحل ١: ١٣٦.

الخامسة: أنهم يرون وقوع الزيادة في القرآن

فهؤلاء يذهبون إلى أن بعض سور القرآن الكريم هي ليست منه، وهي من مفترياتهم ومخترعاتهم التي تخرجهم عن ربقة الإسلام، ومن ذلك أنهم يرون أنّ سورة (يوسف) بأجمعها ليست من القرآن الكريم[١].

السادسة: وضعهم الأحاديث على لسان النبي ﷺ

ومن هنا فإننا ندرك أهمية مقولة ابن حجر وهي: إن الخوارج إذا استحسنوا شيئاً حوّلوه إلى حديث عن النبي ﷺ. فهؤلاء حينما يرون فعلاً أو تشريعاً يتناسب مع أهوائهم، أو يؤيد معتقداتهم، فإنهم يضعون له حديثاً وينسبونه إلى الرسول الأكرم ﷺ[٢].

---

(١) المحصول ٤: ٣٣، الأنساب ٥: ٤٣٨، اللباب في تهذيب الأنساب ٣: ٢٨٥، الملل والنحل ١: ١٢٩، الوافي بالوفيات ١٩: ٥٧. ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر نقول: إن نفي بعض سور القرآن الكريم عنه يبدو أنها كانت ولازالت ظاهرة تستشري في الفكر الإسلامي؛ فقد نقل بعض المحدثين وغيرهم مثلاً أن ابن مسعود كان لا يعدّ سورة (الحمد) ولا المعوذتين من القرآن الكريم. انظر مسند أحمد ٥: ١٢٩، السنن الكبرى (البيهقي) ٢: ٨١، ٢: ٣٩٤، شرح المواقف ٨: ٢٤٦.

(٢) لسان الميزان ١: ١١، قال في ذلك: بدعة الخوارج كانت في صدر الإسلام والصحابة متوافرون، ثم في عصر التابعين فمَن بعدَهم، وهؤلاء كانوا إذا استحسنوا أمراً جعلوه حديثاً وأشاعوه، فربما سمعه الرجل السني، فحدث به ولم يذكر من حدّث به تحسيناً للظنّ به، فيحمله عنه غيره ويجيء الذي يحتجّ بالمقاطيع، فيحتجّ به، ويكون أصله ما ذكرت، فلا حول ولا قوة إلّا بالله. لسان الميزان ١: ١١. وفي هذا التصريح الخطر إشارة بيّنة إلى ضعف كل المقاطيع

وهذا كما هو واضح كذب صريح وافتراء واضح على رسولنا الأكرم، ودسّ في أحاديثه الشريفة[١].

خلاصة

وعليه فمخالفات الخوارج وتصرفاتهم التي يسيرون على نهجها وهي ممّا تخالف الإسلام في الأغلب من أحكامه، وكذلك عقائدهم التي كانوا يعتقدونها وهي على خلاف عقائد الإسلام الحقّة كما رأينا من اعتقادهم

(الأحاديث المقطوعة) في التراث الحديثي السني، وهو ما يوجب دعوة إلى غربلته.

وعن أحد شيوخ الخوارج قال: إن هذا الحديث دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم. إنا كنا إذا هوينا أمراً جعلناه في حديث». الحد الفاصل ٤١٥ ـ ٤١٦ / ٤٤٣، الكفاية في علم الرواية: ١٥١، ١٥٦، تذكرة الموضوعات: ٧، فتح الملك العلي: ٩٠، الجامع لأحكام القرآن ١: ٧٨، الموضوعات ١: ٣٩، لسان الميزان ١: ١٠.

وبهذا يسقط قول السباعي المارّ: «لم أعثر على حديث وضعه خارجي، وبحثت كثيراً في كتب الموضوعات فلم أعثر على خارجي عد من الكذّابين والوضّاعين...»؛ إذ نسبة الكذب والوضع إلى الفئة كلها أبلغ من نسبتهما إلى بعض أفرادها. كذلك يبطل قوله: «لقد حاولت أن أعثر على دليل علمي يؤيّد نسبة الوضع إلى الخوارج، لكني رأيت الأدلّة على العكس تنفي عنهم هذه التهمة... على أني أعود فأقول: إن المهم عندنا أن نلمس دليلاً محسوساً يدل على أنهم ممّن وضعوا الحديث وهذا ما لم أعثر عليه حتى الآن» بالتقريب نفسه.

هذا فضلاً عن تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ آل عمران: ١٠٦ بالخوارج كما في أغلب تفاسير أهل السنة.

(١) وهو قمع دامغ لكلام السباعي وأمثاله.

بعدم ثبوت بعض السور أنّها من القرآن الكريم فكل هـذا يـعدّ مـخالفة صريحة للقرآن الكريم ولأحكام الإسلام، بل إننا رأينا أن ذلك كان حتى على مستوى الأحكام الفرعية كجواز تزويج الرجل من ابنة ابنته أو ابنة ابنه أو من ابنة ابن أخيه. والأشد من ذلك والأدهى أنـهم كـما رأيـنا لا يعتبرون رسالة النبي ﷺ هي الرسالة الخاتمة، بل إنهم يرون أنها سـوف تنسخ بالرسالة الخاتمة التي سوف يبعث الله تبارك وتعالى بها نبياً من غير العرب في آخر الزمان.

هذا وغيره كثير مما خالفوا فيه متبنيات الإسلام ومرتكزاته الأساسية، ومن يرغب في الاطلاع على كلّ هذا وغيره فعليه بكتاب (التبصير فـي الدين)[١] للإسفراييني، وكتاب (مـقالات الإسـلاميين)[٢] وكـذلك كـتاب (الفصل في الملل والنحل)[٣] وكتاب (توجيه النظر) وكتاب (شـرح نـهج البلاغة)[٤] لابن أبي الحديد فيما يكتبه عن الخوارج، وغيرها من عشرات المصادر التي تناقش ظـاهرة الخـوارج وأفكـارهم، وتـتناول عـقائدهم وميولهم وانحرافاتهم. ومع كلّ هذا الانحراف الذي نقلناه عـنهم نـجد أن السباعي يقول: إن الخوارج لم يثبت أنهم كذّابون أو وضّاعون للحديث،

---

(١) انظر التبصير في الدين ١: ٤٥ – ٦٣. (٢) انظر مقالات الإسلاميين: ٢٢ ـ ٣٣.

(٣) الفصل في الملل والنحل ٤: ١٤٤ ـ ١٤٦، باب ذكر شنع الخوارج.

(٤) شرح نهج البلاغة ١: ٩، ٢٠١، ٢: ٢٦٥، ٤: ١٣٢ وما بـعدها، ٥: ٧٣، وغـيرها كـثير يضيق عنه العدّ والحصر.

وأنّ التاريخ لم يبرهن له على أنهم كذلك، بل إنه برهن له على العكس من ذلك وهو أنهم أصدق الناس وأصلحهم.

المفارقات في كتابات الكتّاب المسلمين

إن هؤلاء الكتاب إذ ينعتون الخوارج بهذا النعت فيا ترى هل اطلعوا على هذه الكتابات والأدلّة القاصمة التي نقلناها، أم إنهم لم يطلعوا عليها؟ إن الخوارج كما رأينا كلّما استحسنوا شيئاً نسبوه إلى الرسول الأكرم ﷺ، ووضعوا حديثاً له. وهذا في واقع الأمر يدل على أنهم أشد الناس كذباً، فلماذا يُعتبرون صادقين ومنزهين، وأن غيرهم هو الكاذب؟ إننا ـ الطائفة الإمامية ـ نعتبر أن الكذب على الله تبارك وتعالى وعلى رسوله ﷺ أحد المفطرات ومبطلات الصوم، فإذا ما نسب شخص صائم حديثاً للنبي ﷺ دون أن يكون ﷺ قد قاله فإننا نحكم عليه ببطلان صومه؛ لأنه تعمد الكذب على رسول الله ﷺ. وهذه هي فلسفتنا وخطتنا وطريقتنا في الحياة، فلماذا إذن نوسم بأننا نحن الكاذبون، وأن أُولئك الذين يصرح المحدّثون والمؤرّخون والمتكلّمون بأنهم يضعون الأحاديث هم الصادقون؟ إنْ هذا إلّا ازدواجية في التعامل المبتنى على الأهواء وعلى الموروث العقيدي الباطل الذي أسّس عليه هؤلاء أحكامهم على حساب الواقع والحقائق: **﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾**[1].

---

(١) الزمر: ٦٠.

الحقيقة والدوافع إلى الازدواجية في التعامل

إننا بكل بساطة وسهولة نستطيع أن نقول: نحن على دراية تامة وكاملة بما يزعج مثل هؤلاء الكتاب ويحملهم على هذا اللون الازدواجي في التعامل مع القضايا، فالسبب الوحيد الكامن وراء هذا الانحراف والانجراف خلف الهوى هو أننا نروي جملة من الروايات في فضائل أهل البيت عليهم السلام ليس غير، وإلّا فإننا لو روينا روايات في مدح مروان وأمثاله فإننا حتماً سوف نصبح أصدق الناس في نظر هؤلاء، أما إذا ما ذكرنا فضيلة أو منقبة لعلي بن أبي طالب عليه السلام فإننا سوف نوسم بالكذب والضلال والوضع.

وإلّا فإني أتساءل وأقول: أين هو مكان الكذب في تراثنا الإمامي أو في رواياتنا التي نرويها عن النبي صلى الله عليه وآله؟ إن حضارتنا العلمية والفكرية، وموروثنا التدويني منشور بين أيدي الناس جميعاً وليس فيه شيء خافٍ، وهذا تاريخنا وعقائدنا وكتب الأحكام عندنا وكتب التفسير والحديث كلها واضحة ومفتوحة، ترحب بمن يريد أن يقرأها أو يستنطقها؛ ليخرج منها بالنتيجة الصحيحة أو السليمة التي يريدها حول فكر أهل البيت عليهم السلام، وحول مذهبم الشريف.

كيف تتعامل الإمامية مع المرويّات؟

إننا كما يُلاحظ في جميع كتبنا المختصة في علم الرواية والرجال نشدد على الرواية تشديداً كبيراً وصعباً، بحيث إننا نخضعها إلى قواعد كثيرة سواء على مستوى السند بدراسة حال الرجال، أو على مستوى

الدلالة على المطلب أو المورد الذي نحن بصدده؛ حتى نقول بأنها رواية صادقة أو رواية ضعيفة أو صحيحة، وأنها ممّا يصحّ الاستدلال بها في هذا المورد، أو ما إلى ذلك. فنحن حينما نريد أن نأخذ برواية ما فإننا نمررها بمرحلة مخاض عسيرة حتى نستطيع أن نخرج منها بثمرة هي الروايات الصحيحة أو الحسنة أو الموثقة والتي نعمل بها دون أن نعمل بأية رواية تردنا من غير إخضاعها إلى الفحص والتدقيق.

فمضمون كلّ رواية لا يمكن الأخذ به ما لم نخضعه إلى ذلك المخاض العسير، وإلى تلك الدراسة الدقيقة، وإلى ذلك التحقيق المتأني والشامل كي نقول بأن هذه الرواية مما يصح العمل به. أما غيرنا فيبتعد كثيراً عن إخضاع الروايات إلى مثل هذه الضوابط والمقاييس، يروى أنه قيل لعائشة: إن أبا هريرة يحدّث: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً**». فقالت: حفظ أول الحديث ولم يحفظ آخره، إن المشركين كانوا يهجون رسول الله ﷺ، فقال: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً من مهاجاة رسول الله**»[1].

فليس كلّ شعر مذموماً، والدليل على هذا أننا نجد أن النبي ﷺ يقول: «**إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحراً**»[2].

(١) شرح معاني الآثار (محمد بن سلمة) ٤: ٢٩٦، عمدة القاري ٢٢: ١٨٩، تفسير الآلوسي ١٩: ١٥٠.

(٢) الفقيه ٤: ٣٧٩ / ٥٨٠٥، سنن ابن ماجة ٢: ١٢٣٥ / ٣٧٥٥.

والتاريخ على امتداد رقعتيه الزمانيّة والمكانيّة يحدثنا أنه كان للشعر مواقف شديدة ورادعة وقوية في الدفاع عن دين الله تبارك وتعالى وعن النبي الأكرمﷺ وعن المسلمين والوقوف في وجه الحملة الدعائية التي كانت قريش تقوم بها ضدّ النبي الأكرمﷺ وتهجوه بها.

إذن فهذه الرواية بالشكل الذي رويت به أولاً قد قلبت المعنى رأساً على عقب،أما بعد تصحيح السيدة عائشة لهذا الحديث أو لهذه الرواية فإن المعنى يكون قد اختلف بشكل كامل مع أنّ من رواها أول مرّة ممّن تؤخذ رواياته على إطلاقها، هي مرويات ربّما تكون جميعها من هذا النمط من الإخلال في الرواية واقتطاع جزء منها عن دراية أو عن غير دراية[1]. أما نحن فليس عندنا شيء من هذا القبيل؛ ذلك أننا نتحقق من الرواية كما ذكرنا تحقّقاً كاملاً، وندقق فيها تدقيقاً وافياً على مستوى السند ونسبة النص إلى قائله، وعلى مستوى الدلالة حتى نأخذ بتلك الرواية في مورد الاستدلال بها أو الاستشهاد بها وعدمه.

ونحن حينما نجد أن هناك شخصاً في سند الرواية مقدوحاً فيه فإننا نعتبر أن هذا السند مخدوش، أو أن هذه الرواية مخدوشة من ناحية السند؛ فلا نأخذ بها. وهكذا فإننا نناقش الروايات مناقشة عسيرة حتى نستطيع أن نستشهد بها أو نستدل بها على ما نريد، وهذا ما يدفع عنا أي

(١) وكذلك الحال مع رواية «امرأة دخلت النار في هرّة»، ورواية «الميت يعذب ببكاء أهله عليه» المارّ توضيحهما فيما مضى من هذه الموسوعة الشريفة.

مورد لتهمة الكذب أو أي شيء يجعلنا مظنّة له. وعليه فنحن لسنا ندري أين هو هذا الكذب الذي يرمينا به هؤلاء مع ما عندهم من هنات مما ذكرنا ومما لم نذكر كثيراً؟ إن هذه الدعاوى التي يطلقونها هي دعاوى مفتريات، وغير ناهضة ولا تثبت أمام النقد العلمي.

العمل

وعلى الرغم من كلّ هذا نجد أن الأنبياء عليهم السلام جميعاً كانوا يعملون ويأكلون من كدّ أيديهم في التجارة أو الرعي وغيرهما دون أن يقربوا المال الذي بين أيديهم، مع أنهم من حقّهم أن يأخذوا منه باعتبارهم قد فرّغوا أنفسهم للدعوة والتبليغ، أو لكونهم أفراداً من المسلمين من ذوي الحاجة، فكانوا دائماً وأبداً يتعفّفون عن أن يمدوا أيديهم إلى بيت المال ويأخذوا منه[1].

إذن فالأنبياء عليهم السلام على الرغم من تخصيصهم وقتهم كاملاً لنشر دعوة الله تبارك وتعالى بين الناس، وعلى الرغم من عنائهم وما يلاقونه من

---

(١) كما حصل مع النبي داود عليه السلام وسؤاله الناس عن حاله، فقد روي أنه عليه السلام كان يتوخّى من يلقاه من بني إسرائيل، فيسأله عن حاله، حتى لقي رجلاً، فقال له: نعم العبد لولا خصلة فيه. فقال عليه السلام: «وما هي؟». قال: إنه يأكل من بيت المال. فبكى النبي داود عليه السلام، وعلم أنه قد أُتي، فأوحى الله عز وجل إلى الحديد أن «لِن لعبدي داود». فألان الله له الحديد، فكان يعمل كلّ يوم درعاً يبيعها، فاستغنى عن بيت المال. عوالي اللآلي ٣: ١٩٩.

مشقّة وما يكابدونه من ألم في سبيل نشر تلك الدعوة لم يسألوا الناس أجراً مادياً عليها، بل إن غاية ما يسألونهم إياه هو الأجر المعنوي، يروى عن أحدهم عليهم السلام أنه قال: «**اجتمع المهاجرون والأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: ان لك يا رسول الله مؤونة في نفقتك وفيمن يأتيك من الوفود، وهذه أموالنا مع دمائنا، فاحكم فيها بارّاً مأجوراً، أعطِ ما شئت وأمسك ما شئت من غير حرج. فأنزل الله عزّ وجلّ عليه الروح الأمين فقال: يا محمد، ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1] يعني أن يودّوا قرابتي من بعدي**»[2].

إذن فالنبي صلى الله عليه وآله قد شكر هذا التوجه عند هؤلاء، وشكر لهم عاطفتهم الصادقة تلك، ولكنه صلى الله عليه وآله بيّن لهم عن الله تعالى أنّ أجر الرسالة الّذي يريده ليس هذا، فهو لا يريد منهم مالاً ولا يريد منهم أي شيء إزاء ما قام به من دعوتهم إلى الله تبارك وتعالى[3]. وفعلاً فالنبي صلى الله عليه وآله لم يكن يطلب

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) بشارة المصطفى صلى الله عليه وآله: ٣٥٥ ـ ٣٥٦، الأمالي (الصدوق): ٦٢١ ـ ٦٢٢ / ٨٤٣، تحف العقول: ٤٣٢.

(٣) وهذا ما أكده صلى الله عليه وآله في بداية الدعوة المباركة وبواكيرها حينما عرض عليه عتاة قريش أن يترك سبّ آلهتهم والدعوة إلى الله تبارك وتعالى على أن يسوّدوه عليه ويجعلوه ملكاً، ويعطوه من الأموال ما يريد، لكنه صلى الله عليه وآله رفض كلّ تلك العروض مع أنها مغرية لغيره، ووقف ذلك الموقف الصلب في الدفاع عن العقيدة فقال مخاطباً عمّه أبا طالب عليه السلام: «والله ياعمّ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي علىٰ أن أترك هذا الأمر ما فعلت». انظر: بحار الأنوار ١٨: ١٨٢،

أجراً من هذا النمط أبداً حتى إنه صلى الله عليه وآله كان تمرّ به الليالي والأيام دون أن يذوق طعاماً أو زاداً يأكله، وكم من مرة شدّ حجرة المجاعة على بطنه. تقول زوجته عائشة: كنا نلبث أربعين ليلة أو أربعين يوماً ما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله نار مصباح ولا غيره. فقيل لها: فمم كنتم تعيشون؟ قالت: من الأسودين: التمر والماء[1].

وكانت تقول: كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوت رسول الله صلى الله عليه وآله نار، وكنا نعيش على الأسودين: التمر والماء[2].

قصة الخضر عليه السلام على ضوء الأُسلوب التربوي القصصي

إن الآيات القرآنية الكريمة تلخّص لنا قصة اصطحاب الخضر للنبي موسى (على نبيّنا وآله، وعليهما أفضل الصلاة وأتم التسليم) معه في رحلته المشهورة، وما حصل في تلك الرحلة لهما من أحداث ومفارقات غريبة كانت مدعاة لأن تدفع النبي موسى عليه السلام إلى أن يبحث ويسأل كي يجد لها تفسيرات وتحليلات مناسبة تحل الإشكال والغموض اللذين كانا يكتنفان تلك الرحلة الغريبة ذات الطابع هذا منذ انطلاقتها وبدئها.

تاريخ الطبري ٢: ٦٧، البداية والنهاية ٣: ٦٣.

(١) حلية الأبرار ٢: ٢٤٠، مسند ابن راهويه ٢: ٣٥٥ ـ ٣٥٦ / ٨٩١، المعجم الأوسط ٢: ١٦٥.

(٢) مسند أحمد ٦: ٧١، مسند ابن راهويه ٢: ٣٥٥ ـ ٣٥٦، الطبقات الكبرى ٣: ٤٠٧.

وكانت محاولات النبي موسى عليه السلام تلك الرامية إلى فهم أسرار هذه الرحلة وما أحاط بها واكتنفها من غموض وإبهام قد وقعت في وقت حدوثها دون أن يصطبر على الخضر عليهما السلام، وينتظره حتى يفسرها هو له، ودون أن ينتظر إلى أن يتوضّح له مبهمها بشكل تلقائي. وهكذا فقد كان النبي موسى عليه السلام يلحّ إلحاحاً شديداً لفهم المغزى الكامن وراء تلك الأحداث التي واجهتهما في تلك الرحلة، في حين أن الخضر عليه السلام كان يريد منه أن ينتظر إلى أن تتوضّح له بشكل تلقائي.

رحلة الخضر وموسى عليهما السلام

والقصة كما يرويها المفسرون وأصحاب السير أنهما عليهما السلام كانا مع يوشع عليه السلام يمشون حتى انتهوا إلى ساحل البحر، وقد سنحت سفينة وهي تريد أن تعبر، فقال أربابها: بعد أن رأوا الخضر عليه السلام وعرفوه نحمل هؤلاء فإنهم قوم صالحون. فحملوهم، فلما جنحت السفينة في البحر، قال الخضر لموسى عليهما السلام: «**لا تسألني عن شيء أفعله، ولا تنكره علي حتى أُخبرك أنا بخبره**». فقال النبي موسى عليه السلام: «**نعم**». ثم قام الخضر عليه السلام إلى جانب السفينة فكسرها من مكان يمكن أن يتدفّق منه الماء إليها ويملأها ويغرقها، ثم حشاها بالخرق والطين حتى سدّ الثقب فغضب النبي موسى عليه السلام غضباً شديداً، وقال للخضر: ﴿**أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً**﴾[١]؟ فقال له الخضر عليه السلام: ﴿**أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً**﴾[٢]؟ فقال

---

(١) الكهف: ٧١. (٢) الكهف: ٧٢.

له النبي موسى عليه السلام: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾[١]. بمعنى أنه عليه السلام رأى أن في هذا الأمر مدعاة إلى التساؤل، فطلب منه الخضر عليه السلام ألّا يَستعجل بعدها في الإشكال وطلب الجواب؛ لأنه عليه السلام سوف يخبره عن جلية الأمر على أية حال آخر الأمر.

فلما خرجوا من السفينة ونزلوا إلى الشاطئ ذهب النبي موسى والخضر عليهما السلام إلى ناحية من المكان، فنظر الخضر عليه السلام إلى غلام مراهق يلعب بين الصبيان، وكان حسن الوجه، فتأمله عليه السلام، ثم عمد إليه فأخذه وقتله، فوثب النبي موسى على الخضر عليهما السلام وقال له: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾[٢]؟ فقال له الخضر عليه السلام: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾[٣]؟ فقال له النبي موسى عليه السلام: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾[٤].

فانطلقا في المرّة الثالثة، ﴿حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ تسمى الناصرة، كما في رواية عن الإمام الرضا عليه السلام، وإليها ينتسب النصارى[٥]، ويرى بعض المفسرين أنها أنطاكية[٦]. وكان أهل هذه القرية لا يضيفون أحداً قط، ولا يطعمون قريباً أبداً، فـ ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾، ولم يطعموهما،

(١) الكهف: ٧٣. (٢) الكهف: ٧٤.
(٣) الكهف: ٧٥. (٤) الكهف: ٧٦.
(٥) تفسير القمّي ٢: ٣٨.
(٦) مجمع البيان ٦: ٣٧٤، المحرّر الوجيز ٣: ٥٣٣.

فنظر الخضر عليه السلام إلى حائط قد كاد يقع، وهو قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ﴾، فهبّ وتبرّع لبنائه وإصلاحه، فوضع يده عليه وقال: «**قم بإذن الله**». وهو قوله تعالى: ﴿فَأَقَامَهُ﴾، فقال له النبي موسى عليه السلام: «**لم يكن ينبغي لك أن تقيم الجدار حتى يطعمونا ويرووونا**». كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾[1].

وهنا قال له الخضر عليه السلام: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، لكني ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾[2]، أي عن الواقع الذي شغلك مما رأيت، وطلبت إجابات سريعة واضحة عنه.

نتائج المنهج التربوي في قصة موسى والخضر عليهما السلام

ثم راح يفصّل له عليهما السلام كلّ ذلك بقوله الذي نقله الله تعالى عنه بعدُ، وهو: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ﴾ أي أمامهم ﴿مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾[3]، أي أما السفينة التي فعلت بها ما فعلت وهي صالحة، فإنها كانت لقوم يعملون في البحر فأردت أن أعيبها؛ لأن هناك ملكاً يأخذ كلّ سفينة من أهلها غصباً إن كانت سالمة، أما إذا كانت سفينة معيبة فإنه لا يقربها ولا يأخذ منها شيئاً، ولذلك فعلت بها ما فعلت؛ كي أحميها لهم من هذا الملك الغاصب لحاجتهم إليها.

---

(١) الكهف: ٧٧. (٢) الكهف: ٧٨.

(٣) الكهف: ٧٩.

السبب في استعجال النبي موسى عليه السلام الجواب

إن النبي موسى حينما بادر الخضرَ عليهما السلام إلى الاستفسار عن سبب خرقه لتلك السفينة، فإنما فعل ذلك لأنه وجد أن هذا الأمر يبعث على التساؤل لما فيه من غرابة حيث إنه تخريب لمال الغير، فكان ردّ الخضر عليه أنه ألم يشترط عليه ألّا يسأله عن شيء حتى يخبره هو ابتداءً؟ ثم بيّن له أنه سوف يخبره بكل ما يواجههما من أشياء غريبة في نهاية رحلتهما هذه، وأن عليه ألّا يعجل بذلك، بل أن يصطبر عليه. لكننا رأينا أن النبي موسى عليه السلام لم يصبر حينما رأى الخضر عليه السلام يقيم ذلك الجدار ويرمّمه، كما أنه لم يصبر عن سؤاله عن سبب قتله الغلام من قبل حينما وجده عند نزولهما.

وهكذا فحينما بدأ الخضر عليه السلام يفسّر لنبي الله موسى عليه السلام تراتبية الأحداث التي قام بها على متن السفينة وبعدها، والتي ذكرناها آنفاً فإننا نجد أنه عليه السلام في الواقع قد بيّن له السرّ والمغزى وراء تلك التصرفات التي قام بها، وهي أهداف وأسرار معقولة ومبيحة له لأن يقدم على ما أقدم من تلك التصرّفات. وكما ذكرنا في المبحث الأول من أنّ القصص القرآني يهدف إلى شيء يستفيد منه الإنسان في حياته، وأن القرآن لم يذكرها عبثاً أو إضاعة للوقت، فإننا من خلال هذا نخرج بنتائج عدة من خلال هذا الحوار الذي كان يدور بين نبي الله موسى وبين الخضر عليهما السلام. ونحن سوف نقتصر على ذكر بعض هذه النتائج، وهي:

النتيجة الأولى: قاعدة دفع أشدّ الضررين بأخفّهما

وهذه النتيجة لها مصداقان في آية المقام الكريمة، هما:

المصداق الأول: خرق السفينة

إن التبرير الذي قدمه الخضر للنبي موسى عليهما السلام حول خرق السفينة هو أنه إنما خرقها لأن هناك ملكاً يأخذ كلّ سفينة سالمة غير معيبة ويغتصبها من أصحابها، أما السفينة المعيبة فكان يتركها لأهلها دون أن يصادرها أو يستولي عليها. وبما أن أصحاب هذه السفينة أُناس فقراء يتّخذون منها وسيلة لكسب أقواتهم وأقوات أُسرهم ـ أي أنها الوسيلة الوحيدة لضمان معيشتهم واستمراريتهم في هذه الحياة، وديمومة وجودهم فيها ـ فإنه عليه السلام رأى أن مصادرة تلك السفينة منهم ليست ظلماً فقط ـ بناء على أن أخذ كلّ شيء من غير رضا صاحبه ظلم ـ بل إن في ذلك دفعاً لهؤلاء إلى الموت والهلاك مع ما كانوا عليه من حاجة إليها.

فهؤلاء كانوا بأشدّ الحاجة إليها، وبأمسها إلى وجودها عندهم؛ ليشتغلوا بها، وليقوّتوا بها أنفسهم وأُسرهم. ولذا فقد كان في ثقبها تحصيلُ ضرر لهم أقل من الضرر الذي يمكن أن يحصل لهم لو صادرها الملك فضلًا عما فيه من منعة لهم؛ فهذا الثقب يمثّل دافعاً قوياً لأن يعرض الملك عنها، وليمتنع عن مصادرتها.

ومن هنا فإن الفقهاء يستفيدون من هذه الإجابة قاعدة فقهية هي أنه إذا دار الأمر بين محذورين؛ أحدهما كبير، والآخر أقلّ منه، وكان يمكن دفع

المحذور الكبير بالمحذور الأقل منه، فإن ذلك يصبح هو المتعيّن حينئذٍ، وهو الذي ينبغي اللجوء إليه؛ دفعاً لذلك المحذور الكبير. وهـذا يـمكن تصويره بما لو أن عضواً من أعضاء الإنسان قد أصابه مرض خبيث، ودار الأمر بين أن يقطع هذا العضو؛ كيلا يستشري الورم الخبيث والداء العضال في الجسم كله، وبين أن يترك على حاله، وبالتالي فإن الورم سيغزو كلّ أعضاء الجسم وينتشر فيها، وهو ما يؤدي به إلى الموت. ففي مثل هذه الحالة وأمثالها يحكم الشرع المقدّس ، بل العقل والفطرة بضرورة بتر ذلك العضو من الجسم؛ درءاً لخطر أكبر، هو إصابة الجسم كله، وبالتالي موت صاحبه.

المصداق الثاني: قتل الغلام

ثم راح الخضر عليه السلام يسترسل في بيان غامض فعله لنبي الله موسى عليه السلام فقال له: ﴿**وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ**﴾، أما هو فقد طبع كافراً، «**فقد نظرت إلى جبينه وعليه مكتوب: طبع كافراً**»، ﴿**فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً**﴾[1]، وفعلاً أبدلهما الله بنتاً ولد منها سبعون نبياً من أنبياء بني إسرائيل[2].

فهذا الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام كان أبواه مؤمنين بالله تبارك وتعالى، وكانا يوحّدانه في حين أنه كان كافراً، وعلى دين ملك تلك المدينة، وكان

---

(١) الكهف: ٨٠ ـ ٨١.

(٢) تفسير العياشي ٢: ٣٣٧ / ٦١، تفسير القمّي ٢: ٣٩ ـ ٤٠.

دائم الإلحاح على أبويه؛ كي يدخلا في دينه ودين الملك، ويصبحا كافرين مثلهما. وهكذا فإن وجوده كان خطراً عليهما؛ ذلك أنه كان كلّ يوم يرفع عن أبويه تقريراً يتضمّن أخبارهما إلى السلطة لحملهما على الكفر.

ظاهرة توظيف السلطات بعض أفراد الأُسر

إننا نعرف أن السلطات الجائرة التي تتعامل مع الناس بالقهر والإذلال، وبالحديد والنار تسعى جاهدة إلى معرفة أخبار أبناء البلد الذي تحكمه، وهي لا تألو وسيلة في سبيل ذلك، فتوظّف الأشخاص الذين يعملون لصالحها عيوناً لها على شعوبها من أجل معرفة أخبارهم واستقصائها. ومن هؤلاء الأفراد يمكن أن يكون هناك من يتجسس للسلطان على عائلته وأُسرته. ومن خلال السرد القرآني لهذه القصة نعرف أن هذه الظاهرة (ظاهرة توظيف السلطان بعض أفراد الأُسر للإضرار بباقي أفراد الأُسرة) ليست ظاهرة حديثة، بل هي ظاهرة عريقة لها جذورها الضاربة في تخوم التاريخ، وهذا ما تطالعنا به هذه القصة التي يرويها لنا القرآن الكريم.

فهذا الغلام كان يريد حمل والديه على الكفر، وكان من الممكن أن يقوم بأعمال أكثر من هذا تعود بالضرر على أبويه وعلى مجتمعه؛ ولذا فإنه بتصرّفه هذاقد خلق المبرر المشروع لقتله، والتخلّص منه كعقبة تحول دون أن يستمرّ أهل الإيمان على إيمانهم.

النتيجة الثانية: أن الولد البارّ نعمة والعاقّ نقمة

وهذا المعنى ـ وهو أن كثيراً من الأبناء ربّما يكونون نقمة على أُسرهم وعلى مسيرتها وتاريخها ـ يحفل به تاريخنا وحياتنا، فهو موجود فعلاً في طيات هذا التاريخ بما ينطوي عليه من ملابسات. فهؤلاء إنما كانوا نقمة، لأنهم ربما محقوا ذلك التاريخ النيّر كلّه، وعفوا تلك السيرة الخيّرة بأجمعها، بل ربما أضلّوا أهلهم وأسقطوهم في وادي الهلاك.

بعض أولاد الأنبياء عليهم السلام والعلماء والصلحاء

إن القرآن الكريم والتاريخ الإنساني يحدّثاننا بوضوح وصراحة عن هؤلاء الأبناء، وأنهم كيف كانوا يسيئون إلى أهليهم بهذا المنهج والمنحى اللذين يتّبعونهما.

كما أذكر أن أحد فقهائنا كان يقول: لقد أدركت مجموعة من خيرة العلماء وفضلائهم، وكانوا موضع ثقة واحترام عند الناس، ومحبة منهم لإيمانهم ولعلميتهم ولتقواهم، فكانت مكانتهم في نفوسهم كبيرة، لكن عندما كبر أولادهم ساروا على غير الطريق القويم، وعلى مسلك وسبيل غير مستقيم؛ مما أدّى بهم إلى أن يقضوا على تلك المكانة لآبائهم بأجمعها في نفوس الناس.

الثاني: عبد الله بن الزبير وتأثيره على أبيه

وهنا نستذكر قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما زال الزبير رجلاً منا أهل**

البيت حتى نشأ ابنه المشؤوم عبد الله »[1].

وهذا واقع محسوس لا يقبل النقض، بل لا الأخذ والردّ فيه؛ فالزبير كان دائب الخدمة لرسول الله ﷺ ولأهل بيته عليهم السلام ولهذا الدين الحنيف، وكان مسخّراً سيفه للدفاع عن الإسلام وعن أهل البيت عليهم السلام[2]. وكان موقفه إلى جانبهم واضحاً وثابتاً حتى شبّ ابنه عبد الله ونشأ وترعرع، حيث انقلب الوضع عنده تماماً؛ فبعد أن كان إلى جانب أهل البيت عليهم السلام أصبح ضدّهم، وإذا به يخرج ليقاتل إمام زمانه وخليفته بعد أن بايعت كفُّه كفَّه، وهو الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بتحريض وبدفع من ابنه المشؤوم عبد الله.

هذا كله مع أنه كان يعرف ويعلم أن الإمام عليه السلام كان على الحق كما أخبره به رسول الله ﷺ ذات مرّة.

يقول المؤرخون: قبل أن تنشب معركة الجمل برز أول الناس عبد الله ابن الزبير، ودعا إلى المبارزة، فبرز إليه الأشتر رضي الله عنه، فقالت عائشة: من برز إلى عبد الله؟ فقالوا: الأشتر. فقالت: وا لهفتاه، وا ثكل أسماء! فضرب كلّ منهما صاحبه فجرحه، ثم اعتنقا، فصرع الأشتر عبد الله وقعد على صدره، وكان الأشتر رضي الله عنه طاوياً ثلاثة أيام لم يطعم كما هي عادته في

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٠٢، الفصول المهمة في معرفة الأئمة (ابن الصباغ المالكي) ٢: ١١٩٠.

(٢) ودليله ما سيجيء من قول أمير المؤمنين عليه السلام فيه: «سيف طالما دُفع به الكرب عن وجه رسول الله ﷺ».

الحرب، وكان أيضاً شيخاً كبير السن، فجعل عبد الله ينادي: اقتلوني ومالكاً. ثم أفلت من تحته(١).

وبعد ذلك أرسل أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن عباس إلى الزبير يستفيئه إلى طاعته، ويدعوه إلى الرجوع عمّا هو عليه من باطل إلى جادّة الحقّ والصواب، وقال له: «**لا تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَهُ، يَرْكَبُ الصَّعْبَ، وَيَقُولُ: هُوَ الذَّلُولُ، وَلَكِنِ الْقَ الزُّبَيْرَ؛ فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً، فَقُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ ابْنُ خَالِكَ: عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ، وَأَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ، فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا؟**»(٢).

ففعل ابن عباس ما أمره به أمير المؤمنين عليه السلام، لكنه لم يجد مع الزبير نفعاً؛ لما كان من تأثير لابنه عليه، وهو تأثير كبير وملموس استمرّ إلى ما قبل اندلاع المعركة بقليل كما سنلاحظه.

ثم لما اصطف الناس للحرب، خرج طلحة والزبير في صفّ

---

(١) وفي هذا يقول الأشتر:

أعائش لولا أنني كنت طاوياً ... ثلاثاً لألفيت ابن أُختك هالكا
غداة ينادي والرجال تحوزه ... بأضعف صوت أُقتلوني ومالكا
فلم يعرفوه إذ دعاهم وغمّه ... خدبٌ عليه في العجاجة باركا
فنجّاه مني أكله وشبابه ... وأنيَ شيخ لم أكن متماسكا

شرح نهج البلاغة ١: ٢٦١ ـ ٢٦٢، وانظر: ١٥: ١٠١ منه، أنساب الأشراف: ٢٤٢، البداية والنهاية ٧: ٢٧٢.

(٢) نهج البلاغة / الكلام: ٣١.

أصحابهما، وخرج أمير المؤمنين عليه السلام على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله، فنادى الزبيرَ بن العوام، فجاءه مدجّجاً بالسلاح، فقالت عائشة: واحزنك يا أسماء! فقيل لها: إن علياً عليه السلام خرج حاسراً من السلاح، فاطمأنت نفسها. فلمّا أقبل الزبير قال له أمير المؤمنين عليه السلام: «**يا أبا عبد الله، ادنُ مني لأُفضي إليك بسرّ عندي**».

فدنا منه حتى اختلف عنقا فرسيهما، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «**نشدتك الله إن ذكّرتك شيئاً فذكرته، أما تعترف به؟**». فقال: نعم. فقال: «**أما تذكر يوماً كنت مقبلاً عليّ بالمدينة تحدّثني، إذ خرج رسول الله صلى الله عليه وآله، فرآك معي وأنت تبسم إليّ، فقال لك: يا زبير، أتحبّ علياً؟ فقلت: وكيف لا أُحبّه، وبيني وبينه من النسب والمودّة في الله ما ليس لغيره؟ فقال صلى الله عليه وآله: إنك ستقاتله وأنت له ظالم. فقلت: أعوذ بالله من ذلك؟**».

وروي أنه عليه السلام قال له: «**يا أبا عبد الله إنما دعوتك لأُذكّرك حديثاً قال لي ولك رسول الله صلى الله عليه وآله، أتذكر يوما رآك وأنت تعنقني في بني عوف، إذ قال لك: أتحبّ يا زبير علياً؟ فقلت: إي والله إني لأُحبّه، وما يمنعني يا رسول الله عن حبّه وهو أخي وابن خالي؟ فقال صلى الله عليه وآله: إنك ستخرج عليه وأنت ظالم له**».

فقال الزبير: بلى قد كان ذلك. فقال عليه السلام: «**أنشدك الله ثانياً يوم جاء رسول الله صلى الله عليه وآله من عند بني عوف، وأنا معه آخذاً بيدي، فاستقبلته وسلمت عليه، فضحك في وجهك وضحكت إليه، فقلت له: يا رسول الله، لا يدع ابن أبي طالب زهوه. فقال صلى الله عليه وآله: يا زبير ليس بعلي زهو، ولتخرجن عليه وتحاربه وأنت ظالم**

له؟».

فنكس الزبير رأسه ثم قال: اللهم، نعم لقد كان ذلك، ولكني نسيت وما ذكرتني أنسانيه الدهر، ولو ذكرته لما خرجت عليك. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «**دع هذا ،أفلست بايعتني طائعاً؟**». قال الزبير: بلى. فقال له الإمام عليه السلام: «**فوجدت مني حدثاً يوجب مفارقتي؟**». أي هل وجدت مني مخالفة لكتاب الله تبارك وتعالى، أو انحرافاً عن سنة نبيه صلى الله عليه وآله؟ وإن لم يكن كذلك، فما الذي حملك على الخروج إلى قتالي إذن؟

فسكت، ثم قال: فكيف أرجع وقد التقت حلقتا البطان؟ والله إن هذا هو العار الذي ليس له مثيل. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «**يا زبير، ارجع قبل أن تجمع العار والنار**».

قال: لا جرم والله لا قاتلتك، ولأمضين وأنا أستغفر الله تعالى.

ثم كرّ راجعاً متوجهاً نحو البصرة[1]، فقال له طلحة: مالك يا زبير، تنصرف عنا؟ سحرك ابن أبي طالب؟ فقال: لا، ولكنه ذكرني ما كان الدهر أنسانيه، واحتج عليّ ببيعتي له. فقال طلحة: لا، ولكن جبنت.

---

(١) وهو ينشد هذه الأبيات:

اخترت عاراً على نار مؤججة ... أنّى يقوم لها خلق من الطينِ
نادى علي بأمر لست أجهله ... عار لعمرك في الدنيا وفي الدينِ
فقلت حسبك من عذل أبا حسن ... فبعض هذا الذي قد قلت يكفيني

فقال الزبير: لم أجبن لكن أُذكرت فذكرت.

فقالت له عائشة: ما خلّفت وراءك يا أبا عبد الله؟ قال: والله ما وقفت موقفاً، ولا شهدت مشهداً في شرك ولا إسلام إلّا ولي فيه بصيرة، وأنا اليوم على شكّ من أمري، فما كدت أن أُبصر موضع قدمي. فقال له ابنه عبد الله: يا أبه، لقد رجعت إلينا بغير الوجه الذي مضيت به عنا؟ يا أبه، جئت بهذين العسكرين العظيمين، حتى إذا اصطفّا للحرب، قلت: أتركهما وأنصرف؟ فما تقول قريش غداً بالمدينة؟ الله الله يا أبه، لا تشمت الأعداء، ولا تشن نفسك بالهزيمة قبل القتال. فقال له: يا بني، ما أصنع وقد حلفت له بالله ألّا أُقاتله؟ فقال له: فكفّر عن يمينك، ولا تفسد أمرنا.

فقال: لقد ذكرني علي حديثاً عن رسول الله ﷺ قد أنسانيه الدهر، فلا حاجة لي في محاربته أبداً، فرجعت مستغفراً لله عزّ وجلّ، وتارككم منذ اليوم، فيفعل الله ما يشاء. فقال له ابنه: إني أراك فررت من عيون بني هاشم حين رأيتها تحت المغافر، وبأيديهم سيوف حداد، وتحملها فتية أمجاد. قال: ويلك، يا بني، أتهيجني على حربه، أما إني قد حلفت ألّا أُحاربه. فقال له: كفر عن يمينك؛ لئلّا تتحدث نساء قريش أنك جبنت، وما كنت بجبان. قال: فغلامي مكحول حرّ كفارة عن يميني(١).

---

(١) وفي ذلك يقول همام الثقفي:

أيعتق مكحولاً ويعصي نبيه   لقد تاه عن قصد الهدى ثَم عوقُ

ثم كرّ راجعاً إلى جيش الإمام عليه السلام، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أفرجوا له؛ فإنه محرج**». فأفسحوا له المجال، فلم يزل يجول في المعركة يميناً وشمالاً، ثم عاد وهزّ الرمح في وجه ابنه وقال له: ويلك، أترى ما فعلت؟ أهذا جبن؟

ثم انصرف عن حرب أمير المؤمنين عليه السلام، ومر بوادي السباع، وكان الأحنف بن قيس هناك في جمع من بني تميم قد اعتزل الفريقين، فأُخبر الأحنف بمرور الزبير، فقال رافعاً صوته: ما أصنع بالزبير؛ لفّ غارين من المسلمين، حتى إذا أخذت السيوف منهما مأخذها، انسلّ وتركهم؟ أما إنه لخليق بالقتل، قتله الله تعالى.

فأتبعه عمرو بن جرموز، فلما قرب من الزبير، وجده وهو يريد أن يصلي، فلما قام إلى الصلاة شدّ ابن جرموز عليه فقتله، وأخذ رأسه وسيفه وخاتمه وجاء بها إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يظن أنه يقدم له عليه السلام هدية ثمينة، فقال عليه السلام له: «**أنت قتلته؟**». قال: نعم. قال عليه السلام: «**والله ما كان ابن صفية جباناً ولا لئيماً، ولكنه الحَين ومصارع السوء**». ثم قال عليه السلام: «**ناولني سيفه**».

أينوي بهذا الصدق والبر والتقى سيعلم يوماً من يبر ويصدقُ
لشتان ما بين الضلالة والهدى وشتان من يعصي النبي ويعتقُ
ومن هو في ذات الإله مشمّر يكبّر برّاً ربه ويصدّقُ
أفي الحق أن يُعصى النبي سفاهة ويعتق عن عصيانه ويُطلّقُ

الأمالي (الطوسي): ١٣٨ / ٢٢٣، مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٤١.

فناوله إياه، فهزّه عليه السلام وقال: «**سيف طالما دُفع به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله**». فقال ابن جرموز: الجائزة يا أمير المؤمنين. فقال عليه السلام: «**أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: بشر قاتل ابن صفية بالنار**». فخرج ابن جرموز خائباً؛ لأنه بدلاً من أن ينال جائزة الدنيا التي كان يأملها ويطمع فيها إذا به يبشّر بنار الآخرة، ثم أنشد:

أتيت علياً برأس الزبير ... وقد كنت أرجو به الزلفه
فبشر بالنار يوم الحساب ... فبئست بشارة ذي التحفة
فقلت له إن قتل الزبيـ ... ـر لولا رضاك من الكلفه
فإن ترضَ ذاك فمنك الرضا ... وإلّا فدونك لي حلفه
ورب المحلين والمحرمين ... ورب الجماعة والألفه
لسيان عنديَ قتل الزبير ... وعفطة عنز بذي الجحفة[1]

وهكذا كان مصرع الزبير على غير الحق ولغير الحقّ؛ بسبب موقف ابنه المعادي للحقّ، وتحريضه إياه ضدّه، وصرفه عن خدمة أهل البيت عليهم السلام وعن السير في ركابهم والاتّباع لهم، فكان أن غيّر ولاءه وغير أجواءه التي كان يعيشها إلى ولاء آخر وإلى أجواء أُخرى تختلف جملة وتفصيلاً عن أجواء أهل البيت النبوي الكريم.

(١) انظر القصّة كاملة في الفصول المختارة: ١٤٢ ـ ١٤٤، الأمالي (الطوسي): ١٣٧ ـ ١٣٨، الجمل: ١٣٠ ـ ١٣١، شرح نهج البلاغة ١: ٢٣٣ ـ ٢٣٧.

ومن هنا فإنني أُؤكد أنه ليس هناك من رحمة أعظم وأكبر من أن يرحم الله تبارك وتعالى عبده بأن يعطيه ذرّيّة صالحة وأولاداً بررة يحبّبونه إلى الناس، ويحيون ذكره من بعده بينهم؛ ولذا فإننا نجد القرآن الكريم في محاولته تهذيبنا يعلمنا كيف ندعو الله تبارك وتعالى من أجل أن يرزقنا الذرّيّة الصالحة حيث يقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾[1]، ويقول: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

فالقرآن الكريم يسعى إلى أن يؤدّبنا ويعلمنا كيف ندعو الله تبارك وتعالى من أجل تحصيل هذه الغاية وهذا الأمر السامي الشريف الذي يحيا به الذكر، وليكون عقبنا عقباً صالحاً يكون دافعاً للناس إلى أن يترحّموا على سلفه. ومثل هذا الخلف سيكون دون شكّ مفخرة للآباء، يقول أحد الأُدباء:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم ... كلّا ولكن لعمري منه شيبانُ

وكم أبٍ قد علا بابن ذرا شرف ... كما علا برسول الله عدنانُ[3]

وهذا هو الواقع وهكذا هو؛ فإن الله تبارك وتعالى قد رفع هذا البيت وكرمه لأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد ولد منه، فكان مفخرة لقبيلته كلها. وعلى العكس من هذا ما إذا كان الولد طالحاً عاقّاً منحرفاً، فإنه حينئذٍ سوف يكون لعنة على أبويه، وبدلاً من أن يرفع قدر ذلك البيت الذي ينتمي إليه

(١) إبراهيم: ٤٠. (٢) الأحقاف: ١٥.

(٣) البيتان لعلي بن العباس بن جريح. شرح نهج البلاغة ٧: ٢٣، الكنى والألقاب ٢: ٣٩٤.

فإنه يضع من ذلك القدر وينزل به إلى الحضيض، كما رأينا من ابن الزبير حيث أدّى بوالده إلى أن يضلّ عن الطريق، وإلى أن يُقتل على الباطل، فيصبح من أهل النار.

قضية النبي داود ولقمان الحكيم عليهما السلام

أما في الحوادث التي يمكن أن تكون نتيجتها واضحة كما في قضية النبي داود ولقمان الحكيم (على نبيّنا وآله، وعليهما أفضل الصلاة وأتم التسليم) التي سوف نذكرها شاهداً على ما نقول، فإنه حينئذٍ يجب التزام الصبر لمعرفة الإنسان نتيجة الحدث بنفسه دون أن يذلّ نفسه بالسؤال[1].

وقصة المحاورة التي دارت بين نبي الله داود ولقمان الحكيم عليهما السلام هي أن لقمان الحكيم دخل على النبي داود عليه السلام وهو يسرد الدرع، وقد لين الله

---

(١) روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «أربع عزّهن ذلّ... والسؤال ولو أين الطريق». شرح إحقاق الحقّ ٢٨: ١٠٢.

وعنه عليه السلام أنه قال:

لنقل الصخر من قلل الجبالِ   أحب إليّ من منن الرجالِ
يقول الناس لي في الكسب عار   فقلت العار في ذلّ السؤالِ

ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ١: ١٢٥، كتاب الكسب ٣٠ ٢٧٢، الأذكياء ١: ١٣٥، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ١: ٦٧٤، تبيين الحقائق ١: ٢١، مرقاة المفاتيح ٦: ٣٧٧، المبسوط (السرخسي) ٣٠: ٢٧٢ ـ ٢٧٣، كشف الخفاء ١: ١٢٤ / ٣٤٣.

له الحديد كالطين، فجعل يفتله بيده، ولقمان عليه السلام يرى ويتعجب، ويريد أن يسأله، لكنه أدركته الحكمة أن يسأله، فسكت، فلما أتمها النبي داود عليه السلام لبسها، وقال: «**نعم لبوس الحرب أنت**»، أو «**نعمت الجنة للحرب**». فقال لقمان عليه السلام: «**الصمت حكمة وقليل فاعله، كنت أردت أن أسألك فسكتّ**». فقال له النبي داود عليه السلام: «**بحقّ ما سميت حكيماً**»(١).

ومن هنا ينطلق الشاعر فيقول:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزوّدِ(٢)

أي أن الإنسان بدلاً من أن يحمل نفسه على التسرّع أو التطفّل، يجب عليه أن يصبر وينتظر حتى تنكشف له حقيقة الأُمور، وتتّضح له جليتها كما يعلمنا القرآن الكريم ذلك حيث يضع أمامنا هذه الدروس العملية التي تعلمنا وتربينا، وتبيّن لنا كيف يجب أن نكون وكيف يجب أن نصبر، وكيف يجب علينا ألّا نقحم أنفسنا في دائرة عمل الآخرين ومضمار خصوصياتهم، ونتسرّع فنسأل عن أشياء ربّما لا تعنينا ولا تخصّنا، وبالتالي فإننا سوف ننال من جرائها ما يسوؤنا.

تفضيلهم الكلب على الإنسان

ومن غريب ما يروى عنهم أن أحدهم سمع يوماً مؤذّناً يؤذّن فقال له:

(١) مجمع البيان ٧: ١٠٤، ٨: ٨٣، بحار الأنوار ١٣: ٤٢٥، الكشاف ٣:٢٣١، المستدرك على الصحيحين ٢: ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

(٢) البيت موجود في ديوان طرفة بن العبد ١: ١١، وديوان ابن عبد ربه ١: ٨٦.

طعنه سمّ الموت.

أي أسأل الله أن يقتلك بالسمّ. وحينما سألوه عن السبب الذي حداه إلى الدعاء عليه بهذا، قال: لأن هذا يأخذ أجراً على الأذان. ثمّ بعد ذلك سمع كلباً ينبح فقال له: لبّيك وسعديك. فاستغربوا وقالوا له: لماذا؟ فقال: لأن هذا يسبح الله بالفطرة: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1]، فهذا الكلب يسبح الله بفطرته ويطلب قوته منه تعالى بشكل خالٍ من الزيف والرياء، أي أن ظاهره وباطنه على حد سواء[2].

صبر زين العابدين عليه السلام

وعليه فإن الصبر عند المصيبة يعني أن الإنسان حينما يبتلى بمثل ذلك المبتلى، فإنه لا سبيل له إلّا الصبر؛ لينال رضوان الله تبارك وتعالى. يروى عن الإمام السجاد عليه السلام أنه خرج يوماً من الأيام إلى أصحاب له كان عليه السلام قد أضافهم، وأمر لهم بمائدة، فاستعجل عليه السلام غلامه بالشواء الذي كان في التنّور، فأخرج الغلام السفود من التنور وهو يلتهب ناراً، فوقع على صبي للإمام عليه السلام فقتله، فاضطرب الغلام خوفاً، وأحسّ أصحاب الإمام عليه السلام بأنه عليه السلام قد بان على وجهه لون من الألم، لكنه عليه السلام التفت إلى الغلام وقال له: «**على رسلك، إنك لم تتعمّد هذا**».

---

(١) الإسراء: ٤٤.

(٢) تلبيس إبليس: ٤١٠، وهذا الصوفي هو أبوالحسين النوري كما في كتاب اللمع في التصوف: ٤٩٢، مفهوم القدر والحرية عند اوائل الصوفية: ١٤٢.

فسألوا الإمام عليه السلام قائلين: يابن رسول الله، هل تألّمت لموت هذا الصبي الذي ذهب؟ فقال عليه السلام: «**لا؛ إن الصبي مضى لأجله، لكنني تألّمت لما أدخلت من الرعب على قلب الغلام**». ثم نادى عليه السلام الغلام وقال له مطمئناً له، ومهدّئاً من روعه، ومسكّناً من خوفه وارتباكه: «**أنت حرّ لوجه الله، أما إنك لم تتعمّده**»[1].

هذا هو خلق أئمّتنا وقادتنا عليهم السلام الذين نمتاح من سيرتهم العطرة وأخلاقهم السماوية قواعدنا الأخلاقية، وآدابنا الدينية؛ سواء في معالجاتنا الاجتماعية، أو في مراحل تعاملنا مع الآخرين في إطاري المجتمع والحياة.

وهذا الموقف النبيل والعظيم من الإمام السجّاد عليه السلام يذكّرنا بما ورد عنهم عليهم السلام من أنهم كانوا يقولون: «**نحن قوم إذا نزل بنا البلاء صبرنا**». فالإنسان إذا لم يصبر عند المصيبة، فإنه سوف يفقد أجرها مع أنها حالّة به، وواقعة عليه على كلّ حال؛ رضي أو لم يرضَ.

ذو النون المصري والمرأة الصابرة

وهناك أمثلة أُخرى على الصبر عند المصيبة منها ما يرويه المؤرّخون عن ذي النون المصري أنه قال: دخلت المقبرة فرأيت امرأة شابّة جالسة، وبين يديها قبور أربعة، وهي تنشد هذه الأبيات:

---

(١) مسكن الفؤاد: ٦١، بحار الأنوار ٤٦: ٩٩، ٧٩: ١٤٢، مطالب السؤول ٢: ٤٨، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٩٦.

صبرت وكان الصبر خير وسيلة وهل جزعٌ منّيَ مجدٍ فأجزعُ
صبرت على ما لو تحمل بعضه جبال برضوي أصبحت تتصدعُ
فسالت دموع العين ثم رددتها إلى ناظري والعين في القلب تدمعُ

فقلت لها: يا أمة الله، ما الذي نزل بك من خطب؟ وما هو شأنك؟ فقالت: من مصيبة نالتني لم تصب أحداً قط؛ أصبحت ولي بنون ثلاثة، ولي زوج عطوف، وأمسيت وقد فارقتهم جميعاً، فأفنتهم يد الزمان في ساعة واحدة[1].

فهذه المرأة إنما تريد أن تقول له: إنني جليسة صبري؛ فليس لي من وسيلة غيره في الاعتياض عن زوجي وأولادي الثلاثة الذين صُرعوا وأخنت عليهم يد الزمان في لحظة واحدة.

الصبر عند أُم البنين عليها السلام

وقصّة هذه المرأة الصابرة تأخذ بأذهاننا، وتنتقل بأفكارنا إلى حادثة أُخرى مماثلة لها. تنتقل بنا إلى أُم البنين عليها السلام لنرى كيف كان الصبر عندها بعد أن قتل أولادها الأربعة عليهم السلام في ساعة واحدة، وقد كانت تخرج وتندبهم، حتى إن مروان نفسه كان يستمع إلى ندبتها ويبكي لها، وهي تنادي وتقول:

---

(١) مسكن الفؤاد: ٧٨، شجرة طوبى ٢: ٤٠٥، تاريخ مدينة دمشق ١٧: ٤٣٨ ـ ٤٣٩.

لا تـــــدعونّي ويك أُمّ البـــنينْ تــــذكّريني بـــليوثِ العـــرينْ

كــانت بــنون ليَ أُدعــىٰ بــهم واليــوم أصــبحت ولا مــن بـنينْ

أربـــعة مـــثل نســـور الربـا قد عـالجوا المـوت بـقطع الوتـينْ

يـا ليت شـعري أكـما أخـبروا بأن عـــباساً قــطيع اليــمينْ[1]

يروي جـملة مـن المـؤرّخين أن أُخت الإمـام الحسـين عليه السلام العـقيلة زينب عليها السلام لمّا أرادت أن تندب قتلاها فـي مـدينة جـدّها صلى الله عليه وآله، أوقـفت جارية لها على باب الدار، وأمرتها ألّا تدخل عليهن امرأة؛ فإنهن ـ أي الفاطميات ومسبيّات الطفّ ـ يردن أن يندبن قتلاهن، وبينما هنّ كذلك وإذا بالباب يطرق، فقالت الجارية: مـن عـلى البـاب؟ فـعلمت أنـها أُم البنين عليها السلام، فجاءت إلى زينب عليها السلام وقـالت: سـيدتي إن عـلى البـاب أُم البنين. فقالت لها زينب عليها السلام: «ويْحك افتحي لهـا؛ فـإنها شـريكتنا فـي العزاء»:

گـومن يـالفواطـم فـتحن البـاب وتـــلگّن شـــريچتنه بـالمصاب

وصاحت صـوت يـا فگـد الاطـياب والله شـموحچ يـا دار الاحـباب

هناك وتسمع الصرخه علىٰ البـاب أنـا ام عـباس جـيتچ لا تـفترين

بـچت زيـنب وصـاحت تـلگّنها بـالله ويـاي گـومن سـاعدنها

هـاي أُم البـنين الراح مـنها أولاد اربـعه خـوتي المـيامين

فلمّا وقع بصرها على زيـنب صـاحت: «وا ولداه!، وا حسـيناه!».

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٨٧، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٨١.

فأجابتها زينب عليها السلام: «وا أخاه، وا عبّاساه»:

بعد هيهات دهري بيكم يعود أرد اشيل راسي بيكم ردود

* * *

بالأمس كانوا معي واليومَ قد رحلوا وخلّفوا في سويدا القلب نيرانا

نذر علي لئن عادوا وإن رجعوا لأملأن طريقَ الطفّ ريحانا[1]

موقف المتوكّل من الكندي

وفي مقابل الحادثة الأُولى هنالك حادثة تمثّل النقطة القاتمة والمعتمة في تاريخنا، بطلها المتوكّل العبّاسي الذي كان يسمى محيي السنة ومميت البدعة[2]. وهذه النقطة تتمحور حول موقفه من الفيلسوف الكوفي الكندي الشهير، حيث إنه عمد إلى إهانته وتمزيق كتبه، مع أن الكندي يعتبر من روّاد العلم والفلسفة عند المسلمين، فهو فيلسوف مشهور؛ لما له من فضل وريادة في محاولات التقريب بين الفلسفة والدين؛ إذ إنه حاول

(١) شجرة طوبىٰ ١: ٩١.

(٢) ورد ذلك في أُرجوزة نقلها ابن كثير في البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩.

وقال السيوطي: حتى قال قائلهم: الخلفاء الثلاثة... والمتوكّل في إحياء السنة وإماتة التجهّم. تاريخ الخلفاء: ١٤٣.

وقال: رؤي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بقليل من السنة أحييتها. تاريخ الخلفاء: ١٤٥.

في مؤلّفاته أن يخضع الفلسفة للدين، وأن يقنّنها بقوانينه، فهو ثروة كبيرة للإنسانية عامّة وللمسلمين خاصّة؛ ولهذا فقد كان المأمون والمعتصم يكنّان له غاية الاحترام والتقدير.

لكن حينما ولي المتوكّل الخلافة عمد إلى ضربه وإهانته، وبادر إلى مصادرة كتبه ومكتبته وإتلافها[1]؛ لأنه لم يكن يتّفق معه في الرؤى والأفكار. ومن هنا فإننا نجد أن هذا السلطان لا يمتلك أدنى مقوّمات الأدب والاحترام، وكما ذكرنا فإن التأريخ مع ذلك يصفه بأنه محيي السنّة ومميت البدعة.

سيد قطب وإيمان أبي طالب عليه السلام

إن البعض من المفكّرين الإسلاميين وإن كان على مكانة عالية، وذهنية ثاقبة، وعطاء ثرّ، وومضات ولمحات عقلية رائعة لكنهم لا زالوا حبيسي موروثهم الفكري والعقيدي، ولا يستطيعون أن يتخلّصوا منه.

ومن هؤلاء المفكّر المشهور سيد قطب الذي يتّصف بأنه ذو ذهنية ثاقبة ورائعة، ولمحات عقلية راقية وبديعة، لكنه مع ذلك حينما يتناول قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ**

(١) عيون الأنباء في طبقات الأُدباء ٢٨٦، الوافي بالوفيات ١٥: ٢٩٤.

بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[1]، فإنه يذكر أن هذه الآية نزلت في أبي طالب عليه السلام، يقول في خصوص هذه الآية بنص عبارته: «ورد في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وآله، وقد كان يحوطه وينصره، ويقف دونه في وجه قريش، ويحميه حتى يبلغ دعوته، ويحتمل في سبيل ذلك مقاطعة قريش له ولبني هاشم، وحصارهم في الشعب. ولكنه إنما يفعل ذلك كله حبّاً لابن أخيه، وحميّة وإباء ونخوة. فلما حضرته الوفاة دعاه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الايمان والدخول في الإسلام، فلم يكتب الله له هذا؛ لما يعلمه سبحانه من أمره»[2].

والمفارقة هنا أنه يعبّر عن أبي طالب عليه السلام بأنه كافل رسول الله صلى الله عليه وآله وحاميه، والمدافع عنه، والذائد عن دينه الذابّ عنه، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يحبّه غاية الحب، وهو في المقابل كان يحب رسول الله صلى الله عليه وآله غاية الحب كذلك، ويودّه أقصى غايات الودّ، ولكنه مع ذلك لم يكتب الله له الايمان، وأن يموت مسلماً.

وقفة مع رأي سيد قطب

وهنا نودّ أن نناقش هذا المفكّر في رأيه ومذهبه حول هذه الآية الكريمة، ونحن إذ نناقشه فإننا نذكّر ثانية بأنه ذو ذهنية لامعة يجب أن

---

(١) القصص: ٥٦.

(٢) في ظلال القرآن ٥: ٤٣٤.

تنتبه لدقائق الأُمور سيّما في هذه القضية، ولهذا فإننا سوف نمحور ردّنا عليه في هذه القضية حول جهات أربع:

الأُولى: عموم لسان الآية الكريمة

إننا نقول في المقام هنا: إن لسان هذه الآية الكريمة التي استشهد بها عامّ لا يختصّ بأحد، فمن أين جاء تخصيصها بأبي طالب عليه السلام؟ إن نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله كان يحب كلّ الناس، وكان يريد لهم الخير والدخول في دين الإسلام، ويتمنى لو تمّ لهم ذلك.

الثانية: ضرورة التنبّه لدقائق التعبير القرآني

إن هذه الآية الكريمة والآيات الأُخرى المتعلّقة بالمشركين ومن حادّ الله ورسوله ومودّتهم تتوفّر على دقائق ينبغي الالتفات إليها قبل الحكم بأشياء ربّما يجد الإنسان نفسه باستعماله هذا الحكم على غير ما وضع له مناقضاً للقرآن الكريم، ولأساسيات الدين الإسلامي الحنيف. ومن هذا أننا نقرأ في القرآن الكريم مثلاً قوله تعالى: ﴿**لَا تَجِدُ قَوْمَاً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ**﴾[١]، فإذا كان أبو طالب مشركاً يحادّ الله ورسوله، فكيف يجوز للنبي صلى الله عليه وآله أن يواليه وأن يحبّه؟ إن هذا المذهب ينطوي على شيء واضح وبيّن هو مناقضة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله للقرآن ولأوليات العقيدة، فهو صلى الله عليه وآله بهذا إنما يصطدم بالثوابت القرآنية التي

(١) المجادلة: ٢٢.

تحدّد طبيعة العلاقة بين المؤمنين والمشركين. بين المؤمنين والذين يحادّون الله ورسوله، ويقفون بوجه الله ورسوله، وبوجه هذا الدين؛ لأن المشرك بمجرّد شركه فهو يحادّ الله ويعاديه، وكذلك يعادي الرسول ﷺ وإن لم تبدر منه علامات ذلك.

إذن فما دام الرسول ﷺ يودّ أبا طالب ويحبّه باعتراف السيد قطب نفسه، وما دام الرسول ﷺ لا يخالف أوامر الله تبارك وتعالى ولا يخالف الثوابت القرآنية، وهذه مسلّمة؛ فلا يمكن له ﷺ أن يودّ من يحادّ الله تبارك وتعالى ورسوله. ومن هنا فإننا نستنتج أن أبا طالب عليه السلام لم يكن مشركاً، ولا من الذين يحادّون الله ورسوله.

الثالثة: مناسبة الحكم والموضوع

ثم إن هناك جنبة أُخرى ينبغي الالتفات إليها وهي ما يسميه الأُصوليون «مناسبة الحكم والموضوع»، وهنا ـ أي في مجال إثبات إيمان أبي طالب عليه السلام وعدمه ـ فنحن جميعاً رأينا مواقف أبي طالب عليه السلام في الدفاع عن الإسلام، وعن النبي الأكرم ﷺ.

من مظاهر دفاعه عليه السلام عن الإسلام وعن النبي ﷺ

ودفاعه عليه السلام هذا عن الإسلام، وعن النبي الأكرم ﷺ كان دفاعاً مستميتاً وذا روحية عالية يتجلّى فيها إيمانها الواضح، وأنه إيمان كامل ومطلق لا شائبة فيه بمن تدافع عنه، وما تدافع عنه. وهذا ما يتمثّل لنا بأُمور عدّة نذكر منها:

الأول: تضحيته عليه السلام بأبنائه في سبيل النبي صلى الله عليه وآله

فالتاريخ الذي بين أيدينا لم يتمكن من طمس معالم هذه الحقيقة لسطوعها كالشمس، فهو يروي لنا كيف أنه عليه السلام كان يضحّي بأبنائه جميعهم في سبيل النبي صلى الله عليه وآله حتى إنه كان يبيتهم في فراش نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله حينما حبستهم قريش في شعب أبي طالب خوفاً من أن يبعثوا أحداً لاغتياله وقتله وهو في فراشه؛ فقد كان ينيمه صلى الله عليه وآله في فراش، ثم يقيمه وينيم أحداً من أبنائه في مكانه صلى الله عليه وآله، يفعل ذلك عدّة مرات؛ كي يفوّت على قريش فرصة اغتياله.

فالتاريخ يحدثنا بأنه عليه السلام قد عرّض أولاده الأربعة لسهام الغدر القرشية، ورماح الشرك السفيانية التي وجهها أعداء نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله له، في سبيل الدفاع عنه صلى الله عليه وآله.

الثاني: احتضانه عليه السلام الدعوة الشريفة وروّاد المسلمين

إذن كان عليه السلام دائب الذبّ والذود عن الدعوة الإسلامية، وعن صاحبها الأكرم نبينا محمد صلى الله عليه وآله. كما أنه عليه السلام كان قد فرش جناحيه لاحتضان الدعوة الشريفة والروّاد الأوائل من المسلمين؛ فتحمل في سبيل ذلك المشاقّ الكثيرة، والعقبات الكؤود والأليمة في محاربة قريش له. وهذا لا يمكن أن يصدر من إنسان لا يؤمن بما دافع عنه كل ذلك الدفاع، أعني هذه الدعوة السماوية المباركة الكريمة، أو إنسان يحادّ صاحبها، ويحادّ ربّه الذي أرسله بها.

الثالث: تضحيته عليه السلام بمركزه الاجتماعي

وهنا فإن لنا أن نسأل هذا المفكر سؤالاً هو: ألم تسأل نفسك عن

الدوافع التي حدته ودفعته للقيام بكل هذه التضحيات وهذا الدفاع عن هذه الدعوة الجديدة وعن صاحبها، وهو «يحتمل في سبيل ذلك مقاطعة قريش له ولبني هاشم، وحصارهم في الشعب» كما عبّر عنه هو نفسه؟ وهل تعليله بقوله: «ولكنه إنما يفعل ذلك كله حبّاً لابن أخيه، وحميّة وإباء ونخوة» هو دليل ناهض وكافٍ لتبرير مذهبه القائل بشرك أبي طالب عليه السلام من جهة، ومسوغ ناجع لتعليل وقوفه عليه السلام مع ابن أخيه صلى الله عليه وآله مع ما كلّفه ذلك من فقدانه مكانته الاجتماعية في قريش، وتضحيته بمركزه القبلي عندهم، وتخلّيه عن ثقله بينهم من جهة أُخرى؟

الرابع: توصيته عليه السلام ابنه جعفراً بنصرة الرسول صلى الله عليه وآله

كما أن كلمته المأثورة والمشهورة التي أوصى بها ابنه جعفراً عليه السلام لا زالت تصدح في آفاق الكون، وتشنّف آذان الوجود بأقراط الإيمان: «صل جناح ابن عمك»[1].

خلاصة الأمر

إذن فإذا كان عليه السلام ـ كما ذكرنا ـ يضحّي بأولاده، بعد أن ضحّى بمنزلته ومكانته في قريش من أجل هذه الدعوة الجديدة، ومن أجل الوقوف مع صاحبها الأكرم صلى الله عليه وآله. وإذا لم يكن يملك عقيدة إزاء هذه الدعوة، ولم يكن يؤمن بها وبرسالة صاحبها الكريم صلى الله عليه وآله، فلماذا يقدم على كلّ هذه التضحيات في سبيلها؛ سواء كانت بأبنائه، أو بمكانته عند قريش، وهو

(١) تفسير البحر المحيط ٨: ٤٨٩، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦٩، تفسير الآلوسي ٣٠: ١٨٣.

السيد المطاع فيهم؟

الرابعة: أن لكلّ فكرة وحادثة تاريخاً تؤرخان فيه

إن هناك شيئاً معلوماً قد درجت عـليه الإنسـانية مـنذ عـصور نشأة المعرفة عندها، وهو أن كلّ شيء أو حادثة يراهـا الإنسـان فـإنه يـقوم بتسجيلها وتأريخها ؛ حتى يثبتها للأجيال التي تأتي بعده؛ للاعتبار بـها أو لغرض آخر. فنحن مثلاً حينما نـتحدث عـن الصـواريـخ البـاليستية «الصواريخ العابرة للقارات» فإننا نعرف أنها قد صنعت وأُرّخت في القرن العشـرين. وهكـذا فـإننا نسـتطيع أن نـضع تـاريخاً إزاء هـذا الإنـتاج ـ اصطلاح «الصواريخ العابرة للقارّات» ـ هو القرن العشرون.

تاريخ روايات تكفير أبي طالب عليه السلام

وبناء على هذا فإننا نطالب هؤلاء الذين يروون الروايات في كفر أبي طالب عليه السلام بأن يؤرّخوها لنا، ويثبتوا لنا الوقت الذي صدرت فـيه. إنـنا نؤكّد أن هذه الروايات لم توضع إلّا بعد أن وتر علي بن أبي طـالب عليه السلام هؤلاء الوضّاعين بآبائهم وإخوانهم فـي دفـاعه عـن الإسـلام الحـنيف؛ فهو عليه السلام لم يدع بيتاً إلّا وكان له فيه قتيل في مواجهته معه في سـاحات الشرف والدفاع عن هذا الدين الجديد.

طبيعة الموقف الأُموي من أمير المؤمنين عليه السلام

وهؤلاء إذ وضعوا هذه الروايات فإنهم وضعوها وهم يظنّون أنها سوف تحطّ من قيمة علي بن أبي طالب عليه السلام بعد أن صدحت بها الزبر، وتـنزل

من درجته وعلوّ مكانته بعد أن بشّرت بها السماء، مع أن هذا لا يمكن أن يكون ولا يحدث، فهو عليه السلام لا يمكن أن يؤثر فيه مثل هذا الهراء؛ لأنه منبع ألق ينير سماء الوجود، وآفاق الدين، ودنيا العقيدة بـما قـدّم وبـما ضحّى وبما قام به من دفاع عن هـذا الديـن الشـريف، وعـن صـاحبه الأكرم صلى الله عليه وآله.

إذن فأبو طالب في كلّ حركة من حركاته كان هـناك شـيء واضـح يصدع بإيمانه بالإسلام، هذا فضلاً عن أنه قد نشأ في بيتٍ موحِّد لم تُعبد فيه الأصنام، ولم يعرفها، وهو بيت عبد المطلب، أما أبو لهب فـقد كـان حالة استثنائية؛ إذ انفرد عنهم بتلك العقيدة الضالّة الفاسدة، فكـان حـالة غير سليمة ـ إن صحّ التعبير ـ في ذلك البيت المبارك.. البيت الذي ضوّع الكون بعطر النبوّة وشذا الإمامة.. البيت الذي حمل نور السـماء لأهـل السماء وأهل الأرض.

وكل ذلك لأن المشركين قد سيطروا على عقله وأفكاره، وجرّوه إلى جانبهم، وجعلوه يقف في صفهم أثناء حربهم مع النبي صلى الله عليه وآله.

ومن هنا فإن على الإنسان أن يدرس الموضوع الذي هو بصدد الحكم عليه دراسة متأنية وموضوعية؛ لأنه يجب أن يأخذ بحسبانه أن التاريخ الأُموي قد أصرّ على كيل التهم لهذا الرجل ولأبيه؛ لموقفهما المشرّف في الدفاع عن الإسلام، ولأن علي بن أبي طالب عليه السلام قـد وتـر كـل هـؤلاء بمعاركه في الدفاع عن الإسلام كما ذكرنا.

طبيعة الموقف العباسي من أمير المؤمنين عليه السلام

هذا فيما يخصّ التاريخ الأُموي الجائر، أما التاريخ العباسي فكان أكثر جوراً منه، فقد فعل أكثر من ذلك الذي فعله الأُمويون من قبل؛ حيث أصرّ العباسيون على إبعاده عليه السلام عن الساحة السياسية والساحة الفكرية؛ سواء على صعيد الفقه أو العقائد عبر اتّباع سياسة جديدة يمليها موقفهم من الخلافة التي اغتصبوها من أصحابها الشرعيّين الذين نصبتهم السماء لها، فأشاعوا أن أبا طالب عليه السلام ليس وريثاً للنبي صلى الله عليه وآله؛ لأنه مات مشركاً والمشرك لا يرث المؤمن أو المسلم، أما العباس فمات مسلماً؛ ولذا فإنه يرث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

وهذا هو مركز الثقل الذي تمحورت أُكذوبتهم حوله؛ حتى يبعدوا الخلافة عن علي عليه السلام وعن أبنائه.

ومن هنا فإننا نرى أن الحكم بشرك أبي طالب، والروايات التي وضعت من أجل تأييد هذا الحكم كلها كانت بسبب ابنه علي، وإلّا فإن الرجل كان مؤمناً بهذا الدين الجديد، بل إنه كان أكثر صلة بالإسلام والعقيدة من غيره ممّن كان يفرّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله عندما يشتدّ وطيس الحرب، وهو ما تشهد به مواقفه، ويصدح به شعره.

إذن فنحن نخلص من هذا إلى نتيجة هي أن التاريخ الأُموي قد كفّر أبا طالب بغضاً لابنه علي عليه السلام؛ لأن علي بن أبي طالب قد وترهم بآبائهم وإخوانهم، فكفّروه لذلك، والتاريخ العباسي قد كفّر أبا طالب كذلك بغضاً لعلي عليه السلام أيضاً ، وإبعاداً له عن وراثة السلطة والخلافة التي يرونها

بمقاييسهم الخاضعة للهوى سلعة قابلة للوراثة. وبناء على هذا فإنهم حينما يقولون بإيمان أبي طالب عليه السلام فإنهم إنما يعطونه حقّ الوراثة كما هي نظرتهم، وبالتالي يعطون ذلك الحقّ لأمير المؤمنين عليه السلام، لأنه أقرب من العباس للنبي صلى الله عليه وآله؛ فإن أشاعوا أنه مشرك، فإن الوراثة من وجهة نظرهم تنتفي عنه، ولا تنتقل حينئذٍ إلى ابنه علي عليه السلام، ولا إلى ذريته، بل إنها تنحصر حينئذٍ بالعباس وذريته.

وهكذا كان الإمام علي عليه السلام، وبغض الناس له سبباً في الحكم ظلماً على أبي طالب بالكفر والشرك.

أفليس في كلّ هذا من اُمور سطرتها كتب التاريخ، وحفظتها قلوب الحقّ ما ينمّ عن أنه عليه السلام كان يعتقد بهذا الدين ويؤمن به؟

الإسكندر وأُستاذه

ومن هنا كان للأب الروحي دوره الأهم ومكانته الأسمى؛ لأنه إنما يوفر الحياة الدائمة لتلامذته ولأبنائه الروحيين ولمريديه. يروى عن الإسكندر أنه كان يحترم معلّمه أرسطو أكثر من احترامه لأبيه، فإذا دخل عليه قام له واستقبله ورحّب به، فسئل عن سبب ذلك، فأجابهم: إن أُستاذي أعظم منة علي من والدي؛ لأنه تحمل أنواع الشدائد والمحن عند تعليمي، وأرتعني في نور العلم، وأما الوالد فإنه طلب تحصيل لذة الوقاع

لنفسه، وأخرجني إلى آفات عالم الكون والفساد[1].

فهو يقول لهم بأن أباه قد أخرجه جسداً من دم ولحم، وهذا ليس وجوداً مشرّفاً؛ لأنه تُشاركه فيه حتى الحشرات، كما أنه أخرجه إلى عالم الظلمة والفساد والفناء، أما معلّمه فقد أخرجه من عالم الظلمة إلى عالم النور، ونشّأه على الفكر والمعرفة والعطاء، والإنسان إنما يكون إنساناً بفكره وما عنده من معرفة، وليس بدمه ولحمه.

وبهذا نجده يصوّر الفرق بين الأب الدموي والأب الروحي أو النوراني تصويراً دقيقاً، فهذا الأخير قد ملأه علماً ومعرفة مكّناه من أن يواجه الحياة، وأن يواجه شعوب الأرض بأجمعها؛ إذ استلهم منه المعرفة. وهذا كلّه بفضل تلك الأُبوّة الروحية المتمثّلة بمعلمه.

الإسكندر ورجل المقابر

وقد مرّ الاسكندر بهذه التجربة بشكل فعلي حيث يروى أنه مرَّ بمدينة قد ملكها ملوك كثيرون وبادوا، فقال: هل بقي من نسل الملوك الذين ملكوا هذه المدينة أحد؟ قالوا: رجل يعيش في المقابر. فدعا به وقال له: ما دعاك إلى لزوم المقابر؟ وما الذي تريده ممّا تفعله فيها؟ قال: إنني موكل بنبش هذه القبور؛ لأنني أردت أن أفصل عظام الملوك وغيرهم من العظماء والعباقرة والفلاسفة عن عظام عبيدهم وأُميّزها عنها؛ لأرى إن

(١) التفسير الكبير ٢٠: ١٨٦.

كانت عظامهم فيها تتميّز عن غيرها من عظام الأُناس البسطاء أم لا؛ فقد ماتوا كلّهم، ودفنوا جميعاً هاهنا، فلم أستطع أن أُميّز بين عظام هـؤلاء وعظام هؤلاء، ورأيت أنها واحدة لا تختلف، وأنها في ذلك سواء. قال: فهل لك أن تتبعني فأُحيي بك شرف آبائك إن كانت لك هـمّة؟ قـال: إن همتي لعظيمة إن كانت بغيتي عندك. قال: وما بغيتك؟ قال: حياة لا موت فيها، وشباب لا هرم معه، وغنىً لا يتبعه فقر، وسرور لا يغيره مكروه. قال: لست أقدر على هذا. قال: فامضِ لشأنك وخلّني أطلب بغيتي ممن هي عنده.

فقال له الإسكندر: لقد وعظت فأبلغت. ثم التفت إلى من معه من كبار قومه، وقال لهم: هذا أحكم من رأيت[1]. أي أن هذا فعلاً معلّم، وقد علّمه درساً سوف يعيش معه.

وهذه هي الحقيقة بالفعل، وما هذه القصة إلّا عبرة وعظة ورسالة للإنسان تنذره بألّا يميّز نفسه عن الناس الآخرين، فالناس كلّهم ما هم إلّا مجموعة من العظام التي سوف تتحول إلى تراب، يقول الشريف الرضي رضي الله عنه:

ومسنَّدين على الجُنوب كأنهم شِرب تخاذل بالطلا أعضاؤهُ
وجه كوجه البرق غاب وميضه صدرٌ كصدر العضب قل نضاؤهُ

---

(١) التعازي والمراثي: ٦٥، الجليس الصالح والأنيس الناصح: ٤٥٠، ربيع الأبرار ١: ٤٣٣، سراج الملوك: ١٣، محاضرات الأُدباء: ٢٤٤، نثر الدرّ: ١٢٣، لباب الآداب: ١٢٦.

حكـم البـلا فـيه فلو نظرت له أعـــداؤه لرثت له أعـــداؤهُ(١)

مأساة الإمام الحسين عليه السلام والتجديد الأدبي

وهذه العادة التي جرت عندهم وفي تاريخهم قد وصلتنا عنهم بعد أن بلغت حدّ التواتر الذي لا يمكن أن ينكره أحد. وقد أخذ أُدباء الطفّ هذا المعنى ونقلوه إلى واقعة كربلاء؛ حيث إنهم استفادوا من تلك الرؤية التي كان العرب عليها، وهو أنهم حينما يمرّون على قبر كريمٍ فإنهم ينحرون عنده أعزّ ما لديهم من الإبل، مطورين تلك الفكرة مع قبر الإمام الحسين عليه السلام بما أنه أكبر من كلّ كريم بما قدّم من تضحية في سبيل الدين، وبما يمتّ به من نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وبما يمثّل من عنفوان الإسلام وعزّته وكرامته؛ ولهذا فإن نحر الابل الجُزُر على قبره لم يعد أمراً كافياً، ومن هنا ابتكر أُدباء الطف أمراً جدّدوا فيه هذه النظرة أو هذه الرؤية، وجدّدوا فيه ما يمكن أن يعقر في ذلك الضريح المقدس، يقول أديبهم:

خليلي هل من وقفة لكما معي على جدث أسقيه صيّب أدمعي
ليروى الثرى منه بفيض مدامعي لأن الحيا الوكّاف لم يكُ مقنعي
خليليّ هبّا فالرقاد محرّم على كل ذي قلب من الوجد موجعِ
هلُما معي نعقر هناك قلوبنا إذا الحزن أبقاها ولم تتقطعِ

(١) ديوان الشريف الرضي ١: ٢٢.

هــلمّا نــقم بــالغاضرية مــأتماً لخــير كـريم بـالسيوف مـوزّعِ[١]

وأوّل قلب عقر على ثرى ضريح الإمام الحسين عليه السلام هو قلب الحوراء زينب عليها السلام الطاهر، وقلوب بنات السيدة الزهراء عليها السلام حينما رجعت السبايا من الشام، فقد جاءت أُخت الإمام الحسين عليه السلام ووضعت رأسها على قبر أبي عبد الله عليه السلام:

عبد الملك بن مروان أفضل من رسول الله صلى الله عليه وآله!

مع أن الأُمويين كانوا يؤكدون هذا المعنى تقريباً؛ ولذا فـإنهم كـانت عندهم نظرية تنصّ على أن عبد الملك بن مـروان أفـضل مـن رسـول الله صلى الله عليه وآله؛ لأن خليفة الرجل أفضل من رسوله؛ فمحمد رسول الله، وعـبد الملك خليفة الله؛ وبهذا كان عبد الملك وغيره من خلفاء الأُمويين أفضل من رسول الله. وهم يصوّرون المسألة على أنه لو مات رجـل مـا فـإن رسوله لا يأخذ مكانه ومكانته، وإنما خليفته هو من يأخذ ذلك المكـانَ وتلك المكانة[٢].

---

(١) الأبيات للشيخ محمد حسين الحلي. أدب الطف ٩: ١٤٤.

(٢) كان واليهم على الكوفة وهو الحجّاج يقول: إن المسلمين مخدوعون حينما يطوفون بـقبر محمد صلى الله عليه وآله، وقد تحوّل صاحب القبر إلى عظام بالية، ألا يـطوفون بـقصر عـبد المـلك؟ وألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله؟

وصعد يوماً أعواد منبره وقال على رؤوس الأشهاد: أرسولك أفضل، أم خليفتك؟ يعرّض بأن

الشدة على الكفّار

تقول الآية الكريمة: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾، ولو أننا رجعنا إلى بدايات التاريخ الإسلامي فإننا سنجد أن البعض من الصحابة قد آوى الكفار سيما في فتح مكة، فحينما فتح النبي ﷺ مكة بعد أن دخلها لاذ بعض عتاة قريش في بعض البيوت التي تسترت عليهم، وبقوا هناك حتى أصدر النبي ﷺ العفو العام عنهم حينما قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**». هذا في حين أن علي بن أبي طالب عليه السلام قد جاء إلى دار أُخته فاختة بنت أبي طالب ولم يراع أنها أُخته أمام الحق وأمام الإسلام وأمام الله تبارك وتعالى، وأراد أن يأخذ أخوي زوجها؛ لأنهما كانا كافرين مشركين، وممّن آذى الله ورسوله

عبد الملك بن مروان بن الحكم أفضل من رسول الله ﷺ، فلما سمعه جبلة بن زحر قال: لله علي ألّا أُصلي خلفه أبداً، وإن رأيت من يجاهده لأُجاهدنه معه. فخرج مع عبد الرحمن ابن الأشعث وقتل معه. النزاع والتخاصم: ٧١ ـ ٧٢، شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢، وقال المبرد فيه: إن ذلك ممّا كفّرت به الفقهاء الحجّاج، الكامل في الأدب ١: ٢٢٢.

ولقد اقتدى به ابن شفى الحميري، فإنه قام بمجلس هشام بن عبد الملك، وقال: أمير المؤمنين خليفة الله، وهو أكرم على الله من رسوله؛ فأنت خليفة، ومحمد رسول الله. النزاع والتخاصم: ٧١ ـ ٧٢. وهذا يعني أن الأُمويين كانوا يجنّدون أتباعهم وأعوانهم لهذا الأمر ويعدّون العدّة له، ويوطئون له عقول الناس ممهّدين لعملية زرعه فيها؛ كي يرجعوا بهم القهقرى إلى ظلمات الجاهلية.

في مواقفهما ضدّ الإسلام وضدّ نبي الإسلام وضدّ المسلمين.

وكان أن شكته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله الذي ما إن سمعها حتى بادر إلى إجارتهما قائلاً: «**أجرت من أجارت أُم هانئ**»، تقول الرواية: حينما أجارت أُخته أُم هانئ بنت أبي طالب عليه السلام أخوي زوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي، وكانا ضمن من هرب عند الفتح، ودخلا بيتها، توجّه أمير المؤمنين عليه السلام نحو دارها مقنّعاً بالحديد، لم يبدُ منه إلّا حدقتاه، تقول فاختة: بينا أنا كذلك إذ نادى منادٍ: «**أخرجوا من آويتم**».

قالت: فجعلوا ـ والله ـ يذرقون كما تذرق الحبارى فرَقاً منه. فخرجت أم هانئ وهي لا تعرفه، فقالت: يا عبد الله، أنا أُمّ هانئ بنت عم رسول الله، وأُخت علي بن أبي طالب، انصرف عن داري. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أخرجوهم**». فقالت: والله لأشكونك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله. فنزع عليه السلام المغفر عن رأسه فعرفته، وقالت: أنت أخي، أتفعل بي هذا؟ إنهما حمواي استجارا بي. فقال: «**وتجيرين على رسول الله صلى الله عليه وآله؟**».

ثم وضع يده على قائم سيفه، ودنا منهما، تقول أُم هانئ: فوضعت عليهما ثوباً، وقلت له: والله لا تصل إليهما. فخرج ولم يكَد، فقلت: لأشكونه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله. فجئت خباء النبي صلى الله عليه وآله، وهو في قبة يغتسل، وفاطمة عليها السلام تستره بثوب، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وآله كلامي قال: «**مرحباً بك يا أُم هانئ وأهلاً**». قلت: بأبي أنت وأمي، أشكو إليك ما لقيت من علي اليوم.

ثم ذكرت له ﷺ ما جرى لها معه، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه أخشن في ذات الله، شديد على الكفّار**». ثم قال: «**قد أجرتُ من أجرتِ**». فقالت فاطمة عليها السلام: «**إنما جئت يا أُمّ هانئ تشتكين علياً في أنه أخاف أعداء الله وأعداء رسوله؟**». تقول أُمّ هاني: فكانت فاطمة عليها السلام أشدّ عليّ من زوجها، فقال رسول الله ﷺ: «**قد شكر الله لعلي سعيه، وأجرت من أجارت أُمّ هانئ؛ لمكانها من علي بن أبي طالب**»[1].

إذن فهذه الصفة ـ وهو الشدة على الكفار ـ كانت موجودة عند أمير المؤمنين عليه السلام بشهادة رسولنا الأكرم ﷺ الذي وصفه بقوله: «**إنه أخشن في ذات الله، شديد على الكفّار**».

وهذا بخلاف البعض من الصحابة ـ كما ذكرنا ـ الذين آووا الكفار في بيوتهم[2].

ابو أيوب يزور قبر الرسول ﷺ

يروى أن الصحابي الجليل أبا أيّوب الأنصاري (رضوان الله عليه) الذي

(١) الإرشاد ١: ١٣٧ ـ ١٣٨، مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٦، وانظر: الموطأ ١: ١٥٢، مسند أحمد ٦: ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٤٢٣، ٤٢٤، ٥٢٥، وفي بعضها أنها آوت ناساً من بني مخزوم، منهم الحارث بن هشام، وقيس بن السائب.

(٢) كما فعل عثمان بن عفان حينما آوى الحكم بن العاص الطريد الذي لعنه رسول الله ﷺ، وقد مرّ بنا ذلك.

نزل النبي الأكرم ﷺ عنده عند هجرته إلى المدينة جاء في أحد الأيّام لزيارة قبر رسولنا الأكرم ﷺ، فأحسّ بيد تمسكه من الخلف وقائل يقول له: ماذا تصنع؟ يريد تعنيفه على زيارته قبر رسولنا الأكرم ﷺ ـ وهذا نكوص منه واضح، وارتداد فاضح ـ فالتفت فإذا هو مروان، فقال: أنا أعرف ما أفعل، أنا لا أزور الأحجار وإنما أزور نبي الله ﷺ وأُكلمه وأُقدّسه، ولقد سمعته ﷺ يقول: **«لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله»**[١].

وهكذا فإن أبا أيّوب الأنصاري رضي الله عنه يريد أن يبين له أن الله تبارك وتعالى قد أمره بأن يبتغي إليه الوسيلة[٢]، وأن رسول الله ﷺ هو من هذه الوسائل بل أشرفها؛ ولذا فإنه يريد أن يتوجه به إلى الله تبارك وتعالى حتى يتقبل منه عمله.

الرجل العابد

يروى أنه ذكر عند النبي الأكرم ﷺ رجل فقال بعضهم: يا رسول الله، خرج معنا حاجّاً، فإذا نزلنا لم يزل يهلّل ويصلّي حتى نرتحل، فإذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله حتى ننزل، يصوم نهاره ويقوم ليله. فقال النبي

---

(١) مسند أحمد ٥: ٤٢٢، المستدرك علىٰ الصحيحين ٤: ٥١٨، المعجم الكبير ٤: ١٥٨، المعجم الأوسط ٩: ١٤٤.

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة: ٣٥.

الأكرم ﷺ: «**فمن كان يكفيه علف ناقته، وصنع طعامه؟**». قالوا: كلنا يا رسول الله. فقال ﷺ: «**كلكم خير منه**»[١].

لبدنك عليك حق

وهكذا فإننا نجد أن القانون الإسلامي يراعي هذه الجنبة الملحّة عند الإنسان، فيقول على لسان نبيّنا الأكرم ﷺ: «**إن لنفسك عليك حقاً**»[٢]، ويقول: «**إن لبدنك عليك حقاً**»[٣].

إنتقل إلى الشام

فكان أن انتقل إلى الشام وبقي فيها فترة طويلة إلى أن رأى في عالم الرؤيا أن رسول الله ﷺ يقول له: «لقد جفوتنا يا بلال». فأفاق مرعوباً، وشدّ الرحال إلى المدينة المنورة (على مشرّفها وآله أفضل الصلاة وأتمّ التحية)، وكان ذلك في فترة مرض السيدة الزهراء عليها السلام التي كانت تعاني فقد والدها ﷺ، وجور الزمان عليها، وموقف الصحابة منها؛ فكانت كسيرة القلب، معصبة الرأس، محمرّة العينين من أثر ما أصابها من الباب، وهي متألّمة تتطلّبها بواعث الأسى ودواعي الشجا. فلما سمعت به

---

(١) مكارم الأخلاق: ٢٦٥، المصنف (الصنعاني) ١١: ٢٤٤ ـ ٢٤٥ / ٢٠٤٤٢.

(٢) مجمع الزوائد ٧: ٢٣٩، تاريخ مدينة دمشق ١٩: ٤٤٠.

(٣) مسند أحمد ٦: ٢٦٨، سنن أبي داود ١: ٣٠٨ / ١٣٦٩.

أرسلت إليه وقالت له : «**لقد اشتقت لسماع صوتك يا بلال**».

أي أنهاعليها السلام تريد منه أن يرتقي المئذنة ويؤذّن؛ حتى يـذكرها بـتلك الأيام التي كان يعيشها رسول الله صلى الله عليه وآله بينهم، فقال لها: يا ابنة رسول الله، لقد آليت على نفسي ألّا أرفع الأذان بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله. فقالتعليها السلام له : «**لكنني ابنة النبي**».

فامتثل وصعد ليرفع الأذان، لكنه ما إن رفع صوته منادياً: «**الله أكبر**»، وسمعته الزهراءعليها السلام حتى حنّت وأنّت، فلما نادى: «**أشـهد أن لا إله الا الله، أشهد أن محمداً رسول الله**»، تـذكرت (سـلام الله عـليها) أيـام أبـيها صلى الله عليه وآله فصاحت : «**أبه يا أبه، ذكرك فوق المنابر، وجسمك تحت المقابر!**». ثم شهقت شهقة سقطت على الأرض معها مغمىً عليها، فأقبل الناس يـهرعون إلى بلال ويطلبون منه أن يقطع الأذان؛ لأن ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله قد أوشكت أن تفارق روحها الدنيا، فقطع بلال أذانه ونزل(١).

معاوية والخمر

يروي الذهبي في كتابه (سير أعلام النبلاء) أن عبادة بن الصامت وأبا هريرة خرجا مع جماعة من الصحابة إلى الشام ليقرّئوا النـاس القـرآن،

---

(١) في الدرجات الرفيعة: ٣٦٦ أن بلالاً جاء إلى المدينة المنوّرة بـعد وفـاة السـيدة الطـاهرة فاطمة الزهراءعليها السلام، وفي السيرة الحلبية ٢: ٣٠٨ أنه صـعد إلى الأذان بـطلب مـن الإمـامين السبطين الحسنينعليهما السلام.

وكان عبادة جالساً فمرّت عليه قطارة تحمل الخـمر، فـقال: مـا هـذه؟ أزيت؟ قيل: لا، بل خمر يباع لفلان.

ونلاحظ أن الذهبي لا ينصّ على اسمه، بل إنه يكني عنه بـ«فلان»، وإن كان قد ذكره ـ والظاهر أنه غفلة منه ـ أثناء مساءلة أبي هريرة لعبادة عن فعله هذا الذي ستذكره الرواية التي بين أيدينا، أما غيره ممن يروي هذه الرواية فينصون على اسمه.

يقول راوي الحادثة: فأخذ عبادة شفرة من السوق، فـقام إليـها، فـبقر إحداها فسال منها الخمر، فلم يذر فيها راوية إلّا بقرها، فأرسل فلان إلى أبي هريرة، فقال: ألا تمسك عنا أخاك عبادة؛ أما بـالغدوات، فـيغدو إلى السوق يفسد على أهل الذمة متاجرهم، وأما بالعشي، فيقعد في المسجد ليس له عمل إلّا شتم أعراضنا وعيبنا؟

قال: فأتاه أبو هريرة، وقال له: يا عبادة، مالك ولمعاوية؟ ذره وما حمل. فقال عبادة: لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله ﷺ على السـمع والطـاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المـنكر، وألّا يـأخذنا فـي الله لومـة لائـم. فسكت أبو هريرة، وكتب فلان إلى عثمان يخبره: إن عبادة قد أفسد عليّ أهل الشام[1].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢: ١٠، وانظر: تاريخ مدينة دمشق ٢٦: ١٢٨ ـ ١٢٩، ونقله ابـن كـثير وأضاف إليه على قول عبادة: وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب مما نمنع بـه أنفسنا وأرواحنا وأبناءنا ولنا الجنة. فهذه بيعة رسول الله ﷺ التي بايعناه عليها. ثم قال: وهذا إسناد جيد قوي ولم يخرجوه. البداية والنهاية ٣: ١٩٩، السيرة النبوية ٢: ٢٠٣.

وهذا الرجل ـ معاوية ـ لا زال حتى الساعة يسمى أمير المؤمنين وخالهم.

فمن يتصرف مثل هذا التصرف، ويقترف مثل هذه المعاصي ألا يعمد ويسعى إلى أن يلقي ما عنده من معاصٍ وآثام على عاتق الأنبياء عليهم السلام؛ لكي يخفّف من فعله أمام الناس عامّة وخيارهم خاصة، ويبرّر أخطاءه عندهم، ويهوّن وقعها عليهم؟

الإمام الحسين عليه السلام والجوّ الأُسري في آية المقام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[1].

إننا بالرجوع إلى صدر الآية الكريمة فإننا نجد أن الدعاء فيه كان منصباً على الأُسرة وعلى العناية بجوّها؛ وما ذاك إلّا لأن الأُسرة الصالحة هي اللبنة الأساسية الأهمّ كما ذكرنا في بناء المجتمعات الصالحة، ولهذا لم يكن بدّ من التأكيد على دورها وعلى حياطته ورعايته، وعلى توفير الأجواء الصحية له. ومن وسائل توفير الأجواء الصحية له الدعاء الذي أراد النبي إبراهيم عليه السلام عبره أن يربينا، وأن يعطينا درساً عملياً يشعرنا من خلاله بأهمية الأُسرة.

فالأُسرة إذن تقوم على أساس التعاطف والتوادّ القائمين بين الأبوين

(١) إبراهيم: ٤١.

وأبنائهما، ولابدّ من أن يكون هذا التعاطف متبادلاً حتى نضمن ذلك الجوّ الدافئ والحنون والصحي والسليم لكل أفراد الأُسرة. ودعاء النبي إبراهيم عليه السلام يشعرنا بأنه يريد لأُسرته الخير كما يريده لنفسه. وهذا هو الجانب الأهم الذي يريد أن يؤكده؛ لأن الآباء يجب أن يعتنوا بأبنائهم غاية العناية حتى يتمكّنوا من خلق أُسر سليمة تكون لبنات أساسية في بناء المجتمعات الدينية الصالحة.

ثم إن الأبوين يشعران بأن الولد هو امتدادهما وثمرتهما في الحياة؛ وهو الزهرة التي يمتعان بها أعينهما؛ ومن هنا فإنهما يجب عليهما أن يهتمّا بهذه الزهرة، وأن يعتنيا بها غاية العناية، وأن يرعياها رعاية كاملة حتى تكبر وتتفتح عن عطر طيب يضوع شذاه في المجتمع، فينفع نفسه، وينفع أُسرته، وينفع عائلته ومجتمعه في نهاية الأمر وخاتمته.

فكل هذا التأكيد للعطف المتبادل هو للحصول على هذا اللون من الجو الأُسري الدافئ الذي يكون قاعدة ممهّدة لبناء الأُسرة بناء متيناً سليماً. وهكذا فإن العطف الذي رأينا أنه يجب أن يكون متبادلاً بين الآباء والأبناء، وضرورة رعاية الآباء لأبنائهم وحمايتهم هو عطف يوجب على الآباء أن يدفعوا عن أبنائهم كلّ مكروه، وأن يذبّوا عنهم كلّ شر، كما أنه عطف تصل به درجة ضخامته إلى حد أنه يتعالى على الوصف وعلى التقدير. لكن ما بالك إذا كان ذلك الولد الذي هو قرّة عين أبويه وزهرتهما في الحياة ينظر إليه أبواه وهو مقطّع إرباً إرباً، وقد أخذته السيوف والرماح، فأصبح جسمه قطعة من جراح، كما الحال مع الإمام

السبط أبي عبد الله الحسين عليه السلام؟

سيرة يزيد بن عبد الملك

المال حينما يستعمل في الطريق السليم يصبح مجداً مؤثلاً لصاحبه، أما إذا لم يستعمل في الطرق السليم فإنه يعتبر حينئذٍ بطراً؛ لأنه يأخذ صاحبه إلى الانحراف وإلى الرذيلة. وهذا يعني أن تلك الأموال التي يملكها، والدار التي يملكها بدلاً أن تكون جميعها مقراً للأهل والأرحام وللضيوف والإنفاق عليهم؛ فإنها تتحوّل إلى أموال وإلى مكان يمارس فيه كلّ ما يغضب الله تبارك وتعالى.

وكمثال على ذلك نضربه في المقام يزيد بن عبد الملك الذي بنى بعض دياره بدمشق، وهي ديار حينما يقرأ المرء ما كتبه المؤرخون عنها فإنه تصيبه الدهشة، ويأخذه العجب؛ لما كان يصرف عليها وينفق فيها، ولما كان يدور فيها. إنها ديار بدلاً من أن تكون عامرة بالذكر والاستقامة، كانت عامرة بالخمر والغناء، والفسوق، والانحراف عن مبادئ الدين والأخلاق والرجولة والشهامة، يقول أحد الشعراء:

دمشق رؤىً في خيال الزمان ... تعرّت لتغمره بالرواءْ
تغشّته سحْراً ورقّت به ... فتوناً فأمعن في الإبتلاءْ
نهار تبرّج فيه الطلا ... وليل تألّق فيه الغناءْ
وغنى طويس على مزهر ... إلى الآن أصداؤه بالفضاءْ

وهكذا فهؤلاء كانت تمر بهم الليالي التي يحيلونها حمراء كلّها طرب

وفجور، وغناء وخمور، ومن دون مراعاة حقّ النعمة وحقّ شكرها، حتى وصل الأمر بيزيد هذا إلى أن دخل عليه أخوه مسلمة وكان أعقل الأُمويين آنذاك، وينقل المؤرخون أنه كان ذا فكر سديد، وعقل رشيد، ورأي واستقامة، وكان رجلاً يملأ السرير كما يقال، لكن الشيء الذي منعه من الوصول إلى الحكم هو أن أُمه كانت أمة، مع أن هذا النمط من الفكر غريب عن الإسلام، ولا يلتقي مع قواعده ولا متبنّياته الأساسية التي تقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]، فما هو فرق الحرة عن الأمة، والناس كما يقول الحديث الشريف: «**ألا إنكم ولد آدم، وآدم من تراب**»[2].

نقطتان هامّتان

وهناك نقطتان هامّتان ينبغي الالتفات إليهما، هما:

الأُولى: حول حضارة العرب وحضارات الشعوب الأُخرى

أن بعض الإماء اللواتي جيء بهن سبايا هن في حقيقة الأمر من مجتمعات تتّصف بأن حضارتها أعرق من حضارة هؤلاء الذين سبوهن؛ فالسبايا والإماء عادة إما أن يكنّ روميات أو فارسيّات أو من أُمة من الأُمم المتحضّرة والعريقة في الحضارة آنذاك، لكن الظروف القاهرة ومنها الظروف السياسية والعسكرية جعلت منهن سبايا وإماء. فهن وإن كنّ جواري، لكن حضارتهن أعرق وأسمى من حضارة هؤلاء الذين سبوهن

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الفصول المهمّة (الحرّ العاملي) ١: ٣٥١.

والذين لا زالوا يعيشون الجاهلية العمياء بكل أبعادها، وبكل عاداتها وقوانينها وموروثاتها ومناهلها.

ومع أن هذه الجارية كما ذكرنا ربما تكون من أُمة أكثر تحضّراً من هؤلاء، ومع أن القانون الإسلامي والمبادئ الأخلاقية فيه ترفض هذا النمط من الفكر المبتنى على التمييز العرقي، فتقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]، إلّا إننا نجد أن هؤلاء يميّزون بين الأمة والحرة وبين أبناء الإماء وأبناء الحرائر الذين يُفَضَّلون على إخوانهم أو غيرهم من أبناء الجواري.

وهذا ـ كما ذكرنا ـ نمط من الفكر غريب في كل أبعاده عن الإسلام، ولا يلتقي مع قواعده الأخلاقية الثابتة، فالإنسان حينما يكون ابن أمة لا يضيره ذلك؛ لأن الإنسان إنسان بنفسه هو ليس بالوضع الذي كان يعيشه أهله، سيما إذا كان ذلك الوضع قد فُرض عليهم فرضاً نتيجة الظروف السياسية أو العسكرية كما ذكرنا. وعليه فما الضير في أن يتبوّأ هذاالإنسان ذلك المنصب الذي يمكن له أن يتبوّأه غيره إذا كان هو حصيفاً عاقلاً ذا رأي وحكمة، وكان هو الأكفأ؟

وقد ذكرت أكثر من مرة الصراع الذي ينقله الرواة والذي حدث بين هشام وبين زيد رضي الله عنه عندما حاول هشام أن يعيّره بأنه ابن أمة، حيث يروي

(١) الحجرات: ١٣.

المؤرخون تلك المحاورة التي جرت بينهما، وملخّص هذه المحاورة كما يروون أن زيد ابن الإمام علي السجاد عليه السلام دخل على هشام بن عبد الملك ـ وكان هشام يعتبر نفسه خليفة، وعليه فيفترض به أن يطبّق الإسلام في كلّ ممارساته ـ فلم يجد موضعاً يقعد فيه، فعلم أن ذلك فعل به على عمد، فلما رآه هشام واقفاً قال له: بلغني أنك تحدّث نفسك بالخلافة، ولا تصلح لها؛ لأنك ابن أمة.

وهنا انبرى زيد قائلاً: أمّا قولك: إني أُحدّث نفسي بالخلافة، فلا يعلم الغيب إلّا الله. وأمّا قولك: إني ابن أمة، فإن لك جواباً. قال هاته. قال: أيهما أفضل النبي أم الخليفة؟ قال: النبي. فقال: هناك أنبياء أُمّهاتهم إماء، وهذا إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن عليهما السلام ابن أمة، من صلبه خير البشر محمد صلى الله عليه وآله، وإسحاق ابن حرّة أخرج من صلبه القردة والخنازير وعبدة الطاغوت. فقال له: قم.

أي أنه يقول له: إن بعض الأنبياء أُمّهاتهم إماء، لكنهن لم يقعدن بهم عن نيل مرتبة النبوّة السامية، كما أنني لا يضيرني أن أُمّي أمة إذا كان أبي علي بن أبي طالب عليه السلام.

فقال: إذن لا تراني إلّا حيث تكره. ولما خرج من عنده، قال: ما أحبّ أحد قطّ الحياة إلّا ذلّ. فسمعه حاجب هشام فنقله له، فقال له: لا يسمع هذا الكلام منك أحد.

وفعلاً خرج ووضع يده على قائم سيفه، وهو ينشد هذه الأبيات:

شـــرّده الخـــوف وأزرى بـــه كـــذاك مـن يكـره حـرّ الجـلادْ
ومحتفي الرجلين يشكو الوجى تـــقرعه أطـــراف مـرو حـدادْ
قـد كـان فـي المـوت له راحـة والمـوت حـتم فـي رقـاب العـبادْ

فما برح أن خرج عليه فقتل رحمه الله (١).

فالفكر الجاهلي الذي كان يستعمر عقول هؤلاء يعتبر أن ابن الأمة هجين وليس عربياً قحّاً؛ ولذا فإنه لا يحق له أن يرقى إلى المعالي التي يستطيع أن يرقى إليها العربي القحّ أو يجب أن يرقى إليها.

وقد يستغرب البعض حينما يعرف أو يسمع بأن هذه الظاهرة لا تزال موجودة وتعيش حتى الآن بيننا، فالكثير منا لا يزال يعيش رواسب الجاهلية مع أننا يجب أن نغربل أنفسنا ونطهرها من كلّ موروث جاهلي لا زلنا نعمل به؛ ملتفتين إليه، أو دون أن نلتفت إليه، وأن نعرف ونذعن بأن الإسلام قد ساوى بين الشعوب والقبائل كلّها، وجعلهم على حدّ سواء دون أن يكون لأحدهم فضل على الآخر أو كرامة على الغير إلّا بالإيمان والتقوى.

(١) انظر: العقد الفريد ١: ٣٢،شرح نهج البلاغة ٣: ٢٨٥ – ٢٨٦، الفصول المهمة (ابن الصباغ) ٢: ٩٠٠ – ٩٠١.

موقف السلطات من ضريح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

إن السبب الذي حدا الإمام علياً عليه السلام أن يوصي أولاده عليهم السلام عندما حضرته المنية بأن يخفوا قبره الشريف عن الأعين[1] هو تخوّفه من حقد الأُمويين؛ لأن هؤلاء لا وازع يزعهم ويمنعهم، ولا رادع يردعهم ويحول بينهم وبين سعيهم الحثيث لأن يهدموا قبره المقدّس، ويستخرجوا جسمه الشريف. بل إن هذا الأمر ينسحب حتى إلى العباسيين وينطبق عليهم. يروي المؤرخون أن السلاطين العباسيين كانوا يأتون إلى هذه المنطقة من الكوفة والنجف التي يسميها المؤرخون «خد العذراء»[2]، ويجلسون هناك ويصطادون، فخرج في يوم من الأيام هارون الرشيد، فأرسل كلابه وفهوده على مجموعة من الظباء، فنفرت تلك الظباء إلى ربوة كانت هناك، وكانت تلك الكلاب والفهود إذا ما وصلت إليها رجعت دون أن تجترئ على أن تطأها.

وهو الأمر الذي أثار عجب الرشيد واستغرابه، فسأل عن جلية الأمر من أهل قرية قريبة هناك، فقالوا له: لا ندري، ولا علم عندنا في هذه المسألة. فأمر، فأُحضر إليه رجل شيخ من أهل تلك المنطقة، فلما سأله

(١) انظر: الغدير ٥: ٦٨، البداية والنهاية ٧: ٣٦٥.

(٢) انظر: الأذكياء: ٥٥، ربيع الأبرار ١: ٣٩، نور القبس (المرزباني): ٨٦.

عن جلية الأمر طلب الأمان منه ليخبره، فآمنه، فلمّا آمنه قال: ما لي من الكرامة إن دللتك على قبر علي بن أبي طالب عليه السلام؟ قال: كل كرامة. قال: هذا قبره. فقال له: من أين علمت؟ قال: كنت أخرج إليه مع أبي فيزوره، وأخبرني أنه كان يجيء مع جعفر الصادق عليه السلام فيزوره، وأن الإمام جعفراً الصادق عليه السلام كان يجيء مع أبيه محمد الباقر عليه السلام فيزوره، وأن الإمام محمداً الباقر عليه السلام كان يجيء مع علي بن الحسين عليه السلام فيزوره، وأن الإمام الحسين عليه السلام أعلمهم أن هذا قبره.

فأمر الرشيد بعمارته، وأظهره رسميّاً، بعد أن كان ظاهراً معروفاً لذرية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ولخاصة شيعته فقط دون غيرهم، ثم بنى عليه عمائر(١).

ومن خلال هذه الرواية نستنتج أمرين:

الأول: أن قبر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقي مخفياً عقوداً كثيرة؛ خوفاً من السلطات، وأزلامها المردة العتاة.

الثاني: أن هذا الشيخ كان يخاف على نفسه إن باح بالحقيقة؛ لأن الجو كان مشحوناً بالخوف والرعب:

تالله إن كانت أميّةُ قد أتَت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبرُه مهدوما

---

(١) الغدير ٥: ٦٨، جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ٢: ١١٤.

أسـفوا علىٰ ألّا يكـونوا شـاركوا فـي قـتله فـتتبعوه رمـيما[1]

فهؤلاء حتى بعد الموت لاحقوا الأئمّة عليهم السلام في قبورهم مع أنهم غوث الورى، ومنتجع الصادي:

فـعند عـلي للـطريد حـماية ورفـد وأُفـق ضـاحك بـروائـه

قبر أمير المؤمنين عليه السلام وحماية الجار

فالإمام أمير المؤمنين عليه السلام هو حامي الجار؛ سواء في حـياته، أو بـعد رحيله إلى حيث الرفيق الأعلى؛ لأنه لم يمت، فكان من حقّ هذه الظباء أن تلوذ بقبره. إنه عليه السلام علَم خالد في هذه الدنيا، ولا يمكن أن يحدّ له عمر؛ لأنه من الشهداء، والشهداء خالدون أبداً، ويعيشون في كـنف الله تـبارك وتعالى ورعايته.

فالإمام عليه السلام حينما أوصى بأن يغيّب قبره أُمضيت وصيته في ذلك؛ لأنه كان يعلم أن هؤلاء سوف لن يتركوا له أثراً، وسوف لن يألوا جهداً فـي بلوغ ذلك والوصول إليه.

إن هذه الأُمة بدلاً من أن تعتزّ بهذا الرجل الذي يعد رقماً ضخماً ولامعاً في تاريخها وحياتها، ونجماً ساطعاً في مسـيرتها وفـي تـاريخها وفـي

(١) الأبيات للبسّامي أبي الحسين علي بن محمد بن نصر. سير أعلام النبلاء ١٢: ٣٥، وقد نقل البيت الثالث فقط، البداية والنهاية ١١: ١٤٣. وهذا هو حال المعتصم والمتوكّل ومن جاء بعدهما، وموقفهم من ضـريح الإمـام الحسـين عليه السلام. وقـد نـوّه المـحاضر رحمه الله إلى ذلك فـي كـثير مـن المحاضرات التي مرّت منه في الموسوعة الشريفة.

الدفاع عنها مهما امتدّ الزمان وحاولت الأيدي. لكن هؤلاء بدلاً من أن يعتزّوا بوجود قبره بينهم نجد أنهم يعتبرون أن قبره هذا يشكّل نقطة خطر عليهم، مع أن هذا القبر يعتبر مصدراً من مصادر المجد، ورافداً من روافد الرحمة الإلهية، وباباً من الأبواب المشرعة إلى الجنان.

وكل ذلك للعداء الذي تكنه هذه الأُمة له، مع أن هذا العداء ينبغي ألّا يضيّع الحقيقة، وألّا يغيّب الواقع، وألّا يضع غطاء على تلك الحقائق الناصعة في حياة أمير المؤمنين عليه السلام. أما نمط التفكير القائل بوجوب إزالة كلّ شخص يختلف مع السلطة أو مع الأشرار من الوجود، والقضاء على كل ما يتعلّق به ومحوه وإن كان محقّاً، وكانت السلطة جائرة مبطلة، فهذا منطق غير صحيح ومخطوء، ولا ينبغي أن يعار أي اهتمام؛ لأنه يقف عائقاً في وجه الثوابت الإسلامية، ويقضي على سياسة نشرها، ويحاول حتى أن يطوق الدين الإسلامي ويقضي عليه.

موقف السلطات من ضريح الحسين عليه السلام

هذا هو موقف السلطات من أمير المؤمنين عليه السلام، أما موقفها من الإمام الحسين عليه السلام فإن الحال لم يكن يختلف أبداً بل إنه ربما كان أشدّ كما يستوحيه الباحث من خلال المتابعات التاريخة، واستقراء مواقف السلطات منه. لقد حاولت السلطات القائمة آنذاك بشتى الوسائل أن تمحو أثر هذا القبر، وأن تُعفّي ذكره ووجوده من على هذه الأرض، حتى

رووا أنه كانت هناك شجرة على قبر الإمام الحسين عليه السلام عمد المتوكّل إلى قطعها؛ لأنها كانت في نظره نقطة دالة يستدلّ به الزوار على ضريح الإمام الحسين ويهتدون بها إليه. وبما أن ما كان لله ينمو، فقد أبى الله إلّا أن يتمّ نوره، ويظهره ولو أبى الكفرة والعتاة. يروي المؤرّخون أن أحد الأعراب عمد إلى أن يشمّ الأرض التي فيها قبر الإمام الحسين عليه السلام، حيث كان يأخذ قبضات من ترابها ويشمه حتى اهتدى إلى موضع قبره، فأنشد يقول:

أرادوا ليُخفوا قبرَهُ عن مُحبِّه   وطيبُ تراب القبر دلَّ على القبر[1]

ثم إن المتوكل حينما أعيته السبل عمد إلى إغراق الضريح المقدّس بالماء؛ كي يُعفّي كلّ أثر له، لكن الماء حار حوله وطاف دون أن يغرق هذا الضريح المقدس.

إذن هناك محاولات دائبة ومستمرّة على مر التاريخ للقضاء على هذه الآثار وعلى أصحابها؛ نتيجة للحقد والكره اللذين يعتملان في قلوب أصحابهما ضدّ هذه العائلة التي هي أهل بيت النبوة، ومعدن العلم، ومهبط الوحي والتنزيل، ومواطن عبادة الله جلّ شأنه، وهياكل دينه.

عمار وهارون

ومما يروى في هذا المقام أن منصور بن عمار دخل على هارون الرشيد، فاستدناه الرشيد حتى ألصق ركبتيه بركبتيه؛ إكراماً له، ثم قال له:

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٤٥، تهذيب الكمال ٦: ٤٤٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٧.

يا منصور، عظني. فقال: لو طلبت شربة ماء فلم تجدها إلّا بنصف الدنيا، أكنت تشتريها به؟ قال: نعم. قال: فلو تعسّر عليك خروجها بعد شربها، أكنت تشتري خروجها بالنصف الآخر؟ قال: نعم. قال: قبّح الله دنيا تشترى بشربة ماء وبولة[(١)].

الإمام السجاد عليه السلام والاستدلال بآية القربى

وقد استدلّ الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام لما أُدخل وحرم السماء إلى الشام، حيث جاء رجل من أهلها، ودنا من نساء الحسين وعياله، وقد أُقيموا على درج باب المسجد، ثم وقف أمام الإمام السجّاد عليه السلام فقال يخاطبه: الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم، وأراح البلاد من رجالكم، وأمكن أمير المؤمنين يزيد منكم. فقال له الإمام عليه السلام: «**يا شيخ، هل قرأت القرآن؟**». قال: نعم. قال: «**فهل عرفت هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؟**».

قال الشيخ: قد قرأت ذلك. فقال له عليه السلام: «**فنحن ﴿الْقُرْبَى﴾ يا شيخ. فهل قرأت هذه الآية: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾[(٢)]؟**».

(١) ديوان الصبابة: ٩٠، ومثله عن غيره في ربيع الأبرار ١: ٤٤٣، الكشكول (بهاء الدين العاملي) ١: ٢٤١.

(٢) الأنفال: ٤١.

فقال الشيخ: نعم قرأتها. فقال له الإمام عليه السلام: «**فنحن ﴿الْقُرْبَى﴾ يا شيخ، وهل قرأت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1]؟**».

قال الشيخ: قد قرأت ذلك. فقال له الإمام عليه السلام: «**فنحن ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ الذين خُصصنا بآية الطهارة يا شيخ**».

فبقي الشيخ ساكتاً نادماً على ما بدر منه وما تكلّم به، ثم قال للإمام عليه السلام: بالله عليك، إنكم هم؟ فقال الإمام علي بن الحسين عليهما السلام: «**تالله إنا لنحن هم من غير شكّ، وحقّ جدّنا رسول الله إنا لنحن هم**».

فبكى الشيخ ورمى عمامته، ورفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إني أبرأ إليك من عدوّ آل محمد من جنّ وإنس. ثم قال: هل لي من توبة؟ فقال عليه السلام له: «**نعم، إن تبت تاب الله عليك، وأنت معنا**». فقال: أنا تائب. فبلغ يزيد حديثه، فأمر به فقتل[2].

فهذا الشامي حينما خاطب الإمام السجاد عليه السلام بهذه المقالة، إنما خاطبه بها لأنه كان قد أُخذ على يده بالقوّة، كما أنه كان قد تعرّض إلى عملية غسيل للدماغ، ولذا فإنه بعد أن عرف الحقّ وأهله قال له: سيدي، أرجو

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ١٠٣ ـ ١٠٢، بحار الأنوار ٤٥: ١٢٩، ٩٣: ٢٠٢ ـ ٢٠٣ / ٢١، كتاب الفتوح ٥: ١٣٠.

أن تعذرني؛ لأن هؤلاء قد صوروكم لنا على أنكم سبايا خوارج، أي أنكم قد خرجتم على خليفة الله وخليفة المسلمين؛ لتشقّوا عصا المسلمين، وتفرّقوا كلمتهم، ولتهدموا دولة الإسلام؛ ولذلك فإني قابلتك بهذا القول، وعليه فإني أرجو أن تسامحني بما بدر مني، وأن تعذرني على هذا التصرّف الذي كان.

ثم أُخذ الإمام زين العابدين عليه السلام، ومن معه من سبايا رسول الله صلى الله عليه وآله إلى مجلس يزيد بن معاوية، فأحسّ الإمام عليه السلام عندها بعظم تلك الفعلة عليه، وبمبلغ تلك الرزية على حرم رسول الله صلى الله عليه وآله؛ حيث تُساق النسوة الهاشميات إلى مجلس الشرك والكفر، فآلمه ذلك أي إيلام، وأحزنه أشدّ الحزن.

ومن هنا فإن الإمام السجّاد عليه السلام حينما دخل عليه أبو حمزة رضي الله عنه في مدينة جدّه صلى الله عليه وآله، ووجده باكياً، وقال: سيدي إن القتل لكم عادة، وكرامتكم من الله الشهادة، إن جدّك صلى الله عليه وآله قتل، وإن أباك عليه السلام قتل، شكر له الإمام عليه السلام ذلك؛ حيث قال عليه السلام له: «**شكر الله سعيك يا أبا حمزة، ولكني أذكر أشياء منها أنهم أدخلونا على يزيد ونحن موثوقون بالحبال، وكان الحبل يمتد من عنقي إلى كتف عمتي وأكتاف سائر الفاطميّات، وكنا كلما قصرنا عن المشي ضربونا. ووالله ما نظرت عيناي إلى عمّاتي وأخواتي إلّا وذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خباء إلى خباء، ومن خيمة إلى خيمة، والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين**».

ثم لمّا رأت الحوراء زينب عليها السلام حراجة الموقف وعظمته؛ لأن هؤلاء قد اقتادوا حرم رسول الله صلى الله عليه وآله أسرى، وهتكوا ستورهن رأت أن الأمر يقتضي أن تتدخّل لتؤدّي دورها الرسالي والإعلامي لهذه الحركة الحسينية المباركة؛ كي تستمر ويستمر أُوارها، ويمتدّ صداها عبر الزمن، ولذا فإنها أرادت أن تُفهم أولئك المضلَّلين الذين كانوا يجلسون في مجلس يزيد، والذين كانوا حاضرين عندما أُدخلوا عليه، وأن تشرح لهم خطورة ما هم فيه من ضلال، وأن تبيّن لهم حقيقة الحال وتوضّح لهم من هو الضالّ ومن هو المهتدي، ومن هو صاحب الحقّ في هذه الحركة ومن هو صاحب الباطل.

فكان أن وقفت عقيلة آل أبي طالب، وسليلة الأُسرة الهاشمية تلك الوقفة الشجاعة التي ذكّرت القوم بمنابر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وصوته الذي كان يهدر بالحقّ من فوقها فيزلزل عروش الظالمين، وبصولاته التي لا يمكن لمسلم عايش تلك التجربة، أو سمع بها أن ينساها، فألقت تلك الخطبة العظيمة التي لا زالت أصداؤها تشقّ عنان السماء، ولا زال عبقها ينفح الكون طيباً وعطراً.

وكان أن قالت بتلك النبرة المحمدية القاطعة، واللهجة العلوية الحاسمة، وبتلك الشجاعة المعهودة لأهل هذا البيت الكريم عليهم السلام؛ لتزلزل بها عروش البغي والشرك الأُموي وتهدّه من أساسه: «أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء؛ فأصبحنا نساق بين

يديك كما تُساق الأُسارى أن بنا علىٰ الله هواناً وبك عليه كـرامـة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده وجليل قدرك لديه، فشـمخت بأنـفك ونـظرت بعطفك جذلانَ مسروراً حتىٰ رأيت الدنيا لك مسـتوسقة، والأُمـور لك متسقة؟ فمهلاً مهلاً، لاتطِش جهلاً، أنسيت قـوله تـبارك وتـعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾؟[1]...».

ثم قالت له معنّفة ومقرّعة: «أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله ﷺ سبايا قد هُتكت ستورهن، وأُبديت وجوههن؟»[2].

وهنا قام له أحد جلسائه الذين ضلّلهم وغرّر بهم، فقال له: أيها الأمير، هؤلاء خوارج؟ فقال يزيد: نعم. فقال: إن كان هؤلاء بغاة علىٰ الإمـام، فإنهم بهذا يصحّ أن يستخدموا، وبيتي خالٍ ليس فيه خادمة، وأنا أُريـد هذه الجارية خادمة في بيتي. وأشار إلى فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام، تقول فاطمة: فتعلقت بثياب عمتي زينب، وقلت: عمّة، مع الأسر أُستخدم وأنا ابنة الحسين؟ فقالت له العقيلة عليها السلام: «مه، ما جـعل الله ذلك لك ولا لأميرك».

فالتفت إليها يزيد وقال: لو شئت أن أفعل ذلك لفعلت. قالت: «كلّا إلّا

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) الاحتجاج ٢: ٣٥، اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ١٠٦، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٤، ١٥٨.

أن تخرج عن ديننا، وتدين بغير ملّتنا». فقال: كذبت يا عدوّة الله، إياي تستقبلين بهذا؟ إنما خرج عن الدين أبوك وأخوك.

وإذ سمعت قوله لها: كذبت يا عدوة الله، اختنقت بعبرتها، فغالبت دموعها فلم تستطع، فقالت له: «يزيد، أنت أمير تشتم ظالماً، وأنا امرأة».

زوج أخت معاوية

ومما يروى في هذا المجال أن أُخت معاوية بن أبي سفيان كانت متزوّجة من رجل ثقيفي، فجاءته يوماً تخطب إليه إحدى بناته لأحد أبنائها، فغضب منها معاوية غضباً شديداً لأجل هذا، فقالت له: لماذا كلّ هذا الغضب؟ ألم يزوّجني أبي من رجل من ثقيف؟ فقال لها: لقد كان أبي يحبّ الزبيب، وقد كثر الزبيب الآن. ذلك أن ثقيفاً كانوا يسكنون الطائف، وهي منطقة كانت تشتهر بزراعة الأعناب[1].

والواقع أن عندنا نماذج من هذا اللون كثيرة في تاريخنا ظلّت ولا زالت متشبّثة ومتمسّكة بالأعراف التي تحدّرت إليهم عن أسلافهم الأوائل غاية التشبّث والتمسّك، معتبرين إياها ميراثاً اجتماعياً أو ثقافياً يتعلّق

(١) حتى ليروى أنه حينما دخل سليمان بن عبد الملك الطائف، نظر إلى بيادر الزبيب، فقال: ما تلك الجرار السود؟ فقيل له: ليست بجرار، ولكنها بيادر الزبيب. فقال: لله درّ قَسيّ، في أي عشّ أودع أفراخه؟ يريد بقَسيّ: ثقيفاً. فقد كان اسمه كذلك. العقد الفريد ٢: ٤٨٧.

بها ويحفظ لها كيانها ووجودها؛ وبالتالي فإنه ليس من المروءة ولا الحق التفريط بها وتضييعها. وهذا ما تعكسه أدبيّات تلك القبائل وأبنائها مما وصلنا عنهم شعراً ونثراً.

هذا في الوقت الذي قد حاول الإسلام بشدّة وأد هذه النظرة والنظرية، والقضاء عليها وإلغاءها، بل إجهاضها قبل أن تولد من جديد في المجتمع الإسلامي. ودليل ذلك أنه كان قد دعا مراراً وتكراراً في مناسبات عدّة على لسان سفير السماء الأقدس، وصاحب الدعوة المباركة، وأمين الله تبارك وتعالى على وحيه وسرّه رسولنا الأكرم ﷺ إلى اعتبار المؤمن كفئاً لأخيه المؤمن دون الأخذ بأي اعتبار آخر غير هذا (الإيمان) من قبيل الاعتبارات الوضعية أو القيم القبلية وغيرها.

عمرو بن المنذر وعامر بن أُحيمر

يروي المؤرّخون أن الوفود اجتمعت مرّة عند عمرو بن المنذر بن ماء السماء، فأخرج من لباسه بردين وقال: ليقم أعزّ العرب قبيلة فليأخذهما. فقام عامر بن أُحيمر فأخذهما، فائتزر بواحدة وارتدى الأُخرى، فقال له عمرو بن المنذر: أنت أعزّ العرب قبيلة؟ قال: نعم؛ لأن العزّ كلّه في معدّ، والعدد في معدّ، ثم في نزار، ثم في مضر، ثم في تميم، ثم في سعد، ثم في كعب، فمن أنكر ذلك فليناظرني.

فسكت الناس، فقال عمرو بن المنذر: وكيف أنتم أعزّ العرب؟ فقال: إن منا حاجب بن زرارة الذي رهن قوسه عند كسرى على كذا ألف من

الجمال، فأخذ منه كسرى الرهن تجربة، فعاد حاجب بعد مدّة وأحضر الجمال، واستردّ القوس المرهونة[١].

كما أنه يروى في نجدته أنه قد أتى الملك كسرى في جدب أصابهم، فسأله أن يأذن له ولقومه أن يصيروا إلى ناحية من نواحي بلده حتى ينتعشوا ويرعوا، فقال له كسرى: إنكم معشرالعرب قوم غدر حرصاء، فإن أذنت لكم أفسدتم البلاد، وأغرتم على الرعية وآذيتموهم. فقال له حاجب: فإني ضامن للملك ألّا يفعلوا. قال فمن لي بأن تفي أنت؟ قال أرهنك قوسي.

فضحك مَن حوله، فقال كسرى: ما كان ليسلمها أبداً. فقبلها منه، وأذن لهم أن يدخلوا الريف، وأحيا الناس. ثم مات حاجب، فارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوس أبيه، فردّها عليه، وكساه حلّة باعها بعد ذلك بأربعة آلاف درهم من رجل من اليهود[٢]. وفي ذلك قيل:

وأقسم كسرى لا يصالح واحداً ... من الناس حتى يرهن القوسَ حاجبُ[٣]

وقيل:

تزهو علينا بقوس حاجبها ... زهو تميم بقوس حاجبها[٤]

أي أن قوس حاجب كانت العرب كلّها تزهو به؛ لأنه ضمن به العرب كلّهم، ووفى.

(١) الأنساب ٢: ١٥٠. (٢) المعارف: ٦٠٨.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٥: ١٢٨.

(٤) يتيمة الدهر ٤: ١٣٨، السيرة الحلبية ١: ١٤.

فقال عمرو بن المنذر: هذه عشيرتك كما تزعم، فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا أبو عشرة، وأخو عشرة، وعمّ عشرة، وخال عشرة، وها أنا في نفسي وشاهد العزّ شاهدي. ثم وضع قدمه على الأرض وقال: من أزالها من مكانها فله مئة من الإبل. فلم يقم إليه أحد، فخرج بالبردين، وضُرب المثل بعزّه وببرديه[١].

رواية وفادة ضمام بن ثعلبة على رسولنا الأكرم ﷺ

ولتقريب المعنى أكثر يروي أحمد بن حنبل في مسنده[٢] والبخاري[٣] ومسلم في صحيحيهما وغيرهم[٤] من الرواة أن أنس بن مالك قال: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد إذ دخل رجل على جمل، فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متّكئ بين ظهرانينا، فقلنا: هذا.

فدنا الرجل منه وقال: يابن عبد المطلب. فقال له النبي ﷺ: «قد

---

(١) العقد الفريد ١: ١٥٣، ٣٢٨، شرح ديوان الحماسة ٢: ١١، المستجاد من فعلات الأجواد: ٦٧، خزانة الأدب ١: ٤١٢.

(٢) مسند أحمد ٣: ١٦٨.

(٣) صحيح البخاري ١: ٢٣.

(٤) سنن ابن ماجة ١: ٤٤٩ ـ ٤٥٠، سنن النسائي ٤: ١٢٣، ١٢٤، السنن الكبرى (النسائي) ٢: ٦٢، ٦٣، السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٩، صحيح ابن حبّان ١: ٣٦٧، معرفة علوم الحديث: ٢٥٨، الرحلة في طلب الحديث: ١٨٩، الكفاية في علم الرواية: ٢٩٦، فتوح الشام ١: ٢٨٨، صحيح ابن خزيمة ٤: ٦٣، صحيح ابن حبّان ١: ٣٦٨، السيرة النبوية (ابن كثير) ٤: ١٢٠.

أجبتك». فقال: إني سائلك، فمشدّد عليك في المسألة، فلا تجد عليّ في نفسك. فقال ﷺ: «**سل عمّا بدا لك**».

فقال: أسألك بربّك وربّ من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال ﷺ: «**اللهم نعم**».

قال أنشدك بالله، آلله أمرك أن تصلّي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال ﷺ: «**اللهم نعم**».

قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال ﷺ: «**اللهم نعم**».

قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا، فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: «**اللهم نعم**».

فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول مَن ورائي مِن قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر. ثم قال: فإني أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، وسأُؤدّي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص.

ثم انصرف راجعاً إلى بعيره، وكانت له عقيصتان، فقال رسول الله ﷺ حين ولّى: «**إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة**».

ثم أتى بعيره، فأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه، فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلّم به أن قال: بئست اللّات والعزّى. قالوا: مه يا ضمام، اتّقِ البرص والجذام، اتّقِ الجنون، اتّقِ كذا وكذا. فقال: ويلكم، إنهما والله، لا يضرّان ولا ينفعان، إن الله عزّ وجلّ قد بعث رسولاً، وأنزل

عليه كتاباً ليستنقذكم به ممّا كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، إني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه.

يقول الرواة: فوالله، ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة إلّا مسلماً. حتى قال ابن عباس رضي الله عنه: «ما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة»[١].

الحكّام المسلمون وسيرة الطغاة

وهنا ربما يقول قائل: إننا حينما نتكلّم عن هؤلاء الظلمة، ونبرز عنهم هذه الصورة السوداء القاتمة، فإن الكلام لابدّ أن يكون المعنيَّ به السلاطين الكافرون أو العتاة من المشركين الذين لا يعرفون الله تبارك وتعالى، ولا يعبدونه ولا يوحّدونه، ولا يقيمون وزناً لرسالاته، بل إنهم حتى لا يعرفون سوى أنفسهم المريضة، وسلطانهم القائم على الطغيان والظلم، وعروشهم المصنوعة من لَبِن البغي الجور. بل إننا نجد أن القرآن الكريم وكتب التاريخ التدويني والتكويني تحدّثنا عن بعضهم بأنهم قد ادّعوا الربوبية والأُلوهية، ودعا الناس إلى تأليهه وعبادته كما هو الحال مع فرعون مثلاً. أما أن يعمد حاكم مسلم إلى هذه الأفعال، وهو عارف

(١) مسند أحمد ١: ٢٦٤ ـ ٢٦٥، الاستيعاب ٢: ٧٥٣، أُسد الغابة ٣: ٤٣، تاريخ المدينة ٢: ٥٢٢، تاريخ الطبري ٢: ٣٨٤، الكامل في التاريخ ٢: ٢٩٠.

بمدى عقوبة الله تبارك وتعالى للظالم، وبمدى تعذيبه جلّ وعلا لمن يمارس اغتصاب أدنى حقّ من حقوق الناس، وتحت أي ذريعة كانت، فهذا أمر مرفوض قطعاً وغير مقبول بحقّهم أبداً.

هذه هي الصورة التي يحاول البعض رسمها للولاة والحكّام المسلمين، وإبرازها عنهم، لكننا نقول بأن هذا الأمر ليس من نسج الخيال، ولا من وحي أوهام النفس البشرية وليس هو من بنات أفكارنا، بل إنه واقع عاشه المسلمون على امتداد تاريخهم الطويل؛ ولهذا فإننا نجد هذه السيرة عند الكثير من خلفائهم ووزرائهم في العصور الإسلامية المتعاقبة، والذين يفترض بهم أن يكونوا قادة دول إسلامية تسير على نهج الإسلام وضوئه، وتبتعد عن كلّ ما نهى عنه الإسلام. ويمكن استجلاء هذا على صعيدين:

الأول: الفساد والتهالك على الملذّات

إننا عند متابعتنا لسيرة هؤلاء عبر استنطاق الكتب والمدوّنات التاريخية التي تناولت حياتهم، وجدنا أنها قد أشارت بشكل واضح لا يقبل الردّ، بل لا لُبس فيه أبداً إلى استهتار أُولئك الحكام، وإلى بعدهم عن الدين، وعن صفات القائد الإسلامي التي يجب أن يتّصفوا بها، والتي وضعها القرآن الكريم، وحدّ حدودها رسولنا الأكرم ﷺ.

كما أن هذه الكتب المختصّة قد أشارت إلى سعيهم الحثيث والدائم إلى إشباع غرائزهم وشهواتهم بكلّ ما أُوتوه من طاقة، مستخدمين لذلك ثروات المسلمين وأموالهم مفرّطين فيها لأجل تلك الملذّات والشهوات دون خوف من الله تبارك وتعالى، ودون خشية من شعب؛ لأنهم أساساً لم

يكونوا ليقيموا له وزناً، أو ليضعوا له اعتباراً؛ بما أنه زهيد عندهم وذو ثمن بخس ورخيص. إن هذا هو الذي نجده عندهم ـ وهو أمر واضح لا غبار عليه ـ وهو جانب من حياتهم مظلم ومعتم، ويبرزهم على أنهم على الخلاف تماماً من ذلك الذي يراد له أن يلصق بهم، وأن يضفَىٰ عليهم من صبغة الإيمان والالتزام.

الثاني: الظلم في حياة حكّام المسلمين، الزيّات وتعذيبه بالتنّور

كما أن التاريخ يحدثنا مثلاً أن أحد وزراء بني العباس كان يضع في أحد سجونه تنوراً في داخله مسامير مدببة وحادة جداً ثم يعمد إلى بعض الناس من نزلاء ذلك السجن ويدخله في ذلك التنور ثم يوقد تحته ناراً ويظل هذا الإنسان لا يتمكن من الحركة لأنه ان تحرك إلى أي جهة من الجهات فإن تلك المسامير سوف تخزه وتمزق بدنه وهكذا يبقى في ذلك التنور حتى يموت[١].

هذا مثال واحد ومتواضع، بل لا يكاد يذكر قياساً إلى تلك الجرائم

---

(١) هو الوزير العبّاسي محمد بن عبد الملك الزيات، وكان قد استوزره كلّ من المعتصم والواثق والمتوكّل. وكان من سنن الله تبارك وتعالى التي لا تبديل لها ولا تغيير أن أدخله المتوكّل بعد أن غضب عليه في ذلك التنور الذي كان يعذّب فيه المظلومين، وعذّبه فيه إلى أن مات سنة (٢٣٣) هـ. تاريخ الطبري ٧: ٣٤٥، وفيه: أنه أول من ابتدع ذلك وأمر بعمله، تاريخ بغداد ٣: ١٤٥ ـ ١٤٦، تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٤٢، الأنساب ٣: ١٨٤، الكامل في التاريخ ٧: ٣٧.

المنظّمة التي كانت تمارس تحت غطاء الإسلام.. الجرائم التـي ارتكـبها أُولئك، وكلّها تدلّ على مدى لؤمهم، وهم الذين حكموا باسم الإسلام، فشوّهوا صورته عند الآخرين.

ولنا هنا أن نتصوّر مدى الألم والبؤس والشقاء الذي كابدته الإنسانية، والذي عانته من هؤلاء الظلمة العتاة الذين تلبّسوا بلباس الإسلام، وتزيّوا بزيّه، ثم بعد ذلك راحوا يقتلون أبناءه. وهؤلاء هم أحـقّ بـأن يكـونوا مصاديق قوله تعالى: ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**﴾[1].

إذن فالمفارقات المؤلمة التي أُتخم بها تاريخنا، والتي أفصحت عنها اللوحات التاريخية للممارسات البشعة لهؤلاء الظلمة ضدّ شعوبهم ورعاياهم، والتي برزت من بين ثنايا سطور سيرتهم المكتظّة بأبشع صور الشذوذ عن تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وأوسعها كـانت هـي السـمة الغالبة على حياة أُولئك الحكّام بما فيها من تعتيم على الحقّ، وبعد عن الدين والعدل.

(١) النساء: ٥٦.

الشاة لا يضيرها سلخها بعد أن تذبح

ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر ننقل ما يرويه لنا المؤرخون من أنه لمّا حاصر الجيش الأُموي عبد الله بن الزبير في مكّة، دخلت عليه أُمه أسماء فوجدته مضطرباً، فقالت له: ما بك؟ فقال لها ـ وقد أراد من خلاله أن يطلعها على أمر هو أن هؤلاء ليس عندهم أخلاق إنسانية؛ ولذا فإنه يرى بأنهم سوف يمثّلون به بعد موته ـ: إني لا آمن إن قتلت أن يمثّل بي وأُصلب. فقالت له: أي بني، إن الشاة لا يضرّها السلخ بعد الذبح، فهي إذا ذبحت لا تألم[1].

وهذا أمر بديهي؛ ذلك أن الروح هي آلة الإحساس بالألم وليس الجسم الفاني الذي هو ليس إلّا عبارة عن وسيلة لإيصال ذلك الألم إلى الروح التي تشعر بالعذاب كما أنها تشعر بالنعيم.

ابن السكيت أُنموذج شيعي مشرف

ولو أن أحداً أراد أن يحقّق في هذا الأمر ويستقرئه؛ ليستجلي في أُفقه خصائص الموالي، ويستنطق في مداه مواصفات الشيعي الحقّ وليس المنافق، فإننا نجد أن هناك في تاريخنا نماذج مشرّفة كانت أهلاً لأن توصف بكونها موالية ومحبّة لأهل البيت النبوي الطاهر عليهم السلام، وأن توسم

(١) شجرة طوبى ١: ١٢٤، بلاغات النساء: ١٣٧، وفيات الأعيان ٣: ٧٥.

بسمة الشيعي؛ لما كان لهم من مواقف إزاء الظالمين وفي وجههم دفاعاً عن أهل البيت عليهم السلام، وليس شأنهم قطّ المداهنة والممالأة للظَلَمة من أعدائهم.

وكدليل على هذا نضرب مثلاً واحداً من هؤلاء هو ابن السكّيت رضي الله عنه الذي كان معلّماً لولدي المتوكّل، وقد رصد المتوكّل له مرتّباً شهرياً قدره ألف دينار، وهو مبلغ كان يعدّ ثروة طائلة آنذاك. وكانت هذه الدنانير من الذهب الخالص، هذا فضلاً عن أنه كان يعطيه في المناسبات والأعياد الهدايا الكثيرة، والهبات الجزيلة والتحف السنية والثمينة؛ لأنه كان يقدّر فيه علمه وفضله، فضلاً عن أنه معلّم ولديه.

غير أن أحد الواشين جاء ليهمس في أُذن المتوكّل بأن ابن السكيت هذا موالٍ لأمير المؤمنين عليه السلام، ولأهل بيته عليهم السلام، فأراد المتوكّل أن يتحقّق من صحّة هذه الوشاية، فسأله مختبراً إياه قائلاً: من أحبّ إليك؛ هما ـ يريد ولديه ـ أم الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب؟ فقال له: والله، إن قنبر خادم علي عليه السلام خير منك ومن ابنيك. فقال المتوكّل: سلّوا لسانه من قفاه.

ففعلوا ذلك، ثم أمر أزلامه وأعوانه من الأتراك، فداسوا بطنه، فكان أن مات شهيداً صابراً بعد يوم[1].

وهذا في الواقع موقف مشرّف، وصاحبه يستحقّ هذا اللقب الشريف

(١) سير أعلام النبلاء ١٢: ١٨، تاريخ الإسلام ١٨: ٥٥٢، وفيات الأعيان ٦: ٤٠٠ ـ ٤٠١.
قال الذهبي: وكان في المتوكّل نصب، نسأل الله العفو.

والنبيل، وهو لقب شيعي؛ ذلك أن شخصاً بهذا اللون من الصلابة والوقوف مع الحقّ بوجه الباطل ـ مع ما للباطل من سلطة وهيمنة وإرهاب يحمل الناس الضعاف والنفعيّين على أن يداهنوه ويزيّنوا له مواقفه الشائنة وأفعاله الناشزة ـ لهو أُنموذج مشرّف حقّاً، ومثال يتّبّع ويحتذى، وقدوة حسنة تحمل الآخرين على أن يعتزّوا بها وبأمثالها من حملة الفكر والدين والعقيدة، الذين تجذّرت عندهم مفاهيم هذه المسميات السامية بل مدياتها في كلّ بعد من أبعادهم النفسية وغيرها، وفي عقولهم وأذهانهم؛ فهم يدافعون عن العقيدة والدين ولو كلّفهم ذلك حياتهم كما حصل لابن السكيت.

إذن فابن السكيت رضي الله عنه وأمثاله هم الذين يمثّلون المبدأ الحقّ، وهم الذين يمثّلون التشيّع الصحيح والحقيقي الذي يعكس المواقف الصارمة لأبناء التشيّع إزاء مذهبهم وعقيدتهم، وهم الذين يمثّلون الإسلام الحقيقي في الوقت نفسه؛ لأنهم إنما وقفوا بشجاعة في وجه تلك الطغمة الجائرة الفاسدة للدفاع عن مبادئهم وأفكارهم، وعن رسالة السماء المتمثّلة بالدين الإسلامي الحنيف، وبمذهب التشيع الشريف.

إن هذا النمط هو الذي ينبغي علينا أن نعتزّ به؛ لأنه الأشرف والأمثل والأفضل بما كان يحمل من صلابة موقف، وقوّة عقيدة، وثبات جنان حتى أمام أعتى السلطات مع ما كانت تمارسه من وسائل الإرهاب والتخويف والتعذيب؛ لتأخذ برقاب الناس أخذاً إلى أن يسلّموا لها بأنها هي الأُنموذج المشرّف والنمط السامي والأفضل في تاريخنا، وأنهم

يمثلون نقاطاً مضيئة، وعلامات بارزة مشرّفة في هذا التاريخ الذي يمثّل وجودنا وأبعادنا كلّها. أما أُولئك الناس الذين لا يعرفون من التشيّع إلّا مجرّد الاسم والانتماء، ولا يعرفون من الإسلام إلّا كونه عبارة عن قول «**أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله**»، وهو مع ذلك يحمل عداء للإسلام ضخماً وكبيراً، فإنهم ليس لهم من قيمة تذكر؛ لما لهم من مواقف مخزية في هذا التاريخ.

ومن هنا فإننا نقول: إن لم يكن الأمر كذلك، فما هي قيمة العقيدة إذا كانت أداة تسلية وأُلعوبة بيد الطغاة يرسمونها لرعيّتهم كيف يشاؤون، ويحدّدون معالمها لهم بالشكل الذي يرتؤون، ويقولبون أنماطها لهم وفق أُطرهم التي تخدم أغراضهم، وزوايا نظرهم القائمة على تحسين القبيح وتقبيح الحسن؟ وما هي أهمية كيانها؟ وما هو مقدار أثرها إن كانت بهذا المعنى الذي تؤشّر له آية المقام الكريمة: ﴿**فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ**﴾؟ وما هي قيمة تلك العقيدة التي يحمل الظرف الذي يكتنفها أصحاب الفكر الحرّ والإيمان الحقيقي على البعد عن حاملها بناء على الخوف من السلطة إذا كانت بهذا المعنى الذي أشرنا إليه في هذا المقطع من آية المقام الكريمة؟

المشركون والروّاد الأوائل من المسلمين

وهذا الأمر عينه قد تكرر ـ كما هو شأنه أن يتكرر في كلّ حادثة مماثلة ـ في زمن بداية الدعوة الإسلامية حينما كانت في أوّل مهدها في مكة المكرمة، فقد تعرض الكثير من أولئك الرواد الأوائل إلى أنواع من التعذيب الوحشي الذي ليس فيه أي جنبة إنسانية على يد عتاة قريش ومشركيها. ومن هذه النماذج نذكر:

الأوّل: بلال الحبشي رضي الله عنه

إن بلالاً رحمه الله كان من المبادرين الأوائل إلى الدعوى منذ أوّل ظهورها، وبعد أن أحس به المشركون في مكة المكرمة أخذه عتاتهم وعرضوه إلى شتى صنوف التعذيب، فكانت السياط ترتفع وتهبط على جسده وكانت تأكل من لحمه، ويطلبون منه أن يقول: إن اللاة والعزى حق، فكان يرد عليهم بقوله: فرد أحد لم يلد ولم يولد. وهكذا حتى أخذت السياط منه مأخذاً عظيماً.

الثاني: خبّاب بن الأرتّ رضي الله عنه

أمّا خبّاب بن الأرتّ هذا فقد اعتقلته الطغمة العاتية من قريش؛ لإيمانه بالدين الجديد، ثم عمدوا إلى إيقاد نار تحت ظهره حتى بدأ جلد ظهره وودكه يتساقطان على النار، وهو باقٍ على عقيدته ولم يتزعزع عنها.

فهذان الشخصان اللذان مثّلا الصمود والصبر على الظلم من أجل العقيدة هما نمطان من أنماط كثيرة وعديدة قد عرضت للعذاب وللفتنة،

لكن هؤلاء صمدوا صموداً رائعاً وكبيراً لا حدود له.

موقف أبيّ الضيم عليه السلام في عاشوراء على ضوء آية المقام

وهذا الموقف الرائع الذي وقفه المؤمنون الخلّص من أتباع النبي موسى عليه السلام من فرعون وصمودهم في وجهه يأخذ بنا إلى ذلك الموقف الرائع والعظيم والنبيل الذي وقفه سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وابنه الإمام الحسين عليه السلام وصحابته الكرام (رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين) يوم العاشر من المحرم، مع أنه كان موقفاً رهيباً لا يحتاج إلى زيادة إيضاح وبيان؛ فما حدث فيه غني عن التعريف بعد أن أسهب المؤرخون وكتاب السير في وصف تلك الفظائع التي أوقعها الجيش الأموي بتلك الثلة المؤمنة الطاهرة المتمثّلة بالحقّ المتجسّد بالإمام الحسين عليه السلام، وبأهل بيته وأصحابه (رضوان الله عليهم) الذين أبوا أن يتخلوا عنه وأن يخنعوا للظلم ويخضعوا ليزيد وسلطانه أو يغترّوا بالإغراءات التي قدمتها لهم السلطات آنذاك من أجل التخلي عن الإمام الحسين عليه السلام.

أمير المؤمنين عليه السلام وسمة الزهد

يروي المؤرخون أن هذا المعنى الذي كان موجوداً عند النبي داود عليه السلام هو عينه موجود بحذافيره عند الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي كان يأكل من كدّ يده، ويأبى أن يتناول شيئاً من بيت المال. وأبياته المعروفة والمشهورة شاهد على ذلك، حيث يقول عليه السلام:

لنــقل الصــخر مــن قــلل الجـبالِ أحبّ إليّ مــــن مــــنن الرجــالِ
يــقول النــاس لي فـي الكسب عـار فــقلت العــار فــي ذلّ الســؤالِ[(١)]

فكان عليه السلام يعمل إلى وقت متأخر من النهار حتى مجلت يداه من العمل، وكان من عمله أنه يستنبط العيون، ويزرع البساتين وينشئها، ويبيعها ثم يأخذ قسماً من أموالها ليشتري بها عبيداً كـي يـعتقهم لوجـه الله تـبارك وتعالى، أما القسم الآخر فيقتات منه هو وعياله. وهكذا فـإنه عليه السلام كـان نادراً ما يرجع إلى بيته وهو يحمل معه شيئاً من المال بل إنه في غـالب أوقاته يرجع وليس عنده درهم لعياله، وهو مع ذلك يأبى أن يمد يده إلى بيت مال المسلمين ويأخذ منه.

يروي سويد بن غفلة عنه موقفاً مفعماً بالزهد والإنسانية؛ حيث إنه عليه السلام قد أبت نفسه المـقدّسة إلّا أن تشـارك الفـقراء فـقرهم وهـموم حـياتهم ومعاشهم، وإلّا أن يأكل من ماله الخاصّ وإن كان بيت المال كلّه تـحت تصرّفه، يقول سويد: دخلت عليه وهو في طريقه إلىٰ الحجاز، فوجدت جراباً معلقاً ومختوماً، فلما حان وقت الظهر أنزل ذلك الجراب ومد يده فيه ثم أخرج شيئاً من السَّويق، فقلت: يا سيدي، أراك قد أغلقته! قال عليه السلام: **«أوَتظن ذلك لبخل؟ لا والله ولكن هذا طعامٌ مـن أرض أنـا أزرعـها مـنذ كـنت بالحجاز، والآن يزرعها أهلي ثم يبعثون لي منها، وأنا آكل منه، ولا اُحب أن يدخل**

(١) المبسوط (السرخسي) ٣٠: ٢٧٢، كشف الخفاء ١: ١٢٣ / ٣٤٣.

بطني إلّا الطعام الطيب»[١].

---

(١) ما وصل إلينا في هذا الخصوص من مرويات هو ما ذكره ابن شهر آشوب حيث قال: ورآه سويد بن غفلة وهو يأكل رغيفاً يكسره بركبتيه ويلقيه في لبن خازر يجد ريحه من حموضته، فقلت: ويحك يا فضة، أما تتّقون الله تعالى في الشيخ فتنخلون له طعاماً لما أرى فيه من النخال؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «بأبي وأمي من لم يُنخل له طعام، ولم يشبع من خبز البرّ حتى قبضه الله تبارك وتعالى». مناقب آل أبي طالب ١: ٣٦٧، وفي بحار الأنوار عن (المناقب) و(الإحياء) للغزالي أنه عليه السلام كان له سويق في إناه مختوم يشرب منه، فقيل له: أتفعل هذا بالعراق مع كثرة طعامه؟ فقال عليه السلام: «أما إني لا أختمه بخلاً به، ولكني أكره أن يجعل فيه ما ليس منه، وأكره أن يدخل بطني غير طيب».

وعن معاوية بن عمار عن الصادق عليه السلام أنه قال: «كان علي عليه السلام لا يأكل ممّا هنا حتى يؤتى به من ثَمّ»، يعني الحجاز.

وعن الأصبغ بن نباتة: قال علي عليه السلام: «دخلت بلادكم بأشمالي هذه ورحلتي وراحلتي ها هي، فإن أنا خرجت من بلادكم بغير ما دخلت فإنني من الخائنين». وفي رواية: «يا أهل البصرة، ما تنقمون مني؟ إن هذا لمن غزل أهلي». وأشار إلى قميصه.

وترصّد غداءه عمرو بن حريث، فأتت فضة بجراب مختوم، فأخرج منه خبزاً متغيراً خشناً، فقال عمرو: يا فضة لو نخلت هذا الدقيق وطيبتِه. قالت: كنت أفعل فنهاني. وكنت أضع في جرابه طعاماً طيباً، فختم جرابه. ثم إنه عليه السلام فتّه في قصعة، وصب عليه الماء، ثم ذرّ عليه الملح، وحسر عن ذراعه، فلما فرغ قال: «يا عمرو، لقد خابت هذه ـ ومدّ يده إلى محاسنه ـ وخسرت هذه إن أُدخلها النار من أجل الطعام، وهذا يجزيني».

ورآه عدي بن حاتم وقت الإفطار، وبين يديه شنة فيها قراح ماء وكسرات من خبز شعير

فهذه السمة مشتهرة عنده عليه السلام وهي من سمات الأنبياء والرسل عليهم السلام؛ لأنه ربيب القرآن، ولأنه تلميذ مدرسة رسول الله صلى الله عليه وآله التي استمد منها كلّ قيم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله السامية، وجميع مبادئه الإلهية العالية، وأخلاقه الراقية، وهي المدرسة التي استطاع من خلالها أن يؤثّل لنفسه مجداً ليس بعده مجد وذكراً ليس فوقه ذكر.

الكلمات التي ابتلى بها الله تعالى إبراهيم

تقول الآية الكريمة موضوع النقاش: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1]، وهي آية كريمة تتناول بشكل واضح لا لُبس فيه مسألة الإمامة الشرعية في الناس، وكونها جعلاً تشريعياً من الله تبارك وتعالى فيمن يختاره لها من عباده، ولمن يجعلها فيه ممّن يشاء ويصطفي منهم، وهم من ترتئيهم حكمته ومشيئته بناء على ضوابط شرعية وعقلية يخضع لها ذلك الاختيار

وملح، فقال: إني لا أرى لك يا أمير المؤمنين لتظل نهارك طاوياً مجاهداً، وبالليل ساهراً مكابداً، ثم يكون هذا فطورك. فقال عليه السلام:

«علل النفس بالقنوع وإلّا طلبت منك فوق ما يكفيها»

وقال سويد بن غفلة: دخلت عليه يوم عيد فإذا عنده فاثور عليه خبز السمراء، وصفحة فيها خطيفة وملبنة، فقلت: يا أمير المؤمنين، يوم عيد وخطيفة؟ فقال عليه السلام: «إنما هذا عيد من غفر له». بحار الأنوار ٤٠: ٣٢٥ ـ ٣٢٦ / ٧.

(١) البقرة: ١٢٤.

وتلك المشيئة. وإنما كان التأكيد الكبير والشديد عليها من السماء بـما أنها وظيفة سماوية حرجة، وهي ذات بعدين:

الأول: كونها امتداداً لخطّ الرسالة الذي يمثّل أهمية قصوى في تاريخ البشرية ومسيرتها.

الثـاني: ما يشترط توفره في الإمام من أخلاق سامية، وطبائع عالية، وصفات نبيلة تؤهّله لأن يتسنّم ذرا ذلك المنصب الإلهـي القـيادي بـما ينطوي عليه من حياطة على السلطات الثلاث: التشـريعية، والقـضائية، والتنفيذية أو الإجرائية، وتهيّئه لأن يستلم دفّة الأُمّة ليدير شؤونها،ويدبّر لها أُمورها وأحوالها.

ومن هنا فقد عظّم الله سبحانه شأن الإمامة والإمام، وكان اخـتيار الله تبارك وتعالى أصحابها القائمين بها وعليها.

وعليه فلابدّ أن تكون تلك الأشـياء التـي تـؤدي إلى حـصولها عـند الإنسان على ذلك المستوى من الضخامة والتميز بحيث إنها لا يمكن إلّا أن تكون كبيرة وعظيمة كما هو الحال في تلك الكلمات التي أتـمها الله تبارك وتعالى على نبيه ابراهيم عليه السلام.

الكلمات العشر

لكننا مع ذلك نجد أن المفسرين يقولون في خصوص هذه الكـلمات التي ابتلى الله تبارك وتعالى بها النبي ابراهيم عليه السلام هي التكـاليف العشـرة التي يذكرونها بالقول: وهذه التكاليف العشرة قسمان: خمسة في الرأس، وخمسة في الجسم:

القسم الأول: خمسة في الرأس

وهي:

١ ـ المضمضة؛ لتطهير الفم.

٢ ـ الاستنشاق؛ لتطهير المجاري التنفسية.

٣ ـ السواك.

٤ ـ قصّ الشارب.

٥ ـ فرق الرأس.

القسم الثاني: خمسة في البدن

وهي

١ ـ قصّ الظفر.

٢ ـ إزالة الشعر من مواضعه.

٣ ـ الختان.

٤ ـ الاستجمار بالماء أو بالحجارة، حسب موضوع الحكم.

٥ ـ الغسل من الجنابة.

والغريب هنا أن هذا المعنىٰ ترويه المذاهب الإسلامية كافّة! خصوصاً أن هذا التفسير يوجد عند العباقرة من المحدّثين والمفسّرين[1].

---

(١) انظر: مجمع البيان ١: ٣٧٤ ـ ٣٧٥، جامع البيان ١: ٧٣٠ / ١٥٧٧ ـ ١٥٧٩، تفسير القرآن العظيم ١: ١٧٠، المستدرك علىٰ الصحيحين ٢: ٢٦٦، الجامع لأحكام القرآن ٢: ٩٨، باختلاف فيها في هذه السنن العشرة.

وقد ذكر المحاضر رحمه الله فيما سبق من هذه الموسوعة الشريفة أنها من رواية عكرمة عن ابن

فهل هذه هي الكلمات التي ابتلى تبارك وتعالى النبي ابراهيم عليه السلام وأهله لتسنم منصب الإمامة في الأرض؟ إن ابراهيم عليه السلام هو رجل عظيم وهو أبو الأنبياء جميعهم، وعليه فلا يمكن أن يبتلى بأمثال هذه الأُمور التي لا يمكن أن تؤهل إنساناً إلى أدنى وظيفة دون أن تكون أعلى وظيفة لأنها الوظيفة الإلهية التي ارتآها الله تبارك وتعالى أن تكون في هذه الثلة الكريمة والمتميزة من بين عباده. ونحن لا ننكر أن هذا المعنى هو موجود حتى عند بعض التفاسير الشيعية التي هي في واقع الأمر تنقل آراء المسلمين عامّة؛ لأنها من التفاسير الموسوعية التي تروي الروايات الواردة من الطرفين في خصوص تلك الآية الكريمة.

عباس، وأن عكرمة هذا معروف بالكذب كما حقّقناه في موضعه من حاله هناك؛ حيث ذكرنا هناك جملة من آراء علماء القوم فيه، نذكر منها اختصاراً:

١ ـ قال علي بن عبد الله بن عباس: إن هذا يكذب على أبي. المعارف: ٢٠١.

٢ ـ قال ابن سعد: ليس يحتجّ بحديثه. الطبقات الكبرى ٥: ٢٩٣.

٣ ـ أنه كان خفيف العقل. تهذيب التهذيب ٧: ٢٣٧.

٤ ـ أن الناس شهدوا جنازة كثير عزّة ولم يشهدوا جنازته وقد ماتا في يوم واحد. تهذيب التهذيب ٧: ٢٤٠.

٦ ـ قال ابن المسيّب لمولاه برد: لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس. تهذيب التهذيب ٧: ٢٣٧ ـ ٢٣٨، وانظر ميزان الاعتدال ٣: ٩٣ ـ ٩٧، إكمال الكمال ١: ٢٥٥، تهذيب الكمال ٢٠: ٢٧٩.

٧ ـ أن مالكاً ومسلماً تركاه. ميزان الاعتدال ٣: ٩٣.

لكننا مع كلّ ذلك نقول: إن هذا الرأي مما لا يمكن القبول بـه أبـداً فضلاً عن القول به؛ لأنه لا يلتقي مع قواعد العقل السليم، ولا مع ضوابط الدين بما أنها كلمات تؤدي إلى تسنم رتبة الإمـامة ودور الخـلافة فـي الأرض.

الرأي الصحيح في التفسير

إذن فالتفسير الصحيح لهذه الكلمات هو أنها الكلمات التي تلقّاها آدم من ربه فتاب عليه بها، وهي أنه عليه السلام قال: «**يا رب، أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت علي. فتاب الله عليه إنه هو التواب الرحيم**». يقول المفضّل: فقلت له: يابن رسول الله، فما يـعني عـزّ وجـلّ بـقوله: ﴿**فَأَتَمَّهُنَّ**﴾؟ قال عليه السلام: «**يعني فأتمهن إلى القائم عليه السلام اثني عشر إماماً؛ تسعة من ولد الحسين**». قال المفضل: فقلت له: يابن رسول الله، فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ**﴾[1]. قـال عليه السلام: «**يـعني بـذلك الإمامة**»[2].

وهذا ما يلخصه بيتا الشعر التاليان:

لي خـمسة أُطـفي بـهم نـار الجـحيم الحـاطمه
المـصطفى والمـرتضى وابـناهما وفـاطمه[3]

---

(١) الزخرف: ٢٨.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة: ٣٥٨ / ٥٧، الخصال: ٣٠٥، ينابيع المودّة ١: ٢٩٠.

(٣) مدينة النجف (محمد علي جعفر التميمي): ٢٧١.

موقف محمد التابعي من الشيعة

وأُولئك الذين يروون قصّ الأظافر وإزالة الأوساخ لا يعتبرونها خرافة،لكنهم يعتبرون كلمات هذين البيتين خرافة. أما محمّد التابعي عندما يناقش الدكتورة بنت الشاطئ وهي تشرح قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً**﴾(١)، وإثبات أنه نزل في الخمسة أصحاب الكساء(٢)، وهم النبي صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، حيث نزلت السورة بمناسبة النذر المعروف، فإنه يصفها بأنها مخرّفة؛ لأنها روت رواية نذر الإمام علي وفاطمة وخادمتهما فضة إن عوفي الحسنان عليهما السلام من مرضهما فإنهم سوف يصومون ثلاثة أيام؛ قربة إلى الله تبارك وتعالى، وشكراً له.

ثم يعقب التابعي على كلامها بقوله: إن التفسير الذي تستند إليه، وتروي عنه ما هو إلّا خرافات، كتفسير النيسابوري(٣) وتفسير الزمخشري(٤)، وإن هذه السورة لا علاقة لها بهؤلاء(٥)، وإن الدكتورة بنت

---

(١) الإنسان: ١.

(٢) كما في المعجم الأوسط ٧: ٣١٩، فيض القدير شرح الجامع القدير ١: ٢١٧ / ٢٠٤، وغيرهما ممّا سيأتي في الهوامش اللّاحقة. (٣) أسباب نزول الآيات: ٢٩٧.

(٤) الكشّاف ٤: ٦٧٠.

(٥) قد مرّ أن ابن تيمية هو الذي أثار هذا الأمر؛ حيث سعى جاهداً إلى إثبات أن السورة هذه

الشاطئ تخرّف بهذا الخصوص، والمفروض بها أن تعرف اختصاصها، وأن هذا ليس من عملها.

هذا مع أن القصة معروفة مبثوثة في كتب التفسير حيث تروي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن الحسن والحسين عليهما السلام مرضا، فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله في أُناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن، لو نذرت على ولديك. فنذر علي وفاطمة وفضّة جارية لهما إن شفاهما الله تعالى أن يصوموا ثلاثة أيام.

فشفيا عليهما السلام وما معهم شيء، فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاثة أصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً، واختبزت خمسة أقراص على عددهم ووضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين

مكية وليست مدنية؛ فلا علاقة لها بالحسنين عليهما السلام، وحاول من خلاله نفي هذه الفضيلة عن أهل البيت عليهم السلام وإن كانوا بما حباهم الله به لا يضيرهم إنكار فضيلة من فضائلهم، لكنه الحقد الذي صوّر الأعشى صاحبه أمام القمم في ديوانه: ١٤٤ بقوله:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليفلقَها   فلم يضرْها وأوهى قرنَه الوعلُ

وقد صرّح به في مجموع الفتاوى ٤: ٤١٩، ومن مظاهر حقده ما بثّه في كتبه، انظر منهاج السنة ٥: ٧ ـ ٥. وقد ذكرنا هناك ما نقله كلّ من ابن الجوزي في زاد المسير ٨: ١٤١، والشوكاني في فتح القدير ٥: ٣٤٣ في مكان نزول هذه الآية الكريمة ممّا فيه دحض لهذا القول السخيف ورفع له. انظر ج٣ ص٢٣٧ ـ ٢٣٨ من موسوعتنا محاضرات الوائلي.

أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة.

فآثروه وباتوا ولم يذوقوا إلّا الماء، وأصبحوا صائمين، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه، وجاءهم أسير في الثالثة، ففعلوا مثل ذلك. فلمّا أصبحوا أخذ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بيد الحسن والحسين، ودخلوا على الرسول (عليه وعلى آله الصلاة والسلام)، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع قال: «**ما أشدّ ما يسوءني ما أرى بكم؟**».

وقام صلى الله عليه وآله فانطلق معهم، فرأى فاطمة في محرابها قد التصق بطنها بظهرها، وغارت عيناها، فساءه ذلك، فنزل جبريل عليه السلام وقال: «**خذها يا محمد، هنّأك الله في أهل بيتك**»(١).

لكن محمداً التابعي هذا كما ذكرنا يصف الدكتورة بنت الشاطئ بأنها مخرّفة وأن هذا الحديث الذي ترويه هو حديث كذب وأنها لم تنزل في هؤلاء أبداً. فهل مثل هذا يمكن أن يكون موضع خرافة مع أن الروايات الكثيرة تعضده؟

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ٣: ٤٢٨، تفسير السمرقندي ٣: ٥٠٤، تفسير الثعلبي ١٠: ٩٨، شواهد التنزيل ٢: ٤٠٦ / ١٠٥٧، التفسير الكبير ٣٠: ٢٤٤، الجامع لأحكام القرآن ١٩: ١٣٠.

ثورة السبط عليه السلام في منظور النبي صلى الله عليه وآله

إذن فوفق التقرير الآنف الذي اختتمنا به المبحث السابق ـ وهو أن الأنبياء عليهم السلام كافة لا ينطقون عن الهوى، ولا يتبعون العواطف ـ فإننا نتوصل إلى حقيقة أُخرى هي أنهم عليهم السلام إذا ما امتدحوا شخصاً أو أضفوا عليه التزكية السماوية فإن ذلك المدح وتلك التزكية لا يكونان إلّا تزكية ومدحاً من السماء نفسها؛ لأنهم لا يتبعون العاطفة كما ذكرنا. ومن هنا فإننا حينما نرجع إلى جملة من أحاديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فإننا نجد فيها قوله صلى الله عليه وآله عن سبطه وريحانته وابنه الإمام الحسين عليه السلام من أنه «**سيد شباب أهل الجنة**»[1].

ومن خلال هذا الحديث الشريف نجد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يشهد للإمام الحسين عليه السلام بأنه سيد أهل الجنة يوم القيامة، أو في العالم الآخر، أي أنه عليه السلام لا يكون إلّا في الجنة، وفوق هذا هو سيد أهلها كلّهم؛ لأننا نعرف أن أهل الجنة كلّهم يرجعون شباناً لحظة دخولهم.

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي١٦: ٤١، وغيرها كثير.

الأهداف السياسية للاعتراض على نهضة السبط عليه السلام

وبناء عليه فهل يصح لأحد أن يتناول نهضة الإمام الحسين عليه السلام هذه بمثل هذا اللون من النقد ومحاولة التهميش والتعتيم على الواقع والحقائق؟ وهل يجوز أن تفرّغ هذه الحركة السماوية، وهذه الثورة المحمّدية من محتواها الشرعي وأهدافها الإلهية بأمثال هذه التساؤلات الساذجة البعيدة عن روح الواقع المعاش، والتي لا تنمّ إلّا عن نفوس صغيرة تحاول إضفاء جوّ ضبابي على الحقائق الناصعة لعزلها عن تصوّرات الناس، والابتعاد بهم عن سبل الحقّ، والولوج بهم في مهاوي الجاهلية؟ وهل يصح أن يقال: هل إنها نهضة على حقّ، أم إنها ليست على كذلك، وإنها نهضة مخطوءة؟ وهل إن الإمام الحسين في خروجه هذا قد بغى على إمام زمانه أم لا؟

إن هذا الكلام وهذا الاعتراض الصادرين عن البعض يتّصفان بصفتين كلتاهما مرفوضة:

الصفة الأُولى: أنه اجتراء الله تبارك وتعالى

إن هذا الاعتراض هو في حقيقة الأمر ليس إلّا اجتراء لا على هذه النهضة الحسينية المباركة فقط، بل إنه اجتراء صريح وواضح على ما رسمه الله تبارك وتعالى لهذه النهضة المباركة؛ وعلى مقام النبوة ومرتبة الإمامة، كونهما الداعم الأكبر لها، والجهة التي أضفت عليها مشروعيتها؛ كونهما محدهما من له الحقّ في إضفاء المشروعية على التحرّكات والتصرّفات، وعلى الأقوال والأفعال.

الصفة الثانية: أنه كلام من لا يؤمن بالله تعالى ولا بنبيه ﷺ

ثم إن هذا الكلام والإنكار لا يمكن أن يصدر عن شخص يؤمن بالله تعالى، ويصدق بنبيه الكريم ﷺ، ويصدّق أقواله وأفعاله؛ فهي نهضة لا يمكن إلّا أن تكون مباركة وكريمة بما أن الرسول الأكرم ﷺ قد مدح صاحبها وزكّاه، وبهذا فإنه ﷺ يكون قد هيّأ الأجواء لتقبّل هذه الحركة بين الناس، ورسم مسار انتشارها بينهم.

إذن فمثل هذه الاعتراضات على النهضة الحسينية المباركة إن هي إلّا اعتراضات غير صحيحة، بل هي دعاوى واهية لا أساس لها تقوم عليه؛ لأن الإمام الحسين عليه السلام إنما يستمد مشروعيته من الرسول الأكرم ﷺ الذي زكاه في أكثر من مرّة ومن قول.

وبناء على هذا فإن الذي ينبغي أن يكون هو ألّا يطرح أي تساؤل حول حركة الإمام السبط الشهيد عليه السلام، وإزاء نهضته التصحيحية المباركة وخروجه الشريف، ولا أن يطرح سؤال: كيف نهض وخرج؟ ذلك أنه قد خرج على بصيرة من أمره لأنه قد أُعلم بكل ما كان وما يكون عليه، فقد أطلعه جده ﷺ على ذلك كلّه.

والدليل على هذا أنه عليه السلام حينما عزم على الخروج نادى أخاه محمّد بن الحنفية رضي الله عنه وأعطاه وصيته التي قال فيها: «**إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي ﷺ، وأن أسير فيهم بسيرة الحقّ؛ فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بقبول الحقّ، ومن ردّ عليّ هذا**

أصبر حتى يحكم الله وهو أحكم الحاكمين »[١].

وكان محمّد بن الحنفية رضي الله عنه مريضاً يغشى عليه ساعة بعد ساعة ولهذا فإنه عندما عزم على الخروج مع الإمام الحسين عليه السلام منعه الإمام عليه السلام لحالته المرضية التي كان عليها، وهكذا بقي محمّد ينتظر الأخبار حتى جاء النعيُّ باستشهاد الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه (رضوان الله عليهم)، لكنهم لم يخبروا محمداً بهذا الأمر لأنهم كانوا يخشون عليه أن يموت نتيجة مرضه ونتيجة شدة الصاعقة التي يحملها هذا النعي، ولذا فإنه أخذ يترصد الأخبار إلى أن رجعت السبايا، حتى إذا شارفت مدخل المدينة المنورة اهتزت المدينة بأرجائها، وارتجّت من أقصاها، إلى أقصاها فسأل محمّد صلى الله عليه وآله غلمانه: ما لي أرى المدينة تضج بأهلها، وأسمع عويلاً وبكاء؟

فقد كانت الحركة في المدينة المنوّرة حركة غير اعتيادية وغير طبيعية؛ لهول الفاجعة والمصيبة، لكنهم لم يستطيعوا أن يواجهوه بالحقيقة، فقالوا له: إن مسلم بن عقيل قد قتل، والناس يعزون به أهله. فقال لهم وماذا عن الحسين عليه السلام؟ فقالوا له: إنه لا يقوى على المجيء لكثرة من حوله؛ لأنهم لم يكونوا يريدون أن يخبروه الحقيقة. فقال لهم: إن ابن بنت رسول الله ينتظرني، فلأقصده.

وكان مريضاً، فلمّا أراد أن يقوم سقط إلى الأرض، ونهض ثانياً فسقط، وأمّا في الثالثة فنهض وقال: أما والله إن فيها لمصائب آل يعقوب.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

الإنسان ينتظر العوض على إحسانه

ذلك أن أي عمل يعمله الإنسان فهو إنما يعمله لنفسه في واقع الأمر؛ لأنه يعرف أن المردود الإيجابي لذلك الإحسان سوف يعود إليه. ومما يذكر في هذا المجال أن أحد الصلحاء سئل: كم من الإحسان كان منك للناس، وكم من الإساءة كانت منك إليهم؟ فقال: أنا إن فعلت ذلك، فإني لم أُحسن إلّا إلى نفسي، ولم أُسئ إلّا إليها. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأنني حينما أُقدم على الإحسان إلى أحد من الناس، أو حتى إلى غيرهم من الحيوانات، فإنني أُقدم عليه وأنا أضع أمامي هدفاً هو الجزاء الذي أُريده مقابله؛ سواء كان من الله تبارك وتعالى، أو من ذلك الإنسان نفسه. فأنا لا يحرّكني إلى الإحسان إلّا الجزاء المرتقب عليه. وكذلك الحال مع الإساءة؛ حيث إنها حينما تصدر من أحد تجاه غيره، فإنما يعود جزاؤها ومردودها السلبي عليه ضرراً يوم القيامة.

وهذا ما نلمسه واضحاً من خلال طروحات القرآن الكريم ومعالجاته، فنجده يؤكد هذه الحقيقة بقوله جلّ شأنه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1].

ومن هنا نعرف أن الإنسان لا يحركه إلى الإحسان إلى غيره إلّا الإحسان عينه إلى نفسه، فهو حينما يحسن إلى غيره فإنما يضع أمامه

(١) الإسراء: ٧.

هدفاً مسبقاً يسعى إليه، وهو عود ذلك الأمر بالمصلحة والمنفعة عليه؛ سواء كانت منفعة دنيوية، أو أُخروية. إن كلّ من يرد أن يفعل الجميل فإنه يحسب حساباته كاملة قبل أن يفعل ذلك الجميل؛ لأنه إنما ينتظر من وراء ذلك الجميل، أو الفعل الحسن ثواب الله سبحانه، أو رضا الناس ومديحهم سوى الأنبياء والأئمة عليهم السلام؛ فإنهم يعملون كل ذلك خالصاً لوجه الله تبارك وتعالى.

أديم الأرض وجوه الناس

إن على الإنسان أن يعي حقيقة واضحة ناصعة هي أنه حينما يمشي على هذه الأرض فهو إنما يمشي على وجوه لأُناس عاشوا عليها قبله؛ ولذا فإن الإنسان المؤمن حينما وعى هذه الحقيقة راح يمشي على الأرض هوناً. إذن فالإنسان سيما المؤمن بما أنه يعي هذه الحقيقة المرّة وفق هذه الآية الشريفة ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾ فعليه أن يمشي متواضعاً؛ لأنها تشير إلى أنه سوف يؤول إلى المصير عينه الذي كان لهؤلاء الذين عاشوا على هذه الأرض قبله وسبقوه إليها ثم ماتوا. فكما أنه يطأ على وجوه وأيدٍ لأقوام سبقوا وبادوا، فكذلك هو فإنه سوف يأتي عليه وقت تطؤه أقدام الآخرين حينما يتحول إلى تراب فيها بعد موته.

إن على الإنسان أن يعلم أنه ما من بقعة من بقاع الأرض إلّا وهي قبر،

أو ستكون قبراً لهذه المخلوقات التي خلقت عليها منذ أن أوجد الله الحياة، وهذا يعني أنها رؤوس ووجوه وأعضاء بشرية تفتّتت وتحولت إلى تراب أضيف إلى ترابها.

وهذه نقطة تنطوي على موعظة بالغة وعِبرة بليغة يجب أن يتوقف عندها الإنسان ويتعظ بها، ومن هنا فإن عليه وفق هذه الآية أن يكون متواضعاً وأن يكون رحيماً، بدلالة الإضافة التي في صدر هذه الآية الكريمة، فإنه جل شأنه لم يضفهم إلى هذه الصفة إلّا وهو يريد منهم أن يتّصفوا بها، وأن يتخلّقوا بأخلاقه جل شأنه، وأن يكونوا على مستوى من المسؤولية في التعامل مع الآخرين على ضوء الرحمة الإلهية المقدّسة التي هي أساس بناء المجتمعات كما ذكرنا؛ لاشتمالها على عامل تأصير الروابط الاجتماعية وتمتينها.

يقول أحد الأُدباء:

مررتُ على الوادي فسفَّت عَجاجةٌ	وكم من بلادٍ بالعجاج ومن نادِ
فأبطأتُ لمْ أنفض عن الرأسِ تُربَها	لأرفعَ تكريماً على الرأس أجدادي
ثلاثون جيلاً قد ثوتْ في قراره	تَزاحَمُ في عُربٍ وفُرسٍ وأكرادِ
ففي الخمسةِ الأشبارِ دُكَّتْ مدائنٌ	وقد طُويت في حفرةٍ ألفُ بغدادِ
طلبتُ ابنَ عبَّادٍ فألفيتُ صخرةً	وقد رُقشت: هذا ضريحُ ابنِ عبادِ

أي أيها الماشي بخيلاء وكبر، راعِ بمشيتك هذه تلك الوجوه والمحاسن والمفاتن التي تسير عليها، وإلى هذا المعنى نفسه يشير الشاعر

أبو العلاء المعري بقوله:

سر إن اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العبادِ
خفّف الوطء ما أظنّ أديم الـ أرض إلّا من هذه الأجسادِ
ربّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تزاحمِ الأضدادِ[1]

ابن مسعود أول من جهر بالقرآن في مكّة

ومن ذلك ما يرويه هؤلاء المؤرّخون[2] والمحدّثون[3] والمفسّرون[4] من أن أول آيات قرئت في مكّة على قريش علنا هي الآيات الأوائل لهذه السورة، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقلت: أنا. قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه. فقلت: دعوني؛ فإن الله سيمنعني.

ثم غدا ابن مسعود حتى أتى المنام في الضحى، وقريش في أنديتها، ثم قام عند المقام وقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

(١) سقط الزند: ٩٧٤ ـ ١٩٧٥، شرح نهج البلاغة ١١: ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ٧٣، كتاب الأوائل (الطبراني): ١١٥،.

(٣) السيرة النبوية (ابن هشام) ١: ٢٠٧، ٤٧٦، أُسد الغابة ٣: ٢٥٧.

(٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ١٧: ٤٣٧ ـ ٤٣٨ / ٤، تفسير الثعلبي ٩: ١٧٦.

بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾[1].

إلى آخره، رافعاً بها صوته، فتأملته قريش، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أُمّ عبد؟ ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد. فقاموا إليه فجعلوا يضربون وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثّروا في وجهه.

ولهذا السبب فقد اعتبر ابن مسعود أول مسلم جهر بالقرآن في مكّة أمام المشركين.

وهكذا فإن هذه القصة تعدّ مؤشراً واضحاً إلى كون النزول في مكة المكرمة، وهي تقرر لنا أن المسلمين كانوا يقرؤون القرآن بصوت منخفض لأنهم كانوا يخشون من قريش وعتاتهم أن ينزلوا بهم أليم العذاب، وأن يجردوهم من أموالهم أو يسلبوهم ما يملكون نتيجة اتباعهم هذا الدين الجديد.

وهذه الخشية ناتجة من نظام قبلي كان يشكل الدعامة الأساس، والهيكل العام للتكتّلات الاجتماعية القائمة آنذاك. وأدلّ دليل على هذا أن المسلمين كانوا يخشون على عبد الله بن مسعود أن يقف ويقرأها أمام المشركين بسبب كونه ليس له من عشيرة يمكن أن يحتمي بها أو يمكن أن تنظر إليها قريش فتمتنع عن انزال الأذى به؛ لأن المجتمع الذي كان قائماً آنذاك كما ذكرنا كان يسوده نظام القبيلة، فمن ينتمِ إلى قبيلة فإنه في

(١) الرحمن: ١ ـ ٧.

واقع الأمر ينتمي إلى العز والمنعة وإلى الاطمئنان لعدم التعرض له، أما ذلك الذي لا قبيلة له فإنه يفقد كلّ هذه المقومات وعوامل المتعة، وبالتالي فإنه يصبح عرضة لإنزال الأذى به من أي شخص أراد دون أن يخشى بوادر رد الفعل من قبيلة ذاك؛ لأنه لا قبيلة له.

وكان عبد الله بن مسعود كما هو معروف حسن الصوت، حسن القراءة، وكان يجيد قراءة القرآن ويحسن أداءه حتى قال النبي الأكرم ﷺ: «**من أراد أن يقرأ القرآن غضّاً ـ أي طريّاً ـ كما أُنزل فليقرأ علىٰ قراءة ابن أُم عبد الله**»[1]، أي قراءة عبد الله بن مسعود.

موقف الحجاج من الرموز الإسلامية

وهذا الرجل (عبد الله بن مسعود) على ما هو عليه من حفظ للقرآن، وحسن أداء له وحسن قراءة، ومع ما هو حاله من كونه من أجلّاء الصحابة فإننا مع ذلك نجد أن الحجاج بن يوسف كان يهدّد من يقرأ بقراءته بأنه سوف تطاله عقوبته، وكان يقول: وما عذيري من عبد هذيل يزعم أن قرآنه من عند الله؟ والله ما هي إلّا أرجز من رجز الأعراب ما أنزلها الله على نبيه، وعذيري من هذه الحمراء، يزعم أحدهم يرمي بالحجر فيقول: إن تقع الحجر حدث أمر، فوالله لأدعنهم كالأمس الدابر. قال الراوي: فذكرته للأعمش فقال: وأنا والله سمعته منه.

وكان يقول: ولا أجد أحداً يقرأ على قراءة ابن أم عبد إلّا ضربت عنقه،

(١) شرح مسند أبي حنيفة: ٤١٠.

ولأحكنها من المصحف ولو بضلع خنزير.

وفي بعض الروايات: والله لو أدركت عبد هذيل لأضربن عنقه[١].

والسبب في ذلك أن عبد الله بن مسعود كانت بينه وبين عثمان بن عفان خصومة، وقد رفعه غلمان عثمان وضربوه حتى كسرت أضلاعه بسبب مواقفه من عثمان بن عفان.

رجع

وعلى أية حال فالأمر المهم الذي نريد أن نشير إليه هو أن عبد الله بن مسعود حينما رفع عقيرته بسورة (الرحمن) المباركة في مكة المكرمة استقطب إليه أنظار الناس، واسترعى أذهانهم وأسماعهم، فكانوا يأتون جماعات ليسمعوا منه ذلك الكلام الذي لم يكونوا قد سمعوا مثله من قبل، لكنهم كانوا خائفين من الاستمرار في الاستماع إليه؛ إما من قريش

---

(١) انظر ذلك في تاريخ مدينة دمشق ١٢: ١٦٠ ـ ١٦١، قال ابن عساكر: وهذا من جراءة الحجاج (قبحه الله)، وإقدامه على الكلام السيّئ، والدماء الحرام. وإنما نقم على قراءة ابن مسعود رضي الله عنه لكونه خالف القراءة على المصحف الإمام الذي جمع الناس عليه عثمان، والظاهر أن ابن مسعود رجع إلى قول عثمان وموافقيه والله أعلم. البداية والنهاية ٩: ١٤٨ ـ ١٤٩، ١٥٠ تاريخ الإسلام ٦: ٣٢٠، وفي صحيح مسلم ٤: ٧٨: عن الأعمش قال: سمعت الحجاج بن يوسف يقول وهو يخطب على المنبر: ألفوا القرآن كما ألفه جبريل السورة التي يذكر فيها (البقرة)، والسورة التي يذكر فيها (النساء)، والسورة التي يذكر فيها (آل عمران). قال: فلقيت إبراهيم فأخبرته بقوله فسبّه. السنن الكبرى (البيهقي) ٥: ١٢٩.

أن تعاقبهم، أو من أن يؤثّر عليهم هذا الكلام فيجعلهم يميلون عن آلهتهم ويصبؤون إلى الإسلام: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[(١)].

بل إن البعض من هؤلاء كان في قرارة نفسه يعتقد بصحة ما جاء بـه الرسول ﷺ، وبصحة القرآن الكريم وبصدقه، لكنهم كانوا يمتنعون عـن الإيمان بهذا الدين الجديد مظهرين الجحود له. وعلى أية حال فقد أخذت القراءة بألبابهم؛ ذلك أن القرآن الكريم بالإضافة إلى مـا كـانت تـحتويه كلماته من نغمات تستثير العقول والأذهان والأسماع وتسترعي الانتباه، فإن مضامينه كانت عالية عند التأمل فيها، وكانت تسحر الإنسان وتأخذ بلبه لما فيها من قيم وصدق وحرارة.

فهذه القصة تنبئنا عن أن هذه السورة المباركة كانت قد نزلت في فترة الدعوة السرية في مكة المكرمة؛ الأمر الذي يعني أنها قد نزلت في تلك المدينة المقدسة.

بغض الله تعالى كلّ ذوّاق وذوّاقة

يروى أنه ﷺ مرّ على رجل من الصـحابة فـقال ﷺ له: «**مـا فـعلت امرأتك؟**». قال: طلقتها يا رسول الله. قال ﷺ: «**من غير سوء؟**». قال: من غير سوء. ثم تزوّج ثانية، فمرّ به النبي ﷺ فقال: «**تزوجت؟**». قال: نعم.

(١) النمل: ١٤.

ثم قال صلى الله عليه وآله له بعد ذلك: «**ما فعلت امرأتك؟**». قال: طلقتها. قال صلى الله عليه وآله: «**من غير سوء؟**». قال: من غير سوء. ثم تزوج ثالثة، فمرّ به النبي صلى الله عليه وآله فقال له: «**تزوّجت؟**». فقال: نعم. فقال صلى الله عليه وآله له بعد ذلك: «**ما فعلت امرأتك؟**». قال: طلقتها. فقال صلى الله عليه وآله: «**من غير سوء؟**». قال: من غير سوء. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إن الله عزّ وجلّ يبغض كلّ ذوّاق من الرجال، وكلّ ذوّاقة من النساء**»[1].

إن البعض من الناس الذين نراهم هم فعلاً يحاولون أن يعالجوا مشاكلهم البيتية وخلافاتهم الأُسرية في أساليب بدائية، بل هي تبلغ الغاية في البلاهة، فيعمد أحدهم إلى ممارسة هذا الحقّ الممنوح له، وهو إيقاع الطلاق على زوجته لمجرد حصول خلاف بينهما دون أن يتنبه إلى خطر فعله هذا على أسرته وعلى المجتمع الذي يعيش فيه. فأمثال هذا ما إن تبدر بادرة خلاف، أو ما يحاولون هم أن يسموه خلافاً بينهم وبين أزواجهم في أي أمر من أُمور الحياة التي تربطهم وتخصهم، فإنه يبادر إزاء ذلك إلى استخدام ذلك الحقّ كالمأخوذ على يده دون تريّث منه أو تروٍّ، فيلقي كلمة الطلاق دون إعادة النظر في عواقب هذا الفعل الذي يرجو أن يكون حلّاً لمشاكلهم، والذي هو أبغض الحلول إلى الله تبارك وتعالى، وأبغض الحلال والأقوال والأفعال.

---

(١) الكافي ٦: ٥٤ / ١، عوالي اللآلي ٣: ٣٧٢. ٦. وقال صلى الله عليه وآله: «لا تطلّقوا النساء إلّا من ريبة؛ فإن الله لا يحبّ الذوّاقين ولا الذوّاقات». عوالي اللآلي ٢: ١٣٩ / ٣٨٩، المعجم الأوسط ٨: ٢٤، الجامع الصغير ١: ٢٧٩ / ١٨٢٠.

فهؤلاء إذن لا يلتفتون إلى أن هناك مضاعفات اجتماعية وأخلاقية كثيرة تترتّب على هذا الطلاق، وهي مضاعفات سلبية سوف تؤدّي في النتيجة إلى الإضرار بالأبناء إن كان للمطلّق أبناء، أو بالمجتمع ككلّ باعتبار أن الأُسرة إنما هي وحدة بناء أساسية في المجتمع، وعادة ما تكون لبنة فعّالة فيه إذا ما أدّت دورها كما رُسم لها.

ملوك بنوا الدنيا في دورهم

وقد وصل الأمر إلى أن تبنى بعض البيوت في هذا الزمن أو حتى في الأزمنة الخالية بأحجام ضخمة جداً، حيث إن البعض من الناس يعمد إلى أن يبني بيتاً ضخماً كبيراً يتمطى به على حساب الآخرين بعد أن يجهزه بكل وسائل الراحة وبكل ما يوفر له الحياة الهانئة والدافئة، فنراه يتعامل مع بيته وكأنه دنيا بأكملها.

أولاً: قصر جمشيد

إن ممّا ينقله المؤرخون في هذا المجال أن الملك «جمشيد» حينما بنى قصره المعروف والمشهور، سأل وزيره قائلاً: ما تقول في قصرنا هذا؟ فقال له الوزير: إن الناس قد بنوا دورهم في الدنيا، أما أنت فقد بنيت الدنيا في دارك[1].

---

(١) لم نعثر عليه بهذا النصّ، وما في بعض المراجع التاريخية أن أبا العيناء دخل على المتوكل في قصره المعروف بالجعفري، فقال له: ما تقول في دارنا هذه؟ فقال: إن الناس بنوا الدور في

لكن ما هي نتيجة هذا القصر؟ لقد أصبح الآن كما عبّر عنه عمر الخيام في إحدى رباعياته حيث يقول:

إنَّ ذَاكَ الْـقَصْرَ الَّـذِي ضَـمَّ جَـمْشِيـ ـدَ وَفِـيهِ تَـنَاوَلَ الأَقْـدَاحَـا
وَلَـدَتْ ظَـبْيَةُ الْـفَلا خِشْـفَهَا فِـيـ ـهِ وَأَمْسَـى إِلَـى ابْـنِ آوَى مَـرَاحَـا[١]

وهكذا تحوّل إلى خربة مهجورة، وقد باد أهله فيمن هلك ومضى، وأصبح موطناً للظباء تستقرّ فيه وتلد. وأصبح كذلك مأوى لبنات آوى التي راحت تسكنه وتتّخذ منه مقراً لها.

ثانياً: قصر الخضراء

وحينما بنى معاوية بن أبي سفيان الخضراء أنفق عليها حمل ثمانية عشر بعيراً من الذهب والفضة كما يقول المؤرخون، وهذه المبالغ تعد في وقتها مبالغ ضخمة إلى حد لا يمكن تصوره، وهي دار الإمارة التي أعدّها لعرشه، وقد بناها بالطوب أول الأمر، لكنه لما فرغ منها وقدم عليه رسول ملك الروم، نظر إليها فقال له معاوية: كيف ترى هذا البنيان؟ قال: أمّا أعلاه فللعصافير، وأمّا أسفله فللفأر. فنقضها معاوية، ثم بناها ثانية بالحجارة[٢].

الدنيا، وأنت بنيت الدنيا في دارك. فاستحسن كلامه ثم قال له: كيف شربك للخمر؟ قال: أعجز عن قليله، وأفتضح عند كثيره. فقال له: دع هذا عنك، ونادمنا. معجم الأُدباء ٢: ٤٢٢.

(١) رباعيات الخيام: ٤.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٢: ٣٥٩. وهي التي قال له أبو ذر الغفاري رضي الله عنه فيها: يا معاوية: إن

وكان يعللها بقوله: نحن على مشارف الروم. أي أنه يريد أن يباهي بها الروم؛ لأنه على مشارفهم، وهم عندهم تلك القصور الضخمة والحصون العالية المنيعة، وكان النمط السائد عندهم هو أنهم يـقيّمون المـلوك بـما يلبسون وبما يسكنون وبما يبنون، ومن هنا فإنه يريد أن يبدو في نظرهم أنه ملك عزيز ثري يملك كلّ شيء.

بيت الإمام علي عليه السلام في الكوفة

وفي الوقت الذي كان يتمتّع فيه معاوية بن أبي سفيان في كـلّ تـلك الأموال والقصور، وينغمس في تلك الملاذّ الدنيوية بأبعادها كافّة نـجد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام على نقيض من ذلك تماماً. حتى إنه عليه السلام حينما دخل الكوفة استقبله الكـوفيون، فـنزل عـلى بـاب المسجد، فدخل عليه السلام فصلّى، ثم تحول، فجلس إليه الناس، فسألهم عـن رجل من الصحابة كان قد نزل الكوفة، فقال له قائل منهم: استأثر الله به. فقال عليه السلام له: «**إن الله تعالى لا يستأثر بأحد من خلقه، إنما أراد الله جـلّ ذكـره بالموت إعزاز نفسه وإذلال خلقه**». وقرأ: ﴿**وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُـمَّ يُحْيِيكُمْ**﴾[1].

ثم لمّا لحق به عليه السلام ثقله، أخبروه بأنهم قد هيؤوا له قصر الأمارة، وأنهم قد حشدوا فيه جميع حاجاته، ثم سألوه: أتنزل القصر؟ فما كان منه عليه السلام

كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهو الإسراف. فسكت معاوية. نـهاية الأرب ٥: ٣٠٣.

(١) البقرة: ٢٨.

إلّا أن قال: «**قصر الخبال، لا تنزلونيه**»(١).

وقد اهتديت إلى وجه واحد في معنى قوله عليه السلام: «**قصر الخبال**»، وهو أن الإمام عليه السلام يريد أن يبين لهم بأن الإنسان إذا ما سكن بيتاً ضخماً كهذا، وكان من حوله بيوت ليست سوى أكواخ بسيطة ومتواضعة تكاد تتهاوى، وفوق هذا أن أصحابها يئنّون من وطأة الجوع والفقر، ويرزحون تحت نَير الفاقة والحاجة، فإن ساكن ذلك القصر سوف يشعر بالزهو والخيلاء، وبالنتيجة فإنه تحصل عنده حالة من عدم الاتّزان في حياته؛ نتيجة ما هو فيه من رفاه ونعمة ونعيم.

فالظاهر أن هذا هو معنى الخبال الذي يريده الإمام أمير المؤمنين عليه السلام؛ ولذا فإنه عليه السلام عمد إلى أرض لابن أُخته جعدة بن هبيرة، فأخذ منها قطعة وبنى لأهله فيها بيتاً متواضعاً، بل هو غاية في التواضع، بل هو في واقعه كوخ من البواري والجرائد لا يرقى إلى أن يسمى بيتاً، فسكنه وأهله، حيث بقي فيه حتى اختاره الله تبارك وتعالى إلى جواره الكريم. يقول أحد أُدبائنا عن هذا البيت:

إنَّ كوخاً أضلاعُه من جَريد الـ ... ـنخلِ والسَّقفُ والفراشُ حصيرُ

سَجدَ النَّجمُ عند رَملَتِهِ السَّمـ ... ـراءِ واستَوهَبَت عُلَاه العصورُ

مُنذُ ألفٍ ونصف مَرَّت ولِلآ ... نَ وأَطيافُه الشَّذَا والنورُ(٢)

---

(١) بحار الأنوار ٣٢: ٣٥٥، شرح نهج البلاغة ٣: ١٠٥.

(٢) هذه المفردة الواردة في هذا البيت ممّا يحتمل صورتين، وبالتالي فإنها تحتمل معنيين

عــــامرٌ بِـــالأنغامِ مِـــن نَـــغَمِ القُـــر آنِ يَـــــتلُوهُ رَاهِبٌ مَســـــحورُ
وَسَـــــيبقَىٰ بُكُـــلِّ حَـــبَّةِ رَمــلٍ مِـــن بَـــقَايَا أَبِـــي تُـــراب عـــبيرُ

فهذا الكوخ قد سجدت له كلّ تلك القصور والقلاع والحصون على عظمتها، فقد فاقها فيما كان يضم بين جانبيه من روح ملكوتية سامية، ومعانٍ سماوية راقية. وما تلك القصور الضخمة إلّا قبور في حقيقتها تضم بين جنباتها عظاماً ورمماً لبني الإنسان الذين لم يعرفوا الإنسان على حقيقته ولم يهضموا الدنيا كما هي في حقيقتها، يقول أحد شعرائنا المعاصرين:

تـحنو القـبور عـلى المـوتى فـتسترهم وفـي القـصور وفـي السـلطان مـوتانا

وهكذا فإن ذلك الكوخ كان ينبض بالأخلاق السامية، وبالعطاء الضخم، وبالقيم والمبادئ العالية. ورب قصر لا يجد أحد فيه من الحياة أثراً؛ ولهذا فإن البعض ممن عرف الحياة على حقيقتها كان على دراية بأنه

كلاهما مراد وإن تفاوتت الإرادة فيهما، وهما:

أولاً: أنها «النَّور» لا «النُّور»؛ فربما تأخذ بنا مناسبة «الشذا » إلى كونها كذلك.

ثانياً: أنها «النُّور»، وما يقرّب كونها كذلك الشمولية في الأداء، وهي السمة التي ربما يسعى الشاعر إلى خلقها في جو قصيدته، وإسباغها عليه، وإضفائها على حدوده. ونريد بالشمولية هنا: عدم كون العطف تفسيرياً، بل هو عطف المغايرة، أي أن أطياف هذا البيت المقدّس إن هي إلّا شذا النبوّة، ونُور الإمامة المتمّمة لها؛ وبهذا تستكمل نظرة الشاعر مداها العقيدي وبعدها الأدبي.

سوف يعيش في هذه الدنيا أياماً قلائل ثم يرتحل عنها مخلفاً كلّ شيء فيها إلى غيره؛ فتحصل عنده قناعة تامّة بأنه يكفيه من هذه الدنيا أن يجلس تحت ظل شجرة، وأن يأكل من ثمارها ومما تنبت الأرض، فما هذه الحياة إلّا رحلة قصيرة فإنية وهي طريق إلى الحياة الدائمة الخالدة والباقية:

الفتى ظاعن ويكفيه ظلُّ الـ ـسِّدرِ ضربَ الأطنابِ والأوتادِ

أما الآخرون فيعكسون هذه النظرة فيبنون قصوراً ضخمة كي يحصلوا على أقصى مستويات النعيم والراحة فيها. ونظرية هؤلاء تصبّ في اتجاه واحد هو أنهم لابدّ أن يفارقوا الدنيا ويتركوا أموالهم خلفهم؛ ولذا فإنهم يريدون أن ينفقوها في حياتهم على ملذّاتهم وإشباع رغباتهم وأهوائهم.

البيت المشروع

إننا إذ نقول هذا فإننا لا نريد أن نمنع الناس أو ننهاهم عن بناء البيوت بما يتناسب مع عزتهم؛ فإن الله تبارك وتعالى يريد العزة للمؤمن، لكن ينبغي علينا أن نتنبه إلى أن هناك مقاييس لبناء البيوت ينبغي ألّا تجتازها وتصل معها إلى حد السرف، فالبعض ربما يسرف في هذه الجنبة على حساب الآخرين ممّن حوله، وهم أُناس يقتاتون من عرقهم دون أن يتمكنوا من سد حاجاتهم، فهذا أمر مرفوض، وينبغي على الإنسان المؤمن أن يراعيه قبل أن يبني بيته، لكنه في الوقت نفسه حينما يريد أن يبني ذلك البيت عليه أن يراعي أمر العزة التي أراد الله تبارك وتعالى له أن يوفرها لنفسه ولأهله، فلا يصل في بناء ذلك البيت إلى حدود الذلة.

متى يكون الرضاع ناشراً للحرمة؟

إن الرضاع الذي ينشر الحرمة بين المرتضع ومن يرتضع معه هوالرضاع الذي يكون ضمن السنتين الأُوليين من ولادته، وهما السنتان اللتان يشتد فيهما العظم وينبت فيهما اللحم على ذلك اللبن، أما بعدهما فلا نبات ولا اشتداد، وبالتالي فإن هذا الحليب أو اللبن لن ينشر الحرمة فيما لو وقع ارتضاع.

روايات المذاهب الإسلامية في رضاع الراشد

ومن المؤسف أننا نجد عند أبناء المذاهب الإسلامية روايات يمجها الذوق وهي مثار الاستغراب والتعجب؛ ذلك تذهب إلى جواز ارتضاع الإنسان الكبير البالغ من المرأة وأن ذلك الرضاع سوف ينشر الحرمة بينه وبين المرضعة حتى وإن كان المرتضع في العشرين من عمره.

رواية إرضاع زوجة أبي حذيفة سالماً مولاه

وهم يعتمدون في ذلك على رواية في هذا الخصوص، هي رواية سالم مولى أبي حذيفة، تقول الرواية: إن سهلة بنت سهيل جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إنا كنا نرى سالماً ولداً، فكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد ويراني، وقد أنزل الله فيهم ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال لها النبي ﷺ: «**أرضعيه**». فأرضعته خمس رضعات، فكان بمنزلة ولدها.

فكانت عائشة زوج النبي ﷺ تأخذ بذلك فيمن كانت تحبّ أن يدخل عليها من الرجال، فقد كانت تأمر أُختها أُم كلثوم بنت أبي بكر، وبنات أخواتها وإخوانها أن يرضعن من أحبّت أن يدخل عليها من الرجال، غير أن سائر أزواج النبي الأكرم ﷺ أبين أن يدخل عليهن أحد بتلك الرضاعة[1].

دعوة إلى تمحيص التراث الإسلامي وغربلته

إننا حينما نريد أن نتعامل مع تراثنا الفقهي أو التفسيري أو العقيدي فإنه يجب علينا ألّا نتلقّاه على عمى، أو أن نأخذه أخذ المسلّمات التي لا يمكن أن يداخلها شكّ أو ريب، بل إننا نريد لهذا التراث أن يكون بعيداً عن هذه المهاترات والمفارقات التي يرفضها العلم والأخلاق، والتي لا تلتقي جملة تفصيلاً مع قواعد الإسلام، بل إنها تصطدم بأحكامه النيرة وبتشريعاته المقدسة. وعليه فإنه لا سبيل لقبولها أو القول بها، أو الأخذ بها والعمل على وفقها.

إن الرضاع الشرعي كما ذكرنا هو الذي يقع في السنتين الأُوليين، أما أن يقال: إن ما بعد السنتين يمكن أن ينشر الحرمة، فيعمد إلى إرضاع شاب من امرأة شابّة، فهذا أمر غير معقول البتة، ولا تقبله أخلاق الإسلام، وإلّا كيف يمكن أن نرضى لأنفسنا بأن نأتي بشابّ عمره عشرون سنة، ثم نأمره بأن يرتضع من امرأة شابة حتى تصبح محرمة عليه، وتنشر بذلك

---

(١) الموطّأ ٢: ٦٠٥ ـ ٦٠٦، وانظر: المغني ٩: ٢٠١، المجموع شرح المهذّب ١٨: ٢١٢.

الحرمة بينه وبينها؟ إن هذا لا يمكن أن يقبل بحال من الأحوال.

ومن هنا فإنني أُطلق دعوة، وأقول: حبذا لو أن المسلمين جميعاً يعتمدون المعالجة العقلية والعلمية الأكاديمية لتراثنا، فيشكلون لجاناً خاصّة من ذوي الاختصاص لتشرف على تخليص تاريخنا وتراثنا الفقهي والحديثي والتفسيري من أمثال هذه الروايات، وطرحها خارجاً دون إعارتها أي انتباه؛ لأنها تتقاطع كما ذكرنا مع متبينات الإسلام، وقواعده الأخلاقية، وأحكامه التشريعية.

رضيع الحسين عليه السلام في يوم الطف

وبناء على هذه العلاقة القوية التي أشرنا إليها آنفاً بين الرضيع والمرضعة فإننا نقول: إنه من غير المبالغ فيه ما جرى على الرباب (رضي الله عنها) من ذهول وهي ترى ابنها مذبوحاً على يدي أبيه الإمام الحسين عليه السلام بعد أن رجع به إليها يحمله وقد قطع سهم حرملة بن كاهل الأسدي وريده، فما إن رأته حتى فقدت وعيها، وقامت تجول حول مهد الطفل، وتهزّه دون أن تهدأ، فكانت تحرّك المهد وتندب رضيعها من المغرب حتى الصباح:

ورب مرضعة منهن قد نظرت رضيعها فاحص الرجلين في التربِ
تشوط عنه وتأتيه مكابدة من حاله وظماها أعظم الكربِ
فقلب هاجر إسماعيل أحزنه متى تشطْ عنه من حرّ الظما تؤبِ
وما حكتها ولا أُم الكليم أسى غداة في اليمّ ألقته من الطلبِ

هذي إليها ابنها قد عاد مرتضعاً وهـذه في سقاً بالبارد العذبِ
فأين هاتان ممن قد قضى عطشاً رضيعها ونأى عنها ولم يؤبِ
بل آب مذ آب مقتولاً ومنتهلاً من نحره بدم كالغيث منسكبِ
شاركنها بعموم الجنس وانفردت عنهن فيما يخص النوع من نسبِ
كانت ترجّي عزاء فيه بعد أب له فلم تحظَ بابن لا ولا بأبِ
فأصبحت بنهار لا ذكاء له وباتت الليل في جوّ بلا شهبِ

نظرة التعالي عند العرب

ونحن لا ننكر أن هنالك من العرب من كان ينظر إلى نفسه وإلى غيره بتلك النظرة عينها التي كان اليهود والنصارى ينظرون بها إلى أنفسهم وإلى غيرهم من أبناء الشعوب الأُخرى. إن هذه النظرة كانت موجودة بغير شكّ عند العرب كذلك، بل متغلغلة في عقولهم وأذهانهم إلى درجة أنهم كانوا لا يرون معها إلّا أنفسهم، وما سواهم من قوميات وشعوب إلّا همج رعاع دونهم في الرتبة والمنزلة وفي الرقي.

وهذه النظرة لم تكن ضد أبناء القوميات الأُخرى حكراً ولاحصراً، بل إنهم يعدّونها حتى فيما بينهم إلى القبائل العربية الأُخرى، ومن هذا ما يرويه المؤرخون من أنه جيء لأحد رؤساء بني تميم بابنه مقتولاً، ثم جاء أهل القاتل للمصالحة على الدية، فقال: لا أرضى إلّا بواحدة من ثلاث. قالوا: ما هي؟ قال: أن تُنزلوا لي نجوم السماء. قالوا: لا نستطيع. قال: أو تعيدوا لي ولدي حيّاً. قالوا: وهذه لا نقدر عليها. قال: إذن أبيدكم عن

آخركم.

فهذا اللون من العجرفة والتعالي على الآخـرين والنـظر إليـهم نـظرة ازدراء واستعلاء كما ذكرنا هو موجود إذن حتى عند العرب فـضلاً عـن اليهود الذين لا زالوا حتى الوقت الحاضر إذا ما قُتل منهم شخص فـإنهم يقتلون إزاءه المـئات؛ لأنـهم يـرون أن الدم العـبري أفـضل مـن الدمـاء الأُخرى، وأرقى وأعرق وأسمىٰ.

من أخلاق أهل البيت عليهم السلام

يروى عن الإمام السجاد عليه السلام أنه كان إذا خرج في سفر مع قافلة انفرد عن مسافريها، ولما قيل له في ذلك أجاب بأن الناس يـعرفون أنـه ابـن رسول الله، ولذا فإنهم سوف يكرمونه لأجل النبي صلى الله عليه وآله، وهو عليه السلام يكره أن يأخذ برسول الله صلى الله عليه وآله ما لا يستطيع مكافأتهم بمثله؛ ولهذا فإنه عليه السلام آثر أن ينفرد عنهم.

إنه عليه السلام يريد أن يقول بأني لا أُريد أن آخذ وفق تـلك المـزايـا التـي يمنحني الناس إياها لكوني ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ما دمت لا أعطي مـثلها. أي أن الإمام عليه السلام لا يريد أن يستغلّ هذه النقطة مع أنه فعلاً وحـقاً ابـن رسول الله صلى الله عليه وآله، بل إنه يريد أن يبين للناس، وأن يجعلهم يعتقدون بأنه عبد من عبيد الله تبارك وتعالى، وأنه يجب عليه أن يتواضع بناء عـلى تـلك العبودية، ويجب عليه أن يأخذ تلك العوامل التي تحدد مكـانة الإنسـان

عند باقي الناس نتيجة ما يقدمه لهم من عطاء، ونتيجة ما يكون عليه من قرب إلى الله تبارك وتعالى.

وهذا كما نرى على العكس من اليهود من جهتين:

الجهة الأُولى: أن الإمام السجاد عليه السلام هو ابن رسول الله حقاً، أما هؤلاء فإنهم ليسوا أبناء الله جلّ وعلا (تنزه الله عن ذلك)، بل إنها دعوى منهم كاذبة، وفرية باطلة.

الجهة الثانية: أن الإمام السجاد مع كونه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله لكنه لم يشأ أن يستغلّ هذه الظاهرة أو هذا الأمر، بل إنه أراد أن يبعد نفسه قدر الإمكان عن استغلالها وإن بادر الناس إلى ذلك احتراماً له واحتراماً لأبيه رسول الله صلى الله عليه وآله، أما اليهود فهم على العكس من ذلك فقد ادعوا دعوىً كاذبة، ثم صدقوها، ثم بعد ذلك راحوا يطالبون الناس بأن يصدّقوها، فيعاملوهم وفق ذلك الامتياز، وذلك بناء على كونهم أبناء الله، وأنهم يجب أن تكون لهم تلك الميزة التي تميزهم عن غيرهم.

أهل بيت النبوة عليهم السلام والملكية الدنيوية

ومن خلال ما أثبتناه آنفاً حول حقيقة الإنسان، وحقيقة ملكيته، وحقيقة المصير الذي سوف يكون عليه بعد خروجه من هذه الدنيا وحيداً فريداً نجد لزاماً علينا أن نقايس ذلك بأرج سيرة أهل بيت النبوّة عليهم السلام، وبسيرة جدّهم رسول الله صلى الله عليه وآله من قبلهم؛ كي نعرّف الآخرين بتلك الكنوز

الإلهية التي أرست قواعد الزهد والعدل، وبلورت فكرة الإعراض عن الدنيا وزخرفها، والإقبال على الآخرة ودوامها وخلودها بسلوكهم الرباني المحض، وأخلاقهم السماوية العالية.

إننا حينما ندقّق في سيرتهم عليهم السلام وسيرة جدهم الأكرم صلى الله عليه وآله، فسوف نجد أنها سيرة ناصعة تشكّل عنصر قدوة للآخرين؛ كونها تبتعد كلّ البعد عن تملّك كلّ ما هو دنيوي، وكل ما هو متاع من حطام هذه الحياة.

وهذه المسألة مسألة هامّة أود أن اُلفت النظر إليها؛ فتاريخ رسول الله صلى الله عليه وآله، وتاريخ أهل بيته عليهم السلام الذي لا يمكن أن ينكره أحد كان ولا يزال خير شاهد على أنهم (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) لم يكونوا يحفلون بهذه الدنيا، أو يقيمون لها وزناً؛ ولذلك فإنه صلى الله عليه وآله قد خرج هو وأهل بيته من هذه الدنيا دون أن يورّثوا شيئاً[1].

فالتاريخ شاهد على هذا؛ فهم عليهم السلام لم يملكوا شيئاً؛ فلم يتركوا شيئاً، وهذا لا يعني أنه صلى الله عليه وآله حينما يملك شيئاً لا يورّثه لأهله فإن هذا خلاف

(١) بل حتى ما كسبه الإمام علي عليه السلام بعرقه وكدّه، وما استنبطه من عيون فإنه أوقفه كلَّه للمسلمين بعد موته، ولم يعتبره ميراثاً كما حدثنا التاريخ بذلك. بل إن المؤرّخين يقولون بأنه عليه السلام لم يترك سوى سبعين درهماً فقط كان عليه السلام قد احتبسها ليشتري بها خادماً لأهله لأنهم لم يكونوا يقوون على مصارعة العمل داخل البيت؛ نظراً لقسوة الحياة، وشظفها آنذاك. وهذا يعني أنه عليه السلام حتى أواخر حكمه لم يكن يملك خادمة لأهله مع أن بيت المال كان بيده دون أن تمتد إليه، لكنها النفس الكبيرة التي تترفّع عن أن يسيل لعابها لهذا الحطام الزائل.

الشرع، لكننا نريد أن نقول: إنه ﷺ لم يملك أرضاً ولا بناء ولا عقاراً أو تجارة، بل إنه كلّ ما كان عنده مما يختصّ به ومما خلفته له زوجته خديجة قد أنفقه كلّه على تقوية الإسلام، وعلى حاجات المسلمين، بل إنه ﷺ كان يتصدّق بعطائه وحصّته من الغنيمة على الآخرين ويبقى هو طاوياً كما سنرى من أنه كان يبقى أياماً ولياليَ يبيت طاوياً جائعاً، وكم من مرّة قد شدّ فيها حجر المجاعة على بطنه الشريف.

الإمام الحسين عليه السلام وعرشه في قلوب المؤمنين

وكمثال آخر على هذه النماذج المشرّفة، والنجوم اللّامعة في سماء الدنيا.. دنيا الإسلام أبو الأحرار وسيد الشهداء سبط رسول الله ﷺ الإمام الحسين بن علي عليهما السلام فهو (صلوات الله وسلامه عليه) بعد أن قدم لله تبارك وتعالى كلّ ما عنده من متاع ومن نفس ومن أهل بيت ومن أصحاب في سبيله جلّ شأنه قدر الله له جل شأنه كنوع من الجزاء والمكافأة أن يكون له العرش نفسه الذي كان لأبيه أمير المؤمنين علي عليه السلام في قلوب المؤمنين من شيعته، ومن غيرهم ممّن عرف له ذلك.

وكما أن الدنيا مهما حاولت أن تزعزع تلك العروش الكبيرة التي احتضنتها قلوب الناس لأمير المؤمنين عليه السلام ولأبنائه عليهم السلام، أو أن تهدم لهم قبراً، فما استطاعت إلى ذلك سبيلاً؛ لأن عرشه وقبره في قلوب الناس وفي مشاعرهم وفي نفوسهم، وعروش القلوب ـ كما نعرف ـ عروش لا يعتريها الفناء أبداً، فكذلك الحال مع أبيّ الضيّم أبي الأحرار الإمام

الحسين عليه السلام.. الإمام الذي حينما نقف على ضريحه أو نتوجّه إلى مشهده الشريف نخاطبه قائلين: «**صلى الله عليك، وجعل أفئدة من المؤمنين تهوي إليك، والخير منك وفي يديك**»(١).

إعرابي في مجلس المأمون

يروى أن أعرابياً دخل يوماً علىٰ المأمون وكان مجلسه حاشداً، فلمّا نظر المأمون إلى ثيابه وملابسه ـ وقد أصبح أمامه، وكانت رثة بالية ـ ازدراه، حيث إنه رأىٰ أن الأعرابي إنما وضع نفسه في مكان ليس له أهلاً، وكأنما ثقل عليه أن يدخل مجلسه المخملي الراقي مثل هذا الأعرابي الرثّ الثياب، فراح يحدّ النظر إليه من حين إلى آخر مزدرياً مستنكراً.

ثم إن المأمون لما التفت إلى أن في المجلس جماعة كبيرة من أهل البادية، صعد المنبر وأراد أن يتبجّح أمامهم بفصاحته وبلاغته، وراح يتكلّم بعربية دقيقة ـ وكان منطيقاً فصيحاً، لكنه كان متكلّفاً لذلك ـ وكان وهو يخطب يعاود حدّ النظر إلى الأعرابي، فلما أنهى خطبته ونزل، قال له: أصلح الله الخليفة، أراك تحدّ النظر إليَّ، أنا الذي أُكلّمك لا عباءتي. فخجل المأمون، ثم قال له: ما تعدّون الفصاحة والبلاغة عندكم؟ قال: الاختصار

(١) المزار (المشهدي): ١٨٥، المزار (الشهيد الأول): ٤٦، وقريب منه في بصائر الدرجات: ١٤٩، الكافي ٤: ٥٨٢ / ١١، كامل الزيارات: ٢٢٨، ثواب الأعمال: ٩٥.

مع الإفادة. فقال المأمون: فما تعدّون الفهاهة والعي؟ قال: ما كنتَ فيه منذ اليوم يرحمك الله. فأطرق المأمون[(١)].

الأثر التكويني لطهارة المولد

ومن خلال تتبّعنا للتاريخ فإننا نجد أن هناك جماعة ممّن تدّعي الإسلام قد انحرفت عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، غير أن التحقيق التاريخي والعلمي يوصلاننا إلى أن جميع أُولئك المنحرفين الذين ابتعدوا عن علي بن أبي طالب عليه السلام، والذين نصبوا له العداء هم كلهم من هذا النوع، فكلّ من عادى علياً عليه السلام فهو غير معروف الأب[(٢)].

وعلى أية حال فهذا أمر معلوم، وقد وردت به السنة النبوية المطهرة، فعن حبيش عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**عهد إليّ أنه لا يحبّك إلّا مؤمن، ولا يبغضك إلّا منافق**»[(٣)].

(١) البيان والتبيين ١: ٦٩، وهو في مجمع الأمثال ٢: ٢٥ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن.

(٢) قال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه: اعرضوا حبّ علي على أولادكم؛ فمن أحبّه فهو منكم، ومن لم يحبّه فاسألوا أُمه من أين جاءت به؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي بن أبي طالب: «لا يحبّك إلّا مؤمن، ولا يبغضك إلّا منافق أو ولد زنية أو حملته أُمه وهي طامث». علل الشرائع ١: ١٤٥ / ١٢.

(٣) مسند أ ١: ٩٥، ١٢٨، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٦ / ٣٨١٩، قال: هذا حديث حسن صحيح، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١٣٧ / ٨٤٨٧، سنن النسائي ٨: ١١٦،

الإيلاف وأثره الإيجابي في بناء البيئة الاقتصادية المكية

ثم انتقلت النصّ الشريف فقال: ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾، إن المراد بـ«الإيلاف» هنا، وبـ«رحلتي الشتاء والصيف» هو ذلك الحلف القرشي الهاشمي الذي أبرمته سادة قريش وعلى رأسهم هاشم بن عبد منافﷺ مع الدولتين العظميين آنذاك الروم وفارس، ومع القبائل العربية الأُخرى التي تقع على طريق الخط التجاري الذي يربط بين مكّة المكرّمة وبين هاتين الدولتين، فكانت لها رحلتان آمنتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام؛ لتتاجر وتبيع وتشتري بسلام دون خوف أو وجل من معوّق أو سلب، ثم تعود محملة بالبضائع والمؤن إلى بيت الله الحرام، وإلى سكانه الذين أحسّوا إحساساً بيّناً واضحاً بالأثر الفعلي لهذا التحالف في مسيرة الحركة الاقتصادية عندهم.

سبب الإيلاف ومقام قريش بين القبائل العربية

إننا نعرف بأن المجتمع القرشي وهو يسكن مكة المكرمة كان يعيش حالة من الفقر والجوع، ويرزح تحت أنياب العوز؛ ذلك أن أرض مكة كانت أرضاً مجدبة، وكانت ربوعها قاحلة لا تربّي ضرعاً، ولا تنبت زرعاً، حتى إنهم كانوا يعتبرون قطرة الماء النازلة من السماء غنيمة إذا

خصائص أمير المؤمنينعليه السلام (النسائي): ١٠٥، مسند الحميدي ١: ٣١ / ٥٨، كتاب الإيمان: ٨١، مسند أبي يعلى ١: ٢٥٠ ـ ٢٥١ / ٢٩١.

ما حصلوا عليها.

وبناء على هذا الواقع القاسي، والعيش الشظِف، والظروف القاهرة التي كانوا يعيشونها فإنهم كانوا يتعرضون إلى حالات شديدة من المجاعات وشظف العيش، بل أكثر من ذلك فإنهم كانوا يموت منهم الكثير من الأفراد على شكل مجاميع بشرية.

الاعتفار

ولهذا فإن بعض الأُسر المكية كانت تلجأ إلى أن تعتفر حينما تصيبها مجاعة أو تتعرّض إلى مخمصة. والاعتفار هو أن هذه الأُسرة إذا ما تعرضت إلى أزمة معيشية، أو إلى مجاعة كما أشرنا فإنها تنقطع عن الآخرين، وتحبس نفسها في بيتها، وتحفر لها قبوراً فيه، فكلما مات منهم أحد وضعوه في قبره وأهالوا التراب عليه، أي أنها تتعرّض إلى عفر التراب وتنام عليه. وهكذا فإذا ما مات أحدهم مات وهو في قبره، فيعمدون إلى إهالة التراب عليه. وهكذا يستمرّ الحال معهم واحداً تلو الآخر حتى يكون آخرهم هو الذي ينام في لحده كي يسلم الروح إلى بارئها وهو فيه.

وعلى أية حال فإنهم استمرّوا على ذلك المنوال حتى عهد هاشم بن عبد مناف ﵀ قبل أن يسمى هاشماً ـ حيث كان اسمه عمرو العلا ـ حيث إنه عمد إلى القضاء على هذه الظاهرة؛ ولذا فإنه يعتبر صاحب الفضل على أهل مكة في الإبقاء عليهم أحياء، وأنقذهم من موت كان يعتامهم بإرادتهم، بل جعلهم يرتعون في نعيم، وفي سعة من العيش، وفي هناء

ورغد ليس بعدها نعيم ولا سعة ولا رخاء ولا رغد.

والمؤرخون يروون في سبب ذلك أن قريشاً كانت إذا أصاب واحداً منهم مخمصة، خرج هو وعياله إلى موضع، وضربوا على أنفسهم خباء فيه حتى يموتوا.

وبقي الأمر على هذا الحال إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف، وكان سيد قومه، وكان له ابن يقال له أسد، وكان له ترب من بني مخزوم يحبّه ويلعب معه، فشكا إليه تربه ذات يوم الضرر والمجاعة، فدخل أسد على أُمه يبكي، فسألته: ما وراءك؟ فأخبرها بحال أهل صديقه المخزومي، فأرسلت إليهم بدقيق وشحم، فعاشوا فيه أيّاماً، ثم أتاه تربه مرة أُخرى باكياً، وشكا إليه من الجوع، وقال له: غداً سوف لن ألعب معك. قال: لم؟ قال: لأني سوف أعتفر مع أهلي.

فجاء أسد ثانية إلى أهله باكياً، فسألته أُمّه عن سبب بكائه، فأخبرها وإيّاهم بخبر اعتفار تربه وأهله، وأنه لا يقدر على مفارقته، فقام هاشم خطيباً في قريش، فقال: إنكم أجدبتم جدباً تقلّون فيه وتذلّون، وأنتم أهل حرم الله، وأشراف ولد آدم، والناس لكم تبع. قالوا: نحن تبع لك، فليس عليك منا خلاف.

فجمعهم كلّهم على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام للتجارات، فما ربح الغني شيئاً قسمه بينه وبين الفقير؛ حتى كان فقيرهم كغنيهم. فجاء الإسلام وهم على ذلك، فلم يكن في العرب بنو أب

أكثر مالاً ولا أعزّ من قريش[١].

أمّا كيف فعل هاشم ذلك لهم، فهو أنه رحمه الله بعد أن أمرهم بجمع ما عندهم من أموال عمدوا إلى جمعها، وجاؤوا بها إليه وقالوا له: أنت سيدنا وصاحب الأمر والنهي فينا، وأنت صاحب الحلّ والعقد، وهذه أموالنا افعل بها ما تشاء.

يقول المؤرخون: إن القرشيين التزموا بأمره حتى إنهم كانوا يأتون بما عندهم ولو كان نَشّاً (النشّ هو ما يعادل نصف الأُوقية، أي خمسة مثاقيل[٢])، ثم يعطونه إياه ليعيد توزيعه عبر المتاجرة به فيما بينهم. ثم بيّن لهم هاشم رحمه الله بأنه سوف يعمل على تنظيم رحلتين لهم يقومون بهما: واحدة في الشتاء، وأُخرى في الصيف، يتاجرون فيهما؛ كي يفتح الله عليهم رزقه وبركاته. فكان أن جعل رحلة الصيف إلى الشام، ورحلة الشتاء إلى اليمن.

ثم إنه قرّر في تلك الأموال أنها لا توزع أرباحها حسب نسبة رأس المال، بل إن عليهم أن يقبلوا جميعاً بأن توزع الأرباح بالتساوي حتى لمن أعطى نشاً أو لمن أعطى ديناراً، فقبلوا بهذا الحكم؛ تضامناً منهم فيما بينهم، وطاعة منهم لسيدهم الذي أراد أن يصبح فقير قومه كغنيهم؛ فلا يحتاج إلى أن يعتفر فيموت، أو إلى أن يبقى جائعاً لا طعام عنده.

---

(١) التفسير الكبير ٣٢: ١٠٦ ـ ١٠٧، تفسير البغوي ٤: ٥٣١.

(٢) انظر مجمع البحرين ٤: ٥٤٣ ـ الوقاء.

وهذا المعنى أخذه أحد شعراء الجاهلية فقال مخاطباً عمرو العلا وبني قومه بقوله:

قل للذي طلب السماحة والندى هلّا مررت بآل عبد منافِ
هلّا مررت بهم تريد قراهُمُ منعوك من ضرّ ومن أكفافِ
الرائشين وليس يوجد رائش والقائلين هلمّ للأضيافِ
والخالطين فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافي
والقائمين بكل وعد صادق والراحلين برحلة الإيلافِ
عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
سفرين سنّهما له ولقومه سفر الشتاء ورحلة الأصيافِ(١)

الأشعريون

وكان من هؤلاء قبيلة تسمى قبيلة الأشعريين، وهي القبيلة التي كان منها الأُخوة السبعة الذين رحلوا إلى إيران، وأسّسوا فيها مدينة قم المقدسة. وهؤلاء الأشعريون كانوا إذا ما أرملوا أو أحسوا بأن بعض بيوتهم قد جاعت أو تعرضت للفاقة فإنهم يعمدون إلى إحضار إزار كبير يدورون فيه على البيوت، فيجمعون فيه ما عندهم من نقد ومن طعام حتى يحضر جميع ما في القبيلة من نقد ومتاع وطعام، ثم يعيدون توزيعه بالتساوي بين أفراد القبيلة، حتى لا يبقى فيها فقير وغني. وهؤلاء هم الذين قال عنهم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «**إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قلّ**

(١) المصدر نفسه.

طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية؛ فهم مني وأنا منهم». وقال ﷺ: «اللهم اغفر للأشعريين؛ صغيرهم، وكبيرهم»[1].

وكأنه ﷺ يقول بأن هؤلاء الأشعريّين بتصرّفهم هذا إنما يترجمون رسالتي وأخلاقي، ويجسّدون روحي ودستور الله الذي أنزلته عليّ السماء، وبعثتني به لتبليغه إلى الناس.

رجع

وعلى أية حال فبعد أن قرر هاشم رضي الله عنه تينك الرحلتين عمد إلى ذبح إبله، ووزّع لحومها على قريش بأجمعها، وترك بعضاً منه حيث طبخه وهشم لهم الخبز معه، ودعاهم إلى تناوله؛ فسمي من وقتها هاشماً؛ لأنه هشم الثريد لقومه، ودعاهم إلى تناوله.

وهكذا فمنذ تلك الآونة أصبح في تاريخ قريش ما يعرف بظاهرة رحلتي الشتاء والصيف.

موقف الإسلام من بعض الموروثات الجاهلية

حينما أشرق نور الإسلام على ربوع هذه الأرض، وجد أن بعض الموروثات الجاهلية لا تتقاطع مع قواعد الأديان، ولا مع ضوابط الأخلاق، فكان أن استحسن ذلك البعض منها؛ ولذا فإنه لم يلغِ جميع تلك الموروثات الجاهلية، بل إنه أقرّ بعضها لأنها تتماشى مع روح الدين

(١) انظر: بحار الأنوار ٥٧: ٢٢٠، عمدة القاري ١٨: ٢٩، كنز العمّال ١٢: ٥٦ / ٣٣٩٧٣.

لما فيها من جوانب إنسانية تعالج مشاكل الإنسان أو مشاكل المجتمعات البشرية.

إن بعض تلك الموروثات التي خلفتها الجاهلية كانت تتماشى مع روح الدين في بعض جوانبها، وكانت تتناغم مع روح الإسلام، وتلتقي مع دستوره ومقرراته الأخلاقية؛ ولذا فإن الإسلام لم يلغِ تلك الموروثات الجاهلية كلّها، بل إنه أقرّ بعضها الذي يلتقي معه في الرؤية والهدف. ومنها ما كان يمثّل التكافل الاجتماعي الذي جاء الإسلام رافعاً شعاره آمراً بتحقيقه وتطبيقه في المجتمع؛ كي يعيش أبناء المجتمعات سواسية دون أن يشبع أحدهم ويجوع آخر.

ولذا فإنه تعالى قد أكّد هذا المعنى على لسان نبيه الكريم في الحديث القدسي حيث قال: «**إذا كنتم تريدون ــ أو ترجون ــ رحمتي فارحموا خلقي**»(١).

وقال: «**من أصبح لا يهتمّ بأُمور المسلمين فليس منهم**»(٢).

وهما قانونان ينطويان على واقع بنّاء تريد السماء أن تعلمنا إيّاه، وأن تدفعنا على أن نحثّ الخطا إليه؛ حتى نمارس ذلك اللون من الرحمة فيما بيننا، وأن تغرس في قلوبنا الشفقة والرأفة على الآخرين وبهم. ومن هنا

---

(١) الرسالة السعدية: ١٦٥، عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٨، ميزان الاعتدال ١: ٦٣٥ / ٢٤٤٧، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٥١ / ٥٥٣٧، كنز العمّال ٣: ١٦٧ / ٥٩٩١.

(٢) الكافي ٢: ١٦٣ / ١، ١٦٤ / ٤ ـ ٥.

فإننا نجد نبي الرحمة ﷺ يؤكّد على هذا الجانب الإنساني، فيقول: «**على كل كبد رطبة ـ أو حرّى ـ أجر**»[١].

وهو قانون إنساني قائم على الرحمة والشفقة بالآخرين، بحيث إنه يشمل كلّ الموجودات حتى الحيوانات دون أن يقتصر على الإنسان فقط. أي أن على الإنسان أن يغدق رحمته حتى على الحيوان؛ لأنه ذو كبد رطب، فإذا ما رحم الإنسان الحيوان فإن الله سبحانه وتعالى سوف يغدق عليه رحمته. وهذا هو مصداق قوله تعالى في الحديث القدسي المارّ: «**على كل كبد رطبة أجر**».

وقد رأيت أحد الفقهاء يقول: إذا رأى أحدكم شاة عطشى، ثم سقاها ولو قليلاً من الماء، فإنه قطعاً سوف يكون في إطار رحمة الله تبارك وتعالى، وفي محلّ عطفه ورعايته، لكن بشرط ألّا يعنقها، أي ألّا يلوي عنقها، فيسبب لها الألم.

هذا هو خلق الإسلام، ونحن نستفيد من هذا أنه يجب أن تكون الرحمة شاملة بكلّ أبعادها لكلّ الموجودات. وعليه فإن الإنسان حينما يتصدق على شخص آخر، أو يهدي إليه طعاماً، فإنه بذلك إنما يترجم رحمة السماء، فيركّز مفهوم الإسلام الحنيف حول التوادّ والتعاطف والتراحم[٢] بين أبناء المجتمعات البشرية.. الإسلام الذي حثّ أتباعه على

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٩٥ / ٢، ٣، صحيح البخاري ٣: ٧٧، الأدب المفرد: ٨٧، صحيح مسلم ٧: ٤٤، مسند الشهاب ١: ٩٩ / ١١٣، تفسير الثعالبي ٥: ١٧٥.

(٢) قال رسولنا الأكرم ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا

أن يتكاتفوا ويقفوا يداً واحدة وصفاً واحداً في وجه ما يمكن أن يعترضهم من أخطار أو من ضرر يهدّد وجودهم.

الطفل الرضيع

الإمام الحسين عليه السلام وقسوة المسلمين

وعلى ضوء هذا، هل يمكن أن نعتبر أن هؤلاء الذين جيّشوا الجيوش ضدّ سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وابنه الإمام الحسين عليه السلام يوم الطفّ، وأعدّوا العدد والعدّة لقتاله، ومنعوا عنه وعن نسائه وأطفاله وأصحابه الماء والزاد هم أهل رحمة وشفقة؟ وهل يمكن أن يعدوا بأنهم مصداق للتراحم والتوادّ اللذين يريدها الإسلام؟

إن هذين التساؤلين يجيبنا عنهما التاريخ الذي يروي لنا أن الإمام الحسين عليه السلام جاء إلى أرض المعركة ماشياً على قدميه، يظلّله رداؤه، دون سلاح على غير عادته، فاشرأبّت الأعناق إليه، فلمّا انحسر الرداء عن يديه الشريفتين وإذا به يحمل عليهما ابنه الطفل الرضيع عبد الله يريد به القوم ليسقوه ماء ـ بطلب من أُمه الرباب ظانّة أنه سيرتوي من الماء، دون أن تدري بأن سيرتوي من فيض دم نحره ـ ثم وقف عليه السلام وخاطبهم قائلاً: «**لقد جفّ ثدي أُمّه من اللبن، فإن خفتم أن أشرب من الماء، فخذوه بأيديكم واسقوه جرعة من الماء**»[1].

اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى». مسند أحمد ٤: ٢٧٠.

(١) شجرة طوبىٰ ١: ٣٠.

لكن ما كان جوابه عليه السلام منهم؟ إننا نجد أن هؤلاء قد وصل بهم الأمر إلى حد النكسة في الطباع بحيث إنهم وصلوا بتلك النكسة إلى درجة لم يكتفوا معها بحرمان الطفل من الماء، أو بحرمان أُمّه منه كي تسقيه لبنها، بل إننا نجد أنهم قد سارعوا إلى ذبحه، وهو على يدي والده أبي عبد الله الحسين عليه السلام. إن هؤلاء بدلاً من أن يرووا عطش هذا الطفل نجد أن جوابهم كان ينمّ عن وحشية ما بعدها وحشية، فكان أن أقبل إليه سهم رماه به حرملة وهو يضحك خسّة وتضاؤلاً، ويقول مخاطباً الإمام الحسين عليه السلام: خذ هذا، فاسقِه.

فذبحه بذلك السهم الغادر، الآثمِ صاحبُه من الوريد إلى الوريد، فوضع الإمام الحسين عليه السلام يده تحت عنق طفله الرضيع المظلوم حتىٰ امتلأت دماً، فقذف به إلى السماء، وقال: «**اللهم بعينك، اللهم لا يكن أهون عليك من فصيل ناقة صالح**»[1].

وكانت حالة الطفل حينها (حين مقتله وإحساسه بدمه يسيل من نحره) كما الصورة التي يرسمها الإمام عليه السلام في قوله: «**لقد كان طفل جدّي الحسين في قماطه لما أحسّ بحرارة السهم، فانتزع يديه من القماط، واعتنق رقبة والده، وجعل يرفرف كالطير المذبوح**»[2].

(١) لم نعثر عليه عند مصرع الطفل الرضيع، لكن ورد هذا الدعاء عند مصرعه عليه السلام حيث إنه عليه السلام جعل يأخذ الدم من نحره الشريف، ثم يرميه إلى السماء، ولا يرجع منه شيء. مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٧.

(٢) من أخلاق الإمام الحسين عليه السلام: ٢٤٤، ولم ينسبه للإمام عليه السلام.

وهي صورةٌ من صور الطـفّ مـفجعةٌ.. صـورةٌ تـؤجّج اللـوعة فـي الصدور، وتسجر نار الأسى فـي القـلوب، وتسِـيح الدمـع مـن العـينين وتحثّهما على أن تنبجس منهما الدماء، فما كان من الإمام السبط عليه السلام إلّا أن حمل ولده وكرّ راجعاً به إلى الخيمة، حيث اُمّه الرباب عليها السلام ، فدفعه إليها جثة باردة قائلاً: «**رباب، خذي إليك ولدك مذبوحاً**».

ولنا هنا أن نتصوّر ما هو حال امرأة يحمل إليها رضيعها وهو مـذبوح من الوريد إلى الوريد، وقد سبح بفيض دمه؟ وما الذي يمكن أن يكـون عليه أمرها وهي تراه على تلك الحال؟ لقد ذهلت (سلام الله عليها) عن أمرها ونفسها، فأخذت تجول في الخيمة حول مهد رضيعها، وبقيت حانية عليه وباكية مستعبرة، ثم أخذته وانحنت عليه، واستمرّت على تلك الحال إلى أن أخذه منها الإمام الحسين عليه السلام وحفر له حفرة بجفن السيف وواراه التراب وأهاله عليه.

صور القسوة عند المسلمين الذين حاربوا الحسين عليه السلام

إننا حينما نوغل في أعماق التاريخ، ونستنطق خافي سـطوره، فـإننا سوف نجد أن تلك الثلّة الحـاقدة الكـافرة التـي خـرجت لقـتال الإمـام الحسين عليه السلام ، ولقتال أهل بيته وأنصاره، وجيّشت الجيوش لأجل ذلك قد اُفرغت تماماً من الرحمة والإنسانيّة، وقد نزع العفو، ومحيت الشفقة من قلوبهم حتى إنهم اعتدوا على الطفل الصغير، وعلى المـرأة العـزلاء دون وازع من دين، أو رادع من قيم إنسانية، أو مانع من أخلاق عربية. وهذا

ما يمكن أن نمثّله بعدة صور:

الصورة الأولى: التمثيل بجسد أبي عبد الله الحسين عليه السلام

فالتاريخ يحدثنا بأن الإمام الحسين عليه السلام بعد أن سقط في أرض المعركة أمر ابن سعد رجاله بأن يعتلوا صهوات خيولهم، وأن يصعدوا بها على صدر أبي عبد الله الحسين.. الصدر الذي حوى علم السماء، وانضوت تحته رحمتها وعنايتها.. الصدر الذي انطوى على كلّ مصاديق اللطف الإلهي، ومعاني الشفقة الربانية، وعلى كيان النبوّات كلّها متمثّلة بجدّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

الصورة الثانية: ذبح الطفل الرضيع عبد الله

وقد مرّت بنا تفاصيل هذه الفاجعة التي أدمت قلب الإمام الحسين عليه السلام وقلوب نسائه، قبل قليل، فراجع.

الصورة الثالثة: قطع رأس عبد الله الرضيع

إن هؤلاء القوم لم يكتفوا بأن عمدوا إلى ذبح عبد الله من الوريد إلى الوريد تحت مرأى أبيه عليه السلام، بل إنهم عمدوا إلى قطع رأسه تحت مرأى أُمّه وعمّاته وبقية النسوة بعد أن قطعوا رؤوس جميع أهل بيت النبوة وأنصارهم عليهم السلام كما تقول الرواية، ذلك أنه حينما جاؤوا ليقطعوا رأس الإمام الحسين عليه السلام، ورؤوس أهل بيته وأنصاره عليهم السلام، وبعد أن فعلوا ذلك وجاؤوا بها إلى عمر بن سعد، افتقد الطاغي رأس عبد الله الرضيع، فقال لهم: إن الحسين قد قُتل له اليوم طفل اسمه عبد الله الرضيع، فأين رأسه؟

فقال له بعضهم: بلغنا أن أباه قد احتفر له بجفن السيف، وواراه التراب في أرض المعركة. فقال لهم: انبشوا الأرض برماحكم، وأخرجوه واحتزّوا رأسه، وجيئوني به. فنبشوا الأرض برماحهم، وأخرجوا جسد الرضيع، وفصلوا الرأس عنه برمح منها.

بين عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك

يروي المؤرخون أن عمر بن عبد العزيز لما توفي وجدوا أن مجموع تركته (١٧) ديناراً، وكان له أحد عشر ولداً؛ فاشتُري له كفن منها بدينارين، وقبر بسبعة دنانير، ففضل منها ثمانية دنانير وزّعت على ورثته، حيث أصاب كلّ واحد منهم دون الدينار.

أما هشام بن عبد الملك الذي يدّعي أنه خليفة الله ، فإنه حينما مات كان لكل واحد من ورثته أضعاف أضعاف ذلك بما لا يعدّ ـ وكانوا عشرة ذكور ـ فقد أصاب كلّ واحد منهم مليون دينار. يقول راوي الحادثة: ثم رأيت رجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز قد حمل في يوم واحد على مئة فرس في سبيل الله تبارك وتعالى، ورأيت رجلاً من ولد هشام يسأل الناس ليتصدّقوا عليه[١]. فكان عاقبة تلك الثروة الضخمة ما رأيناه من ضياع وتلف كما أثبته لنا المؤرخون.

إذن فذلك المبلغ الضئيل الذي ورثه أحد أبناء عمر بن عبد العزيز لأنه

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ١٠١.

مبلغ مزكى ومأخوذ من حله فإن الله قد بارك له فيه حتى إنه قد أنماه له، ووصل به الأمر إلى أن جهز مئة فارس على مئة فرس للجهاد في سبيل الله كما مر، أما هؤلاء الذين أخذوها عنوة من أهلها، وسرقة من أصحابها دون وجه حق فإن الأمر قد آل بهم إلى أن يشحذوا قوتهم اليـومي مـن الآخرين.

وهذا هو حال عدم التمسك بأوامـر الله تـبارك وتـعالى؛ لأن مـخالفة أوامره جلّ وعلا له من المضاعفات الوضعية الكمّ الكثير، ومن ضمنها ما أشرنا إليه من أن الإنسان لا يمكن أن يضمن بقاء الثروة. ومسألة الأموال ليس فيها ثبات أبداً، بل إن الله تبارك وتعالى يغني الإنسان ثم يفقره، أو يفقره ثم يغنيه، وهكذا.

هشام وبذخه للشعراء وفي مجالس الخمر

إن الإنسان عادة حينما تتعلق المسألة بملذّاته وشهواته فإنه لا يتردّد في أن ينفق عشرات الآلاف من الدراهم أو الدنانير لقاء تـحقيقها ولقـاء الحصول على لذتها[1]. أما حينما يصل الأمر إلى مسـألة أداء حـق مـن

(١) يروى أن الوليد بن زيد دخل على هشام بن عبد الملك وعلى الوليد عمامة وشي، فقال له الوليد: بكم أخذت عمامتك؟ قال: بألف درهم. فقال هشام: عـمامة بألف! يسـتكثر ذلك عـليه ويستنكره منه. فقال الوليد: إنها لأكرم أطرافي، أما أنت فقد اشتريت جارية بعشرة آلاف لأخسّ أطرافك. فسكت هشام. مواقف الشيعة ٣: ٢١٣ ـ ٢١٤ / ٨٠٧.

حقوق الله تبارك وتعالى، أو مساعدة محتاج من عباده جل شأنه فإن الإنسان حينئذ يبخل، بل يصبح أبخل البخلاء، فيمتنع عن أداء تلك الحقوق وإخراجها، بل إنه حتى وإن أجبر على إخراجها كأن تجبره نفسه اللوامة أو يجبره أحد آخر له تأثير عليه، فإنه يعمد إلى إخراجها من رديء ماله، وليس من جيده.

يقول المؤرخون: كان حماد الراوية جالساً في جامع الرصافة، فإذا شرطيان قد وقفا عليه وقالا له: يا حماد، أجب الأمير يوسف بن عمر الثقفي، وكان حينها والياً على العراق. يقول حمّاد: فصرت إلى يوسف بن عمر وهو في الإيوان الأحمر، فسلمت عليه، فرد عليّ السلام، ورمى إلي كتاباً فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. من هشام عبد الملك إلى يوسف بن عمر، أما بعد: فإذا قرأت كتابي هذا، فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع، وادفع له خمسمئة دينار، وجملاً مهرياً يسير عليه إلى دمشق حتى يوافينا.

يقول: فأخذت الدنانير، ونظرت فإذا جمل مرحول فركبته وسرت حتى وافيت دمشق في اثنتي عشرة ليلة، فنزلت على باب هشام واستأذنت فأُذن لي، فدخلت عليه في دار قوراء مفروشة بالرخام وبين كلّ رخامتين قضيب ذهب وحيطانه كذلك، وهشام جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب خزّ حمر وقد تضمخ بالمسك والعنبر، وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يقلبه بيده فتفوح رائحته، فسلمت عليه فرد

علي السلام، واستدناني فدنوت حتى قبلت رجله، فـإذا جـاريتان لم أرَ مثلهما قط، في أُذن كلّ جارية حلقتان فيهما لؤلؤتان تتقدان، فقال: كيف أنت يا حماد؟ وكيف حالك؟ فقلت: بخير. فقال: أتدري فيم بعثت إليك؟ قلت: لا. قال: بعثت بسبب بيت خطر ببالي لا أعرف قائله. قلت: ومـا هو؟ قال:

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت   قـينة في يـمينها إبـريقُ

فقلت: يقوله عدي بن زيد العبادي في قصيدة. قال: أنشدنيها. فأنشدته:

بكـر العـاذلون في وضـح الصبـ   ـح يـقولون لي أمـا تسـتفيقُ
ويـلومون فـيك يـا ابـنة عـبد الـ   ـله والقـلب عـندكم مـوهوقُ
لست أدري إذ أكـثروا العـذل فـيها   أعـدوّ يـلومني أم صـديقُ

حتى إذا انتهيت فيها إلى قوله:

ودعـوا بـالصبوح يـوماً فجاءت   قـينة فـي يـمينها إبـريقُ
قـدّمته عـلى عـقار كـعين الـ   ـديك صـفّى سـلافها الراووقُ
مـزّة قـبل مـزجـها فـإذا مـا   مـزجت لذّ طـعمها مـن يـذوقُ
وطـفا فـوقها فـقاقيع كـاليا   قـوت حـمر يـزينها التـصفيقُ
ثـم كـان المـزاج مـاء سـحاب   لاصـرى آجـن ولا مـطروقُ

طرب هشام، ثم قال: أحسنت يا حماد. ثم قال: اسـقيه يـا جـارية. فسقتني شربتين فذهب ثلثا عقلي، فقلت: إن سقيت الثالثة افتضحت. ثم قال: سل حوائجك كائنة ما كانت. قلت: إحدى الجاريتين. قال: هما لك

بما عليهما من حلي وحلل.

ثم قال للأُولى: اسقيه. فسقتني شربة سقطت معها، فلم أعـقل حـتى أصبحت فإذا أنا بالجاريتين عند رأسي وإذا خادم يقدم عشرة خدم مع كلّ واحد بدرة، فقال: أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك: خذ هذه فانتفع بها في شأنك.

فأخذتها والجاريتين،وأقمت عنده مـدة فـوصلني بـمئة ألف درهـم، فانصرفت من عنده وأنا أيسر خلق الله تعالى[1].

فهشام هذا حينما وصل الأمر إلى إشباع رغبة عنده، وهي معرفة أمر نجده يبذل إزاءه الأموال والجواري نتيجة جواب على سؤال حصل عليه من حمّاد الراوية، لكنه كما يقول المؤرخون حينما يتعلق الأمـر بـعطاء الجندي الفقير فإنه يتبعه ويسلب منه عطاءه؛ ولذا فإنه كان يلقب بالأحول السرّاق، ذلك أنه حينما يعطى الجندي عطاءه فإنه يسلبه منه ثـم يـروح ينفق هذه الأموال التي يسرقها من جنوده على مـلذّاتـه ومـوائـد لهـوه وكؤوس خمره، وغناء جواريه وأصوات المخنثين عنده.

والمؤرخون يروون عنه العجائب في هذا البـاب، حـيث إنـه مـا زال يُدخل عطاء الجند شهراً في شهر، ثم شهراً في شهر، حتى أخـذ لنـفسه مقدار رزق سنة[2]. وهذا هو الفحش في أجلى صوره وأوضح مصاديقه.

---

(١) الأغاني ٦: ٨٥ ، ٨٦، ١٠١، الفرج بعد الشدّة ٢: ٣٥٣ ـ ٣٥٥، تاريخ مدينة دمشق ١٥: ١٥١ ـ ١٥٢، وفيات الأعيان ٢: ٢٠٧ ـ ٢٠٩، الوافي بالوفيات ١٣: ٨٥ ـ ٨٧.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٥٣، النزاع والتخاصم: ٤٠.

حرقة ابنة النعمان وسعد بن أبي وقّاص

ومن هذا ما يذكره لنا المؤرخون من أن سعد بن أبي وقاص لمّا قدم القادسية أميراً أتته حرقة ابنة النعمان، فقال لها: أنت حرقة؟ قالت: نعم، ثم قالت له: قبح الله الدنيا؛ فإنها دار زوال، وإنها لا تدوم على حال، إنا كنا ملوك هذا المصر قبلك، يجبى إلينا خراجه، ويطيعنا أهله زمان الدولة، فلما أدبر الأمر وانقضى صاح بنا صائح الدهر، فصدع عصانا وشتّت ملانا. وكذلك الدهر يا سعد، إنه ليس من قوم بسرور وحبرة إلّا والدهر معقبهم حسرة. ثم أنشأت تقول:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة ليس نعرفُ
فأُفّ لدنيا لا يدوم نعيمها تَقَلّب تاراتٍ بنا وتصرّفُ

فقال سعد: قاتل الله عدي بن زيد؛ كأنه والله ينظر إليها حيث يقول:

إن للدهر صولة فاحذرنها لا تبيتن قد أمنت السرورا
قد يبيت الفتى معافى فيرزا ولقد كان آمناً مسرورا(١)

---

(١) مجمع البحرين ١: ٦٣٨، الكنى والألقاب ١: ٣٠٩، خزانة الأدب ٧: ٦٣، تاريخ مدينة دمشق ١٢: ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

الحسين عليه السلام والبذل في سبيل الله

وأبرز مصداق على هذا اللون من الناس الذين لا يألون جهداً في بذل الغالي والنفيس في سبيل الله والمبدأ والعقيدة هو أبو الأحرار وأبيّ الضيم أبو عبد الله الحسين عليه السلام حيث إنه جند نفسه وأمواله وعائلته وأبناءه وأبناء عمومته وأصحابه وقدمهم كلهم قرابين بين يدي الله تبارك وتعالى آملاً من الله أن يمنحه وإياهم رضوانه الأكبر، وأن يفوز بالقرب منه جل شأنه. إن الإمام الحسين عليه السلام يوم الطف لم يترك شيئاً من الأموال والأولاد إلّا وطرحه في طريق التضحية وفي منعطف الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى، فقدم كلّ ما يملك وكلّ ما عنده في سبيله جل شأنه، وطلباً لمرضاته تقدّست أسماؤه:

يا أبا الطف وازدهى بالضحايا ... من أديم الطفوف روض خضيلُ
ثلة من صحابة وشقيق ... ورضيع مطوّق وشبولُ
والشباب الفينانِ جفّ فغاضت ... نبعةٌ حلوةٌ ووجهٌ جميلُ
وتأملت في وجوه الضحايا ... وزواكي الدماء منها تسيل
الجراحاتُ والدمُ المطلولُ ... أينعت فالزمانُ منها خميل
ومضت تنشئُ الفتوح وبعضُ الـ ... ـدم فيما يعطيه فتح جليلُ
والدم الحر مارد ينبئ الأحـ ... ـرار والثائرين هذا السبيلُ
وحديث الجراح مجد وأسمى ... سير المجد ماروته النصولُ

ثـــم عــذراً إن تــهت يــادم يــاجر ح فـــقد أسكــر البــيان الشــمولُ
ومشت فــي شــفاهك الغــر نـجوى نـــم عـــنها التســـبيح والتــهليلُ
لك عــتبى يــارب إن كــان يــرضى ك فــــهذا إلى رضــــاك قـــليلُ[1]

ثم إن الإمام الحسين (صلوات الله وسلامه عليه، وعلى جده وأبـيه، وأُمّه وأخيه، والتسعة المعصومين من بنيه) قدّم وجهه الشريف قرباناً إلى الله تبارك وتعالى بعد أن لم يبقَ معه شيء من المال أو أحـد مـن أهـله وأولاده وأصحابه، فكل ما في بيوته عليه السلام قد أُنفق في سـبيل الله سـبحانه وتعالى، وكلّ من في بيوته من رجال وأطـفال قـد قـدّمهم عليه السلام قـرابـين وضحايا لوجه الله جل شأنه، وفي سبيله. وهكذا أصبحت بيوتاً فـارغة خاوية، لكنها بيوت عامرة بمشاعر الناس وحبّهم لها ولصاحبها، بل في قلوبهم:

لا تــطلبوا قــبر الحســيـ ـنِ بشرق أرضٍ أو بـغربِ
ودعـوا الجـميع وعـرّجوا نــحوي فـمشهده بــقلبي

فتلك البيوت وإن كانت فارغة من أهلها، خاوية منهم إلّا إنها كـانت عامرة بحبّ الناس لها ولأصحابها.. النـاس الذيـن عـرفوا لهـذا الثـائر العظيم، والمحرّر الكبير دوره في إنقاذ الناس من براثن الجـهل، وفـضله على هذه الأُمّة التي سعى عليه السلام جاهداً إلى إخراجها من ظـلمات الجـهل

(١) ديوان المحاضر: ٤٠.

الأُموي إلى نور الإسلام.

نعم كانت خالية من رهبانها، يقول ناعي الإمام الحسين عليه السلام بشر بن حذلم: مررت بديار الهاشميين، فلم أسمع بها إلّا ناعياً أو ناعية، وما من دار إلّا وهي يعلو منها البكاء والنحيب، ثم خرجت صبية وقالت لي: يا هذا أنت الناعي ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قلت: بلىٰ، فمن أنت؟ قالت: أنا ابنته فاطمة، فباللّه عليك أخبرني بالذي جرىٰ عليه وعلى أهل بيته وأصحابه.

مشكلة الشهادة الثالثة عند بعض المسلمين

وهذا المعنى نجده مطّرداً، بل هو معنى ينسحب على حالات عدة من كثير من المجالات التي يمكن أن تكون موضع تطبيق عملي في حياتنا، وفي جوانبها كافّة. ومن هنا فإننا نجد أن البعض يحاول أن يغذّي الصغار بأمثال هذه الأفكار، ويعمد إلى غسل أدمغتهم، ثم ضخّ كمية هائلة من أمثال هذه التشكيكات أو الاعتراضات فيها، وزرع دواعي التشنّجات الطائفية والمذهبية داخلها.

وهذا ما نلمسه واضحاً حتى عند تلامذة المدارس الذين ينبغي أن يكونوا أدمغة نظيفة عن أمثال هذه الترّهات، فنحن نجد أن بعض الطلاب في المدارس يستنكر متسائلاً عن الشهادة الثالثة فيقول: أنى لكم بعبارة: «**أشهد أن علياً ولي الله**»؟ وهذا كما هو واضح إن دلّ على شيء فإنما يدلّ

على أن البعض يحاول أن يشّوه فطرة الإنسان النظيفة عند هؤلاء الأطفال، وأن يمزجها بعصارة من الإشكالات ومسببات إثارة النعرات والعداء بين أبناء المذاهب الإسلامية.

الرد على هذا الإشكال

ونحن نملك من وسائل الردّ على هذه الترهات هنا بأُمور كثيرة يمكن أن نجملها بما يلي:

أولاً: إيرادها لتعميق الإيمان في قلوب الأبناء

إننا نعرف يقيناً بأن هذه العبارة الشريفة التي نوردها نحن الشيعة في أذاننا إنما هي عبارة لا تخرج عن إطار الشرع الحنيف، ولا عن إطار التوظيف الشرعي لكثير من العبارات الأُخرى التي يرفعها المسلمون من أجل تعميق الإيمان في قلوب أبنائهم المسلمين. فهي إذن عملية تربوية لا تخرج عن نطاق التعبّد، أو تنشئة الأبناء على حبّ الدين، ومحاولة غرس مفاهيمه في نفوسهم.

ثانياً: عدم قولنا بوجوبها

وليُعلم كذلك هنا أنه ليس هنالك من أحد من الشيعة على مستوى العامةّ أو الخاصّة (العلماء والفقهاء والمفكرين) من يقول بأن شهادة «أن علياً ولي الله» هي شهادة واجب على المسلم الإتيان بها في أذانه، أو في إقامته.

ولهذا فإن الباحث يجد أن الكلّ مجمعون على أنها عبارة مستحبّة لا

يبطل الأذان بتركها عمداً أو سهواً، وليست واجبة فيهما، بل أكثر من ذلك أن الأذان والإقامة كليهما مستحبان غير واجبين؛ وهذا يعني أن المسلم يستطيع أن يدخل الصلاة دون الإتيان بهما أو بواحد منهما.

إذن فالأذان والإقامة بما أنهما مستحبان، فهذا يعني أن هذا الجزء الذي نضيفه نحن ـ فضلاً عما فيه من جوانب إيجابية سبقت الإشارة إليها ـ فإنما نضيفه على نحو الاستحباب، ولا أحد قائل بوجوبه فضلاً عن وجوب الأذان نفسه أو الإقامة نفسها قبل كلّ فريضة.

ثالثاً: أن شهادتنا هذه من شهادة القرآن الكريم

ثم إننا إذ نقول: «**أشهد أن علياً ولي الله**»، أي أننا نشهد لهذا الرجل العظيم، والقيادي الفذّ، والشجاع الذي شهدت له بالشجاعة أعداؤه قبل محبّيه، والذي وهب حياته للإسلام الحنيف، وللدفاع عن نبي الشريف ﷺ، ولحماية الإسلام، وللقتال دون أبنائه، فإننا إنما نشهد له بذلك حقّاً لا باطلاً.

والدليل على ذلك أننا نشهد له بما يشهد به القرآن نفسه بالولاية حيث يقول: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾(١)، ويقول: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ**

---

(١) التوبة: ٧١.

الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[١].

ومن هنا فإننا نقول:

أولاً: أن علي بن أبي طالب عليه السلام هو واحد من الذين آمنوا، والذين أمرنا القرآن الكريم بمودّتهم وبالإقرار لهم. ومن هنا فإننا إنما نشهد له بما شهد له به القرآن الكريم من كونه أحد أولياء الله تبارك وتعالى.

ثانياً: أن من الأُمور المحببة إلى الله سبحانه وتعالى الشهادةَ لولي من أوليائه بأنه كذلك، وبأنه أهل لأن يشهد له بهذه الشهادة؛ كون ذلك منصباً في إطار الأوامر الإلهية والارادة الربانية، وأمير المؤمنين عليه السلام هو منزّه السماء، وهو من شهدت له السماء بالولاية في قوله تعالى المارّ: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**[٢].

رابعاً: أن الأمثال حكمها فيما يجوز وما لا يجوز واحد

ثم إنه كما أن أبناء المذهب الشيعي الحقّ لم يتحسّسوا من الآخرين عندما أضافوا إلى الأذان قولهم: «الصلاة خير من النوم»، ما لم يجعلوها تشريعاً، ويدرجوها تحت عنوانه، فإن على الآخرين ألّا يتحسّسوا كذلك من هذه العبارة التي أضفناها نحن على الأذان، ما دمنا نلاحظ فيها أُموراً عدة، منها:

(١) المائدة: ٥٥.

(٢) المائدة: ٥٥.

أولاً: أننا لا نقول بها على أنها جزء واجب، أو أنها من أصل التشريع، بل إنها إنما أُضيفت على نحو الاستحباب لا الوجوب؛ بحيث إن الأذان لا يبطل إذا لم يؤتَ بها فيه.

ثانياً: أننا مأمورون بمحبّة من قيلت فيه شرعاً بنصّ القرآن الكريم[1].

ثالثاً: أن هدفنا هو زرع المفاهيم الإسلاميّة في نفوس أبناء الدين.

إذن فنحن إنما نعترض على إضافة شيء إلى التشريع الإلهي، وهو ليس منه فيما يتعلّق بالتوقيفيات. وهذا الاعتراض كما أنه سارٍ على غيرنا فإنه سارٍ علينا نحن أيضاً، فنحن لا نقول بوجوب هذه العبارة في الأذان، بل إننا نضيفها على نحو الاستحباب كما ذكرنا.

ومن هنا فإننا نقول: إن الحقيقة المريرة التي تطبع الإنسان دائماً بطابعها، وتقولبه بقالبها مع كونها سلبية المؤدّى هي أن الكثير الكثير من الناس يرون القذى في أعين غيرهم، ولا يلتفتون إلى وجوده في أعينهم هم أنفسهم؛ ولهذا فإنهم يشنّعون على غيرهم في صغائر الأُمور دون أن يلتفتوا إلى كبير عيوبهم وعظيم مساوئهم فيصلحوها كما هي الحال المفترضة عند العقلاء.

من الفرى على الشيعة

وحال هذا كحال من يشكل علينا بأُمور عدة مفتراة، يصوّرنا من خلالها على أننا بعيدون عن الإسلام فكراً واعتقاداً وعملاً، وهي أُمور

(١) في قوله جلّ من قائل: ﴿ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ الشورى: ٢٣.

كثيرة يمكن أن نذكر منها:

الأُولى: فرية المجوسية

فهؤلاء مثلهم كمثل من يدّعي علينا بأننا مجوس، ويصفنا بأننا أتباع عبدة النار؛ لا لشيء إلّا لغرض في أنفسهم. ونقول لهؤلاء: إذا كنّا عندكم بهذه الصفة، فأنتم من باب أولى أن تنطبق عليكم صفة الوثنية؛ فأنتم وثنيون، وكلا الوثنيين والمجوس لا يعبدون الله تبارك وتعالى. وإذا كان الأمر كما ذكرنا فلماذا ما يلصق بنا يعتبر أمراً معيباً دون ما هو عندكم، فلا يعتبر أمراً معيباً؟

الثانية: فرية عبد الله بن سبأ

وكذلك من الفرى التي ابتلي بها أبناء هذا المذهب، والتي حاول البعض اتّخادها ذريعة للنيل من أبنائه، ولسبهم وتكفيرهم أنهم ينسبونهم إلى شخصية وهمية مفتراة ومختلقة، وهي شخصية عبد الله بن سبأ التي أثبت التحقيق الموضوعي التاريخي أنها شخصية وهمية ومختلقة، وهذا ما يذهب إليه حتى المحققون المنصفون من غير الشيعة، كالدكتور طه حسين وغيره.

ومن هنا فإننا نخاطب هؤلاء بالقول: إذا كنا ننتمي إلى شخصية يهودية هي شخصية عبد الله بن سبأ كما تدعون ـ على فرض صحّة وجود هذه الشخصية، وأنها ليست وهمية ـ فهل لديكم أي إثبات يمكن أن تقارعوا به الأدلّة التي قامت بمقتضى التحقيق الذي اتّبعه المنصفون من المسلمين، والذي اتبعه محققو الشيعة، والذي أثبت أن هذه الشخصية شخصية

مخترعة كما ذكرنا؟ وعليه فهل يمكن لكم أن تأتونا برواية واحدة ثابتة وصحيحة السند أو موثوقة عن هذه الشخصية وعن صفاتها؟ إن التضارب والتناقض واضحان في مرويات هؤلاء المتبنّين لهذه الفكرة حول هذه الشخصية، وهذا ينبئ عن أُسطوريتها، وعن كونها أُكذوبة أراد خصوم الشيعة ادّخارها للشيعة؛ لينالوا منهم بها زوراً وبهتاناً، كما قرر ذلك الدكتور طه حسين.

ومن هنا فإننا نجد أن هذه المرويات التي تتناول هذه الشخصية الموهومة تارة تقول بأنه من أهل اليمن، وتارة ابن امرأة سوداء، وأنه أسلم أيام الخليفة عثمان[1].

وهكذا فإننا نجد ألواناً من الروايات الموضوعة في هذه الشخصية التي تصوّرها لنا بصور كثيرة متناقضة لا تتّسم مع الواقع الذي يريد هؤلاء أن يثبتوه ضدّنا، وأن يحقّقوا به تلك النتيجة التي يبغون الوصول إليها، وهي النيل من هذا المذهب الشريف وأبنائه، ومحاولة تسقيطهم من أعين الناس، وتكفيرهم دون بقية المسلمين.

محاولات ابن سبأ للنيل من الإسلام على رأي هؤلاء

كما أننا نجد في روايات أُخرى أنها تصوره على أنه ليس برجل، بل إنها تصوّره وكأنه شخصية أُسطورية بيدها مقاليد السماوات والأرض، وأنه هو صاحب النظريات، ومبتدع محاولات الدسّ على الإسلام. ومن

(١) تاريخ الطبري ٣: ٣٧٨.

محاولاته نذكر:

الأولى: اقناعه أمير المؤمنين عليه السلام بأنه وصي رسول الله صلى الله عليه وآله

أي أنه هو الذي قال لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إنه هو وصي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وخليفته من بعده، أي أن مسألة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام وولايته بعد النبي صلى الله عليه وآله، ومسألة الوصاية من أساسها ليست من النبي صلى الله عليه وآله، ولا من أمره أو أمر السماء، وإنما هي دعوى باطلة ادّعاها عبد الله بن سبأ، وألقاها إلى مسامع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وجعله يعتقد بها، ويرتّب عليها أثراً خارجيّاً هو مطالبته بالخلافة على أنه حقّ له (تنزه أمير المؤمنين عليه السلام عن ذلك)[1].

(١) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنا أهل بيت صدّيقون، لا نخلو من كذّاب يكذب علينا، ويسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس. كان رسول الله صلى الله عليه وآله أصدق الناس لهجة، وأصدق البرية، وكان مسيلمة يكذب عليه، وكان أمير المؤمنين عليه السلام أصدق من برأ الله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان الذي يكذب عليه ويعمل في تكذيب صدقه ويفترى على الله الكذب عبد الله بن سبأ». اختيار معرفة الرجال ١: ٣٢٤ ـ ٣٢٥ / ١٧٤، وانظر تاريخ الطبري ٣: ٣٧٨. قال الكشّي: وذكر بعض أهل العلم أن عبد الله بن سبأ كان يهوديا، فأسلم ووالى علياً عليه السلام، وكان يقول وهو على يهوديته في يوشع بن نون وصي موسى بالغلو، فقال في إسلامه بعد وفاة رسول الله عليه السلام في علي عليه السلام مثل ذلك. وكان أول من شهر بالقول بفرض إمامة علي عليه السلام، وأظهر البراءة من أعدائه، وكاشف مخالفيه وكفرهم، فمن ها هنا قال من خالف الشيعة: أصل التشيع والرفض مأخوذ من اليهودية. المصدر نفسه.

الثانية: تحريضه الصحابة بعضهم ضدّ بعض

فعبد الله هذا هو الذي حرّض البعض من الصحابة على التحرّك ضـدّ الخلافة. وهناك مجموعة من الروايات تصوّره كذلك على أنه قد أغرى الصحابي الجليل أبا ذر رضي الله عنه بالتحرّك ضدّ الخليفة عثمان، وقال له: ينبغي عليك التحرك والقيام ضدّ الخليفة الثالث. كما أنه هو الذي حرّك الصحابي الجليل عمار بن ياسر رضي الله عنه وغيره كذلك ضدّ الخلافة آنذاك، وهي الخلافة التي يرون أنها شرعية.

مناقشة

ونحن في المقام يمكن أن نناقش هذه الفـرية مـن وجـوه، نـذكرها إجمالاً، فنقول:

أولاً: أنها فرية تسيء بمؤدّاها إلى الصحابة الأجلّاء

إن هؤلاء الذين يدعون بأنهم يكرمون الصحابة، وأنـهم يـقدسونهم لا يعلمون بأنهم هم أنفسهم بهذا الادّعاء الفاسد والباطل إنـما يـنالون مـن قدسية الصحابة، ويجعلون منهم شخصيات كارتونية لا رأي لها ولا قيمة؛ لأنهم بهذه الادّعاءات يظهرونهم على أنهم شخصيات بلهاء لا تستطيع أن تتدخّل لتغيّر مجرى التايخ والحياة، بل إنهم يفعلون كلّ ما يـأمرهم بـه، وكلّ ما يمليه عليهم هذا الرجل الذي يريد أن ينصب العداء للإسلام، وأن يفرّق كلمة المسلمين.

ومن هنا فإننا نجدهم بهذا إنما يسيئون إلى الصحابة، وينالون منهم، مع أنهم يدّعون أنهم هم من يقدس الصحابة، وأن من يسبّ الصحابة يـنبغي

تكفيره وإخراجه من ربقة الإسلام الحنيف.

إذن فإبراز الصحابة بهذا اللون من التصوير كأمير المـؤمنين عليه السلام الذي جعلوا منه أداة طيّعة في يد هذه الشخصية؛ بحيث إنه يدّعي له الخـلافة والوصاية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله دون أن يكون له مدرك في ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله أو من السماء.

وكـــذلك الصــحابي الجــليل أبــو ذر رضي الله عنه الذي قــال الرســول الأكرم صلى الله عليه وآله بحقه: «**ما أقلّت الغبراء، ولا أظلّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر**»[1]. وكذلك غيره من خلّص الصحابة.

وهكذا فإن هؤلاء بهذا التصرّف إنما يجعلون من خيرة الصحابة هؤلاء أدوات طيعة بيد عبد الله هذا.

إذن، فمن هذا المنظار نعرف أن هؤلاء يـنسبون الصـحابة إلى البـله والجهل وعدم الفـهم، وإلى الانسـياق وراء رجـل يـهودي مـخادع كـما يدعون. وهذا يؤول إلى أمر هو عدم احترام الصحابة، ولا تقديرهم كما يدعون، وكذلك يعني في الوقت نفسه أنهم لسذاجـتهم لا رأي لهـم، ولا

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٥٩، الأمالي (الطوسي): ٥٣ / ٧٠، مسند أحمد ٢: ٢٢٣، ٥: ١٩٧، ٦: ٤٤٢، سنن ابن ماجة ١: ٥٥ / ١٥٦، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٣٤ / ٣٨٨٩، ٣٨٩٠، قال في الأول: «هذا حديث حسن». وفي الثاني بزيادة: «ولا أوفى من أبي ذر؛ شبه عيسى بن مريم». فقال عمر بن الخطاب كالحاسد: يا رسول الله، أفتعرف ذلك له؟ قال: «نعم فاعرفوه»...». ثم قال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».

ثبات على أمر عندهم.

ثانياً: أن عند المذاهب الأُخرى أكثر من ابن سبأ

ونقول كذلك: إذا كان الشيعة قد تأثّروا بعبد الله بن سبأ واحد كما يدّعون، فإن من باب أولى أن يتأثر غيرنا من أبناء المذاهب الإسلامية الذين يحفل تاريخهم بالعشرات ممن هم مثل عبد الله بن سبأ هذا، أو أشدّ منه، كوهب بن منبه، ومقاتل بن سليمان، وكعب الأحبار، وغيرهم من اليهود الذين أسلموا خوفاً أو نفاقاً، ثم راحوا يدسّون أساطيرهم وإسرائيلياتهم في مرويات المسلمين من أبناء المذاهب الأُخرى، ويشوّهون بها حقيقة الفكر الإسلامي وجوهره، ونصوع الآراء الإسلامية الصحيحة في مجالات الحياة كافّة.

ومن هنا فإن دعوى أن الشيعة قد تهوّدوا؛ لوجود شخص واحد، وأن غيرهم لم يتهوّدوا مع أن عندهم العشرات من أمثال ذلك الشخص لهو أمر تحكّمي، ولا يخضع إلى ميزان العقل القائل بقانون «حكم الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد»، ولا إلى مقاييس المقارنة والموازنة الصحيحة التي تؤكّد ذلك القانون الكلّي العامّ، والتي ينبغي أن يتّبعها ويمشي عليها الإنسان المنصف العادل، والمؤمن التقي الذي يتورّع عن ولوج طريق معاصي الله سبحانه وتعالى، فيتّقي الله جلّ وعلا في الآخرين، كما يتقيه في نفسه، فيكفّهم لسانه كما يكفّهم يده.

ومن هنا أيضاً فإننا نرى أن الحزم في هذه المسائل وأمثالها هو أنه ينبغي على الإنسان ـ أو لا أقلّ من ذلك ـ أن يسكت عن إثارة مثل هذه

المواضيع حتى لا يفضح نفسه؛ لأنه إنما يفضح نفسه إذ يحاول أن يفضح الآخرين؛ بما أنه ذو تراث ملوّث بإسرائيليات العشرات من أمثال عبد الله بن سبأ، وبأساطيرهم وترّهاتهم التي يلحظها الإنسان بشكل واضح حتى وإن لم يكن ذا خلفية علمية واسعة، أو ذا ثقافة كبيرة؛ ذلك أن كتبهم ملأى بالكثير الكثير من هذه الترهات والخرافات التي دسها أُولئك اليهود الذين أسلموا خوفاً أو نفاقاً، والذين عمد المسلمون إلى الأخذ عنهم بدعوى أنهم صحابة صادقون.

إذن فهذا اللون من الازدواجية في التعامل مع النفس ومع الآخرين، والذي لم يكن يخضع لقوانين العقل أو موازين المقاييس العقلية أو الشرعية الصحيحة هو الذي يريد أن يترفع بنا القرآن عنه، وأن ينقلنا إلى عالم آخر خاضع للمقاييس الشرعية والعقلية.. عالم بعيد عن إخضاع الحق إلى الأهواء الباطلة، وإلى الآراء الشخصية غير القائمة على قاعدة سليمة، وغير المستندة إلى دليل أو برهان يعضدها، أو إلى أي مدرك عقلي يمكن أن ينهض بها.

إن القرآن إنما يريد أن يحثنا على أن نكون موضوعيين في محاوراتنا وفي تعاملنا مع أنفسنا ومع الآخرين، فهو يريد من هؤلاء أن يتوجّهوا بالخطاب إلى بعضهم البعض بالقول: إن عندكم ـ يا من ترمون الآخرين بتهم باطلة لا أساس لها من الصحة ـ العشرات مما ترمون به الآخرين. وإذا كان عند الآخرين واحد ترمونهم به دون أن يكون لذلك الواحد وجود يذكر أو حقيقة قائمة، فأنتم ثابت بحقّكم هذا الأمر بأضعاف

مضاعفة.

ومن هنا فإن عليكم أن تجعلوا أنفسكم ميزاناً وقسطاساً بينكم وبين الله سبحانه وتعالى وبين الآخرين، فإذا ما كنتم كذلك، وخضعتم لقوانين الحقّ والشرع فإنكم سوف لن ترموا الآخرين بما ليس فيهم.

ولادة علي عليه السلام

ويمكن لنا هنا أن نستدل على هذه الدعوى بأن نقول: إن المروي أن السيدة مريم بنت عمران عليها السلام لما أجاءها المخاض وأرادت أن تضع النبي عيسى عليه السلام كانت في بيت المقدس، فجاءها النداء، أو هبط عليها الوحي وقال لها: «**يا مريم، اخرجي من البيت؛ هاهنا محلّ عبادة لا محلّ ولادة**». فخرجت إلى جذع النخلة حيث ولدت[1].

أمّا السيدة فاطمة بنت أسد عليها السلام حينما أجاءها المخاض، فقد توجهت إلى الكعبة المشرفة، ووضعت وليدها المبارك داخلها كما يروي المؤرّخون عن العباس بن عبد المطلب، ويزيد بن قعنب أنهما كانا جالسين ما بين فريق بني هاشم إلى فريق عبد العزى بإزاء بيت الله الحرام إذ أتت فاطمة بنت أسد، وكانت حاملاً بأمير المؤمنين عليه السلام، فوقفت بإزاء البيت الحرام وقد أخذها الطلق، فرمت بطرفها نحو السماء وقالت: أي رب، إني مؤمنة بك وبما جاء به من عندك الرسل، وبكلّ نبي من أنبيائك،

---

(١) اللمعة البيضاء: ٢٢٠، ومن الحوار اكتشفت الحقيقة: ١١٣.

وبكل كتاب أنزلته، وإني مصدقة بكلام جدي إبراهيم الخليل، وأنه بـنى بيتك العتيق، فأسألك بحق هذا البيت ومن بناه، وبهذا المولود الذي فـي أحشائي الذي يكلمني ويؤنسني بحديثه، وأنا موقنة أنه إحـدى آيـاتك ودلائلك لمّا يسرت عليَّ ولادتي.

قال العباس ويزيد: فلما تكلّمت فاطمة بنت أسد بهذا الكلام، ودعت ربّها بهذا الدعاء، رأينا البيت الحرام قد انفتح لها من ظهره، ثـم جـاءها النداء يأمرها بالدخول فيه، فدخلت فاطمة فيه، وغابت عن أبصارنا، ثم عادت الفتحة والتصقت بإذن الله تعالى كما كانت. فـلمّا رمـنا أن نـفتح الباب ليصل إليها بعض نسائنا ويساعدنها، لم ينفتح، فعلمنا أن ذلك من أمر الله تبارك وتعالى.

وبقيت فاطمة في البيت ثلاثة أيام، وأهل مكة يتحدّثون بذلك، فـلما كان بعد ثلاثة أيام انفتح البيت من المـوضع الذي كـانت دخـلت فـيه، فخرجت وعلي عليه السلام على يديها، ثم قالت: معاشر الناس، إن الله عزّ وجلّ اختارني من خلقه، وفضلني على المختارات ممّن مـضين قـبلي، وقـد اختار الله آسية بنت مزاحم فإنها عبدت الله سرّاً في موضع لا يـحب أن يعبد الله فيه إلّا اضطراراً، ومريم بنت عمران حيث اخـتارها الله، ويسـر عليها ولادة عيسى عليه السلام... وإن الله تعالى اختارني وفضلني عليهما، وعلى كل من مضى قبلي من نساء العالمين؛ لأني ولدت في بيته العتيق، وبقيت فيه ثلاثة أيام آكل من ثمار الجنة وأوراقها...[1].

(١) الأمالي (الطوسي): ٧٠٦ ـ ٧٠٨، بشارة المصطفى: ٢٧.

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أفضل من النبي عيسى عليه السلام

يروى أن صعصعة سأل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: أنت أفضل أم النبي عيسى عليه السلام؟ فقال عليه السلام: «**أنا أفضل؛ لأن مريم بنت عمران لما أرادت أن تضع عيسى عليه السلام وكانت في بيت المقدس، جاءها النداء: يا مريم، اخرجي من البيت؛ هاهنا محلّ عبادة، لا محلّ ولادة. فخرجت، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة. ولكن أُمّي فاطمة بنت أسد لما قرب مولدي جاءت إلى بيت الله الحرام والتجأت إلى الكعبة، وسألت ربها أن يسهل عليها الولادة، فانشقّ لها جدار البيت الحرام، وسمعت النداء: يا فاطمة، ادخلي. فدخلت، وردّ الجدار على حاله، فولدتني في حرم الله وبيته**»[1].

إذن فالسيدة فاطمة بنت أسد خرجت بعد ثلاثة أيام وهي تحمل على يديها وليدها المبارك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي سماه الله تبارك وتعالى علياً، وقد شق له اسماً من اسمه، فهذا علي، والله تبارك وتعالى هو العلي الأعلى. يقول أحد أُدبائنا:

تمشّت به والشمس ردّت مغيبها وليد المعالي تحمل الطفل هاديا

موقف المسلمين من ولادة أمير المؤمنين عليه السلام داخل الكعبة

ومن خلال استقرائنا للتاريخ الإسلامي نجد أن بعض المؤرخين أرادوا أن يفرغوا هذه الفضيلة الخارجية التي أراد الله سبحانه أن يختص بها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وجعلها خاصة به عليه السلام من محتواها، وأن يهمشوا هذه الفضيلة حتى لا يذكروا للناس بأن الإمام علياً عليه السلام قد اختصّه الله بأمر

(١) ومن الحوار اكتشفت الحقيقة: ١١٣.

لم يختصّ به أحداً من خلقه جميعاً.

إن أُولئك الذين يروون هذه الرواية الشريفة، ويقرّون بأنه عليه السلام قد ولد في الكعبة يروون هذه الحادثة وكأنها مسألة تتكرّر بين آونة وأُخرى، فهم يصورون هذه المسألة على أن فاطمة بنت أسد عليها السلام حينما أجاءها المخاض، وحضرها الطلق توجهت إلى الكعبة وولدت هناك، وهي في هذا حالها حال أي امرأة أُخرى يمكن أن تذهب إلى البيت المحرّم وقت الطلق لتلد هناك، بل ادّعوا لغيرها هذه المنقبة في محاولة يائسة بائسة لنفي هذه الفضيلة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام[١].

الرد على هذا الموقف

مع أننا نعرف أن هذا الأمر غير صحيح من ثلاث جهات:

الجهة الأُولى: أن البيت الحرام بيت عبادة لا بيت ولادة

فقد مر بنا أن السيدة مريم بنت عمران عليها السلام حينما أرادت أن تلد أمرها

(١) قال الحاكم: «أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد... حدثنا مصعب بن عبد الله فذكر نسب حكيم بن حزام، وزاد فيه: وأُمّه فاختة بنت زهير بن أسد بن عبد العزّى، وكانت ولدت حكيما في الكعبة وهي حامل، فضربها المخاض وهي في جوف الكعبة، فولدت فيها، فحملت في نطع وغسل ما كان تحتها من الثياب عند حوض زمزم. ولم يولد قبله ولا بعده في الكعبة أحد. قال الحاكم: وهم مصعب في الحرف الأخير؛ فقد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) في جوف الكعبة. المستدرك على الصحيحين ٣: ٤٨٣.

فجزى الله الحاكم خيراً؛ إذ نبّه إلى هذه المحاولة، وأثبت الحقيقة الناصعة.

الوحي بالخروج من بيت المقدس، مبيناً لها بأن هذا البيت طاهر مطهر، ولا يمكن أن تكون فيه حالة ولادة، حيث خاطبها بقوله: «**يا مريم، اخرجي من البيت؛ هاهنا محلّ عبادة لا محلّ ولادة**». أما فاطمة بنت أسد فقد انفتح لها البيت الحرام ـ مع أنه أفضل من بيت المقدس ـ من ظهره، ودخلت فيه ووضعت وليدها المبارك.

الجهة الثانية: أن فاطمة بنت أسد عليها السلام قد أُمرت بدخول البيت

ثم إننا نعرف من خلال ما مرّ بنا قبل قليل وما ذكرناه في الجنبة الأُولى أن النداء قد أمر السيدة فاطمة بنت أسد بأن تلج البيت الحرام بعد أن انفتح لها جداره حتى دخلته وانغلق عليها كما كان، فولدت فيه، ثم خرجت في اليوم الثالث وهي تحمل على يدها وليدها المبارك وابنها المقدس أمير المؤمنين عليه السلام.

الجهة الثالثة: العناية التاريخية بهذا الحدث

ثم إننا نقول: إن الأمر لو كان كما حاول هؤلاء المؤرخون المبغضون أن يبرزوه إلى الوجود على أنه أمر عادي، فإنه لا يمكن له ـ إن كان أمراً عادياً ـ أن يستحوذ على اهتمام التاريخ، وعلى عنايته به. فنحن جميعاً نعرف أن تأريخنا قد أولى هذه المسألة الحسّاسة أهمّية كبيرة، وراح يرسم معالم ذلك الحدث الرباني العظيم وهو يقول: انفتح لها البيت من ظهره. فكانت حادثة أقرّ بوقوعها الأعمّ الأغلب من المؤرّخين[1].

(١) قال الآلوسي عند قول الناظم عبد الباقي العمري:

وعليه فإنهاعليها السلام بعد أن خرجت من بيت الله الحرام تحمل وليدها على يدها، توجّهت به مباشرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وذلك قبل أن يبعث. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أنه أمر له أهمّية كبيرة في تاريخ الإسلام والمسلمين.

ومن هنا فإن هذا الأديب عمد إلى القول مخاطباً اليهود والنصارى:

أنت العلي الذي فوق العلا رفعا ببطن مكة عند البيت إذ وضعا

«وكون الأمير (كرم الله وجهه) ولد في البيت أمر مشهور في الدنيا، وذكر في كتب الفريقين السنة والشيعة... ولم يشتهر وضع غيره (كرم الله وجهه) كما اشتهر وضعه، بل لم تتّفق الكلمة عليه. وما أحرى بإمام الأئمة أن يكون وضعه فيما هو قبلة للمؤمنين، وسبحان من يضع الأشياء في مواضعها، وهو أحكم الحاكمين». سرح الخريدة الغيبية في شرح القصيدة العينية: ١٥.

وقال عند قوله:

وأنت أنت الذي حطت له قدم في موضع يده الرحمن قد وضعا

«وقيل: أحبّ (عليه الصلاة والسلام) أن يكافئ الكعبة حيث ولد في بطنها بوضع الصنم عن ظهرها، فإنها كما ورد في بعض الآثار كانت تشتكي إلى الله تعالى عبادة الأصنام حولها، وتقول: أي ربّ، حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي؟ والله تعالى يعدها بتطهيرها من ذلك». سرح الخريدة الغيبية في شرح القصيدة العينية: ٧٥.

وقد رأينا قول الحاكم فيما مضى: «فقد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) في جوف الكعبة». المستدرك على الصحيحين ٣: ٤٨٣. ولابدّ هنا من أن نشير إلى قوله: «تواترت الأخبار»، والخبر المتواتر هو ما لا يمكن أن يتطرّق إليه الكذب أبداً،كما هو مثبت في كتب الدراية والحديث عند الفريقين.

فـوليد البـيت أحـرى أن يكـون لولي البـــيت حـــقاً ولدا

أي إنكم إذا كنتم تدّعون أن النبي عيسى أو النبي عزيراً عليهما السلام هما ابنا الله تبارك وتعالى، فإن الذي ولد في بيت الله هو أولى أن تدّعى له هـذه الدعوى إن كانت تصحّ من أساس؛ لأنه قد ولد في بيت الله تبارك وتعالى، والنبي عزير والسيد المسيح عليهما السلام لم يولدا في بيت الله تبارك وتعالى، ولم يؤذن لأُميهما عليهما السلام في أن تلداهما في بيت من بيوت الله جلّ وعلا، كما مرّ بنا قبل قليل من موقف الوحي الشريف عليه السلام من السيدة مريم عليها السلام حينما أرادت أن تلد النبي عيسى عليه السلام في فناء بيت المقدس.

إذن فمن يولد في بيت الله تبارك وتعالى فهو أولى وأحقّ بأن يدْعى لله جلّ وعلا، فلو كانت تصح تلك الدعوى لوجب نسبة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام إليه (تقدس شأنه، وجلّ معناه). ولكن بما أن الله تبارك وتعالى منزّه عن مجانسة مخلوقاته[1]، وبما أنه لا يمكن أن يشبه مخلوقاتِه في شيء من الأشياء، أو في جهة من الجهات، أو في اعتبار من الاعتبارات التي هي من مختصات الممكنات الفانية، والماديات الزائـلة، فـإنه جـل شأنه لا ولد له أبداً، بل لا زوجة. فلا من يولد في بيته، ولا من يولد في غير بيته يمكن أن يكون ابناً له (تقدّس الله ربنا وتنزّه عـن ذلك الكـفر، وعلا علوّاً كبيراً).

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء (الصباح): «يا من دلّ عـلى ذاتـه بـذاتـه، وتـنزّه عـن مجانسة مخلوقاته وجلّ عن ملاءمة كيفيّاته». بحار الأنوار ٨٤: ٣٣٩ / ١٩، ٩١: ٢٤٣ / ١١.

ليس لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضل

يروى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان في يوم من الأيام جالساً في مسجد الكوفة عند بيت المال، فدخلت عليه امرأتان إحداهما مولاة مملوكة والأُخرىٰ عربيّة حرّة، تسألانه العطاء، فأمر لكل واحدة منهما بكرّ من طعام وأربعين درهماً، فأخذت المولاة العطاء الذي أُعطيت وذهبت، وقالت العربيّة: يا أمير المؤمنين، تعطيني مثل الذي أعطيت هذه، وأنا عربية وهي مولاة؟ فحمل أمير المؤمنين عليه السلام قبضتين من التراب وقال: «**والله، إني لا أرىٰ فرقاً بين هذه وبين هذه، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**[1] ...». ثم قال عليه السلام لها: «**إني نظرت في كتاب الله عزّ وجلّ، فلم أرَ فيه فضلاً لولد إسماعيل على ولد إسحاق**»[2].

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) انظر السنن الكبرى (البيهقي) ٦: ٣٤٩،كنز العمّال ٦: ٦١٠ ـ ٦١١ / ١٧٠٩٥. وفي الكافي ٨: ٦٩ / ٢٦ أنه عليه السلام خطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة، وإن الناس كلّهم أحرار، ولكن الله خوّل بعضكم بعضاً، فمن كان له بلاء فصبر في الخير فلا يمنّ به على الله عز وجل. ألا وقد حضر شيء ونحن مسوّون فيه بين الأسود والأحمر». فقال مروان لطلحة والزبير: ما أراد بهذا غيركما.

ثم وزّع عليه السلام المال، فأعطى كلّ واحد ثلاثة دنانير، وأعطى رجلاً من الأنصار ثلاثة دنانير، وجاء بعد غلام أسود فأعطاه ثلاثة دنانير، فقال الأنصاري: يا أمير المؤمنين، هذا غلام أعتقته

فليس هنالك مَن يخرج مِن بطن أُمّه وهو حرّ، ولا من يخرج من بطن أُمّه وهو عبد، بل إن الجميع يولدون أحراراً غير أن بعض الظروف الطارئة التي تكتنف حياة الإنسان تجعل منه عبداً، ومنها:

أولاً: ظروف الحرب والأسر وما إلى ذلك.

ثانياً: ظروف التأديب التي يضعها الله تبارك وتعالى تأديباً لعباده. أي أن هذا الأمر ما هو إلّا نمط من أنماط التربية القاسية التي يريد الله تبارك وتعالى أن يربي عليها بعض عباده ممن يطغون، أو ممن هم بحاجة إلى هذا اللون من التربية. وإلّا فإن الناس يولدون أحراراً، وهم متساوون جميعاً في نظر المشرّع الأقدس، كما يقول الحديث النبوي الشريف: **«الناس سواء كأسنان المشط، وإنما يتفاضلون بالعافية. والمرء كثير بأخيه، يرفده ويحمله. ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له»**[1].

وهذا طبعاً في غير الموارد التي تعتمد الدين والتقوى أساساً للتمايز والتفاضل بين الناس. وهو أمر مشروع، فمن منّا لا يعتمد الذكاء مثلاً أو المنصب العلمي أو غيرهما من أدوات التمايز الدنيوي أساساً للتمايز

بالأمس تجعلني وإياه سواء؟ فقال عليه السلام: «إني نظرت في كتاب الله، فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلاً».

(١) تحف العقول: ٢٦٨، كنز العمّال ٩: ٣٨ / ٢٤٨٢٢، ٢٤٨٢٣، الكامل ٣: ٢٤٨، تاريخ بغداد ٧: ٦٢، تاريخ مدينة دمشق ١٠: ٣٦٣، ميزان الاعتدال ٢: ٢١٧، لسان الميزان ٢: ٤٣، ٣: ٩٨، المبسوط (السرخسي) ٥: ٢٣، وفيه: «الناس سواسية كأسنان...».

والتفريق بين الناس على مستوى العطاء أو المنزلة؟

الإمام علي عليه السلام ومسؤوليته التربوية

وهذا اللون من الفكر، وهذا الدور التربوي والتأديبي اللذان أراد الإمام علي عليه السلام أن يمارسهما ويتبعهما إبّان خلافته قد خلقا له عليه السلام جملة من المشاكل، فالإمام علي عليه السلام حينما تسلم كرسي الخلافة عمد أول ما عمد إلى رفع شعار المساواة بين الناس كما أمر الله تبارك وتعالى، وكما أراد له أن يكون.

موقف أمير المؤمنين عليه السلام من طلحة والزبير في أموال المسلمين

وهذا ما دفع الكثير من الأثرياء وأبناء الطبقة المنتفعة والمتميزة بين المسلمين إلى إظهار التذمّر من هذه السياسة الإصلاحية التي انتهجها عليه السلام، وإعلان بوادر النقمة منه، بل إلى الثورة ضده. يروى عن أبي الهيثم بن التيهان وعبد الله بن أبي رافع أن طلحة والزبير جاءا أمير المؤمنين عليه السلام وقالا: ليس كذلك كان يعطينا عمر. فقال عليه السلام: «**فما كان يعطيكما رسول الله صلى الله عليه وآله؟**». فسكتا، فقال عليه السلام: «**أليس كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقسم بالسوية بين المسلمين؟**». قالا: نعم. فقال عليه السلام: «**فسنة رسول الله صلى الله عليه وآله أولى بالاتّباع عندكم، أم سنة عمر؟**».

فقالا: سنة رسول الله صلى الله عليه وآله يا أمير المؤمنين، لكن لنا سابقة وعناء وقرابة. فقال عليه السلام: «**سابقتكما أسبق أم سابقتي؟**». قالا: سابقتك. فقال عليه السلام:

«**فقرابتكما أم قرابتي؟**». قالا: قرابتك. فقال عليه السلام: «**فعناؤكما أعظم أم عنائي؟**». قالا: عناؤك. فقال: «**فوالله ما أنا وأجيري هذا إلّا بمنزلة واحدة**». وأومأ بيده الشريفة إلى الأجير الذي كان يعمل معه[1].

فهو عليه السلام يريد أن يبيّن لهما بأن هذه الأموال التي استوليا عليها، ويريدان الآن أن يستوليا على المزيد منها إنما هي أموال خراجية غير مملوكة لأحد، ولا لأحد الحقّ في التصرّف فيها، وهي بالتالي للمسلمين كافّة، ليست لأحد منهم دون أحد، ولا لثلّة دون ثلة. ولام التمليك في الآيات الكريمة المختصّة بهذا الموضوع، والتي تتعلّق بالمقام إنما هي لام تفيد التسوية بين الناس؛ بمعنى أن هذه الأموال ينبغي أن توزّع بينهم على حد سواء دون أن يميّز بين أحد منهم وآخر إلّا على أساس كفاءته التعبوية أو العلمية أو مسؤولياته المدنية وغيرها.

ولهذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يبيّن لهما بأن حالهما حال بقية الناس، فلهما ما للناس وعليهما ما عليهم، أما إذا كان هنالك تمايز في الجهاد أو في غيره، فإن هذا مما ينبغي أن يكون متعلقاً بالآخرة، أي أن الله تبارك وتعالى سوف يعطيكم الأجر عليه يوم القيامة.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإن من يسعى لأن يُحسن لوجه الله تبارك وتعالى، وطلباً لمرضاته، وللقربى وللتقرّب إليه ينبغي عليه ألّا يحاول أن يأخذ أجر ذلك الاحسان في الدنيا، ولا أن يفعل القبيح إزاءه

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٣٧٨، الخرائج والجرائح ١: ١٨٧.

بأن يستولي على أموال المسلمين، بل إن عليه أن ينتظر إلى يوم القيامة، فيثيبه الله تبارك وتعالى، ويحسن إليه، ويدخله الجنة. أما ما عـدا ذلك، فلا ينبغي للإنسان أن يأخذ شيئاً ليس له بـحقّ، ولا أن تـمتدّ يـده إلى ماحرّم الله جلّ وعلا عليه.

ولهذا فإننا نجد أن أحد أسباب التمرّد على الإمام أمير المـؤمنين عليه السلام هو كونه عليه السلام قد راعى مسألة المساواة بين الناس دائماً، وقرّر عدم تفضيل أحد منهم على الآخر في العطاء وفي غيره. بل إنه عليه السلام ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فحاول أن يستردّ الأموال التي أخذها بعض المسلمين دون وجه حقّ من بيت المال، فبنى بها الدور والقصور، وفعل بها مـا فـعل؛ ليعيد توزيعها ثانية بين الناس(١).

---

(١) ومن الجدير ذكره هنا أمران:

الأول: قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «وَاللّهِ لَو وَجَدتُهُ قَد تُزُوِّج بِهِ النِّسَاءُ وَمُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ لَرَدَدتُهُ؛ فَإِنَّ فِي العَدلِ سَعَةً، وَمَن ضَاقَ عَلَيه العَدلُ فَالجَورُ عَلَيه أَضيَقُ» نهج البلاغة / الكلام: ١٥، وهو ما يدلّ على نزاهته عليه السلام، وعدم انسياقه وراء ملذّات الدنيا الفانية، ومتاعها الزائـل، وعرضها النافق.

الثاني: أن قوله عليه السلام هذا لم يكن عن مجرّد اتّهام لمجموعة من الأشخاص، بل إنه واقع مرير معاش عانت منه فقراء الأُمّة ومظلوموها؛ ولذا فإننا سوف نذكر نبذة عن مقدار ما كان يملكه بعض الصحابة من أموال:

أولاً: في أيّام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال، فكان له يوم قتل عند خازنه خـمسون ومئة ألف دينار، وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مئتا ألف دينار،

حاتم الطائي يذبح فرسه لإطعام جاره

تروي ماوية زوجة حاتم بن عبد الله الطائي عن زوجها فتقول: إن

وخلّف إبلاً وخيلاً كثيرة.

ثانياً: أن عبد الرحمن بن عوف بعد أن توفي جيء بتركته إلى مجلس الخليفة الثالث فوقف رجلان كلّ واحد في جهة من التركة فلم يرَ أحدهما الآخر، وكان على مربطه ألف فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف من الغنم. وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً.

ثالثاً: وخلّف زيد بن ثابت من الفضّة والذهب ماكان يكسر بالفؤوس، غير ما خلّف من الأموال والضياع بمئة ألف دينار.

رابعاً: وبنى الزبير داره بالبصرة، وكذلك بنى بمصر والكوفة والاسكندريّة، وقد بلغ الثمن الواحد من متروكه بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلّف ألف فرس وألف أمة، وقد اقتُسم ميراثه علىٰ أربعين ألف ألف، وروي أن عثمان أعطاه يوماً مئة ألف مرّة واحدة. وانظر أنساب الأشراف ٥: ٣٨، ٥٢، وروي كذلك أنه قال: كان عمر يستخلفني علىٰ المدينة، فوالله ما رجع من مغيب قط إلّا قطع لي حديقة من نخل.

خامساً: وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيّد داره بالمدينة، وبناها بالجصّ والآجرّ والساج، وكانت غلّته من العراق ألف دينار كلّ يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك.

سادساً: وبنى سعد داره بالعقيق، ورفع سمكها وأوسع فضاها، وجعل على أعلاها شرفات.

انظر في كلّ ذلك وغيره ممّا لم نحصِه: المنتخب من ذيل المذيّل (الطبري): ١٣، تاريخ ابن خلدون ١: ٢٠٤ ـ ٢٠٥، مروج الذهب ١: ٤٣٤، ٢: ٣٤٠، الإصابة ١: ٥٦٢، سير أعلام النبلاء ٢: ٤٣٤، أخبار القضاة ١: ١٠٨، حلية الأولياء ١: ١٦٠.

الناس قد أصابتهم مجاعة، فأذهبت الخفّ والظلف، فبينا نحن ذات ليلة بأشدّ الجوع، وقد أخذ حاتم عدياً، وأخذتُ سفّانة، فعللناهما حتى ناما، ثم أخذ يعلّلني بالحديث لأنام، فرققت له؛ لما به من الجهد، فأمسكت عن كلامه لينام ويظن أني نائمة، فقال لي: أنمت؟ مراراً، فلم أُجبه، فسكت، ونظر من فتق الخباء، فإذا شيء قد أقبل، فرفع رأسه فإذا هي امرأة، فقال: ما هذا؟ فقالت: يا أبا سفّانة، أتيتك من عند صبية جياع، يتعاوون كالذئاب جوعاً. فقال: أحضريني صبيانك، فوالله لأُشبعنهم.

قالت ماوية: فقمت سريعاً، وقلت له: بماذا يا حاتم؟ فوالله، ما نام صبيّاك من شدة الجوع إلّا بالتعليل. فقال: والله، لأُشبعن صبيّيك مع صبيانها.

فلما جاءت المرأة بصبيانها، قام إلى فرسه فذبحه، ثم أجّج ناراً، ودفع إليها شفرة، وقال لها: اشتوي وكلي، وأطعمي ولدك. وقال لي: يا ماويةُ، أيقظي صبيّيك. فأيقظتهما، وجعلت أُطعمهما.

ثم قال: والله، إن هذا للؤم، تأكلون وأهل الحيّ حالهم كحالكم. فجعل يأتي الحي بيتاً بيتاً ويقول: انهضوا، عليكم بالنار. فاجتمعوا وأكلوا، وهو متقنّع بكسائه، وقد جلس ناحية حتى لم يوجد من الفرس على الأرض قليل ولا كثير دون أن يذوق منه شيئاً[1].

---

(١) الكنى والألقاب ١: ٨٥ ـ ٨٦.

أثر سماحة حاتم في أبنائه

هذه هي النزعة التي كانت تبسط أجنحتها على نفسية حاتم، وترفرف روحها فوق روحه، فتخضعه باختياره لإنسانيتها، وهي نزعة تنمّ عن نفس كبيرة سامية، وعن معدن ثمين، وعن روحية عالية تتّسم بالطيبة الكاملة. وهي نزعة لم تكن موجودة عند غير العرب من أبناء المجتمعات الأُخرى؛ ولذا فإننا نجد أن هذا الأمر الطيب قد انسحب على عائلة حاتم كلّها متمثّلاً بولديه عديّ وسفّانة:

أوّلاً: عديّ بن حاتم ومنطق الحقّ

فهذا عدي ابنه وقد أصبح من كرام صحابة رسول الله ﷺ، وصحابة أخيه أمير المؤمنين عليه السلام الذي لازمه وبقي معه، وقاتل تحت رايته في حروبه. وبهذا كان عدي من خيار الشيعة الذين بايعوا أمير المؤمنين عليه السلام، وأقسموا على أن يفدوه بأنفسهم، وأن يؤثروه بالحياة دون أنفسهم، حتى قد ذهبت عينه يوم الجمل.

وممّا يروى في مضمار صلابة عدي وثباته على موقفه مع الحقّ، وعلى مبادئه السماوية أنه دخل يوماً على معاوية بعد مقتل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وعنده عبد الله بن الزبير وعمرو بن العاص، فقال له ابن الزبير: يا أبا طريف، متى ذهبت عينك؟ قال: يوم فرّ أبوك منهزماً فقتل، وضربت على قفاك وأنت هارب، وأنا مع الحقّ وأنت مع الباطل. فقال ابن العاص: ما فعل الطرفان، يعني طريفاً وطرافاً وطرفة أبناءه؟ قال: قتلوا

مع أمير المؤمنين عليه السلام.

وهنا التفت إليه معاوية ليعمل سمّه، فقال له: ما أنصفك علي؛ إذ قدّم أبناءك وأخّر أبناءه. قال: بل أنا ما أنصفته؛ قُتل وبقيت بعده. فقال ابن العاص: أما إنه قد بقيت قطرة من دم عثمان ما لها إلّا كذا، وأومأ بيده إليه. فقال له عدي: إن السيوف قد أُغمدت على حسَك في الصدور، ولعلك تسلّ سيفاً تُسلّ به سيوف.

فالتفت معاوية إلى ابن العاص فقال: كلمة شدّها في قرنك. ثم خرج عديّ وهو يقول:

يحاولني معاوية بن صخر ... وليس إلى التي يبغي سبيلُ
يذكّرني أبا حسن علياً ... وخطبي في أبي حسن جليلُ
يكاشرني ويعلم أن طرفي ... على تلك التي أخفى دليلُ
ويزعم أننا قوم طغام ... حراريّون ليس لنا عقولُ
وقال ابن الوليد وقال عمرو ... عدي بعد صفين ذليلُ
فقلت صدقتما قد هدّ ركني ... وفارقني الذين بهم أصول
ولكني على ما كان مني ... أُخبّر صاحبيَّ بما أقولُ
وإن أخاكما في كلّ يوم ... من الأيام محملهُ ثقيلُ[1]

ثانياً: موقف سفانة ابنة حاتم مع رسول الله صلى الله عليه وآله

ومن خلال هذا السياق نجد أن هذا البيت في الواقع هو بيت متميز؛

(١) كتاب الفتوح ٣: ٨٢ ـ ٨٣، مختصر أخبار شعراء الشيعة: ٤٦ ـ ٤٧.

حيث إن الأمر لم يقتصر فيه على الرجال فقط، بل إنه تعداهم إلى النساء كما حصل مع سفانة بنت حاتم حينما أُتي بها أسيرة مع قومها إلى النبي الأكرم ﷺ، فكان أن خاطبت النبي بذلك الخطاب الذي نال إعجابه ﷺ مما أدّى به إلى تلبية طلباتها.

يقول المؤرخون: لما جيء بسبايا طيّئ إلى المدينة المنوّرة، وأُدخل السبي على النبي ﷺ، دخلت سفانة بنت حاتم الطائي، فقالت: أي محمد، مات الوالد، وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلّي عني ولا تشمت بي أحياء العرب؛ فإني ابنة سيد قوم، وإن أبي كان يحبّ مكارم الأخلاق، وكان يطعم الجائع، ويفكّ العاني، ويكسو العاري، وما أتاه طالب حاجة إلّا ردّه بها.

فقال النبي ﷺ: «**يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه**». ثم قال النبي ﷺ: «**أطلقوها؛ كرامة لأبيها**». فقالت: أنا ومن معي. قال النبي ﷺ: «**أطلقوا من معها؛ كرامة لها**». ثم قال ﷺ: «**ارحموا ثلاثاً، وحقّ لهم أن يُرحموا: عزيزاً ذلّ من بعد عزّه، وغنياً افتقر من بعد غناه، وعالماً ضاع ما بين الجهّال**».

ثم قالت سفانة: يا رسول الله، أتأذن لي بالدعاء لك؟ فقال النبي ﷺ: «**نعم**». فقالت: أصاب الله ببرّك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة قوم إلّا جعلك سبباً لردّها. فقال النبي الأكرم ﷺ: «**آمين**».

ثم أمر النبي الأكرم ﷺ لها بإبل وغنم سدّت ما بين الجبلين، فعجبت من ذلك وقالت: يا رسول الله، هذا عطاء من لا يخاف الفقر. فقال ﷺ:

«**هكذا أدّبني ربي**»[١].

ثالثاً: عدي بن حاتم مطعم النمل

ولقد كان الكرم الذي يتّصف به هذا البيت الأصيل لا يقتصر على الناس فقط، بل إنه كرم يتعدّاهم إلى مخلوقات الله تعالى الأُخرى كالحيوانات والحشرات. ومن هذا فإن عدياً؛ كان يسمى «مطعم النمل»؛ لامتداد ساحة كرمه، واتّساع مداها؛ حيث إنها تمتدّ لتشمل حتى النمل في جحورها. يروي عنه المؤرّخون أنه كان إذا رأىٰ قرية من النمل في بيته أو حواليه، رجع إلى بيته وجاء بخبز وفتّه لها، ولا يترك أفرادها جياعاً، ويقول: هؤلاء جيراني[٢].

وهكذا فإننا من خلال هذا السياق نجد أن بيت حاتم كان بيتاً مشهوراً ومعروفاً بالكرم والجود والشجاعة. وهذا واقع لا يمكن إلّا الإذعان له، حتى قال فيه رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله مخاطباً ابنته سفانة كما رأينا: «**هذه صفات المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه**». فهو بيت متميز إذن؛ حيث إن الأمر لم يكن يقتصر فيه على الرجال فقط، بل إنه تعدّاهم إلى النساء، كما رأينا ممّا وقع لسفانة بنت حاتم مع رسولنا الأكرم رسول الرحمة والشفقة صلى الله عليه وآله.

فهكذا كان حاتم الطائي، وهكذا أيضاً كان أهل بيته الذين عاشوا هذا

(١) شجرة طوبى ٢: ٤٠٠.

(٢) بحار الأنوار ٦١: ٢٤٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٠: ٨٨، ٨٩.

النمط الراقي من الخلق الحسن القويم، وذلك اللون الرائع من السمات الإلهية العالية.

رجع

إذن فالآية الكريمة تخاطب هؤلاء وتقول لهم: إذا كان عندكم مكرمة فغيركم عندهم مكارم كثيرة، وإذا كان في حضارتكم أشياء تتميزون بها، فإن في حضاراتا غيركم كذلك أشياء أُخرى نتميز بها عنكم، وهي أشياء لا توجد في حضارتكم أنتم.

الإمام الحسين عليه السلام والتضحية بالروح

وأبرز مصداق للنمط الثالث من أنماط الناس الذين يفدون على الله تبارك وتعالى للوقوف بين يديه للحشر والجزاء هو الإمام الحسين عليه السلام الذي يأتي حاملاً روحه الشريفة على كفّه، ودمه على كفّه الأُخرى، ويعرضهما على الله تبارك وتعالى، وكأني به عليه السلام يخاطبه ويقول له: يا رب، إني وهبتك هذه الروح، وضحيت بها في سبيلك ومن أجل دينك، وقد أرقت هذا الدم ـ وهو الدم الذي يحمله على يده الكريمة الأُخرى ـ في سبيلك، وطلباً لمرضاتك والتقرب إليك والزلفى لديك، وعليه فإني أُريد أن تعطيني جزاءً على هذا وهو رضوانك الأكبر.

ومن هنا فإننا نستشفّ بل نلمس مدى عظمة هذه النفس الكبيرة عند الإمام الحسين عليه السلام التي إذ تريق دمها الطاهر في سبيل الله تعالى، وإذ تضحّي بالروح التي يضنّ بها الآخرون من بني الإنسان في سبيل مرضاته

جلّ شأنه والتقرب إليه، فإنها لا تجود بكلّ ذلك رغبة بالجنة، بل إنها تجود بكلّ ذلك طلباً للقرب من الله تبارك وتعالى، ولرضاه فقط، والذي هو الرضوان الأكبر الذي تعبر عنه الآية الكريمة على أنه فوز عظيم: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنْ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١].

فالدم الذي أُريق في سبيل الله تبارك وتعالى، والروح التي ضُحّي بها لأجله جلّ شأنه في طريق الحقّ تعالى ، وفي ميدان الصراع بين الحقّ والباطل كانا ولا يزالان يمثّلان تلك الصرخة المدوية في وجه الكفر والجاهلية التي أراد يزيد وسلفه، وأعوانهما وأزلامهما أن يرجعوا الناس إليها ترغيباً وترهيباً حيث سعوا إلى أن يبلوا سنته صلى الله عليه وآله ولمّا يجفّ قبره الشريف[٢].

ومن البديهي أن نجد بين من يحمل فكراً حرّاً ووعياً ناضجاً من يعتبر أن هذه الثورة المباركة والنهضة المقدّسة التي قام بها الإمام الحسين عليه السلام نهضة تاريخية، وانعطافة تصحيحية كبيرة في لحظة من لحظات الضعف والوهن الذين اعتريا جسد الأُمّة الإسلامية بفعل مقصود ولغرض معروف دأبت على فعله السلطة الأُموية الحاكمة آنذاك، وأذنابها من الولاة الذين يلعقون جفان أسيادهم الأُمويين، ويطبّلُون لهم ويرقصون

(١) التوبة: ٧٢.

(٢) قال تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئَاً) آل عمران: ١٤٤.

على وقع معازفهم.

وكلّ ذلك أدّى إلى استشراء حالة من البعد عن الدين، والاستخفاف بأحكام الله تبارك وتعالى وشريعة سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله، وهي

ظاهرة مَرَضية مُعدية انتابت المجتمع الإسلامي آنذاك بضغط من الأُمويين وأذنابهم كما نوّهنا.

ومن هنا كانت ثورتة عليه السلام تصحيحية، وحركته إصلاحية، ونهضته تعبوية أرادت أن تضخّ الدم إلى شرايين الدين بعد كادت تجفّ منه؛ إذ امتصّها الحاكمون الطغاة. ومن هنا فإنها تشكّل منعطفاً إيجابياً وتكاملياً في مسيرة الإسلام، وفي مرحلة حرجة ومريرة من مراحل الأُمّة والدولة، وانعطافة تربوية وتوجيهية كان لابدّ منها في تلك الحقبة المظلّمة الحالكة التي عاشها المسلمون الحقيقيون في تاريخهم بكل مآسيها وآلامها ومهاتراتها، والذين أرادوا أن ينقذوا الإسلام وتشريعاته من براثن الشرك الأُموي، ومخالب والكفر والجاهلية المروانية التي دعا إليها يزيد وأعوانه وعمّاله، وعلى رأسهم مروان الطريد.

فكانت تلك الصرخة بحقّ صرخة هائلة مدوية رفعت على مداها الأبعد، ودويّها الهادر المترامي الأطراف كلمة الحقّ ومحجّته، وتشريعات الله سبحانه وتعالى ومنهجه؛ ليعلو الحقّ ولا يُعلى عليه، وليسمو ولا يُرجع به وبمن اتّبعه إلى أزمنة الجاهلية.

فلسفة طلب الزهراء عليها السلام حقّها وهي تنشر قميص الحسين عليه السلام يوم القيامة

ومن هنا فإننا نفسّر الرواية الواردة عن سادس أهل بيت العصمة: الإمام

أبي عبد الله لصادق عليه السلام، والتي يقول عليه السلام فيها: «**إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، ثم أمر منادياً فنادى: غضّوا أبصاركم، ونكّسوا رؤوسكم حتى تجوز فاطمة ابنة محمد صلى الله عليه وآله الصراط. فيغضّ الخلائق أبصارهم، فتأتي فاطمة الزهراء على نجيب من نجب الجنة، يشيعها سبعون ألف ملك، فتقف موقفاً شريفاً من مواقف القيامة، ثم تنزل عن نجيبها، فتأخذ قميص الحسين بن علي عليه السلام بيدها مضمّخاً بدمه، وتقول: يا رب هذا قميص ولدي، وقد علمت ما صنع به. فيأتيها النداء من قبل الله عزّ وجلّ: يا فاطمة، لك عندي الرضا. فتقول: يا ربّ، انتصر لي من قاتله. فيأمر الله تعالى عنقاً من النار، فتخرج من جهنم، فتلتقط قتلة الحسين بن علي كما يلتقط الطير الحبّ، ثم يعود العنق بهم إلى النار، فيعذبون فيها بأنواع العذاب**»[1]. على أنها مطالبة تتعلّق بالعالم الإسلامي ووضعه الحرج.. العالم الإسلامي الذي كان يعيش متراجحة حرجة في تاريخه، وهي متراجحة صراع الإسلام والكفر، والإيمان والشرك، بحيث إنه صراع يعدّ انتصار أحد طرفي تلك المتراجحة فيه موت الطرف الآخر والقضاء عليه.

إن من المعلوم أن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله لم تكن تريد من هذا القميص مجرد ذلك النسيج القماشي المصنوع من مادته، بل إنها تريد أن ترمز به إلى ما هو أكبر وأبعد، تريد أن ترمز به إلى تلك الصرخة المدوية التي أطلقها أبو الأحرار وأبيّ الضيم وسيد الشهداء

(١) الأمالي (المفيد): ١٣٠، بحار الأنوار ٤٣: ٢٢٤.

الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام وهو يناضل ويجاهد بنفسه وروحه وأهل بيته وأصحابه: في سبيل الحق، وفي سبيل دين الله تبارك وتعالى عن أن تطمس معالمه، وعن أن تدرس رسومه.

غير أن المسلمين الذين نهض عليه السلام من أجلهم، ومن أجل رفعة شـأنهم عبر الحفاظ على حدود دولتهم التي حدّها الله تعالى لم يـقفوا مـنه ذلك الموقف المشرّف الذي ينبغي أن يكون وأن يـقفوه، ولم يـدركوا له ذلك الفضل الجسيم الذي تقدّم به إليهم، والذي لولاه لضاع الدين، ولمـحيت رسومه، فكان أن كافؤوه بالسيف إذ رفعوه في وجهه، وبالتعامل غير النبيل وغير الشريف إذ سبوا حرم رسول اللّه صلى الله عليه وآله وهتكوا حرمتهن، وحاولوا أن يشوّهوا الصورة الناصعة لحركته السماوية المباركة عبر محاولة تفريغها من محتواها بما حاولوا أن يبثّوه حولها من سموم وأكاذيب وفرى وهم يؤرّخون لها.

إن السيدة البتول عليها السلام تريد أن ترمز بذلك القميص المقدّس الطاهر الذي لامس جسد رسول الله صلى الله عليه وآله بملامسته جسد سبطه وابنه وريحانته، وسيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين عليه السلام إلى أمر أوسع مما يمكن أن يتصوّره البعض، فهي عليها السلام تريد أن تقول له جل شأنه: يا رب أن العالم الإسلامي كان يعيش متراجحة حرجة في تاريخه، وهي متراجحة يعدّ انتصار أحد طرفيها ضياع الطرف الآخر وتلاشيه.

ونحن نجد في أحد طرفي هذه المتراجحة ريادة الحق، وقادة الدين، وممثّلي السماء، وهو الطرف المتمثّل بسبط نبيك رسـول الله صلى الله عليه وآله، وفـي

الطرف الثاني نجد الشرك والكفر والجاهلية العمياء المتمثّلة بيزيد وأزلامه وأعوانه. وهذا يعني أنها متراجحة بين عبادتك وحدك لا شريك لك، ونشر دينك، وبين ترك عبادتك والالتجاء إلى عبادة الأصنام والأوثان التي كان يزيد يدعو إليها.

وعليه فإن انتصار يزيد في تلك المعركة يعني ضياع دينك وضياع الهدف الذي من أجله بعثت محمداً صلى الله عليه وآله حبيبك ورسولك حيث كانت وظيفته بالدرجة الأُولى تحطيم الأصنام والأوثان والقضاء عليها، والقضاء على الدعوة إليها وإلى عبادتها، ودفع الناس إلى عبادتك وإلى طاعتك وإلى عدم معصيتك، وهذا ما سوف لن يكون فيما لو انتصر دعاة الشرك والجاهلية، وأخدان الخمر والمعاصي.

وأما إذا ما انتصر طرف المتراجحة الخيّر، والذي يمثّله إمام الرحمة الإمام الحسين عليه السلام، فهذا يعني تحقيق الهدف الذي من أجله بعثت نبيك وحبيبك محمداً صلى الله عليه وآله، وهو القضاء على تلك الأصنام والأوثان، وصدّ الناس عن عبادتها وعن ولوج طريق الجاهلية العمياء، بل والقضاء على تلك الجاهلية تماماً، وعلى محاولات عتاتها صدّ الناس عن الإسلام. وهكذا فإن بناء مجتمع إسلامي متكاتف متماسك قائم على أساس دينك الحنيف، ودستورك القويم ـ وهو القرآن الكريم الذي اتّخذه يزيد ومن جاء من بعده وراء ظهورهم، وسخروا منه ـ سوف يكونه أمراً متحققاً، وممكناً وسهلاً.

فهذا القميص قد لُطّخ بذلك الدم الطاهر الذي أُريق لأجلك على تراب

كربلاء المقدسة التي تقدّست بأن وطئتها قدما سيد شباب أهل الجنة سبط رسولك وريحانته أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وهذا الدم إنما أُريق من أجل الدعوة إلى عبادتك وترك عبادة الاصنام، ومن أجل الوقوف بوجه الظلم والطغيان المتمثّل بالسلطات القائمة آنذاك. وعليه فإن عدلك ولطفك يقتضيان تكريم ذلك الموقف وصاحبه، ومعاقبة من وقفوا بوجه دينك وعبادتك.

أثر دم الإمام الحسين عليه السلام في رحلة انتشار الإسلام

وهذا المعنى بالفعل هو الذي صدع به الإمام الحسين عليه السلام منذ أول خطوة خطاها في طريق ثورته المباركة ونهضته المقدسة، فكان عليه السلام يصدع بهذا المعنى، ويدعو إلى مقارعة الظلم والطغيان والكفر المتمثّل بالسلطات القائمة في كلّ منطقة تطؤها قدماه الشريفتان؛ سواء في الحواضر أو في البوادي.

لقد كان عليه السلام يحاول أن يؤكّد مظلوميته وذلك حينما أصابته سهام الشرّ والكفر، فقد كان عليه السلام يأخذ من تلك الدماء الطاهرة التي شخبت من نحره الشريف، ثم يرميه إلى السماء، ولا يرجع منه شيء، وهو يقول: «**اللهم بعينك، اللهم لا يكن أهون عليك من فصيل ناقة صالح**»[1]. وكذلك كان عليه السلام يفعل مع ابنه عبد الله الرضيع الذي ذبحه الطغاة بسهم الغدر والجاهلية من الوريد إلى الوريد، حيث كان عليه السلام يأخذ من دمائه ويرمي بها إلى السماء

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٧.

ليبرز تلك المظلومية ويؤكّدها على مرّ الأزمان.

بل إنه عليه السلام حينما أصاب سهم غاشم من سهام الكفر نـحره الشـريف، وانهمر دمه كالميزاب، وضع كفيه الطاهرتين الشريفتين تحت نحره حتى امتلأتا بالدم، ثم أخذه فخضّب عليه السلام به وجهه الشريف وقال: «**هكذا ألقىٰ الله وأنا مخضوب بدمي، مغصوب حقي**»[1].

ومن خلال هذا العرض نعرف أن هذا الموقف ليس موقفاً عادياً، وإنما هو موقف ينطوي على رموز ودلالات لا تخفى على من يريد أن يصل إلى الحق والحقيقة.

وبعد أن حمّ الأمر، وقاربت الروح تفارق جسده الشريف، رمق السماء بطرفه الشريف يناجي خالقه ويخاطبه يريد أن يهديه تلك الروح الطاهرة فداء لدينه، وتلك الدماء المقدّسة قرباناً لشريعته، وقد حال بـينه وبـين السماء حاجز كالدخان من شدّة العطش[2].

فهذا الدم الطاهر الذي وضعه الإمام السبط الشـهيد عليه السلام عـلى طـريق الشهادة والتضحية بين يدي الله تبارك وتعالى هو الوسيلة العظمى المقرّبة إلى الله جلّ شأنه، وهو الأداة الأُولىٰ والكبرى في طريق طلب رضوان الله سبحانه وتعالى، وهو الرضوان الأكبر الذي ليس بعده رضوان كما تنص عليه الآية الكريمة. يقول الحديث الشريف: «**فوق كلّ بَرٍّ بَرٌّ حتىٰ يقتل الرجل في سبيل الله**»[3].

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٥٣.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٢٤٥.

(٣) دعائم الإسلام ١: ٣٤٣، وقريب منه في الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٦٧.

الأُمويون يقتلون رسول الله ﷺ بقتل سبطه

وهنا نقطة هامة ينبغي التوجه إليها وهي أن هذا الدم الطاهر الذي أراقه الإمام الحسين عليه السلام في سبيل الله وفي سبيل طلب مرضاته والتقرّب إليه ليس هو دم الإمام الحسين عليه السلام فقط، وإنما هو دم رسول الله ﷺ. ولذا فإننا نجد أن هذا المعنى قد تعمّق وتجذّر وتبلور عند محبي رسول الله ﷺ، ومحبي أهل بيته:، فنجد أحد الشعراء يقول على لسان الإمام الحسين عليه السلام:

يامسلمينَ خذوا دماءَ نبيِّكم ... من هامتي إن الحياة حرامُ

والشاعر إنما يقرر هنا على لسان أبيّ الضّيم أبي عبد الله عليه السلام هذه الحقيقة المرّة التي درج عليها المسلمون، وهو يخاطب أُمة جده التي تنصّلت عن شيمها العربية، وعن إيمانها والتزامهاالذي ألزمت به نفسها للرسول ﷺ حيث أمرها بمودّة أهل بيته في قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً**﴾(١)، فسمّى جلّ وعلا مودّتهم حسنة.

ولقدسية هذا الدم واعتباره، ولمكانته عند الله تبارك وتعالى وعند رسوله ﷺ فإنه لا يقدر أحد على أن يطالب به سوى الحجة عليه السلام صاحب الأمر عليه السلام، وقائم آل محمد ﷺ، والطالب بثاراتهم: . وعليه فإنه إذا ما خرج عليه السلام لإحقاق الحقّ وإبطال الباطل، ولملء الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن تكون قد ملئت ظلماً وجوراً، فإنه يأتي إلى كربلاء المقدّسة حيث

---

(١) الشورى: ٢٣.

ضريح جدّه الإمام الحسين عليه السلام، وأضرحة أهل بيته وصحابته، فيزور تلك القبور بعد أن يزور قبر جدّه عليه السلام، ثم يتوجّه إلى ضريح جدّه عليه السلام، ويقول له مخاطباً إيّاه: «**هل من معين فأُطيل معه العويل والبكاء، هل من جزوع فأُساعد جزعه إذا خلا، هل قذيت عين فساعدتها عيني على القذى، هل إليك يابن أحمد سبيل فتلقى**»[1].

شناعة الموقف الأُموي يوم الطفّ

ثم يمرّ الإمام الحجّة (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) إلى أن يقف على قبر عبد الله الرضيع، ثم يمدّ يده الشريفة، فيستخرج الطفل الرضيع عبد الله، ثم يعرضه على أصحابه، ويقول لهم: «**ما ذنب هذا الطفل الرضيع، يقتل وهو على يدي أبيه؟**».

ونقول له هنا: سيدي يا صاحب الزمان، يا أيها الطالب بثأر الإمام الحسين عليه السلام، ليتك كنت ترى ذلك المنظر الشنيع، والفعل البشع الفظيع عندما رجع به جدّك أبو عبد الله عليه السلام إلى الخيمة وهو يضطرب على يديه الطاهرتين، ودماؤه المقدّسة تسيل من نحره، وليتك كنت تسمعه عليه السلام كيف نادى الرباب قائلاً: «**رباب، خذي ولدك مذبوحاً**». حيث تناولت رضيعها ورجعت به إلى الخيمة مذهولة.

وليس عبد الله هو المذبوح الوحيد يوم الطفّ، بل إن التاريخ يحدثنا بأن هنالك أكثر من رضيع سوى عبد الله قد ذبحوا يومها من آل محمد صلى الله عليه وآله، يقول الشاعر:

(١) المزار (المشهدي) ٥٨٢، الإقبال الأعمال الحسنة ١: ٥١١.

كم رضيع لك بالطفّ قضى عطشاً يقبض بالراحة راحا

ولم تكن دماؤه عليه السلام ولا دماء أطفاله وحدها هي التي أخذها عليه السلام ورمى بها إلى السماء بل إنه عليه السلام كان يأخذ دماء الشباب من شهداء آل محمد ومن غيرهم. وقد كان يأتي بشهداء آل محمد إلى خيمة مخصوصة حتى تجتمع إليهم عماتهم أو أُمهاتهم أو أخواتهم ليندبنهم، فكن يأخذن من دمائهم ويصبغن بها تلك الوجوه والشعور:

خضبوا وما شابوا وكان خضابُهم بدم من الأوداجِ لا الحنّاءِ
ومغسّلين ولا مياهَ لهم سوى عبراتِ ثكلى حَرّةِ الأحشاءِ
أصواتُها بُحّت فهن نوائح يندبن قتلاهن بالإيماءِ[1]

أبو تمّام في مجلس الزيّات

يروى أن الشاعر المعروف أبا تمام دخل على الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، ومدحه بقصيدة له رائعة مفعمة بالمعاني والصور، والتي منها قوله:

ديمة سمحة القياد سكوبُ مستغيث بها الثرى المكروبُ
لو سعت بقعة لإعظام أُخرى لسعى نحوها المكان الجديبُ

فلما أتمّها قال له أحد الحضور في ذلك المجلس: يا أبا تمّام، لم تقول ما لا يفهم من الكلام؟ فردّ عليه أبو تمّام قائلاً: وأنت لِمَ لَمْ تفهم ما

(١) ديوان الشيخ صالح الكواز/ العلويات/ القصيدة الأُولى في رثاء الإمام الحسين V وأهل بيته وأصحابه.

يقال[1]؟

أي أتريدني أن أهبط إلى مستواك، فأنزل بالعِلم إلى مستوى الجهل بهذا اللون من الخطاب؟

وهذا هو حال المشركين الذين يريدون تحقيق رغباتهم وإثباتها حتى وإن كان على حساب التشريعات السماوية وعلى حساب السعادة التي يريدها الله تبارك وتعالى لهم، فيسارعون إلى سؤال النبي الأكرم ﷺ ليصحّح لهم بيع الخمر، وممارسة البغاء، وارتكاب الفحشاء، والانحراف، وما إلى ذلك.

وهذه المشكلة التي كان يكابدها ويعاني منها نبينا الأكرم ﷺ لم تكن وقفاً على عصره أو دوره، بل إنها مشكلة كابدها وعانى منها جميع الأنبياء: على امتداد خطّ الرسالة، لكنهم: بما عرف عنهم من حرص على رسالاتهم، وبذلهم جهدهم في أدائها بالوجه الأتم الأكمل، ومن حرص كذلك على هداية الناس وإصلاحهم وعدم تعرّضهم إلى التعذيب بالنار يوم القيامة لم يستجيبوا لطلبات أُممهم؛ سواء كان ذلك بسبب كونه ليس في

(١) لم نعثر عليه بهذا النص، وما بين أيدينا من مصادر تشير إلى أن ابن الزيات قال له: يا أبا تمام، إنك لتحلّي شعرك من جواهر لفظك، وبديع معانيك ما يزيد حسناً على بهي الجواهر في أجياد الكواعب. وما يدخر لك شيء من جزيل المكافأة إلّا ويقصر عن شعرك في الموازاة. وكان بحضرته فيلسوف فقال له: إن هذا الفتى يموت شاباً. فقيل له: ومن أين حكمت عليه بذلك؟ فقال: رأيت فيه من الحدّة والذكاء والفطنة، مع لطافة الحسّ وجودة الخاطر ما علمت به أن النفس الروحانية تأكل جسمه، كما يأكل السيف المهنّد غمده. وفيات الأعيان ٢: ١٦.

دائرة رضا الله تبارك وتعالى، أو لأنه ليس في دائرة رعاية الأنبياء لمصالح الآخرين حيث إنهم: على طول خطّ رسالاتهم، وعلى امتداد تبليغهم كانوا يحاولون بكل ما أُوتوا من طاقة أن يرفعوا من مستوى أُممهم عن الهبوط إلى ذلك المستوى المتدنّي الذي تريد تلك الأُمم الجاهلية بلوغه والهبوط إليه.

فأنبياء الله: نتيجة لذلك الحرص على شعوبهم وأُممهم، مضافاً إليه أن تلبية طلبات العتاة غير داخل في دائرة رضا الله تبارك وتعالى أبوا أن يستجيبوا لتلك الطلبات، بل راحوا يحاولون جاهدين رفع مستوى أُممهم حتى وإن أدى ذلك بهم إلى القتل كما رأينا مع سبب مقتل النبي يحيى بن زكرياعليهما السلام. وكلّ ذلك لا لشيء إلّا ليصحّحوا الانحرافات التي كانت المجتمعات البشرية كافّة تعيشها في أشكالها كافّة، وفي أبعادها عامة، فكلّفتها سعادتها وإيمانها، ولو كان الثمن دماءهم:.

فوظيفة الأنبياء: إذن هي تصحيح مسار المجتمع، وتصحيح خطا البشرية، وإقامة المجتمعات البشرية السليمة والصحيحة بعيداً عن كلّ ما يمتّ إلى الانحراف والتقهقر بصلة؛ لأن هذا هو روح الرسالات وجوهرها وحقيقتها.

ومن هنا فإننا نجد أن الأنبياء: عامة ذوو روحية شفافة، وهم بعيدون عن كلّ ما فيه لبس أو غموض؛ سواء في سيرتهم، أو في حركاتهم وسكناتهم، أو في تصرفاتهم. ولعل أبرز مثال ومصداق على ذلك ما نجده عند نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث إننا نجده داعياً إلى رسالته في كلّ حال، وفي كلّ مكان، وفي كلّ زمان دون أن يسمح صلى الله عليه وآله لأن تحول بينه وبين تبليغها

جهود البشرية، أو عاداتها، أو رغباتها في الانحرف والانحدار.

وقد كانت له صلى الله عليه وآله عدة مواقف تترجم لنا إصراره صلى الله عليه وآله الكامل وسعيه الدؤوب إلى تبليغ رسالته إلى الناس، والرقي بالبشرية والوصول بها إلى أعلى مراتبها، ومنها نذكر:

أولاً: جلوسه صلى الله عليه وآله مع البدو في معاطن الإبل

إننا نقرأ في سيرته صلى الله عليه وآله العطرة أنه كان لا يمانع في أن يجلس مع مجموعة من البدو محاطاً بأبلهم حتى يدعوهم إلى الإسلام، ويبيّن لهم وظيفة هذا الدين الجديد.

وننوّه هنا إلى أنه ليس معنى هذا أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم يكن يستقذر تلك المعاطن أو ما هو بمستواها، لكن الهدف الذي كان صلى الله عليه وآله يسعى إلى تحقيقه هو هدف أسمى وأعلى، ويستحقّ أن يضحَّى من أجله؛ ولهذا فإننا نجد عنده صلى الله عليه وآله هدفين: هدفاً خلقياً، وآخر تربوياً يحاول من خلالهما أن يرفع من مستوى الإنسان الجاهل، وأن ينهض بالأُمّة ويوصلها إلى مستوى عطاء القرآن الكريم، ويرفعها إلى مستوى اعتناق الإسلام الحنيف؛ حتى ينال السعادة التي هيّأها الله تبارك وتعالى له فيما لو أنه دخل في هذا الدين.

وهكذا فإذا ما قيّض للإنسان أن يدخل في هذا الدين، وأن يترفّع عن مستواه الجاهلي وحالته البدائية التي كان عليها؛ سواء كان فيما يتعلّق بالموروث، أو بالعادات، أو بالعقائد، فإنه حينئذٍ سوف يكون أهلاً لأن ينال رضا الله تبارك وتعالى، ولأن يلج مسالك السعادة وسبلها التي وعده بها، وجعلها جائزة له.

ثانياً: تحمّله ﷺ الأخلاق الفظّة لبعض الأعراب

ثم إن النبي الأكرم ﷺ كثيراً ما كـان يـغضّ الطـرف عـن كـثير مـن التصرفات الفظّة والغليظة التي تبدر من بعض الأعراب، وعن كـثير مـن أخلاقياتهم التي تتّسم بالجفاف والغلظة. لقد كان بـعض الأعـراب مـثلاً حينما يأتونه إلى بيته يقفون على باب بيته وينادونه بالقول: اخرج الينا يا محمد. فيخرج إليهم النبي الأكرم ﷺ متناسياً منهم تلك الغلظة في سبيل الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه، وهو تبليغهم رسـالة الإسـلام، وإيـصال الإسلام إلى نفوسهم.

ولذا فإنه ﷺ كان يحاول أن يعلم هؤلاء كيف عليهم أن يتصرّفوا، وأن يخاطبوا الآخرين فيما إذا جاؤوا إلى بيت أحد، ويبيّن لهم أن عليهم أن يراعوا جملة أُمور منها:

أولاً: أن يستأذنوا من صاحب البيت قبل أن يدخلوا .

ثانياً: أن يلقوا تحية الإسلام إذا ما إذن لهم صاحب البيت، ودخلوا.

ثالثاً: أن يتلطّفوا معه في الخطاب إن كانت لهم حاجة عنده، لأنه سوف يقضيها لهم حتماً إن كان يقدر على ذلك.

إذن فهدف النبوّات وروحها هو أن تسـمو بـالإنسان عـن المسـتوى البهيمي المنحطّ، وأن تترفّع به عن مستواه الجاهلي المظلم إلى مسـتوى نور الرسالات السماوية. وهذا الهدف ليس مختصاً بالأنبياء: فقط، بل إنه هدف كلّ مصلح وكلّ داعٍ إلى الله تبارك وتعالى؛ ذلك أن المصلح والداعي سواء كان نبياً أو غير نبيٍ ليس له من هدف إلّا توعية الناس، ورفعهم عن مستواهم الذي هم عليه، والذي يتسم عادة بالجهل والتخبّط والظلام. وإلّا

فإن المصلح لم يكن ليرى أن هنالك ضرورة لقيامه بحركته الاصلاحية أو الدعوية، وأن يرتفع بالناس عن مستواهم الذي هم عليه إلى مستوى النور والعلم، وتطبيق دستور السماء.

وهكذا فإننا نجد من خلال هذا العرض أن هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة يخاطب هؤلاء المشركين الذين طالبوا النبي الأكرم ﷺ أن ينزل بمستوى القرآن إلى مستواهم بأنه لو أراد الله تبارك وتعالى ألّا يتلى عليكم القرآن لما تلي عليكم؛ لأنكم لم تحاولوا أن ترتقوا إلى مستواه، لكن الله بلطفه ورحمته بكم يريد أن يرفعكم عن مستواكم ذلك. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا إذن لا زلتم باقين في تلك الأجواء الموبوءة، وفي تلك المباءة التي تجسّد قيم الجاهلية كلّها دون أن يكون عندكم أي استعداد وأي تحرك لترك هذا الواقع المنحطّ الذي تعيشونه، والرقي بأنفسكم إلى واقع أسمى وأعلى وأفضل؟

المبحث الثالث: خصائص الدعوة عند الأنبياء:

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ**﴾، وفي هذا المقطع من آية المقام الكريمة ثلاث نقاط ينبغي التوجه إليها؛ لما فيها من أهمّية:

النقطة الأُولى: في تضحية الأنبياء:

إن المعروف أن الأنبياء: لم يبخلوا بحياتهم ولا دمائهم ولا نفوسهم في سبيل تحقيق أهداف السماء ورسالاتها. فمن خلال هذا المقطع الشريف نستشفّ أن النبي الأكرم ﷺ كأنما يريد أن يقول لهم بأن عمر الإنسان عزيز عليه، وإذا ما كان كذلك فإنه حينما يضحّي به من أجل شيء آخر؛

فهذا يدلّ على أن ذلك الشيء المضحَّى من أجله بالعمر هو شيء ذو أهمّية كبيرة، وله مكانة خاصة، وله دور هامّ وعظيم في بناء الحياة. ولهذا فإن الأنبياء: يضحّون بتلك الحياة وبتلك الأعمار من أجله ومن أجل تحقيقه وإحقاقه.

العمر عند الإنسان

إن العمر في واقع الأمر بالنسبة للإنسان هو أثمن الثروات في حياته، وهذا شيء بديهي؛ لأن الإنسان من غير الحياة لا يمكن أن يقوم بشيء، أو أن ينجز شيئاً؛ ولذا كان ذلك العمر ضرورياً وهاماً وعلى قيمة عالية في حياة الإنسان عامة سواء كان نبياً أو إنساناً عادياً. وهذه المنحة الجليلة والهبة العظيمة التي وهبها الله تبارك وتعالى للإنسان ـ وهي عبارة عن سنين وأيام وساعات ودقائق ـ ينبغي عليه ألّا يضيعها سدى، بل إن عليه أن يغتنمها اغتناماً كاملاً، وأن يسعى ما دام حياً إلى تحصيل كلّ خير، وإلى بناء كلّ ما هو حقّ وحقيقة، وإلى خدمة الآخرين والقيام بمجتمعه خير قيام دون أن يحاول أن يضيع عمره في الأُمور التافهة التي لا تسمن ولا تغني، ودون أن يعمد إلى أن يجعل منه هباءً في ممارسة ما حرم الله تبارك وتعالى، وفي طاعة الشيطان.

فالنبي الأكرم ﷺ يريد هنا أن يبيّن لهم بأنه قد مكث معهم كلّ هذا العمر الطويل في نصحهم وإرشادهم، وقد فعل ما فعل، وتحمل ما تحمل من أجل أن يحقّق تلك الأهداف السماوية التي أمره الله تبارك وتعالى

بتبليغها للناس[1]، لكنكم مع ذلك، ومع هذا الجهد الذي بذلته من أجلكم ومن أجل رفعكم إلى مستوى رسالات السماء حتى أُحقّق التبليغ الذي كلفني الله به، ومع ما أوصلتكم إليه من حال حيث كنتم على حال نقيضة له، لكنكم لم تقدروا تضحياتي وأتعابي، ولم تقدروا وجودي كذلك بين ظهرانيكم وإن كنت قد حملتكم على الهدى.

وهذا يقرّر بلسان حاله صلى الله عليه وآله أنه يشعر بالألم والأسى؛ لأن العمر قد ضاع بينهم دون أن يحصد الهدف الذي جاء من أجله طريقه، أو يحقّق أثره المطلوب فيهم كاملاً.

وهذا المعنى كان دائماً ينعكس على نفسية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي كان يتألم بشدة حينما تمر أمام عينيه هذه الحالة التي يرى الناس عليها، كسحابة حزن تظلّل روحه الشريفة، حتى نزل القرآن الكريم مواسياً إياه بقوله: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾[3]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾[4]، أي أنك يا محمد قد قمت بواجبك، وأدّيته على أتمّ وجه، وما تبقى فليس واقعاً على عاتقك، بل إنه واقع على

---

(١) حتى قال صلى الله عليه وآله: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت». مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٢، التفسير الكبير ٤: ١٧٥.

(٢) فاطر: ٨.

(٣) الكهف: ٦.

(٤) الغاشية: ٢١ ـ ٢٢.

عواتق أُلئك الذين صدّوا عن سبيل الله ويبغونها عوجاً. كما أنها تبقى من ضمن إطار مسؤوليتهم؛ لأنهم هم الذين سوف يحاسبون على تركهم أهداف الرسالة التي أضعت عمرك في سبيل تحقيقها.

ولكن مع هذا كان رسول الله ﷺ يشعر بالألم عليهم؛ لأنه ﷺ يرى أن على هؤلاء أن يستفيدوا من عطاء الإسلام، وأن يستلهموا مفاهيمه، وأن يستطعموا مائدته خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة التي مرت عليه ﷺ بينهم. وكذلك عليهم أن يستفيدوا من وجوده الكريم بينهم، وأن يعرفوا أنه ﷺ إنما جاء ليصلح النفوس وليعمرها، ولم يجئ بأهداف رخيصة ولا لأجل أهداف رخيصة.

إن الأهداف التي جاءت من أجلها الأديان والرسالات هي أهداف سامية وعالية؛ لأنها أهداف السماء التي تسعى إلى تخليص الإنسان من براثن الجهل والجاهلية، وتعمل جاهدة على أن توصله إلى مراتب الرقي به وإلى مرابع النور والفهم، والمعرفة والعلم، والأخلاق والقيم، وبناء المجتمع الصالح الذي يحقّق أهداف السماء، ويمنح للإنسان وجوده في هذه الدنيا، وسعادته عند الله تبارك وتعالى في الآخرة؛ بناء على امتثاله لأهداف السماء وتحقيق الغرض منها.

ما كان عليه أن يسألني سؤال عجوز بني إسرائيل لموسى عليه السلام؟

يروى أن رسول الله ﷺ نزل على رجل بالطائف قبل الإسلام فأكرمه، فلما أن بعثه الله تعالى إلى الناس قيل للرجل: أتدري من الذي أرسله الله

عزّ وجل إلى الناس؟ قال: لا. فقالوا له: هو محمد بن عبد الله يتيم أبـي طالب، وهو الذي كان نزل بك بالطائف يوم كذا وكذا فأكرمته.

فقدم الرجل على رسول الله ﷺ فسلم عليه وأسلم، ثم قال له: أتعرفني يا رسول الله؟ قال: «ومن أنت؟». قـال: أنـا رب المـنزل الذي نـزلت بـه بالطائف في الجاهلية يوم كذا وكذا فأكرمتك. فقال ﷺ له: **«مرحباً بك، سل حاجتك»**. فقال: أسألك مئتي شاة برعاتها.

فأمر له رسول الله ﷺ بما سأل، ثم قال لأصحابه: **«ما كان عـلى هـذا الرجل أن يسألني سؤال عجوز بني إسرائيل لموسى عليه السلام بما سأل؟»**. فقالوا: وما سألت عجوز بني إسرائيل موسى عليه السلام؟ فقال ﷺ: **«إن الله عزّ ذكره أوحى إلى موسى أن احمل عظام يوسف من مصر قبل أن تخرج منها إلى الأرض المقدّسة بالشام، فسأل موسى عليه السلام عن قبر يوسف عليه السلام، فجاءه شيخ فـقال: إن كـان أحـد يعرف قبره ففلانة.**

فأرسل موسى عليه السلام إليها، فلما جاءته قال: تعلمين موضع قـبر يـوسف عليه السلام؟ قالت: نعم قال: فدلّيني عليه ولك ما سألت. قالت: لا أدلّك عليه إلّا بحكمي. قال: فلك الجنة. قالت: لا، إلّا بحكمي عليك. فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: لا يكبر عليك أن تجعل لها حكمها. فقال لها موسى عليه السلام: فلك حكمك. قالت: فإن حكمي أن أكون معك في درجتك التي تكون فيها يوم القيامة في الجنّة». ثم قال رسول الله ﷺ: **«ما كان على هذا لو سألني ما سألت عجوز بني إسرائيل؟»**[1].

ولنلحظ الفرق هنا بين هذا الرجل الذي وفد على رسول الله ﷺ، وبين

---

(١) الكافي ٨: ١٥٥ – ١٥٦ / ١٤٤، مسند أبي يعلى ١٣: ٢٣٥ – ٢٣٧ / ٧٢٥٤.

تلك المرأة التي لم يكن لها من هم إلّا أن تكون رفيقة النبي موسى عليه السلام في الجنة. وهذا هو الذي يريده رسول الله صلى الله عليه وآله حيث إنه يريد صلى الله عليه وآله أن يرفعهم عن حالات الدنيا والتفكير فيها إلى حالات الآخرة ومراقبتها، ومحاولة تحصيلها.

لقد قضى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أربعين سنة من عمره الشريف قبل البعثة معهم فضلاً عن السنوات المتبقية من عمره الشريف والبالغة ثلاثاً وعشرين سنة، وهي فترة البعثة حيث كانت الفترتان على نسق واحد؛ فحاله صلى الله عليه وآله قبل البعثة لم يكن يختلف بشيء عن حاله بعد البعثة من حيث الأخلاق، والسلوك، والأمانة، والعمل الصالح، وسمو الروح، وما إلى ذلك. فهي فترة لا تختلف عن الفترة الثانية من حياته الشريفة إلّا بمسألة النبوة التي شرّف الله تبارك وتعالى عقدها به صلى الله عليه وآله حيث قلّده إياها، وجعله خاتم ذلك العقد المبارك.

وهكذا كانت الفترة التي قضاها بينهم قبل البعثة تتّسم بأن أخلاقه وسلوكه وتصرفاته وتعاملاته مع الآخرين كلها كانت مبعث هداية، ودليلاً إلى الخير؛ لأنها كانت مستوحاة من السماء التي صنعته على عينها، ووضعته تحت كنفها ورعايتها.

أبو سفيان أُنموذج للإنسان القاحل

وحينما نتابع سيرة أبي سفيان فإننا نجد أنه كان يمثّل بكل وضوح أُنموذجاً للإنسان القاحل بكلّ أبعاده؛ عملاً، وفكراً، ومواقف مع الإسلام

الحنيف ونبيه الشريف صلى الله عليه وآله.. الإنسـان الذي لا يـمكن أن يـتقبّل بـذرة الإسلام حتى مع صفح الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عن تصرّفاته وعفوه عنه.

فمع ما لرسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله معه من مواقف نبيلة، والتي منها أنه صلى الله عليه وآله قد عفا عنه بعد كلّ ما كان منه؛ كان دائماً وأبداً يسـعى للـقضاء عـلى الإسلام وفكره. وإلّا أفليس هو الذي حزّب الأحزاب، وجيّش الجيوش ضدّ الإسلام، ووقف له بالمرصاد، كما في الحروب التي قادها وخاضها ضدّ دين الله سبحانه وتعالى، وهو الذي حاول جاهداً أن يصدّ الناس عن الإسلام، فباشر بنفسه عمليات تعذيب بشعة للروّاد الأوائل من المسلمين في مكّة؛ في محاولات بائسة يائسة منه لتضييق الخناق عـلى الإسـلام وأهله، والنيل منه والقضاء عليه وعلى الروّاد الأوائل من أتباعه الخلّص (رضوان الله تبارك وتعالى عليهم أجمعين)؟

لقد كانت أعماله ومواقفه وتصرّفاته هذه ضـدّ الإسـلام تـتّخذ ثـلاثة محاور يمكن معالجتها عبرها:

المحور الأول: مواقفه من الإسلام في حياة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله

ومن هذا ما يرويه المؤرخون من أن نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله حينما دخل مكّة جاء العبّاس بن عبد المطّلب بأبي سفيان إليه؛ ليستأمنه له، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلّا الله؟**». قال: بأبي أنت وأُمّي، ما أكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنّا شيئاً. فقال صلى الله عليه وآله له: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟**». قال: بأبي أنت وأُمّي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! هذه والله

كان في نفسي منها شيء حتى الآن. أي أنها كانت ثقيلة عليه، ولا تطاوعه نفسه أن يقرّ بِها.

فقال العباس: ويحك يا أبا سفيان، أسلم واشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. فأظهر الإسلام حينئذٍ؛ حقناً لدمه، فقبل النبي ﷺ ذلك منه. يقول ابن أبي الحديد عن هذا الموقف: قالها ولسانه يتلعثم.

فلما انصرف قال رسول الله ﷺ: «**يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمرّ به جنود الله فيراها**». قال: فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه، ثم مرّت به القبائل على راياتها؛ كلّما مرت قبيلة قال: من هؤلاء؟ فأقول: سليم. فيقول: ما لي ولسليم؟ قال: ثم تمرّ القبيلة تلو القبيلة فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: بنو فلان فيقول: ما لي ولبني فلان؟

حتى مر رسول الله ﷺ في الخضراء؛ وهي كتيبة كان فيها جميع المهاجرين والأنصار، لا يُرى منهم إلّا الحدق، فقال أبو سفيان: سبحان الله من هؤلاء يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قِبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد غدا ملك ابن أخيك الغداة عظيماً. فقلت: ويحك يا أبا سفيان، ليس هو الملك، وإنما هي النبوّة[1].

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٣٣١ ـ ٣٣٢، تفسير البغوي ٤: ٥٣٨ ـ ٥٣٩، الثقات ٢: ٤٦ ـ ٤٧، الكامل في التاريخ ٢: ٢٤٥ ـ ٢٤٦، السيرة النبوية (ابن كثير) ٣: ٥٤٩، تاريخ الإسلام ٢: ٥٤٠

ولمّا دخل النبي ﷺ مكّة، ورآه أبو سفيان وهو في المسجد الحرام، قال في نفسه: ليت شعري، بأي شيء غلبني محمّد؟ فأقبل إليه رسول الله، وضرب بيده بين كتفيه، وقال: «**بالله غلبتك**»(١).

وهكذا جبّ نبيّنا الأكرم ﷺ عنه ماكان منه من انحرافات ومواقف عدائية ضدّ الإسلام، وضدّه ﷺ.

المحور الثاني: مواقفه منه بعد استشهاد الرسول الأكرم ﷺ

فأبو سفيان هذا حتى بعد أن أشهر إسلامه خوفاً من السيف، وحتى بعد انتقال رسولنا الأكرم ﷺ إلى الرفيق الأعلى جلّ وعلا، نجد أن الإسلام لم يسلم من لسانه، فقد راح يكيد به، محاولاً صدّ الناس عنه وردعهم عن الدخول فيه، فكم حاول أن يصدّ الناس عنه حتى إنه سعى ـ في محاولة بائسة ومتدنية كان يهدف من ورائها إضعاف الإسلام وأهله ـ إلى جعل أهل مكة يرتدّون عن الإسلام بعد انتقال الرسول الأكرم ﷺ إلى الرفيق الأعلى(٢).

ـ ٥٤٢، البداية والنهاية ٤: ٣٣١ ـ ٣٣٢، إمتاع الأسماع (المقريزي)١: ٣٦٠ ـ ٣٦١، النزاع والتخاصم (المقريزي): ٥٧ ـ ٥٨، السيرة النبوية (ابن هشام) ٤: ٨٦٢ ـ ٨٦٣، المعجم الكبير ٨: ١١ ـ ١٣، الاستيعاب ٤: ١٦٧٨ ـ ١٦٧٩، الدرر (ابن عبد البرّ): ٢١٦ ـ ٢١٧، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٦٩ ـ ٢٧٠، كنز العمّال ١٠: ٥٠٦ ـ ٥١٠ / ٣٠١٧٣ تاريخ مدينة دمشق ٢٣: ٤٤٩ ـ ٤٥٠، عيون الأثر ٢: ١٨٦ ـ ١٨٧.

(١) بغية الباحث (ابن أبي أُسامة): ٢٨٤ / ٩٤٣.

(٢) ينقل أصحاب السير أنه حينما استشهد رسولنا الأكرم ﷺ استغلّ أبو سفيان الفراغ الذي

المحور الثالث: مواقفه منه بعد تولّي الخليفة الثالث

وحاله المشين هذا قد استمرّ به حتى آخر لحظات حياته، فقد فرح فرحاً عظيماً حينما وصل كرسي الخلافة إلى الخليفة الثالث عثمان بن عفّان، واستلم سدّة الحكم الإسلامي.

فوالذي يحلف به أبو سفيان

وقد وصل الأمر به إلى أن يجاهر بكفره مجاهرة، وأن يصرّح به تصريحاً في هذه الفترة؛ حيث استغلّ الفرصة، وراح يصيح في بني اُمية معلناً قولته الشهيرة: «تلاقفوها يابني اُمية تلاقف الكرة، فوالذي يحلف

أحدثته شهادته ﷺ في مكّة، فسارع إلى إعمال معاوله في هدم صرح هذا الدين الحنيف، وراح يعمل دائباً على تحقيق هذا الغرض الذي ابتدأه بدافع من عدائه للإسلام، فكان أن راح يحثّ أهل مكّة على أن يرتدّوا عن الإسلام، غير أن سهيل بن عمرو العامري ـ وكان خطيباً فصيحاً بليغاً مصقعاً ـ تصدّى لمؤامرته، وتكفّل بفضحها أمام الناس، فأعلن ذلك على الملأ قائلاً: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ألم تعلموا أن الله قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؟ وإني لأعلم أن هذا الدين سيمتدّ امتداد الشمس في طلوعها، فلا يغرّنكم هذا (يعني أبا سفيان) من أنفسكم، فإنه يعلم من هذا الأمر ما أعلم، لكنه قد ختم على صدره حسد بني هاشم، فتوكّلوا على ربكم؛ فإن دين الله قائم، وكلمته تامّة، وإن الله ناصر من نصره. فحال دونهم ودون ما عزموا عليه من الارتداد. الاستيعاب ٢: ٦٧١، أحكام القرآن ٢: ٥٢٧، إمتاع الأسماع ١٢: ١٧٦.

به أبو سفيان[١]، مامن عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة، وإنما هو المسلك»[٢].

فكان يريد أن يجعل من قضية الخلافة قضية ملك دنيوي ليس له علاقة بالسماء؛ لأنه حينما يحلف بما يحلف به (وهو غير الله تبارك وتعالى) على أنه «لا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة»، فهذا يعني أنه لم يكن للآخرة منظور في معاييره وقراءته لواقع الخلافة التي يريد لها أن تكون ملكاً عقيماً.

---

(١) ولنلاحظ هنا عدم تصريحه الواضح والمتعمّد بما أقسم به. والسبب بيّن كما يتراءى، وهو أنه لا يؤمن بالله تبارك وتعالى؛ ولذا فإنه لم يقسم به، وبما أنه يخشى من التصريح بمعتقده الحقيقي القائم على الشرك، وأنه إنما يؤمن بتعدّد الآلهة، فقد تجنّب ذكرها صريحاً، مكنّياً عنه بقوله: فوالذي يحلف به أبو سفيان.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥، ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

وروي أن أبا سفيان قال لعثمان: بأبي أنت، أنفق ولا تكن كأبي حجر، وتداولوها يا بني أُميّة تداول الولدان الكرة، فو الله ما من جنّة ولا نار. وكان الزبير حاضراً، فقال عثمان لأبي سفيان: اعزب. فقال: يا بني، أهاهنا أحد؟ قال الزبير: نعم، والله لأكتمنّها عليك. شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥.

وروي أنه لما بويع لعثمان دخل رحله فدخل إليه بنو أُميّة حتى امتلأت بهم الدار، ثم أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا. قال: يا بني أُميّة، تلقّفوها تلقّف الكرة... . فانتهره عثمان، وأمر بإخراجه. شرح نهج البلاغة ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

وقد ذكرنا جملة من أحواله في محاضرة (أصحاب النار وأصحاب الجنة) من الجزء الخامس من هذه موسوعتنا محاضرات الوائلي.

نتائج من مواقف أبي سفيان

وهكذا فإننا نستطيع أن نخرج من خلال هذا العرض التاريخي لسيرة هذا الرجل بنتائج عدة نذكر منها:

الأُولى: مواقف النبي الأكرم ﷺ الكريمة معه، ومع أهل مكة المكرّمة حتى إنه عفا عنهم ولم يرتب عليهم أثراً ولم يأخذ منهم بحقه قصاصاً مع أنه قادر على ذلك.

الثانية: أن أبا سفيان تردّد في أن يشهد للنبي الأكرم ﷺ بالرسالة حتى قال: في النفس منها شيء. أي أنها شهادة ثقيلة علي، ولا أقوى على النطق بها والإقرار بمضمونها.

الثالثة: أنه بعد أن وكزه العباس بن عبد المطلب٢، وأمره باعتناق الإسلام؛ حتى لا يقتل؛ نطق بالشهادتين وهو يتلعثم كما يقول ابن أبي الحديد.

ومع كلّ هذا فإننا نجد أن النبي الكريم قد جبّ ما كان منه من مواقف منحرفة وعدائية ضدّ النبي الأكرم ﷺ وضدّ الإسلام وأتباعه من الرواد الأوائل الذين أسلموا في مكة، وتعرضوا لتعذيبه وتعذيب أمثاله من عتاة قريش. وكما ذكرنا فإن النبي الأكرم ﷺ مع كلّ ذلك عفا عنه، وعن جميع عتاة مكّة المكرّمة.

ومع كلّ ما لمسه من أخلاق النبي ﷺ؛ سواء بينهم قبل أن يبعث، أو من أخلاقه السمحة وعفوه عنه وعن عتاة قريش بعد الفتح، فإنه مع ذلك لم يسلم طواعية، ولا عن اقتناع، بل إنه نطق الشهادة متلعثماً كما نقلنا

عن ابن أبي الحديد؛ وإن هذا إلّا يدلّ على أنه ذو نفس قاحلة سبخة لا يمكن أن تتقبّل بذرة الإسلام وأن تحتضنه وأن تستنتبت بذرته في نفسه حتى تنمو وتثمر.

ومثل هذه النفس القاحلة المعتمة كم تحتاج إلى سقي بالماء العذب الفرات حتى تحلوَ مشاربها؟ وكم تحتاج إلى أدلّة وبراهين حتى يهتدي صاحبها ـ مع ما رأى من كثرة براهين ممّا نقلنا بعضه، وممّا لم ننقله ـ إلى أن الإسلام هو دين الحقّ، وإلى أن رسول الله ﷺ هو رسول السماء ومبعوثها، وهو الذي يمثّل السماء بما أنه سفيرها ورسولها؟ إنها نفوس مجدبة وخالية من كلّ عوامل الخير.. نفوس جبلت على الشر وعلى محاربة الخير وعلى الوقوف بوجه كلّ دعوة إلى الخير والصلاح والإصلاح، وإلى رفع الإنسانيّة من مستواها المتدنّي إلى مستوى أعلى يتماشى مع ما يريده الله تبارك وتعالى لها.

لقد كان رسولنا الأكرم ﷺ يريد لهذا العطاء السماوي الثرّ، ولهذه المائدة الإلهية المفعمة بالخير أن يزهرا وأن يثمرا، وأن يعطيا جناهما ونتاجهما بشكل يتناسب مع مقدار البذل الذي بذله ﷺ، وحجم العطاء الذي قدّمه من أجل تحقيقه، ومع العطاء الذي تقدّم به من أجل نشره، لكنه ﷺ رأى أن هؤلاء إنما قابلوا هذا العطاء بالجحود، وقابلوا النور بالإصرار على بقائهم في ظلام الجاهلية الحالك والدامس.

أمير المؤمنين عليه السلام ومسلمو عصره

وكان الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يشعر بغربة وألم وهو بين من هم معه، فكان يخرج إلى الصحراء لينفس من كربه، يقول ميثم التمّار رضي الله عنه: كنت أتفقّده عليه السلام فأراه جالساً في الجبّانة، وهو ينكت الأرض بإبهامه ويقول:

وفي الصَّدرِ لُباناتٌ ... إذا ضاق بها صدري
نكتّ الأرضَ بالكفِّ ... وأبديتُ لها سِرِّي
فمهما تُنبِتُ الأرضُ ... فذاك النَبتُ من بَذري[1]

وكان يصعد على المنبر فيقول: «**أين إخواني الذي ركبوا الطريق ومضوا علىٰ الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين**»[2].

إنه عليه السلام كان يتساءل عن أقرانه الذين كانوا يتّفقون معه عليه السلام في الرأي والرؤية، وكانوا يعرفون ما يريده عليه السلام، كمالك الأشتر، وأبي ذرّ، وهاشم المرقال، وعمار، وغيرهم (رضوان الله تعالى عليهم)؛ لأنهم هم الذين يأنس إليهم ويأنسون إليه دون الآخرين الذين لا يفهمون طبيعة سياسة الإمام عليه السلام ولا مواقفه، بل إنهم لا يريدون أن يفهموا طبيعة تلك السياسة والمواقف. يقول أحد أُدبائنا:

---

(١) فضل الكوفة ومساجدها (المشهدي): ٦٥، بحار الأنوار ٤: ٢٠٠، ٩٧، ٩: ٤٥٢.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١٨٢.

في الثرى من أحبّتي ولداتي ظَـفَر أبـلـج وفـتـح جـليلُ
نزلت بالقبور أسـمى اللـبانا ت وطـاف الرجـاء والتأمـيلُ

فلداته وزملاؤه هم الذين كانوا يتناغمون معه روحياً؛ والذين يندمجون معه اندماجاً كاملاً؛ لأنهم لا يحيدون عنه في شيء؛ كـونهم يـعرفون مـا يريد. لكنهم الآن قد أصبحوا تحت التراب، أما أُولئك الذين يعيش بينهم فحالهم حال من عبر عنهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**إن ندبتكم إلى عدوّكم في الصيف قلتم: أمهلنا ينسلخ الحرّ عنّا، وإن ندبتكم في الشتاء قلتم: أمهلنا ينسلخ القرّ عنا. اللهم إني قد مللتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم من هو خير لي منهم، وأبدلهم بي من هو شرّ لهم مني. اللهم مثّ قلوبهم ميث الملح في الماء**»[1].

هل إن أمير المؤمنين عليه السلام كان مترهباً؟

ونحن من خلال هذا الطرح لا نحاول أن نرسم لأمـير المـؤمنين عليه السلام صورة نبيّنه فيها على إنه إنسان غير اجتماعي، ولا نحاول كذلك أن نبرز له صورة نوحي بها إلى الناس أنه إنسان مترهّب مبتعد عـن النـاس وعـن الاتّصال بهم، كما أننا لا نريد أن نظهر الإمام عليه السلام على أنه مثال للانعزالية عن المجتمع، وعن مشاكله وقضاياه التي يـنبغي مـعالجتها عـلى ضـوء الإسلام وقواعده؛ لأن محاولة فعل ذلك إنما هي محاولة مغلوطة وتجافي الواقع وتجانبه، بل على العكس منه تماماً.

(١) الغارات ٢: ٦٣٦، تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٦١.

إننا نعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام كما يعرفه القاصي والداني كان ذا نفس كبيرة تتّسع للدنيا كلّها، وكانت هذه النفس تتّسم بالشفافية في التعامل، والصدق في التعبير، كما أنها كانت تتّصف بأنها أسمى من كلّ ما في الدنيا من متاع زائل زائف؛ ولهذا فإنه عليه السلام لم يكن ليجد بين معاصريه من يهضمهم؛ لانعدام السنخية بينه وبينهم.

إن المجتمع الذي كان يعيش فيه أمير المؤمنين عليه السلام نادراً ما كان يضمّ مجموعة تفهم الإمام عليه السلام فهماً صحيحاً، فقد كان مجتمعاً بدأ يميل إلى الدنيا، ويتطرف في أفكاره كما هو حال اُولئك الذين آثروا عدم الخروج إلى الحرب معه، أو يحتوي على مجموعة من المتطرّفين بأفكارهم وآرائهم بحيث إنهم راحوا يفسّرون الدين على أهوائهم وآرائهم، كما هو الحال عند الخوارج.

ومن هنا فقد كان إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام يشعر بالغربة بل الاغتراب بين هؤلاء مع أنه عليه السلام يعيش بين ظهرانيهم؛ لعدم تحقّق الانسجام ثقافياً ومعرفياً وفكرياً وعقيدياً، وغير ذلك من أصعدة مجالات الروح كافّة فيما بينه عليه السلام وبينهم.

الآية الشريفة والاستصحاب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

(١) يونس: ١٦.

إن الفقهاء عادة ما يستدلّون بهذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة على مسألة الاستصحاب.

والاستصحاب مصطلح أُصولي يقصد به إبقاء الأمر المتيقّن على حاله بعد طروّ الشكّ عليه. يروى في المقام أن زرارة أعين سأل الإمام الصادق عليه السلام فقال له: الرجل ينام وهو على وضوء، أتوجب الخفقة والخفقتان عليه الوضوء؟ فقال: «**يا زرارة، قد تنام العين ولا ينام القلب والأُذُن، فإذا نامت العين والأُذن والقلب فقد وجب الوضوء**». قال؛ فإن حُرّك إلى جنبه شيء ولم يعلم به؟ قال: «**لا، حتى يستيقن أنه قد نام، حتى يجيء من ذلك أمر بين، وإلّا فإنه على يقين من وضوئه، ولا ينقض اليقين أبداً بالشك، ولكن ينقضه بيقين آخر**»[1].

فالإمام عليه السلام يريد أن يبيّن له بأن هذا النوم مما لم يستولِ على السمع والبصر؛ ولذا فإنه لا ينقض الوضوء.

أقسام الاستصحاب

ويقسم الأُصوليون الاستصحاب إلى قسمين:

الأول: الاستصحاب العدمي

ومثاله ما لو أن إنساناً معروفاً عنه أنه فقير، ثم أراد آخر أن يعطيه شيئاً من الصدقات، فادّعى آخر بأنه غني، فما هو الحكم هنا؟ وهل يعطى أم لا يعطى؟ إننا في فرض المسألة نستصحب فقر هذا الإنسان حينئذٍ؛ لأننا

(١) تهذيب الأحكام ١: ٨ / ١١.

كنا على يقين من فقره، وهذا الشك الذي طرأ في هذه المسألة إنما طرأ بعد ذلك؛ نتيجة ادّعاء ذلك الشخص.

الثاني: الاستصحاب الوجودي

ومثاله ما لو أن شخصاً تزوج ثم سافر إلى بلد آخر، فإنه حينئذٍ يعامل على أنه متزوّج نتيجة استصحاب الحالة التي كان سابقاً عليها وهي الزواج، إلّا أن يحصل علم جديد بأنه ليس كذلك، كأن تكون زوجته قد توفيت مثلاً.

وهذا المقطع الشريف من الآية الكريمة يعتبر دليلاً من الأدلّة عند الفقهاء والأُصوليين على هذا الأصل (الاستصحاب). فالقرآن الكريم كان يقول لهم على لسان النبي الأكرم ﷺ: إنكم عايشتموني أربعين سنة قبل البعثة كنت ظاهراً أمامكم فيها وصريحاً، وكنتم تعرفونني خلالها على حقيقتي، وكنتم تنعتونني فيها بالصادق والأمين، ولم تكونوا تعرفون عني أي انحراف أو كذب أو غير ذلك، فلماذا إذن حينما جئتكم بالقرآن الكريم من عند الله تبارك وتعالى غيرتم ما أنتم عليه من مواقف، ثم ادّعيتم كذباً بأنني كاذب، وأن هذا الكتاب ليس من الله تبارك وتعالى وإنما هو من عندي؟ ولماذا لا تستصحبون صدقي وأمانتي التي كنت عليها قبل أن آتيكم بالقرآن الكريم من عند الله جل شأنه إلى هذا الوقت (وقت ما بعد البعثة)؟

اليوم العاشر

وهذا هو الموقف هو عينه الذي وقفه الإمام الحسين عليه السلام يوم الطف حيث إنه خطب في عسكر يزيد قائلاً: «**ألستم تعرفون من أنا؟ فانسبوني وانظروا من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يصلح لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟**»[1].

وهو عليه السلام يريد بقوله: «**ثم ارجعوا إلى أنفسكم**»: استغلوا عقولكم واستخدموها لتعرفوا من أنا؛ فإنكم إن فعلتم ذلك عرفتم أني ابن من أنقذكم من حيرة الجهالة، ومن جاهلية الضلالة، وانتقل بكم إلى الهدى، وأني ابن من حمل إليكم النور وإشعاع السماء، وأشاع العدل فيكم.

ومن ضمن موارد إعمال عقولكم أن في معسكري ومعسكركم جملة من الصحابة الذين سمعوا ما قاله جدي رسول الله صلى الله عليه وآله فيّ وفي أخي

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٧، تاريخ الطبري ٤: ٣٢١، وتمام الحديث: «ألست ابن بنت نبيكم، وابن وصيّه وابن عمّه، وأول المؤمنين، المصدّق لرسول الله صلى الله عليه وآله بما جاء به من عند ربه؟ أوليس حمزة سيّد الشهداء عمي؟ أوليس جعفر الطيّار في الجنة بجناحين عمي؟ أولم يبلغكم ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنة؟ فإن صدّقتموني بما أقول وهو الحق، والله ما تعمّدت كذباً منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، وإن كذّبتموني فإن فيكم من لو سألتموه عن ذلك أخبركم؛ سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري وأبا سعيد الخدري وسهل بن سعد الساعدي وزيد بن أرقم وأنس بن مالك، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وآله».

الحسن عليه السلام حيث قال: «**الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة**»[1]. فحكموا عقولكم إذن، واعرفوا عن طريقها بلحاظ هذا الحديث الشريف وغيره من الأحاديث المشرّفة ما إذا كنت على حقّ، أو على باطل، وإلّا فلماذا عطّلتم عقولكم ونظركم، وصرفتموها عن أداء وظيفتها؟

واعلموا أني في هذا الموقف لا أُريد أن أستجدي العفو منكم أبداً؛ لأني على علم بكل خطوة خطوتها، وكلّ قدم مشيتها، فإنا على علم تامّ بأسرار حركتي ونهضتي، وبأسباب خروجي للقيام بهذه النهضة، كما أنني مصمم على تحقيق الهدف الذي خرجت من أجله، وسوف أصل إن شاء الله إلى هذا الهدف الذي نذرت له نفسي حتى لو كلفني ذلك روحي ودمي وعائلتي وأهل بيتي وأصحابي ثمناً له ؛ فإن الروح والدم وكلّ ذلك الذي ذكرته لكم لا قيمة له أمام أمر يعد الدفاع عنه دفاعاً في سبيل الله تبارك وتعالى بل إن جميع ذلك يهون من أجل ذلك الهدف الذي نذرت له نفسي، والذي رسمته كعنوان لهذا النهضة المباركة.

فالموقف الذي أنا بصدده يهون دونه كلّ شيء، ويرخص معه كلّ غالٍ، لكني أُريد لكم أنتم أن ترجعوا إلى عقولكم وتستخدموها، وتمنحوها

(١) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، شرح النووي على صحيح مسلم ١٦ : ٤١، وغيرها كثير.

فرصة الرجوع إلى ممارسة وظيفتها؛ حتى لا تقعوا في مغبة أعمالكم، ولا في عمى أنفسكم وضلالتها، وهو ما يأخذ بكم إلى النار التي أرى أن من واجبي أن أُنذركم، وأن أُحذّركم إياها، وأن أستنقذكم منها؛ لأنكم تحت رعايتي ومسؤوليتي.

ولهذا فإنه عليه السلام راح يقول لهم: «**أفهؤلاء تعضدون، وعنّا تتخاذلون؟**»[1]، موبخاً إياهم على سبب التفافهم حول رؤوس الكفر والغدر، وانجذابهم إليهم، وتركهم الحقّ وأصحابه المتمثل بأبناء رسول الله صلى الله عليه وآله مع أن رؤوس الغدر قد فعلت بهم ما فعلت من سفك دمائهم، وهتك أعراضهم، ونهب أموالهم. وفوق كلّ ذلك قد أخذوا البيعة منهم مكرهين، وعلى أنهم عبيد أقنان، وليس على أنهم رعية لهم حقوق المواطنة.

ولذا فإن لسان حاله عليه السلام كان: أفلا يحملكم هذا على تشغيل عقولكم، وعلى الرجوع إليها، وعلى النظر نظرة المتأمّل العاقل حتى تعرفوا أين هي جهة الحق، وأين هو المعسكر الذي يمثّل رسول الله صلى الله عليه وآله، فتكونوا إلى جانبه؟

وإذا كان الأمر كذلك، وقد أعملتوا عقولكم وصرفتموها إلى أداء وظيفتها، فلماذا إذن تستبيحون حرمتي، وتحاولون قتلي، وتنتهكون حرمات رسول الله صلى الله عليه وآله؟

(١) الاحتجاج ٢: ٢٤.

ثم قال لهم: «**ويلكم على ماذا تقتلونني؟ أعلى عهد نكثته، أم على سنّة غيّرتها، أم على شريعة بدّلتها، أم على حقّ تركته؟**». وهو مطالبة بإعمال العقل هنا، فما لم يكن هناك موجب للقتل هل يرتضيه العقل أن يقع؟

لكن هؤلاء الذين رين على قلوبهم، وأُعميت عيونهم عن الحقّ، وصمّت آذانهم عن سماعه لم يكن جوابهم إلّا أن قالوا: نقاتلك بغضاً منّا لأبيك[١]. ثم رشقوه بالسهام رشقة واحدة، فأقبلت إليه كأنها المطر، فتراجع عليه السلام قليلاً، ثم رمق السماء بنظره الشريف وقال: «**اللهم إن هؤلاء قوم قد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٢]**»[٣].

ثم وضع يده على قائم سيفه، فاستله ونزل إلى أرض المعركة كأنه الهزبر؛ ليؤدي رسالته التي أراد إيصالها إلى الناس، وليحقق الهدف الذي خرج من أجله، فقاتل حتى أثخنته الجراح. ورحم الله الكعبي إذ يقول:

خلط البراعة بالشجا ... عة فالصليل هو الدليلْ
لِسنانِهِ ولسانِهِ ... صدقان من طعن وقيلْ
وأبو المنية سيفه ... وكذا السحاب أبو السيولْ[٤]

---

(١) نور العين في مشهد الحسين٧: ٤٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٠.

(٢) المجادلة: ١٩.

(٣) ينابيع المودّة ٣: ٦٩.

(٤) ديوان الشيخ هاشم الكعبي: ٣٣.

ثورة السبط عليه السلام في نظر علماء المسلمين

إن المفروض بنا كمسلمين أن نعي الواقع الحقيقي الذي كـانت عـليه الأمة الإسلامية آنذاك، أي إبان حكم يزيد وأسلافه وخلفائه ونـعي أنـه واقع لا يحتاج إلى إقامة برهان على كون ثورة الإمام الحسين عليه السلام التـي خاضها ضده هي ثورة مشروعة. فالمؤمن لا يحتاج إلى البـرهنة عـلى مشروعية ثورة سبط رسول الله صلى الله عليه وآله ولا على صحتها أو صحة القيام بها أو على وسمها بصبغة الشرعية؛ لأنه ليس هنالك من مسلم حـقيقي يـؤمن بالله وباليوم الآخر إلّا وهو يعرف حقيقة يـزيد ومـواقـفه مـن الإسـلام وابتعاده عنه وعن تطبيقه، وحقيقة الإمام الحسين عليه السلام ومواقـفه النـبيلة، والأسباب الحقيقية لثورته.

غير أننا مع ذلك سوف نتناول آراء ثلاثة من العلماء المسلمين في يزيد ابن معاوية، وهم الغزالي والكيا الهراسي وابن مفلح الحنبلي في (طبقات الحنابلة)[1]؛ حتى نستطيع أن نتلمس حقيقة التركيبة التـي كـانت تـرسم معالم الطغمة التي تصدت لحكم المسلمين فـي تـلك الحـقبة التـاريخية السوداء والمظلمة والمعتمة.

---

(١) الظاهر أنه كتاب (المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد)؛ لأن طـبقات الحـنابلة لابن أبي يعلى.

أولاً: رأي الكيا الهراسي

قال الدميري: «فائدة: سئل الكيا الهراسي الفقيه الشافعي عن يزيد بن معاوية: هل هو من الصحابة، أم لا؟ وهل يجوز لعنه، أم لا؟ فأجاب: إنه لم يكن من الصحابة؛ لأنه ولد في أيام عثمان. وأما قول السلف، ففيه لكلّ واحد من أبي حنيفة ومالك وأحمد قولان: تصريح وتلويح. ولنا قول واحد: التصريح دون التلويح، وكيف لا يكون كذلك وهو المتصيّد بالفهد، واللّاعب بالنرد، ومدمن الخمر، ومن شعره في الخمر قوله:

أقول لصحب ضمت الكأس شملهم ... وداعي صبابات الهوى يترنمُ

خذوا بنصيب من نعيم ولذة ... فكلّ وإن طال المدى يتصرّمُ؟[1]

ثانياً: رأي الغزالي

وقال في موضع آخر من كتابه هذا: «وقد أفتى الغزالي في هذه المسألة بخلاف ذلك؛ فإنه قد سئل عمّن يصرّح بلعن يزيد بن معاوية: هل يحكم بفسقه، أم يكون ذلك مرخّصاً فيه؟ وهل إن يزيد بن معاوية قد قتل الحسين، أم إن قصده كان الدفع؟ وهل يسوغ لنا الترحّم عليه، أم إن السكوت عنه أفضل؟

فأجاب بقوله: لا يجوز لعن المسلم أصلاً، ومن لعن المسلم فهو الملعون. وقد قال (عليه الصلاة والسلام): «**المسلم ليس بلعّان**». وكيف يجوز لعن المسلم وقد ورد النهي عن ذلك؟ وحرمة المسلم أعظم من

(١) حياة الحيوان الكبرى ٢: ٨٥.

حرمة الكعبة بنصّ من النبي ﷺ، ويزيد صحّ إسلامه، وما صحّ قتله للحسين (رضي الله تعالى عنه)، ولا أمْره ولا رضاه بذلك. ومهما لم يصحّ ذلك عنه لم يجز أن يظن ذلك به؛ فإن إساءة الظن أيضاً بالمسلم حرام، قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾[1]، وقال ﷺ: «**إن الله حرم من المسلم دمه وماله وعرضه، وأن يظنّ به ظنّ السوء**».

ومن أراد أن يعلم حقيقة من الذي أمر بقتله لم يقدر على ذلك، وإذا لم يعلم وجب إحسان الظن بكلّ مسلم يمكن إحسان الظن به. ومع هذا لو ثبت على مسلم أنه قتل مسلماً، فمذهب أهل الحقّ أنه ليس بكافر، والقتل ليس بكفر بل هو معصية، وإذا مات القاتل، فربما مات بعد التوبة، والكافر لو تاب من كفره لم يجز لعنه، فكيف بمن تاب من قتل. ولم يعرف أن قاتل الحسين مات قبل التوبة وهو الذي يقبل التوبة عن عباده.

فإذن لا يجوز لعن أحد ممن مات من المسلمين، ومن لعنه كان فاسقاً عاصياً لله عز وجل، ولو جاز لعنه فسكت لم يكن عاصياً بالإجماع، بل لو لم يلعن إبليس طول عمره لا يقال له في القيامة: لم لم تلعن إبليس؟ ويقال للّاعن: لم لعنت؟ ومن أين عرفت أنه ملعون؟ والملعون هو المبعد من الله عز وجل، وذلك لا يعرف إلّا فيمن مات كافراً، فإن ذلك علم

---

(١) الحجرات: ١٢.

بالشرع. وأما الترحّم عليه فجائز بل مستحبّ، بل داخل في قولنا: اللـهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، فإنه كان مؤمناً»[١].

العقيدة الإسلامية وامتداد العمر

وهذا يقودنا إلى استنتاج آخر هو أنه يمكن للإنسان أن يخرج عمره عن الحدود الاعتيادية إلى حالات بعيدة فيطول عمره بشكل يختلف عن ذلك المعدل الذي عليه أعمار الناس عادة في ذلك العصر التي تقع فيه تلك الحالة. وهو ممّا يُستدلّ به على صحة مذهب من قال بولادة منقذ البشرية مهدي آل محمد عليهم السلام الإمام الحجة عليه السلام قبل أحد عشر قرناً، وأنه لا زال حيّاً، وما ذلك على الله بعسير.

كما أننا حينما نرجع إلى تاريخنا فإننا نـجد أن هـنالك جـملة مـن المرويات التاريخية التي تؤكد هذا المعنى حيث إنها تذكر أن جملة مـن الشهداء قد بقيت أجسامهم محتفظة بأشكالها التي استشهدوا عـليها دون أن تبلى أو دون أن تنالها يد الفناء، ومن هذا نذكر:

قصة عبد الله بن عمرو وعمرو بن الجموح

إن التاريخ يحدثنا وهو يمر بشهداء أُحد ـ وكانوا سبعين شـهيداً ـ أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قد دفن بعضهم في قبور جماعية، في حين أن البعض

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ٢: ٨٥.

قد دفنهم في قبور فردية، وكان من جملة من دفن في قبر واحد عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو اللذان تقول الرواية عن واقعة دفنهما معاً: إن ذلك بأمر رسول الله ﷺ يوم أُحد؛ حيث إنه ﷺ قد قال: «**ادفنوا عبد الله بن عمرو، وعمرو بن الجموح في قبر واحد**».

وكانا (رحمهما الله) قد مُثّل بهما أشنع مثلة؛ حيث قطعت أعضاؤهما إرباً إرباً، فلم تُعرف أبدانهما. وبعد زمان طويل دخل السيل عليهما، وكان قبرهما مما يلي السيل، فحفر عنهما، وكان عليهما نمرتان، وكان عبد الله قد أصابه جرح في وجهه، ويده عليه، فأُميطت يده عن جرحه، فانبجس الدم، فردت إلى مكانها فسكن الدم. وكان جابر يقول: رأيته في حفرته كأنه نائم ما تغير من حاله قليل ولا كثير. فقيل: أفرأيت أكفانه؟ قال: إنما كُفّن في نمرة خمّر بها وجهه، وعلى رجليه الحرمل فوجدنا النمرة كما هي، والحرمل على رجليه كهيئته، وبين ذلك وبين دفنه (٤٦) سنة[١].

معاوية وشهداء أُحد

وتروي لنا بعض المصادر المعتبرة أن معاوية بن أبي سفيان حينما أراد أن يجري العين التي أحدثها بالمدينة، وهي كظامة، نادى مناديه بالمدينة: من كان له قتيل بأُحد فليحضر. فخرج الناس إلى قتلاهم، فوجدوهم

(١) بحار الأنوار ٢٠: ١٣١ ـ ١٣٢، المصنف (ابن أبي شيبة) ٣: ٢٠٦ / ١١٧، ٨، ٤٨٧ / ١٦، أُسد الغابة ٣: ٢٣٢، شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٦٣.

رطاباً يتثنّون، فأصابت المسحاة رِجل رَجل منهم، فانبجست دماً، فقال أبو سعيد الخدري: لا ينكر بعد هذا منكر أبداً[1].

وقفة مع هذه الحادثة

إننا حينما نرجع إلى خلفية العلاقة التي كانت بين معاوية والأنصار فإننا نجد أنها خلفية تبتني على جانب آيديولوجي؛ وبهذا فإنها تفسّر لنا سرّ ذلك التنافر بين الأنصار وبين معاوية، كما تفسّر لنا سرّ كره معاوية لهم. لقد كانت العلاقة التي تربط بينهما علاقة متوترة، وكان كره معاوية للأنصار وبغضه لهم وحقده عليهم واضحاً يتجلى في كثير من المواقف، وهذه الفعلة التي افتعلها معاوية لم يكن يقصد منها زراعة أرض ولا تفجير عين وإنما كانت محاولة للانتقام من الأنصار لا لشيء إلّا لأنهم وقفوا بأجمعهم يوم صفين مع أمير المؤمنين عليه السلام وحاربوا معاوية وقاتلوه إلّا اثنين منهم وهما البشير وابنه النعمان؛ حيث إنهما كانا إلى جانب معاوية وفي صفه في حربه تلك ضد الإمام عليه السلام.

موردان من حقد معاوية على الأنصار

ومن هنا فإن معاوية كان إذا ما ذكر هذه الحادثة، وحضره موقف الأنصار هذا فإنه يعتصره الألم، بل يصاب بالتشنج، ويعتمل في نفسه

---

(١) بحار الأنوار ٢٠: ١٣٢، الطبقات الكبرى ٣: ٥٢٤، البداية والنهاية ٤: ٤٩، السيرة النبوية (ابن كثير) ٣: ٨٧، شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٦٤.

الكره لهم. وقد تجلّى ذلك الكره الأُموي للأنصار[١] والبغض لهم، والحقد عليهم عنده في صور عدّة وموارد كثيرة. ولذا فنحن سوف نذكر هنا ثلاثة موارد تبيّن لنا دون لبس حقيقة موقف معاوية وموقف زمرته من أنصار رسول الله صلى الله عليه وآله:

المورد الأول: معاوية والنواضح

حينما حج معاوية في إحدى السنوات، ومرّ بالمدينة خرج الناس لاستقباله، ولكن الأنصار لم يخرجوا، ولمّا انتهىٰ الأمر إلىٰ قيس بن سعد ابن عبادة الذي لمّا أحسّ منه والي المدينة التقاعس عن الخروج طلب منه أن يخرج لاستقبال معاوية ـ وكان فعلاً قد أبىٰ أن يخرج مع من خرج كذلك ـ بل أجبره علىٰ الخروج، فاضطرّ إلى أن يخرج لاستقباله مكرهاً، فاستقبله معاوية، وكان عمرو بن العاص واقفاً إلىٰ جنب معاوية، فلما رآه معاوية وقد أتىٰ وحده، قال له: ما لي لا أرىٰ الأنصار؟ قال: ما عندهم رواحل، قال معاوية: فأين ذهبت نواضحكم؟

يعيّرهم بأنهم فلّاحون، فقال له: لقد أفنيناها يوم بدر، يوم ضربناك وأباك علىٰ الإسلام حتىٰ أدخلناك فيه كرهاً. فأراد معاوية أن يجيبه، فسحب عمرو بن العاص رداءه وقال له: دعه؛ فإنك إن أجبته بواحدة، أجابك بأربعة. فسكت[٢].

(١) الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو سلك الناس وادياً...».

(٢) قريب منه في مناقب آل أبي طالب ١: ٩٦، الفائق في غريب الحديث ٢: ٣٢٣ ـ نضح،

فعلي عليه السلام لم يكن عنده سوىٰ الناضح ودرعه وسيفه. وفي سيرة هـذا الرجل نفحات تهزّك من الأعماق، فهو يتحدث عن سيرته الذاتية فيقول: «**ولقد رقعت مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها، وحتىٰ قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ**»[1].

وكان عليه السلام يقول: «**ما لعلي ولنعيم يفنىٰ ولذة لا تبقىٰ؟**»[2]. والعرب كـانوا يعطون الناقة أسماء متعددة حسب وظيفتها:

١ ـ فالراحلة مثلاً عندهمكانت مخصصة للركوب، أي أن الناقة التـي تخصص للسفر والتنقل يطلق عليها راحلة.

٢ ـ والتي تخصص للفداء في الحج والنحر تسمى بدنة.

٣ ـ والناقة التي يعمل عليها في البساتين والمزارع لأجل سحب الماء من الآبار والعيون تسمى ناضحاً.

وهكذا فإن لها أسماء كثيرة تبعاً للحالات التي تكون عليها؛ ولهذا فإننا نجد أن معاوية يعير قيساً بـالنواضـح، أي أنـه يـريد أن يـقول له: أنـتم فلاحون. وهو يريد بهذا أن مهنة الفلاحة هي مهنة حقيرة. وهذا موروث جاهلي؛ حيث إن العرب كانوا يحتقرون الأعـمال عـامة سـيما الزراعـة والصناعة. ولهذا فإن جواب قيس بن سعد كان في موقعه؛ ممّا أثار حفيظة

شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٩٦ ـ ٢٩٧، الجامع لأحكام القرآن ٤: ٣٥.

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥.

(٢) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

معاوية، فكان أن برز انفعاله واضحاً على وجهه، وأراد أن يردّ عليه لولا عمرو بن العاص الذي طلب منه أن يتركه.

المورد الثاني: أمرهم الأخطل بهجاء الأنصار

ومن مواقف الأُمويين ضد الأنصار، والتي تنم عن بغضهم لهم وحقدهم عليهم ما يرويه المؤرخون من أن الأخطل ـ وهو شاعر البلاط الأُموي، وكان مسيحياً يسرّه ويفرحه أمر تمزيق وحدة الصف الإسلامي، وتفتيت الموقف الإسلامي الموحّد، وفتّ عضُد الأُمّة الإسلامية؛ فلا مانع عنده أبداً من أن يسعى إلى ذلك ـ قد أمره يزيد بأن يهجو الأنصار، فما كان منه إلّا أن سارع إلى ذلك، وأنشد قصيدته التي منها:

وإذا نسبت ابن الفريعة خلته	كالجحش بين حمارة وحمارِ
لعن الإله من اليهود عصابة	بالجزع بين صليصل وصرارِ
قوم إذا هدر العصير رأيتهم	حمرا عيونهُمُ من المصطارِ
خلّوا المكارم لستُمُ من أهلِها	وخذوا مساحيَكم بني النجّارِ
إن الفوارس يعلمون ظهوركم	أولاد كل مقبح أكّارِ
ذهبت قريشٌ بالمكارمِ والندىٰ	واللؤمُ تحتَ عمائمِ الأنصارِ

فلمّا بلغ ذلك الشعر النعمانَ بنَ بشير، دخل علىٰ معاوية وحسر عن رأسه عمامته، وقال: أترىٰ لؤماً؟ قال: لا، بل أرىٰ كرماً وخيراً، فما ذاك؟ قال: زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائمنا. قال: أو فعل؟ قال: نعم. قال: لك لسانه.

وكتب فيه أن يؤتى به، فلما أُتي به سأل الرسول المأمور بإحضاره أن

يدخله على يزيد أوّلاً، فأدخله عليه، فقال: هذا الذي كنت أخاف. قـال يزيد: لا تخف شيئاً. ودخل على معاوية فقال: علام أرسـلت إلى هـذا الرجل، وهو يرمي من وراء جمرتنا؟ قال: هجا الأنصار. قال: ومن زعم ذلك؟ قال: النعمان بن بشير. قال: لا تقبل قوله عليه وهو يدّعي لنفسه، ولكن تدعوه بالبينة، فإن ثبت شيئاً أخذته به له. فدعاه بالبينة فلم يأتِ بها، فخلّى سبيله، فقال الأخطل:

وإنـي غـداة اسـتعبرت أُمُّ مـالك ... لراض مـن السـلطان أن يـتهدّدا

ولولا يـزيد ابـن المـلوك وسـعيه ... تـجللت حـدباراً مـن الشـر أنكـدا

فكـم أنـقذتني مـن خـطوب حـباله ... وخـرساء لو يـرمى بـها الفـيل بـلّدا

ودافـع عـني يـوم جـلق غـمرة ... وهـمّاً يـنسّيني السـلاف المـبرّدا

إلى أن قال:

ولمـا رأى النـعمان دونـي ابـن حـرّة ... طوى الكشح إذ لم يستطعني وعـرّدا[١]

فمعاوية هنا بدلاً من أن يفي بوعده الذي وعد به النعمان نجد أنه قد رضخ لابنه يزيد الذي جاء ليهدئ من ثورته.

---

(١) العقد الفريد ٥: ٣٢١ ـ ٣٢٢. الأغاني ٤: ١٦٢ ـ ١٦٣، ٢: ٢٦٢ ـ ٢٦٣، ١٥: ١٠٤، ١٦: ٤٤، طبقات فحول الشعراء (ابن سلام الجمحي) ١: ٨٩. قال ابن عبد ربّه الأندلسي: «ورجال الأنصار من أشجع الناس. وقد قال عبد الله بن العباس: ما استلّت السيوف، ولا زحفت الزحوف، ولا أُقيمت الصفوف حتّىٰ أسلم ابنا قيلة». العقد الفريد ١: ١١٨. يريد بابني قيلة: الأنصار.

المورد الثالث: إجراء الماء على قبورهم

وقد سبق الحديث عنه، ولا زلنا في غماره، حيث إننا نجد أن معاوية قد تذرّع بعملية الزراعة وإجراء الماء لنبش قبور الأنصار وإخراجهم منها حتى يحطّ من كرامتهم، وحتى يهينهم، لكن الله تبارك وتعالى كان له ولأمثاله بالمرصاد؛ حيث إنه جلّ شأنه أظهر تلك الآية للناس، وأبان لهم فضل هؤلاء الشهداء الأبرار الذين استشهدوا دفاعاً عن الإسلام الحنيف، وعن نبي الإسلام الشريف صلى الله عليه وآله، مضحّين بأنفسهم بأنهم خرجوا إلى تلك المعركة معه وهم على بصيرة من أمرهم إلّا أولئك الذين فرّوا من بين يديه ولم يدافعوا عنه.

الحرّ بن يزيد الرياحي رضي الله عنه وبقاء جسده طرياً

يروي المؤرخون أن الشاه إسماعيل الصفوي لما جاء لزيارة العتبات المقدّسة قرّر بناءها، فبنىٰ أولاً قبر الإمام الحسين عليه السلام وقبور الشهداء، فقيل له: إنك أغفلت قبر الحرّ بن يزيد الرياحي رحمه الله، فقال: إن في نفسي منه شيئاً؛ لأنه آذىٰ الحسين عليه السلام وأرعب عائلته وجعجع به. فقيل له: إنه تاب واستشهد في سبيل الله وجاهد وأبّنه الحسين عليه السلام واعتزّ به. فارتدع الشاه إسماعيل وقرر بناء القبر، فجاء إليه وأمر بنبش القبر ـ والعهدة علىٰ الراوي ـ فنُبش وانتهوا إلىٰ جسد الحرّ رحمه الله، فوجدوه ملفّعاً بكفن وعلىٰ رأسه عصابة، فسأل الشاه إسماعيل عن هذه العصابة فقيل له: بلغنا أن الحسين عليه السلام عصبه بها، وهي منديل الحسين عليه السلام.

وهنا عمد الشاه إلى أن يأخذ المنديل، لكن ما إن أُميط المنديل حتى انبعث الدم، فأرجعوه فانقطع الدم، وهكذا ثلاث مرات، حتىٰ صرف الشاه نظره عن هذا الموضوع وترك المنديل[١].

وكان الشاعر عبد الحسين الأعسم قبل ذلك يقول:

ألا يا زائراً بالطفّ قبراً ... به ربحت لزائره التجارهْ

أشر للحرّ من بُعدٍ وسلمْ ... فإن الحرَّ تكفيه الإشارهْ

ثم رجع وارتدع عن هذا القول بعد أن ذكرت له هذه الرواية. وقد ردّ عليه أحد الشعراء من بيت الهرّ فقال:

زرِ الحرَّ الشهيد ولا تؤخرْ ... زيارته علىٰ الشهداءِ قدِّمْ

ولا تسمع مقالة أعسميٍّ ... (أشر للحر من بعدٍ وسلمْ)

شهداء الطف

والآن لنقف عند كوكبة شهداء الطف الذين قادهم الإمام الحسين عليه السلام.. الشهداء الذين جعل الله تبارك وتعالى لهم رزقهم يصلهم بكرة وعشياً، واختصهم بأن كانوا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ**﴾[٢]، وهو الخلود الذي كرمهم الله تبارك وتعالى به. يروى أن عقيل ابن أبي طالب دخل علىٰ معاوية فسأله: لقد دخلت علىٰ معسكر أخيك علي بن أبي طالب ودخلت على معسكري، فما هو الفرق الذي وجدته

(١) شجرة طوبىٰ ٢: ٢٨٥.

(٢) إبراهيم: ٣٧.

بين المعسكرين؟ فقال عقيل: دخلت إلىٰ معسكر أخي علي فرأيت ليلهم كليل رسول الله صلى الله عليه وآله، ونهارهم كنهار رسول الله صلى الله عليه وآله، فهم بين قائم وقاعد، وراكع وساجد، وذاكر وصائم، إلّا إن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس فيهم، ودخلت إلىٰ معسكرك فما وجدت فيه إلّا قوماً ممن نفّر ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة[1].

ولقد كان من ضمن هذه الكوكبة من الشهداء جماعة ممن صحب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ومن تابعيهم الذين تابعوهم وشايعوهم على الطاعة والإيمان والرضوان، فكتب الله لهم الشهادة والسعادة بعد أن أثبتوا للتاريخ مواقفهم الصلبة الخالدة، وذلك حينما طلب منهم الإمام الحسين عليه السلام أن يتخلفوا عنه، وأذن لهم في ذلك، وأحلهم من بيعته. فالتاريخ يذكر لنا أنه عليه السلام قد جمعهم وقال لهم: «**هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً... الطريق غير خطير، والليل ستير، والوقت غير هجير، وأنتم في حلّ من بيعتي. إن القوم يطلبونني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي**»[2].

أي أن بوسع كلّ واحد منكم أن ينصرف مع أهله، وأنتم في حل من بيعتي، فكان أن ردوا عليه بذلك الردّ الإيجابي الذي خلده التاريخ، حيث أظهروا له شهامتهم وإيمانهم وصلابتهم في الدفاع عن المبدأ والعقيدة. وكان ما خاطبوه (رضي الله تعالى عنهم) به ينبئ عن مدى إيمان كل ماجد

(١) بحار الأنوار ٤٢: ١١٣، شرح نهج البلاغة: ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) انظر: الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

منهم بهذه الحركة المباركة، وبهذه الثورة الكريمة، إلى أن جاء دور العباس عليه السلام الذي وقف وقال مخاطباً الإمام الحسين: «قبّح الله العيش من بعدك أبا عبد الله، والله لا نفارقك حتى نلقى ما تلقى». وهذا ما حصل فقد قدم الحسين عليه السلام أصحابه وأهل بيته الضحية تلو الضحية دفاعاً عن دين الله تبارك وتعالى وجهاداً في سبيله.

يقول أحد الأُدباء واصفاً تلك اللحظات التي عاشها الإمام الحسين عليه السلام عندما مر على أجساد تلك الضحايا:

يا أبا الطفّ وازدهى بالضحايا ... من أديم الطفوف روض خضيلُ
ثلّة من صحابة وشقيق ... ورضيع مطوّق وشبولُ
والشباب النضير جفّ فغابت ... طلعة حلوة ووجه جميلُ
وتمشّيتَ تَستبينُ الضّحايا ... وزواكي الدماءِ منها تَسيلُ
ومشتْ في شفاهِك الغرِّ نَجوى ... نَمَّ عنها التسبيحُ والتَّهليلُ
لك عُتبى يا رب إن كان يُرضيـ ... ـك فهذا إلى رضاك قليلُ
وسجى الليلُ والرِّجالُ ضَحايا ... والنِّساءُ المخدراتُ ذهولُ
وبقايا مُخَيَّمٍ من رَمادٍ ... وعليلٌ مُصَفَّدٌ وكُبولُ
ودمٌ شاطىء الفرات سيبقى الـ ... دهرَ يرويه والرُّبَى والنَّخيلُ

أُنموذجان مشرّفان

ونحن هنا إذ نسبر هذا الغور العميق، ونخوض هذا الخضمّ المترامي

من المكرمات والبطولات لا يسعنا أن نشير إلى كل تلك المواقف الكريمة التي وقفتها كوكبة الحقّ مع إمام الحق عليه السلام، فالمقام لا يتّسع لكلّ ذلك؛ ولذا فإننا سوف نقتصر على ذكر بعضها.

ومن هذه النماذج المشرفة التي وقفت مع الإمام الحسين عليه السلام تلك المواقف البطولية نذكر:

الأول: علي بن مظاهر وزوجته

فحينما اجتمع الإمام الحسين عليه السلام لأصحابه يوم التاسع من المحرّم، وبيّن لهم أبعاد حركته الرسالية خطب فيهم قائلاً: «**ألا ومن كان في رحله امرأة، فلينصرف بها إلى بني أسد**».

فقام علي بن مظاهر (أخو حبيب) وقال: ولماذا يا سيدي؟ فقال عليه السلام: «**إن نسائي تسبى بعد قتلي، وأخاف على نسائكم من السبي**». فمضى علي بن مظاهر إلى خيمته، فقامت زوجته إجلالاً له، واستقبلته وتبسّمت في وجهه، فقال لها: دعيني والتبسم. فقالت: يابن مظاهر، إني سمعت غريب فاطمة خطب فيكم، وسمعت في آخرها همهمة ودمدمة، فما علمت ما يقول. فقال لها: يا هذه، إن الحسين عليه السلام قال لنا: «**ألا ومن كان في رحله امرأة، فلينصرف بها إلى بني أسد**»؛ لأنه غداً يقتل وتسبى نساؤه. فقالت: وما أنت صانع؟ قال: قومي حتى أُلحقك ببني عمك بني أسد.

فقامت وضربت رأسها في عمود الخيمة وقالت: والله ما أنصفتني يابن

مظاهر، هل رأيتني لم أُحسن إليك يوماً؟ قال: لا. فقالت: لماذا إذن تذهب إلى الجنّة وترجعني إلى النار؟ أيسرّك أن تسبى بنات رسول الله ﷺ وأنا آمنة من السبي؟ أيسرك أن تسلب زينب إزارها وخمارها من رأسها وأنا أستتر بإزاري وخماري؟ أيسرك أن تذهب من بنات الزهراء أقراطها وأنا أتزيّن بقرطيّ؟ أيسرك أن يبيضّ وجهك عند رسول الله ﷺ ويسودّ وجهي عند فاطمة الزهراء عليها السلام؟ والله أنتم تواسون الرجال ونحن نواسي النساء.

وبهذا فإنها تكون قد قررت أن تبقى مع عائلة الإمام الحسين عليه السلام وحرمه؛ لتواسيهن؛ لأنها مقتنعة تماماً بأنها بذلك إنما تواسي رسول الله ﷺ نفسه.

فرجع علي بن مظاهر إلى الحسين عليه السلام وهو يبكي، فقال له الحسين عليه السلام: «**ما يبكيك؟**». فقال: سيدي أبت الأسدية إلّا مواساتكم. فبكى الإمام الحسين عليه السلام وقال: «**جزيتم عنا خيراً**»[1].

الثاني: زهير بن القين وزوجته

وكذلك زهير هذا الذي لم يكن يريد القتال أوّل الأمر مع الإمام الحسين عليه السلام وكان الإمام الحسين عليه السلام في طريق رحلته إلى كربلاء قد رأى خباء، فسأل عنه، فقيل له: هذا الخباء لزهير. فأمر عليه السلام غلامه أن يذهب

---

(١) معالي السبطين ١: ٣٤٠.

ويدعوه إليه، وحينما جاء الرسول وأخبره بدعوة الإمام الحسين عليه السلام له وكان يأكل مع أصحابه، بهت.

يقول الغلام: فطرح كلّ إنسان منهم ما في يده حتى كأنما على رؤوسنا الطير، فقالت له زوجته ديلم بنت عمرو: سبحان الله، يبعث إليك ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم لا تأتيه؟ فلو أتيته وسمعت من كلامه. فمضى زهير إلى الإمام الحسين عليه السلام وكلّمه، ثم عاد، تقول زوجته: فرجع إلينا بغير الوجه الذي ذهب به، فإنه ما لبث أن جاء مستبشراً وقد أشرق وجهه، فأمر بفسطاطه فقوض، وثقله ومتاعه فحول إلى الحسين عليه السلام وقال لي: أنت طالق؛ فإني لا أُحبّ أن يصيبك بسببي إلّا خيراً، وقد عزمت على صحبة الحسين لأفديه بروحي، وأقيه بنفسي.

ثم أعطاها مالها وسلمها إلى من يوصلها إلى أهلها فقامت إليه وبكت، وودعته وقالت: خار الله لك. أسألك أن تذكرني في القيامة عند جد الحسين صلى الله عليه وآله. ثم قال لأصحابه: من أحب منكم أن يصحبني، وإلّا فهو آخر العهد به. إني سأُحدثكم حديثاً، غزونا بالبحر، ففتح الله علينا، وأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان رضي الله عنه: فرحتم بما فتح الله عليكم، وأصبتم من الغنائم؟ قلنا: نعم. قال: إذا أدركتم قتال شباب آل محمد صلى الله عليه وآله، فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معهم مما أصبتم اليوم من الغنائم. ثم ودّعهم ومشى إلى الحسين عليه السلام[1].

---

(١) مثير الأحزان: ٣٣ ـ ٣٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٤٤.

فكان هذا الموقف المشرّف الذي أبت فيه زوجته عليه إلّا أن يقاتل مع الحسين عليه السلام. وفي رواية أنها رفضت أن تفارقه، وأبت إلّا أن تكون مع نسوة رسول الله صلى الله عليه وآله، ولهذا فإنها ـ كما تقول هذه الرواية ـ لما نزل زهير يوم الطف إلى ساحة القتال، وقاتل قتالاً شديداً إلى أن سقط إلى الأرض، نظرت إليه زوجته ثم قالت لابنها: بني اذهب وبيّض لي وجهي عند فاطمة الزهراء عليها السلام.

نِقاط سوداء أساءت إلى الإسلام

إن تاريخنا كما هو واضح لمن يقرؤه مليء بأمثال هذه الثغرات التي أساءت إلى الإسلام، وتاريخنا هذا هو الذي يحدّثنا عن كثير ممّن ابتلي بهم الإسلام، وهم ليسوا منه، بل هو براء منهم. ومن هؤلاء:

الأولى: بسر بن أرطاة

فالتاريخ يذكر لنا مثلاً عن بسر بن أرطاة هذا قد قتل في إحدى رحلاته خلال ذهابه ومجيئه إلى بعض البلدان أكثر من ثلاثين ألفاً من المسلمين، حتى عُنّف على ذلك[1]. إذن فمثل هذه التصرفات لا يمكن أن

(١) تاريخ الطبري ٤: ١٠٦ ـ ١٠٧، الكامل في التأريخ ٣: ٣٨٤ ـ ٣٨٥، مروج الذهب ٣: ٣١ ـ ٣٢. وكذلك فعل سمرة بن جندب الذي قتل في يوم واحد ثمانية آلاف شخص، ولم يفرّق

تحسب على الإسلام، ولا أن يقال: إنها تصرفات مبتنية على تعاليم الإسلام وقوانينه، بل إن العقل والشرع والحقيقة تلزمنا جميعاً بأن نقول: إن هذه الأفعال يجب أن تُحسب على أصحابها أنفسهم، وإلّا فإنه ليس من ذنب الإسلام أن يعمد بسر وأمثاله إلى قتل الناس بهذه الكيفية الهمجية.

الثانية: الحجّاج

ومثل بسر الحجّاجُ الذي فعل ما فعل، وقتل من قتل من المسلمين الذين لم يتفقوا معه في الرأي والرؤية[١]، وكذلك غيره من الخلفاء والولاة على امتداد الرقعة الإسلامية منذ عهد معاوية وحتى انتهاء عصر الخلافة.

ويميّز بين الخارجي والمسلم، وحينما اعتُرض عليه في قتل المسلمين قال: الخارجي يعجّل به إلى النار، والمسلم يعجّل به إلى الجنة. تاريخ الطبري ٤: ١٧٦، تاريخ ابن خلدون ٣: ١٠، النصائح الكافية: ٧٦.

(١)قد مرّ في محاضرة (الرحمة الإلهيّة) من الجزء السابع عشر من هذه الموسوعة الشريفة ما كان يفعله الحجّاج بعباد الله حتى وصل الأمر بهم أن ينادوا: وا محمداه؛ تألّماً من ممارسات الحجّاج عندهم. الكامل في التاريخ ٤: ٤٦٥.

وجاء عنه في أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار ممن كان أصله من السواد (القرى والأرياف) من أهل الذمّة، فأسلم بالعراق أنه ردّهم إلى قراهم، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفّار. تاريخ الطبري ٥: ٣٥٨ ـ ٣٥٩، الكامل في التاريخ ٥: ١٠١، وفيات الأعيان ٦: ٣١١، تاريخ ابن خلدون ٣: ٤٨، ٤: ١٨٨، فتوح مصر وأخبارها: ٢٧٢.

فهؤلاء وأمثالهم لا يمكن أن يحسبوا علـى خـط الإسـلام ولا أن يـقال بحقهم: إنهم مسلمون، أو إنهم يسيرون على هدي من الإسـلام أو عـلى ضوئه.

الخوارج وعبد الله بن خبّاب رضي الله عنه

ومن الأمثلة التي أسيء فهم الإسلام بسببها أعمال الخوارج البعيدة عن روح الإسلام، والتي حاولوا من خلالها أن يسيئوا إلى الإسلام زاعـمين أنها منه وهي كثيرة نذكر منها قتلهم عبد الله بن خباب (رضوان الله تعالى عليه)، تقول الرواية:إن عبد الله بن خبّاب بن الأرتّ رضي الله عنه كان في سفر له، ومعه مجموعة من النساء فيهن امرأته وهي حامل، فلقي الخـوارج فـي طريقه، فلمّا اعترضوه رأوه وقد علّق في عنقه مصحفاً شريفاً، وكان على حمار له، فقالوا له: ما هذا الذي في عنقك؟ فقال لهم: هذا كـتاب الله؛ وأنا مسلم. فقالوا له: إن هذا الذي في عنقك لهو الذي يأمرنا بقتلك. فقال لهم: ما أحياه القرآن فأحيوه، وما أماته فأميتوه.

وكان رجل منهم قد رأى رطبة سقطت من نخلة على الأرض، فوثب فوضعها في فيه، فصاحوا به، فلفظها مدعياً الورع، وعرض لرجل منهم خنزير فضربه فقتله، فقالوا: هذا فساد في الأرض. وأنكروا قتل الخنزير، فلقي الرجل صاحب الخنزير فأرضاه من خنزيره، فلما رأى عبد الله بن

خباب رضي الله عنه ذلك منهم، قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى، ما عليّ منكم بأس، ووالله ما أحدثت حدثاً في الإسلام، وإني لمؤمن، وقد آمنتموني، وقلتم لي: لا روع عليك. فقالوا له: حدثنا عن أبيك. فقال: إني سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**ستكون بعدي فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يمسي مؤمناً ويصبح كافراً**». فكن عبد الله المقتول، ولا تكن القاتل.

قالوا: فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى خيراً، قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم، وفي عثمان في السنين الست الأخيرة؟ فأثنى خيراً، فقالوا: فما تقول في علي بعد التحكيم والحكومة؟ قال: إن عليا أعلم بالله وأشد توقياً على دينه، وأنفذ بصيرة. فقالوا: إنك لست تتبع الهدى، إنما تتبع الرجال على أسمائهم. ثم قربوه إلى شاطئ النهر، فأضجعوه فوق الخنزير، فذبحوه، ثم أقبلوا إلى امرأته، فقالت: إنما أنا امرأة، أما تتقون الله؟ فبقروا بطنها، وقتلوا معها ثلاث نسوة، فيهن أُم سنان التي صحبت النبي صلى الله عليه وآله[1].

وهكذا فإن تاريخنا مشحون بأمثال هذه الاعتداءات على الآخرين، وعلى دماء تنطق أصحابها بشهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً صلى الله عليه وآله رسول الله، وهي حوادث تمثل ثغرات مؤلمة، ونقاط حالكة سوداء ومظلمة في

(١) الأخبار الطوال: ٢٠٦ ـ ٢٠٧، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٨١ ـ ٢٨٢، أُسد الغابة ٣: ١٥٠، تاريخ الإسلام ٣: ٥٨٨، الإمامة والسياسة ١: ١٢٦ ـ ١١٢٧.

تاريخنا الإسلامي يجب أن ننزه الإسلام منها، وأن نفرق بينه وبينها بناء على تصرفات أصحابها.

نماذج من مقابلة الإساءة بالإحسان

إذن فآية المقام الكريمة تترك الباب مفتوحاً في وجه من أراد أن يقابل السيئة بالحسنة والإساءة بالإحسان ولا يوصده في وجهه فلا يلزمه بأن يقتص أو يوجب عليه ذلك. وتاريخنا ثري وغني بكثير من الحوادث التي تنم عن هذه الخصلة الحميدة التي أكدها الله تبارك وتعالى في بعض آيات الذكر المحكم، ونذكر منها:

أولاً: موقف الإمام السجاد عليه السلام من مروان بن الحكم وعائلته

إن التاريخ مليء بمواقف مروان السيئة من المسلمين، وكتبه مترعة بهذا الجانب الذي يُظهر لنا بأنه لم يسئ أحد إلى الإسلام والمسلمين بقدر ما أساء مروان إليهما؛ فقد كانت حركاته وفعاله الدنيئة وراء كثير من المشاكل، بل إنها المشاكل عينها، وقد خلقت ألف مشكلة ومشكلة للإسلام والمسلمين، حتى إنه كان السبب الرئيس والأساسي وراء مقتل الخليفة الثالث ومصرعه، وبالتالي الشقاق الذي حلّ في جسد الأُمّة الإسلامية، والفرقة التي حصلت بين المسلمين.

كما أنه كانت له مواقف سيئة جداً من الإمام الحسين عليه السلام حتى إنه حينما أحضر رأس الإمام الحسين عليه السلام كان يضربه بعصا كانت بيده.

ومع كلّ مواقفه المخزية والسيئة من أهل بيت النبوة عليهم السلام فإننا نجد أنه حينما حدثت ثورة المدينة على الوالي الأُموي، وثار الناس ضد الأُمويين وشردوهم راح الإمام السجاد عليه السلام سلسل المجد وسليل النبوة وابن رسول الله صلى الله عليه وآله يصبّ عليه رعايته، ويفرغ على عائلته حمايته، ويدافع عنهم ويحميهم ويؤويهم في بيته.

مع أن مروان هذا كان يتقرّب إلى الله تعالى بشتم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبشتم زوجه السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام ابنة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وبشتم سبطي رسول الله صلى الله عليه وآله. ولا ننسَ أنه هو الذي كان يقول للإمام الحسين عليه السلام: أنصحك ببيعة يزيد؛ فإنه خير لك في دينك ودنياك[1]. ولا أنه هو الذي كان يضرب ثنايا الإمام الحسين عليه السلام بعصاه، ويرتجز:

يا حبّذا بردك باليدينِ ولونك الأحمر بالخدّينِ

شفيت نفسي من بني الحسينِ[2]

إذن فالتاريخ يحدّثنا عمّا كان عليه مروان من خسّة ورداءة، ومع ذلك كلّه فإنه لمّا حدثت واقعة الحرة في المدينة كان كلّ همّ الثوّار فيها أن

(١) اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٦.

(٢) شرح الأخبار ٣: ١٦١، مثير الأحزان: ٧٥، شرح نهج البلاغة ٤: ٧١، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام (ابن عساكر): ٣٣٩.

يقضوا على عوائل بني أُميّة جميعها، فجاء مروان يهرول إلى عبد الله بن عمر يطلب منه إيواء عائلته، فقال له: ليس عندي مكان، ولا أُدخل أحداً إلى بيتي.

فراحوا يتسكّعون على البيوت، حتى جاؤوا بأجمعهم إلى دار زين العابدين عليه السلام، وبقوا حتى نهاية الثورة في بيت الإمام عليه السلام ينفق عليهم ويحميهم(١).

والأكثر من ذلك أن عائشة بنت الخليفة الثالث زوجة مروان أرادت أن تخرج من المدينة هرباً من الثورة، فأخرج الإمام السجّاد عليه السلام معها ابنه عبد الله حتى أوصلها إلى الطائف، وظلّ مرابطاً على باب بيتها ثلاثة أشهر يحرسها(٢).

وهكذا كان الإمام يصلهم وينقل لهم مائدته وطعامه وزاده حتى انجلت الغمّة عنهم، وانكشف الكرب عن قلوبهم.

فهل من السهولة أن نجد مثل هذا الخلق العالي والنبل الكريم والتطبيق الحقيقي لمعاني السماء ومفاهيمها السامية التي ترتفع بالإنسان إلى مصاف الملائكة بل إلى ما هو أسمى وأعلى من مصافّ الملائكة؟ إن هذه إلّا أخلاق آل محمد صلى الله عليه وآله وإلّا نبل أهل بيت النبوة معدن الرسالة ومهبط

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٣٧٣، الكامل في التاريخ ٣٤: ٤٥٦.

الوحي وأس الإسلام وأساسه.

ثانياً: موقف الإمام علي من الحاقدين عليه

وكان بعض المسلمين يبغضون الإمام علياً عليه السلام بغضاً لا حدود له، وكانت نفوسهم تغلي غلياناً حينما يُذكر اسمه، فكانت تنبض بالحقد والكراهية دون هوادة، حتى إنهم كانوا يسمعونه من الكلام سباً وغيره وهم تحت منبره، وقد وصل به الحال إلى أن قال لهم:«**وقد عاتبتكم بدرّتي التي أُعاتب بها أهلي فلم تبالوا، وضربتكم بسوطي الذي أُقيم به حدود ربّي فلم ترعووا، أتريدون أن أضربكم بسيفي؟ أما إني أعلم الذي تريدون ويقيم إودكم، ولكن لا أشتري صلاحكم بفساد نفسي**»[1].

وهذا التصرّف منه عليه السلام إن ينم إلّا عن نفس كبيرة متسامحة.. نفس سمت على كلّ من عاصرها ومن جاء بعدها.. نفس اعتادت الأخلاق الكريمة والنبل في التعامل والتسامح والعفو عن الآخرين عند المقدرة عليهم. مع أننا نقرأ في التأريخ أن البعض من المسلمين كان ينظر إلى هذا العفو والتسامح منه عليه السلام على أنه ضعف، وهذا ينم عن جهل واضح وقصور فاضح في هذا المجال، غاب معه عن أذهان هؤلاء أن العفو مع القدرة لا يمكن أن يكون ضعفاً أبداً، وإنما هو مصنع لصنع الفضيلة والأخلاق الحميدة، وصاحب هذه النفس يتناسى أن له الحق في أن يرد عليهم

---

(١) الكافي ٨: ٥٥١/٣٦١، أنساب الأشراف: ٤٥٨ ـ ٤٥٩ / ٤٩٨.

بالمثل، كما تقرر آية المقام الكريمة حيث تقول: ﴿**فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾.

ثالثاً: موقف الإمام السجاد عليه السلام من الوالي إسماعيل الأُموي

وعلى سبيل المثال كذلك ممّا يمكن أن يقال في البين أن عامل عبد الملك بن مروان على المدينة المنوّرة إسماعيل بن هشام المخزومي كان يسيء لأهل البيت عليهم السلام عموماً أشدّ إساءة، وللإمام السجاد عليه السلام خصوصاً. وتشاء الظروف أن يبقى عاملاً عليها إلى زمن الوليد الذي عزله بسبب خلاف مالي حول خراج المدينة.

وكان من شأن بني اُمية أنهم إذا أرادوا عزل والٍ وأرادوا أن ينكّلوا به أوقفوه يشهّرون به بين الناس، فيمرّ به الناس ويطالبونه بالسجلّات والأموال، ويتّهمونه بكلّ ما يريدون. فكان أن اُوقف في الشمس عارياً، وأخذ الناس يطالبونه بالأموال، فجمع الإمام كلّ أصحابه وأهل بيته وقال لهم: «**لا تتعرّضوا لهذا الرجل بسوء أبداً**». فقال أحد أولاد الإمام عليه السلام: يا أبه، نحن ننتظر منه مثل هذا اليوم. فقال الإمام عليه السلام: «**كِله إلى الله**». وطلب منهم أنهم إذا مرّ به أحد منهم فلا يبدِ على وجهه أي امتعاض.

وكان أن مرّ الإمام عليه السلام قربه فهمس في اُذنه قائلاً: «**انظر إلىٰ ما أعجزك من مال تؤخذ به فعندنا ما يسعك، فطب نفساً منا ومن كلّ من يطيعنا**». وأرسل له الإمام كلّ ما يحتاج إليه، فكان يقول بعد ذلك: ﴿**اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ**

رِسَالَتَهُ﴾[١]، فما كان من إسماعيل هذا إلّا أن أصبح من محبّيه بعد أن ترك النصب له عليه السلام[٢].

إذن فالآية الكريمة لا تلزم الإنسان أن يعتدي على الآخرين بمثل ما اعتدوا عليه، بل إنه تترك له الخيار في ذلك؛ فإن شاء عاقب وإن شاء عفا، بل إن القرآن الكريم في موارد أُخرى يجعل العفو أفضل من أخذ الحق. لكن هذه الآية الكريمة في الوقت نفسه تلزم الإنسان بأنه حينما يريد أن يأخذ في حقه، وأن يردّ من اعتدى عليه، فإن له حق المقاصّة فقط دون أن يكون له الحق في أن يزيد على حقّه، أو أن يأخذ أكثر ممّا هو له. وعليه فالواجب هو ألّا تجمح العاطفة بالإنسان، فتأخذ بيده إلى أن يتجاوز حدود الله تبارك وتعالى، ويتعدى الحدود المشروعة التي رسمها له في القصاص.

املؤوا لي ثوبي من نجوم السماء

يروى أن شاس بن زهير رجع من عند النعمان بن المنذر زوج أُخته النوار، حتى إذا كان في بلد «غني» جنّه الليل، فورد ماء من مياه بني غني، وكان على ذلك الماء رجل منهم يسمى ثعلبة بن الأعرج، فلما ورد عليه شاس، قال له: هل في حوضك هذا شيء من الماء؟ قال: فيه ما

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠١، بحار الأنوار ٤٦: ٥٥، تاريخ الطبري ٥: ٢١٧.

يكفيك إن قنعت! فغضب شاس من كلامه، وقال: ممّن الفتى؟ قال: من بني غني. فقال شاس: إن كلامكم لفاحش. ومضى، فاستدبره الفتى الغنوي، وهو لا يعرفه، فشم عنده رائحة المسك، فسعى خلفه حتى أدركه، ثم رماه بسهم، فصرعه عن راحلته.

فلما نظر في وجهه عرفه، فندم على قتله، ثم حفر له ودفنه، وأخفى مكانه، وأخذ راحلته فنحاها عن الطريق، ثم نحرها وأخذ من لحمها ما استطاع، وأخذ ما عليها.

فلمّا بلغ الأمر زهيراً قال لبني غني وبني عامر: هلم إلى النصفة قبل الحرب. فقالوا له: نحن نحكّمك يا أبا شاس. فقال لهم: إني مخيّركم إحدى ثلاث. قالوا: وما هن يا أبا شاس؟ قال: إما أن تردّوا شاساً حياً، وإما أن تملؤوا لي ثوبي هذا من نجوم السماء، وإما أن تأتوني بغني كلّها، رجالها ونسائها، فإن شئت قتلت، وإن شئت صفحت. فقالوا: لا نقدر على واحدة منها: لا نقدر على إحياء الموتى، ولا على نجوم السماء، وأما بنو غني فإنهم أحرار لا ينقادون لأحد، ولا يهدرون نفوسهم في جريرة غيرهم. فقال حانقاً: إذن أبيدكم عن آخركم. فقالوا له: ولكن يا أبا قيس نعطيك خيراً مما تطلبه، وندفع إليك قاتل ولدك تحكم فيه بحكمك، وندفع إليك بعد ذلك عشر ديات حتى نرضيك. فقال زهير: ما كان شاس بجزور فآكل ثمنه، ولا قاتله مثله، فأقتله به. واستكبر. حتى هاجت الحرب بين هوازن وغطفان(١).

---

(١) الحور العين (نشوان الحميري): ٩٣.

ومما يروى في هذا المقام أنه جيء لأحد رؤساء بني تميم بأحد أبنائه مقتولاً، وبعد أن عُرف القاتل جاء أهله لمصالحة أهل القتيل على الدية، فقال لهم: لا أرضى إلّا بواحدة من ثلاث. قالوا: ما هي؟ قال: أن تُنزلوا لي نجوم السماء. قالوا: لا نستطيع. قال: أو تعيدوا لي ولدي حيّاً. قالوا: وهذه لا نقدر عليها. قال: إذن أبيدكم عن آخركم.

فهذا الأب يريد أن يصور لهم أن قطرة واحدة من دم ابنه تساوي دماء حي القاتل كلها، وبالتالي فإنه حتى يأخذ بثأره منهم لابدّ أن يفنيهم عن آخرهم، وأن يقتلهم عن بكرة أبيهم، تاركاً بذلك لعاطفته الجامحة أن تتعدى به حدود اللياقة والأدب في الخطاب، وفي القصاص الذي لم يعد كذلك (أي لم يعد قصاصاً)، بل أصبح ظلماً وتعدّياً على الآخرين، وانتهاكاً لحرماتهم واعتداءً على حياتهم. إن هذه العاطفة الجامحة التي تملكته وسيطرت عليه جعلته في حالة غضب راح معها يتجاوز حدوده، ويسعى إلى أخذ ما ليس له بحق.

وهذا بطبيعة الحال مخالف لقوانين السماء وللأعراف البشرية التي تقضي بأن يقتل القاتل بالمقتول لا أن تقتل القبيلة كلها ويتعدى الأمر قتل القاتل وإخوته وأبناء عمومته. وهذه المفاهيم المغلوطة التي كان عليها العرب والكثير من الناس آنذاك قد سعى القرآن الكريم إلى اجتثاثها من قلوب وعقول الناس، وعمد إلى صرف انتباههم عنها وتفكيرهم بها إلى غيرها من مكارم الأخلاق، وأراد أن يقيد تلك العواطف التي تحاول أن

تبتعد كثيراً في أخذ الحق، وأن تجمح بعيداً في القصاص، فلا ترتضي المثلية فيه.

موقف علماء المسلمين من حركة الإمام الحسين عليه السلام

إن الغوص في ثنايا تاريخ المسلمين، وسبر أغواره ينبئاننا بأن علماء المسلمين على امتداد خطّ التاريخ كان لهم موقفان من ثورة الإمام السبط الشهيد أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وهو ما سوف نجمله بالآتي:

الموقف الأول: موقف الراثين له عليه السلام

وقد بلغت الفاجعة شأوها البعيد في قلوب أصحاب الضمائر الحيّة، وفي نفوسهم التي اكتوت بنار الأسى والألم على قتل ابن بنت نبي لم يكن على وجه الأرض ابن بنت نبي غيره، ومن هؤلاء:

أولاً: الفقيه خالد بن معدان

وكان في دمشق حينما جيء بالرؤوس والسبايا إلى الشام، فانقطع في بيته عن الناس، فلم يخرج منه، وكان يردّد:

جاؤوا برأسك يابن بنت محمد ... متزمّلاً بدمائه تزميلا
وكأنَّما بك يابن بنتِ محمدٍ ... قتلُوا جهاراً عامدينَ رسولا
قتلوكَ عطشاناً ولمَّا يرقبوا ... في قتلك التنزيل والتَّأويلا

ويـــهلّلون بأن قـــتلت وإنــما قــتلوا بك التكـبير والتـهليلا[١]

أي إنني أعجب من هؤلاء كيف أراقوا دمك الطاهر، وهم إنـما أراقـوا بذلك دم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ثانياً: الإمام الشافعي

وكان يردّد ويقول:

وممّا شجا نفسي وأجّج لوعـتي مـصاب بـه حـرّ الدمـاء صـبيبُ

قـــتيل بـــلا ذنب كأن رداءه صبيغ بـماء الأرجـوان خـضيبُ

ألا بلّغوا عـنّي الحسـين رسـالة وإن كـــرهتها أنــفس وقــلوبُ

فكان رحمه الله يندب الإمام الحسين عليه السلام ويبكيه أشدّ البكاء.

ثالثاً: الحسن البصري

وهو الذي اشتهر عـنه أنـه حـينما بـلغه نـبأ مـقتل الإمـام الحسـين السبط عليه السلام بكىٰ بكاء شديداً حتىٰ اختلج صدغاه، وقـال: «أذلّ الله أُمّـةً قتلت ابن بنت نبيها»[٢].

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن هناك البعض مـن الأعـلام

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦٣ تهذيب الكمال ٦: ٤٤٨، جميع دواوين الشعر العربي على مر العصور ١٦: ٢٩٩، وفيه أنها لديك الجن عبد السلام بن رغبان.

(٢) ينابيع المودّة ٢: ٣٩٨.

ممّن يمتلك ضميراً واعياً وحسّاً إنسانياً ناصعاً يقدّر تلك الحركة النهضوية الإصلاحية التي قام بها الإمام الحسين عليه السلام ويشكر له عليه السلام تحركه ذلك؛ لأنهم وأمثالهم عرفوا أن هذا التحرك إنما هو من أجل الدين، ومن أجل خدمة المسلمين.

الموقف الثاني: موقف المشنّعين عليه عليه السلام

هذا في حين أن هنالك ثلة أُخرى تذهب إلى العكس من هذا المذهب، فتشمت بقتل الحسين عليه السلام وتدعي أنه خرج على إمام زمانه فقُتل بسيف جده وببغيه على إمام زمانه. ويمثّل هذا الموقف جماعة من العلماء منهم الغزالي، وابن العربي صاحب المقولة المشهورة التي تنص على أن الإمام الحسين عليه السلام قد قتل بسيف جدّه[1]؛ حيث إن جدّه صلى الله عليه وآله هو الذي حمل

---

(١) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣، تفسير الآلوسي ٢٦: ٧٢. قال الآلوسي: «وأبو بكر بن العربي المالكي (عليه من الله تعالى ما يستحق) أعظمَ الفرية، فزعم أن الحسين قتل بسيف جدّه «، وله من الجهلة موافقون على ذلك، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾ الكهف: ٥.

وقال ابن الجوزي (عليه الرحمة) في كتابه (السرّ المصون): من الاعتقادات العامّة التي غلبت على جماعة منتسبين إلى السنّة أن يقولوا: إن يزيد كان على الصواب، وأن الحسين رضي الله عنه أخطأ في الخروج عليه. ولو نظروا في السير لعلموا كيف عقدت له البيعة وألزم الناس بها، ولقد فعل في ذلك كلّ قبيح. ثم لو قدّرنا صحّة عقد البيعة، فقد بدت منه بوادٍ كلّها توجب فسخ العقد، ولا يميل إلى ذلك إلّا كلّ جاهل عامّي المذهب يظنّ أنه يغيظ بذلك الرافضة».

القرآن الذي يقول: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾[١].

نقض كلام ابن العربي

وهذا كلام غريب بل أبعد من غريب؛ فمن ذا الذي يجرؤ على أن يدعي أن الإمام الحسين عليه السلام إنما هو إنسان باغٍ ومعتدٍ؟ ومن ذا الذي يجرؤ على أن ينسب الظلم والبغي والاعتداء على الخلافة الشرعية إلى سبط الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وإلى سيد شباب أهل الجنة؟ إن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حينما يعبر عنه عليه السلام بأنه سيد شباب أهل الجنة، فقد عبّر عنه بذلك وهو يعرف أنه سوف يخرج لقتال يزيد، وسوف يستشهد، وسوف يستشهد معه أبناؤه واخوانه وذووه وصحابته الكرام البررة؛ وذلك طبعاً بتعليم من الله تبارك وتعالى؛ بما أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد أرهص بهذا الأمر وبينه لأم سلمة.

إذن فيمكن نقض قول ابن العربي هذا بأن يقال: إن قوله هذا يعني أحد أمرين:

الأول: أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إما أن يكون عالماً بأنه عليه السلام سوف يخرج ويقتل شهيداً.

الثاني: أنه صلى الله عليه وآله لا يعرف ذلك.

فإن كان يعلم ذلك، ثم إنه صلى الله عليه وآله قال فيه تلك المقولة الشهيرة وهي أنه

(١) الحجرات: ٩.

سيد شباب أهل الجنة فهذا يعني أنه ﷺ كان يعرف أن خروجه على يزيد وأعوانه كان خروجاً بالحق ومن أجل الحق وفي سبيل الحق. وأمّا أن يدعي ابن العربي أن الرسول الأكرم ﷺ لم يكن يعلم ذلك منه، فهذا يدل على كفره وعلى عدم اعتقاده بأن الرسول الأكرم ﷺ يعلم الغيب بتعليم من الله تبارك وتعالى، وهذا ما أسلفنا ذكره من أن الرسول الأكرم ﷺ قد أخبر أُمّ سلمة بذلك كما تقول الرواية حيث أحضر لها تراباً من كربلاء وطلب منها أن تنظر له كلّ يوم، فإذا رأته وقد أصبح دماً عبيطاً فلتعلم بأن الحسين قد قتل(١).

إذن فالرسول الأكرم ﷺ كان على علم تام بما سوف يؤول إليه أمر الإمام الحسين عليه السلام، وادّعاء أحد خلاف ذلك إنما ينم عن كفره، أما أن يعلم ﷺ ذلك منه عليه السلام، وأنه سوف يقتل في سبيل الله، وأنه ﷺ مع ذلك قال فيه عليه السلام إنه سيد شباب أهل الجنة فهذا يعني أن هذا الشخص يخبط خبط عشواء ويتخبط في أقواله وكتاباته؛ لأنه بهذا يكون قد ناقض نفسه بنفسه، ولا يكون يريد حينها غير أن رسول الله ﷺ على علم بأن الإمام الحسين عليه السلام سوف يبغي على خليفته الشرعي يزيد، ومع ذلك فقد حاول

---

(١) حيث قال لها رسول الله ﷺ: «يا أُمَّ سلمة، جاءني جبرئيل فأخبرني أنّ ولدي حسيناً يُقتل بأرض العراق، وأتاني بهذه التربة من موضع قتله. فخذيها وضعيها في قارورة، فإذا صارت دماً عبيطاً فاعلمي أنه قد قتل». بحار الأنوار ٤٤: ٢٣٨، ٢٦٨، المعجم الكبير ٣: ١٠٨ ـ ١٠٩ / ٢٨١٩، ٢٣: ٢٨٩ / ٦٣٧، كنز العمّال ١٣: ٦٥٦ / ٣٧٦٦٦.

خداع المسلمين بأن وصف لهم الإمام الحسين عليه السلام على أنه سيّد شباب أهل الجنة (تنزّه رسولنا الأكرم عن ذلك).

وهذا بطبيعة الحال كفر بالله تعالى؛ لأنه يؤدّي إلى القول بنسبة الخيانة إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

ولنلاحظ هنا هذه الآراء المبتنية على ثغرات حقيقية في تراثنا الفكري، وإلّا فإن هذا يعني أن ابن العربي إنما يصحح لرسول الله صلى الله عليه وآله مواقفه فيما إذا أقر بأن رسول الله صلى الله عليه وآله قد قال في الحسين ما قال، ومن جهة اُخرى يعلم ما سيؤول إليه أمر الإمام الحسين عليه السلام.

دعوة إلى تنقيح التراث وتصحيح التاريخ

إن هذه الثغرات التي أشرنا إليها أكثر من مرة وفي محاضرات عدة لابدّ من معالجتها بالنقد العلمي الأكاديمي لهذا التراث وللآراء التي تطرح على الساحة الإسلامية وفي المشهد الفكري الإسلامي على امتداد عصوره، حيث ينبغي على المسلم المنصف أن يسعى إلى أن يملأ تلك الثغرات وأن يسدها في وجه مثيريها حتى يعود الإسلام كما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، وحتى يرجع هو ويعيد الآخرين الذين ضلوا الطريق إلى أسس الإسلام الصحيحة التي أسسها صاحب الإسلام وحامل الدعوة وناشر هذا الدين الجديد الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله.

إذن من المفارقات العجيبة في هذا التاريخ الموبوء أن تنتهك حرمة

رسول الله صلى الله عليه وآله بانتهاك حرمة أبنائه وبعض صحابته وصحابة سبطه الأكرم الإمام الحسين عليه السلام في هذا الشهر الحرام، مع أنه قد حرم فيه قتل حتى الإنسان العادي، فما بالك بالإمام المعصوم الذي يحمل فكر السماء، ويترجم آراء السماء، ويطبق تعاليمها وقوانينها وقواعدها؟ وهكذا فإن هذا الشهر الحرام قد انتهكت حرمته، وخرق قانون تحريم القتل والقتال والدماء فيه بأبرز شخصية إسلامية، وأفضل كائن بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو بضعة الزهراء عليها السلام وسبط الرسول صلى الله عليه وآله وسيد شباب أهل الجنة الذي عبّر عنه الرسول بأنه إمام؛ قام، أو قعد.

واقعة الحرة والثورة الحسينية

ومن هنا فإننا نجد أن المسلمين بعد ذلك قد بدؤوا يعون حقيقة الواقع الذي كانوا عليه، والواقع الذي كانت عليه السلطة آنذاك، فراحوا يرفعون أشرعة الثورة، ويعلنون شعار التصدّي والتحدّي لهذه السلطة أو تلك، فحمحمت خيولهم وهي تعدو إلى ساحات الجهاد والمعركة ضد الأُمويين الذين فرضوا على المسلمين أن يبايعوا ليزيد على أنهم عبيد أقنان؛ وهو الأمر الذي يعني أن يزيد له الحق في أن يتحكم برقاب هؤلاء، فيبيع فيهم ويشتري، وأن يتحكم بأموالهم وبنسائهم كونهن جواري عنده.

وهذا التحرك الذي شهدناه من أهل المدينة المنورة ما هو إلّا امتداد

لتلك الثورة التي رفع شعارها وصاغ مبادئها سبط رسـول الله ﷺ سـيد الأحرار وسيد شباب أهل الجنة؛ لأنهم عرفوا أن تصرف يـزيد هـذا إزاء المسلمين سيما أهل المدينة الذين هـم أنـصار رسـول الله ﷺ لا يـقبله الإسلام في شيء ولا يرتضيه الله تبارك وتعالى الذي يقول:﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾[1].

وهذا يعني أن الله تبارك وتعالى حينما خلق الإنسـان خـلقه وكـرمه باختيار الخلقة له حيث إنه خلقه في أحسن تـقويم، وكـرمه بأن جـعله أفضل المخلوقات وسيّدها، وكرمه بأن منحه هذا العقل الذي يضيء دربه، وكرمه بأن بعث إليه الأنبياء والرسل عليهم السلام وعـلى رأسـهم سـيد الأنـبياء وخاتمهم نبينا الأكرم محمد بن عبد الله ﷺ. وإلّا فإن الإنسان ينبغي أن يكون كريماً في نظر الإسلام لا أن يذل بعلم من الحاكم الذي يدعي أنه يحكم باسم الإسلام بل بأمر منه كما حدث ورأينا.

والتاريخ يحدثنا أن بني أمية كانوا يأخذون أموال المسلمين ويفرقونها على بني عمومتهم فيحرموا المسلمين من كدهم وتعبهم، فيما يتنعمون هم بكد غيرهم وما يجنيه أولئك من أموال، وهذا هو السبب الذي حدا عمر بن عبد العزيز إلى أن يأخذ الأموال التي سرقها بنو أمية، والتي اسـتولوا

(١) الإسراء: ٧٠.

عليها ظلماً وجوراً، وراح يرجعها إلى الناس، حتى قالت له عمته: ألا تخشى منهم؟ فقال لها: «كل يوم دون يوم القيامة لا أخشاه»[١].

أي أن هؤلاء قد نهبوا أموال المسلمين وأنا لا يكنّ لي حال، ولا يهدأ لي بال حتى أستعيدها منهم، وأُرجعها إلى أهلها وأصحابها الشرعيين[٢]. إذن فهذه الأموال قد سرقت من المسلمين بغير وجه حق بعد أن اعتدي عليهم، فضلاً عن أن أعراضهم قد انتهكت، ودماءهم قد أُريقت دون مراعاة لحرمتها حتى إن بسر بن أرطاة كما ذكرنا قد قتل في رحلته إلى البصرة ورجوعه منها ما يزيد على ثلاثين ألفاً، وقد أكثر القتل وأسرف فيه حتى إنه وصل الأمر بعقيبة الأسدي إلى أن يقول:

معاويَ إننا بشرٌ فأسجِحْ ... فلسنا بالجبالِ ولا الحديدِ
أكلتم أرضَنا فجردتموها ... فهل من قائمٍ أو من حصيدِ
ذروا جورَ الإمارةِ واستقيموا ... وتأميراً على الناس العبيدِ
فهبنا أُمّةً ذهبت ضياعاً ... يزيدُ أميرُها وأبو يزيدِ
أتطمعُ في الخلافةِ إذ هلكنا ... وليس لنا ولا لك من خلودِ
وأعطونا السويّةَ لا تزرْكم ... جنودٌ مردفاتٌ بالجنودِ[٣]

---

(١) انظر الطبقات الكبرى ٥: ٣٩٨.

(٢) وهذا ما يذكرنا بقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وَاللّهِ لَو وَجَدتُهُ قَد تُزُوِّج بِهِ النِّسَاءُ وَمُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ لَرَدَدتُهُ؛ فَإِنَّ فِي العَدلِ سَعَةً، وَمَن ضَاقَ عَلَيه العَدلُ فَالجَورُ عَلَيه أضيَقُ» نهج البلاغة / الكلام: ١٥.

(٣) تاريخ مدينة دمشق ٢٦: ٤٧.

عاشوراء الفاجعة والدمعة

إذن فهذا هو الذي دعا الإمام الحسين عليه السلام إلى أن يعلن ثورته ونهضته تلك التي أراد من خلالها أن يصارع قيم الجاهلية، وإلى أن يعيد الحق إلى نصابه، ويحق الحق، ويرجع بالناس إلى حِجْر الإسلام بعد أن حاولت الطغمة الحاكمة أن تعيده إلى جُحْر الجاهلية والظلام.

لكننا مع هذا نقول: إنه ليس هنالك من مانع أن يذرف الدمع على مصرع هذا السبط العظيم إذا ما كان هذا الدمع مقترناً بالعمل الفعلي بمبادئ تلك الثورة، ومشروطاً بالتقيد بأهدافها وشعاراتها والسير على خطها دون أن يحيد عنها الإنسان ولو قيد أنملة؛ ذلك أن الدمع كما ذكرنا ما هو إلّا إفراز طبيعي عندما تتأجّج المشاعر والعواطف، أي أن الإنسان سوف تنبجس عيناه بالدموع وهو يتأثر عاطفياً سواءً شاء ذلك أم أبى.

وهذا حق على كلّ مسلم يقرأ التاريخ فيعرف أن واقعة الطف قد تركت بيوت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله خالية من أهلها ليس فيها من رجل، فإنه حتماً سوف ينبجس الدمع من عينيه دماً وهو يقرأ هذه الحقائق المرة والمخزية التي شكلت وصمة عار ونقطة سوداء حالكة على جبين الأمة الإسلامية التي فعلت هذا الفعل الشنيع برسول الله صلى الله عليه وآله، وبأهل بيته الكرام عليهم السلام. ورحم الله سليمان بن قبة رضي الله عنه الذي قال حيث مرَّ ببيوت الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام فرآها خالية:

مـررت عـلىٰ أبـيات آل مـحمد فـلـم أرَهـا أمـثالها يـوم حـلّتِ

فـلا يـبعدِ الله الديـار وأهـلها وإن أصبحت منهم برغمي تخلّتِ

وإن قـتيل الطـفّ مـن آل هـاشم أذّل رقـاب المسـلمين فـذلّتِ[1]

وهذا هو الذي حدا السيدة العقيلة زينب عليها السلام إلى أن تجول بتلك الديار الخالية، فترى محاريب إخوتها وهي خاوية ليس فيها من أحد، وتطرق البيوت النبوية فلم تجد فيها غير الأرامل واليتامى، فتختنق بعبرتها:

فكـم دعت زيـنب والدمـع يـنهملُ هذي الطفوف ومنها في الحشا شـعلُ

مـن نـاشد لي أحـباب بـها نـزلوا (بالأمس كانوا معي واليوم قد رحـلوا

وخلفوا في سويدِ القلب نيرانا)

هُـمُ الأمـان لدهـر راعـه فـزعُ والواصـلون إذا مـا أهـله قـطعوا

هـل لي بـرجـعتهم لمـا مـضوا طـمعُ (نـذر عـلي لئـن عـادوا وإن رجـعوا

لأزرعن طريق الطف ريحانا)[2]

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٢٤٤، ٢٩٠، ٢٩٣، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٦، أُسد الغـابة ٢: ٢٢، الإصابة ٧: ١٢٦.

(٢) البكاء في فجائع كربلاء (حسين بن علي الفرطوسي الحويزي): ٤٠.

صخر وزوجته

يروى أن صخر أخا الخنساء، قد طعنه في إحدى المعارك ربيعة بن ثور الأسدي، فأدخل بعض حلقات الدرع في جنبه، فامتدّ به المرض مدّة حول، وكانت أُمّه وزوجته تمرّضانه، ولم تكن زوجته بالتي تقدّر المسؤولية، أو أن تتكيف مع الوضع الجديد من أمر مراعاته؛ كونها زوجة. وحدث أن مرّت بها امرأة فسألتها: كيف أصبح صخر؟ قالت: لاهو حي فيرجىٰ ولا هو ميّت فيبكىٰ، وقد مللنا منه. فسمعها صخر الذي أحسّ واستشعر أنها تعاني من تمريضه، فاختنق بعبرته، وأنشد أبياته الشهيرة:

أرىٰ أُم صخر لاتملّ عيادتي	وملّت سُليمىٰ مضجعي ومكاني
وما كنت أخشى أن أكون جنازة	عليك ومن يغترّ بالحدثانِ
لعمري لقد نبّهتِ من كان نائماً	وأسمعتِ من كانت له أُذنانِ
وأي امرئ ساوى بأُمٍّ حليلةً	فلا عاش إلّا في شقا وهوانِ
أهمّ بأمر الحزم لا استطيعه	وقد حيل بين العير والنزوانِ
أرى الموت خيراً من حياة كأنها	معرّس يعسوب برأس سنانِ[1]

(١) وفيات الأعيان ٢: ٨٤، الوافي بالوفيات ١٠: ٢٤١، خزانة الأدب ١: ٤١٦.

أسماء الأنصارية

ومما يروى في هذا المضمار أن أسماء بنت يزيد الأنصارية دخلت على النبي الأكرم ﷺ ـ وهو بين أصحابه – بعد أن أخذ البيعة من النساء والرجال، فقالت له: بأبي أنت وأُمي يارسول الله، إني وافدة النساء إليك، واعلم (نفسي لك الفداء) أنه ما من امرأة كائنة في شرق ولا غرب سمعت بمخرجي هذا إلّا وهي على مثل رأيي.

إن الله بعثك بالحقّ إلى الرجال والنساء، فآمنّا بك وبإلهك الذي أرسلك، وإنا معشر النساء محصورات مقسورات، قواعد بيوتكم، ومقضىٰ شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فُضّلتم علينا بالجمعة والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحجّ بعد الحجّ، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله. وإن الرجل منكم إذا خرج حاجّاً أو معتمراً أو مرابطاً حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربّينا لكم أبناءكم، أفما نشارككم في الأجر يا رسول الله؟

فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كلّه، ثم قال: «**هل سمعتم مقالة امرأة قطّ أحسن من مساءلتها في أمر دينها من هذه؟**». فقالوا: يا رسول الله، ما ظننّا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفت ﷺ إليها ثم قال لها: «**انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعّل إحداكن لزوجها**

وطلبها مرضاته واتّباعها موافقته يعدل ذلك كلّه». فأدبرت المرأة وهي تهلّل وتكبّر استبشاراً[١].

نساء على العهد

والتاريخ يحدثنا عن أن هنالك الكثير من النساء المسلمات ممّن خطبن لكنهن رفضن أن يتزوجن بعد زواجهن الأول وبعد أن توفي عنهن أزواجهن، ومن الأمثلة على هؤلاء النسوة نذكر:

الأولى: نائلة بنت الفراقص الكلابية

إننا نعرف أن الخليفة عثمان بن عفان قد نكح نائلة بنت القرافصة، وكانت نصرانية، فلما توفي خطبها معاوية بعده، فقالت: وما يعجبك مني؟ قال: ثناياك وسواد رأسك. فقلعت ثناياها، وحلقت رأسها، وحملت ذلك إليه وأنشأت تقول:

أبى الله إلاّ أن تكوني غريبة ... بيثرب لا تلقين أُماً ولا أبا

فأمسك حينئذٍ عنها[٢].

وهي بهذا الفعل تكون قد بيّنت له أنها لا تزال باقية على حبها لزوجها

(١) الميزان في تفسير القرآن ٤: ٣٥٠، أُسد الغابة ٥: ٣٩٨، الدرّ المنثور ٢: ١٥٣.

(٢) شرح الأزهار ٢: ٢٠٩، تاريخ مدينة دمشق ٧٠: ١٣٩، ١٤٠، التذكرة الحمدونية ١: ٢٩٥، زهر الأكم في الأمثال والحكم ١: ١٦٣، المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ٤٣٩.

الأول وعلى علاقتها به، وهو ما يدل على وفائها وشدة تعلقها به.

الثانية: زوجة هدبة بن خشرم

وهدبة هذا هو هدبة بن خشرم بن كرز القضاعي، وكان بينه وبين زيادة بن زيد خصومة في عهد معاوية، وقد أدّت بهما إلى أن قتل هدبة زيادة، ثم هرب فحبس سعيد بن العاص عم هدبة وأهله، فلما بلغ ذلك هدبة أقبل حتى خلصهم وأمكن من نفسه. ولما أُخذ هدبة ليقتل، التفت إلى امرأته ـ وكانت من أجمل النساء ـ فقال لها:

أقلي علي اللوم يا أم بوزعا ... ولا تعجبي مما أصاب فأوجعا
ولا تنكحي إن فرق الدهر بيننا ... أغمّ القفا والوجه ليس بأنزعا
ضروبا بلحييه على عظم زوره ... إذا القوم هشوا للفعال تقنّعا
وكوني حبيساً أو لأروع ماجد ... إذا ضن أعساس الرجال تبرعا
وحلّي بذي أُكرومة وحميّة ... وصبراً إذا ما الدهر عضّ فأسرعا

فمالت زوجته إلى جزّار، فأخذت شفرته، فجدعت أنفها وشفتيها، وجاءته وهي تدمى، فقالت: أتخاف أن يكون بعدها نكاح؟ فقال هدبة: الآن طاب الموت[1].

(١) المحبر: ٣٩٧ ـ ٣٩٨، الوافي بالوفيات ٢٧: ١٩٦ ـ ١٩٧.

الرباب عليها السلام وآية المقام الكريمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

إذن فالآية الكريمة تحدّد للأولياء ما عليهم، فتفرض عليهم أن يتركوا الزوجة وشأنها فيما لو كانت تتصرف بالمعروف وعن كلّ ما يخدش كرامتها وعفتها ويحط من منزلتها في المجتمع، فبهذا الشرط لا يحق لأحد أبداً أن يتدخل في شؤونها فيعضلها أو يجبرها على الزواج؛ وكل ذلك لأن الإسلام قد راعى تلك الحالة النفسية عند المرأة وهي الحالة التي كانت تربطها بزوجها سيما إذا كان زوجها قد عاش معها أسمى الحياة الزوجية من الماهية الروحية والنفسية ويتعامل معها في أنبل أنماط التعامل وأنواعه، وأسمى أنواع الترابط ما بينهما.

وكمثال على هذا من تاريخنا الإسلامي الرباب عليها السلام زوج الإمام الحسين عليه السلام حيث إننا نلمس هذا الجانب واضحاً ومتجسماً إلى أبعد حدوده في حياتها بعد استشهاد سبط رسول الله صلى الله عليه وآله الإمام أبي الأحرار

(١) البقرة: ٢٣٤.

أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ورباب هذه هي ابنة امرئ القيس الكلبي التي كانت تعد من النساء الكريمات، وقد خطبت مراراً وتكراراً بعد استشهاد سبط رسول الله صلى الله عليه وآله لكنها رفضت أن تتزوج أبداً، وكانت تقول: ما كنت لأتّخذ حمواً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ووالله لا يؤويني ورجلاً بعد الحسين عليه السلام سقف أبداً. بل إنها بقيت جالسة على قبره سنة كاملة تندبه أغشى ندبة، حتى إنها عمدت إلى خبائها ونقضته وهدته، فكانت تجلس تحت حرّ الشمس وتحت برد الشتاء، وتندب الإمام عليه السلام. ومن قولها في رثاء السبط الشهيد الإمام الحسين عليه السلام:

إن الذي كان نوراً يستضاء به ... بكربلاء قتيل غير مدفونِ
سبط النبي جزاك الله صالحة ... عنا وجنبت خسران الموازينِ
قد كنت لي جبلاً صعباً ألوذ به ... وكنت تصحبنا بالرحم والدينِ
من لليتامى ومن للسائلين ومن ... يغني ويأوي إليه كلّ مسكينِ
والله لا أبتغي صهراً بصهركُمُ ... حتى أُغيّب بين الرمل والطينِ(1)

---

(١) أعيان الشيعة ١: ٦٢٢، ٦: ٤٤٩، الغارات ٢: ٨١٦، تاريخ مدينة دمشق ٦٩: ١٢٠، الإصابة ١: ٣٥٥ / ٤٨٧، البداية والنهاية ٨: ٢٢٩، الوافي بالوفيات ١٤: ٥٣.

الحجاج والمؤرخون

وهذا الأمر نلمسه واضحاً عند بعض الكتاب والمؤرخين الذين يصفون الحجاج بأوصاف كبيرة، ويمجدون سياسته وإدارته للبلاد وأفعاله التي فعلها للعباد دون مراعاة لضمير، ودون خوف من الله تبارك وتعالى، ودون أن يكون هنالك عليهم وعلى أقلامهم رقيب. مع أنهم يعرفون غاية المعرفة أن هنالك رقيباً يسجّل عليهم كلّ حركاتهم وسكناتهم، ويثبت في سجلّهم وكتابهم كل ما يلفظونه ويكتبونه ويقولونه. ومن هنا فإن البعض يقول: إن الحجاج كان إدارياً قديراً، وسياسياً جديراً، وإنه كان يتفجّر عبقرية. وهكذا فنحن نلاحظ أنه يمنحه هذه الصفات بدلاً من أن يعبر عنه بأنه ذئب بشري، أو أنه وحش قد ولغت أنيابه في دماء المسلمين وعلمائهم وأخيارهم، بل إن الأمر وصل به إلى صحابة رسول الله ﷺ الذين لم يسلم بعضهم من قسوته ومن وحشيته ومن سيفه ونطعه.

إن هذا التصرف من هؤلاء الكتاب لهو تصرف يشعر الآخرين بأن الدنيا حقاً موبوءة، وأن التاريخ هو تاريخ مزور لا يعطي ذا الحق حقه، ولا يعير أهمية للواقع ولا للحقيقة.

دور المرأة في صنع التأريخ

فمثلما للرجل دور في صنع التأريخ فالمرأة أيضاً أعطاها الإسلام الدور نفسه. وهذا ما نلمسه واضحاً من خلال استعراضنا لتاريخ المرأة ومواقفها الإيمانية التي أعادت صنع التأريخ. ومن هذه الأحداث التي هي أمامنا نذكر:

الأولى: امرأه فرعون

فهذه المرأة المؤمنة الطاهرة قد هزّت مصر في وقتها بعد أن انطلقت في رحاب الله، وانفكّت عن البلاط الفرعوني الذي كان يسمي نفسه البلاط الربوبي آنذاك؛ حيث كان فرعون يقول: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾[1]، وإذا بها تقول ـ إزاء قوله ذلك ـ: ﴿**رَبِّ ٱبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ**﴾[2]. فهذه المرأة عُرّضت لألوان التعذيب؛ حيث كانوا يضعون كل إنسان مسلم لله تعالى، ويخالفهم في العقيدة علىٰ أمشاط حديديّة، ويصبّون عليه زيتاً حاراً، ثم يسلخونه. فعُرّضت آسية لهذا اللون من ألوان العذاب، وإلى ألوان اُخرىٰ منه.

فما كان من موقفها الثابت على الإيمان إلّا أن هزّ مصر في وقتها، وأثّرت في الآخرين حينها، وهو ما انعكس حتىٰ على السّحرة حيث كان من المؤثرات عليهم موقف هذه المرأة في الواقع من فرعون، وشجاعتها

---

(١) النازعات: ٢٤.
(٢) التحريم: ١١.

في مواجهة تعذيبه.

الثانية: العقيلة زينب الكبرى عليها السلام

إذن فالمرأة لعبت دوراً هاماً مثلما الرجل، وهو دور ساهم في صنع التاريخ. وأراني غنياً عن التدليل علىٰ ذلك بعد أن نتوقّف عند قارعة علي ابن أبي طالب زينب بنت أمير الؤمنين (عليه وعليها السلام).. هذه المرأة التي يقول عنها الشاعر:

وتشاطرت هي والحسين بنهضة حكم الحمام عليهما أن يُندبا

هذا بمعترك النصاب وهذه في حيث تشتبك المكارم في السبا

فلولا موقف العقيلة زينب عليها السلام، وأخواتها بعد عاشوراء، لما وصلتنا ثورة الإمام الحسين عليه السلام على النحو الذي وصلتنا عليه الآن.

ثانياً: دورها في أنها مُصلحة أجيال

إن أهم خلية في المجتمع دون شكّ هي الأُسرة، والمسؤول عن الأُسرة بالدرجة الأُولىٰ في جوانبها البنائيّة؛ التربويّة، والترشيدية هو المرأة. ولو رجعنا إلى الفقه المدني لوجدنا أن الفقهاء يفتون بأن المرأة هي الأحقّ والأولىٰ بحضانة الطفل من الرجل. على الرغم من اختلافهم في قضايا أُخرىٰ. لكن من المسلّم أن الأُمّ أولىٰ بالحضانة، وهذا بحد ذاته يوضح لنا أن المسؤوليّة البنائيّة والتوجيهية للمرأة في البيت مسؤولية مهمة في نظر المشرّع الإسلامي الأقدس.

امرأة تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله عن أجر المرأة وقد حُرِمت الجهاد

ولهذا فإن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عادَلَ ذلك بالجهاد في سبيل الله، في

قصة المرأة التي دخلت عليه ﷺ، لتسأله عن ذهاب الرجال بالأجر كلّه، يجاهدون ولا تجاهد النساء، حيث قالت له: بأبي أنت وأُمي يارسول الله، إني وافدة النساء إليك، واعلم (نفسي لك الفداء) أنه ما من امرأة كائنة في شرق ولا غرب سمعت بمخرجي هذا إلّا وهي على مثل رأيي.

إن الله بعثك بالحقّ إلى الرجال والنساء، فآمنّا بك وبإلهك الذي أرسلك، وإنا معشر النساء محصورات مقسورات، قواعد بيوتكم، ومقضىٰ شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فُضّلتم علينا بالجمعة والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحجّ بعد الحجّ، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله. وإن الرجل منكم إذا خرج حاجّاً أو معتمراً أو مرابطاً حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربّينا لكم أبناءكم، أفما نشارككم في الأجر يا رسول الله؟

فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كلّه، ثم قال: «**هل سمعتم مقالة امرأة قطّ أحسن من مساءلتها في أمر دينها من هذه؟**». فقالوا: يا رسول الله، ما ظننّا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفت ﷺ إليها ثم قال لها: «**انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعّل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتّباعها موافقته يعدل ذلك كلّه**». فأدبرت المرأة وهي تهلّل وتكبّر استبشاراً[1].

وبهذا فقد اعتبر رسولنا الأكرم ﷺ أن دورها في البيت هو دور

(١) الميزان في تفسير القرآن ٤: ٣٥٠، أُسد الغابة ٥: ٣٩٨، الدرّ المنثور ٢: ١٥٣.

جهادي، وهو كذلك واقعاً ؛ لأن بناء الأُسرة، بناء مهم، ومن هنا جاء حرص الإسلام على أن تكون الزوجة عفيفة ؛ لأن علاقة الطفل بأُمّه علاقة متينة جدّاً، وكثيراً ما لا يسيطر الأب بشدّته وقسوته علىٰ طفله مثلما تسيطر الأُم عليه بعاطفتها وحنانها. ومن هنا فإن المرأة إذا كانت غير عفيفة ـ والعياذ بالله ـ فإن البلاء سوف يكون عظيماً على هذه الأُسرة، وإن المصير الذي ينتظرها هو مصير مخيف ومهول. وهذا ما يؤكّده الإمام الصادق عليه السلام بقوله : « **طوبىٰ لمن كانت أُمّه عفيفة** »[1].

وهكذا فالإسلام اعتبر المرأة مُصلحة جيل، ومُربية أُمة، وهذا هو الدور الأساسي للمرأة.

ثالثاً: دورها في مشاركة العظماء

إننا نلاحظ أن كثيراً من العظماء كان لنسائهم دور هام وفاعل في حياتهم وفي تنفيذ متعلّقاتهم. فمثل هذه المرأة تتولىٰ عادة دور الرجل في الحياة العامة ؛ الاجتماعية، والمالية، والتربوية بحيث إن الرجل يتفرّغ تماماً لمواصلة مسيرته ودربه لبناء صرح مسؤوليته الكبرىٰ التي أناطها بنفسه. إن من المؤكّد أن بعض العظماء قد خدمتهم نساؤهم، حتى وصلوا إلى ما هم عليه، وعرفهم العالم أنهم عظماء.

صحيح أن الصانع الحق والحقيقي هو الله عزَّ وجلَّ، لكنه جلّ شأنه جعل ذلك مرتبطاً بالسبب المادّي. وهذا التاريخ أمامنا يشهد بصحة ما

---

(١) علل الشرائع ٢: ٥٦٤ / ١، بحار الأنوار ٥: ٢٨٥ / ٤، عنه.

نذهب إليه.

الرابعة: خديجة الكبرى ومواقفها المشرّفة

فالتاريخ يسطّر لنا بأحرف من نور أن السيّدة خديجة الكبرىٰ عليها السلام قد اضطلعت بدور كبير جعلت من خلاله كل همّها أن تقف خلف الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وأن تكون عضده في دعوته وفي حربه الفكرية ضدّ أهل الشرك والكفر والنفاق. وقد تمثّل هذا الدفع والإسناد الماديّ والمعنوي منها له صلى الله عليه وآله بالأُمور التالية:

١ ـ تسلية النبي صلى الله عليه وآله، ومسح الألم عنه نفسه وجسمه.

٢ ـ لقد ساهمت عليها السلام مساهمة كبيرة وفاعلة في تمكين نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله اقتصاديّاً؛ كي يستطيع أن ينشر الإسلام، وأن يزيح بعض العقبات الاجتماعيّة من طريقه؛ لأنها تنتمي إلىٰ قبيلة مهمّة، وعريقة وممجّدة عند القوم في المجتمع المكّي.

رابعاً دورها في التعاقب مع الرجل على بعض أدواره

ومن جهة أُخرى فإن المرأة ربما تتمكن من أن تكون بديلاً عن الرجل في بعض المواقف. إن بعض المداخل لا يتسنّىٰ للرجل أن يدخلها في حين أن المرأة تتمكن من ذلك، فتبدع هي دونه في إنجاز العمل الموكل إليها.

الخامسة: البتول عليها السلام ودورها في الحفاظ على وحدة المسلمين

ولنضرب لذلك مثلاً هو موقف الزهراء عليها السلام. ذلك أن الإمام علياً عليه السلام لو كان هو من وقف موقف الزهراء عليها السلام في الخطبة الكبرىٰ، لكان الموقف قد

انفجر عسكريّاً وسياسياً آنذاك، وهذا ليس في مصلحة الإسلام ولا يخدم هدفه إطلاقاً. فالإمام علي عليه السلام في سبيل وحدة المسلمين أغضىٰ عن حقّه في الأمر. ولو كان عليه السلام قد تصدّىٰ بنفسه الشريفة لتلك الخطبة لتفجّر الموقف وربما أدّى إلى ما لا تحمد عقباه. لكن وقوف الزهراء عليها السلام كامرأة، وكابنة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بما تملك من عواطف، فإن الموقف لن يثار مثلما يُثار عند وقوف الإمام علي عليه السلام.

ولهذا فقد خرجت الزهراء عليها السلام ومعها لمّة من نسائها وحفدتها، وخطبت في القوم تلك الخطبة المعروفة التي تعتبر من الوثائق التاريخية المهمّة في مسيرة الإسلام، وفي تاريخ الفكر الإسلامي.

وهكذا فإننا نصل إلى نتيجة هي أن المرأة شريكة للرجل، وبديلة له في بعض المحاور الحياتية الهامّة.

هذا إلى غير ذلك من الامتيازات التي منحها الإسلام إياها؛ سواء كانت امتيازات إيجابية (ممنوحة)، أو امتيازات سلبية (ممنوعة)؛ تساوقاً مع حاجاتها وتركيبتها الجسدية والنفسية، ومع كيانها الأُنثوي. وهي امتيازات لا تكاد تعدّ أو تحصى.

علّة الجمع بين المرأة والرجل

وانطلاقاً من كون المرأة إنساناً مكلّفاً، كامل الأهليّة، تمارس الأدوار جنباً إلىٰ جنب الرجل، فقد جمع القرآن العظيم بينها وبين الرجل في قوله في آية المقام الكريمة: ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ** ﴾. وعليه فلنلاحظ الجمع بينهما، ولنبحث عن أسبابه، مع أن بإمكانه أن يقول: ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ** ﴾،

ويشمل به المسلمات، كما هي القاعدة في الخطابات العربية، وهي قاعدة الاشتراك التي يُنصّ في علم أُصول الفقه عليها بأن المراد منها أنه إذا ورد حكم في الرجل فإنه يشمل المرأة كذلك، وإذا ورد حكم في المرأة فـإنه يشمل الرجل كذلك؛ تبعاً لاشتراكهما في الأحكام إلّا إذا دلَّ الدليل علىٰ أنه مخصوص بـالرجـل أو مـخصوص بـالمرأة كـما هـو مـعروف مـن اختصاص كل واحد منهما بأُمور لا تجري على الثاني ولا تجوز عليه.

ومثال اشتراكهما ما يرد دائماً في التعبير القرآني من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[1]، فهو شامل للرجل والمرأة دون حاجة إلى توجيه الخطاب للمرأة بالقول: «يا أيّتها اللاتي آمنّ»؛ فالقول الأول شامل لهما كـليهما علىٰ كل حال.

غير أن القرآن الكريم هنا خصَّ المـرأة كـذلك بـالذكر، لتأكـيد هـذه المقولة، فقال: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾، فهو يريد أن يبيّن أن هذه التسوية، في نظر المشرّع، ليست بين مسلم ومسلم فقط، أو بين مؤمن ومؤمن فقط، وإنّما تشمل المسلمات كافّة.

والإيمان درجة أرقىٰ من الإسلام؛ لأن الإسلام إقرار بـاللسان فـقط، وهو الذي يعصم الدم، والعِرض، والمال والمقدّسات، أما الإيـمان، فـهو درجة أرقىٰ منه؛ فهو عمل بالجوارح، مضافاً إلىٰ كونه إقـراراً بـاللسان، واعتقاداً بالجنان، وهو القلب. ولذا فقد عقّبه جلّ شأنه بقوله: ﴿**وَالْمُؤْمِنِينَ**

(١) الأنفال: ١٥، وغيرها كثير.

﴿وَالمُؤْمِنَاتِ﴾.

بيان مفردات الآية الكريمة

تقول آية المقام الكريمة: ﴿وَالقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ وَالمُتَصَدِّقِينَ وَالمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾.

والمراد من ﴿القَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ﴾: الطائعين والطائعات.

الصدق والسلوك البشري

أما ﴿الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ فينبغي الوقوف عندها قليلاً لما لهذه الصفة من أهمية كبرى عند المشرّع الإسلامي الأقدس. إن الصدق من المفاهيم الإسلاميّة الثريّة العطاء واقعاً، والصدق بالمعنىٰ الأوسع: هو الواقعيّة المنسجمة مع الشرع في مختلف أنماط السلوك، وهذا هو ما يمكن أن نعبّر عنه بأنه صدق، قال تعالى: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾[1]، أي أدخلني في الواقعيّة المنسجمة مع الشرع.

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾، الصبر هو فضيلة حبس العبد نفسه علىٰ طاعة الله عزّ وجلّ، وعدم معصيته عند ابتلائه.

﴿وَالخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ﴾ الذين يسلّمون لله تبارك وتعالىٰ ويخشعون، ولا يجزعون.

---

(١) الإسراء: ٨٠.

﴿وَالمُتَصَدِّقِينَ وَالمُتَصَدِّقَاتِ﴾ فيه إشارة إلى عملية الإنفاق في سبيل الله تعالى.

وقفة إجمالية مع الآية الكريمة

أن مقصود الآية الكريمة من هذا التجانس والتقابل في الطرح هو تعزيز هذا المفهوم الذي طرحناه، وهذه الحقيقة التي أشرنا إليها.. حقيقة أن المرأة في الإسلام لا تقلّ شأناً عن الرجل؛ فهي تقف جنباً إلىٰ جنب معه، سواء في المسؤوليّة الملقاة على عاتقيهما، كما في الآية السابقة ﴿المُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، أو في العطاء الربّاني: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾[1].

إشكال حول قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾

وإذا سأل سائل ما معترضاً على قوله تعالى في آية مريم وخدمتها المعبد: ﴿لَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾[2] حيث إنها تضع فرقاً بين الرجل والمرأة بأُسلوب النفي هذا.

فسوف نقول: إن هذه الآية لا تريد أن تبيّن امتياز إنسانيّة الرجل عن إنسانيّة المرأة؛ لأن الألف واللام للعهد لا للجنس[3]، حيث أن أُمّ مريم

(١) آل عمران: ١٩٥. (٢) آل عمران: ٣٦.

(٣) أي الألف واللام في كلمتي (الذكر) (الأُنثى)، بمعنى أن هذه الأُنثى التي رزقتني بها بعينها ليست كالذكر الذي كنت آمل أن ترزقني به بعينه، لا أن مطلق الأُنثى هي دون الذكر. والقول بهذا تحميلٌ للآية الكريمة فوق معناها.

كانت تتمنىٰ رجلاً توقفه للجهاد في سبيل الله أو لخدمة المعبد، لكن لمّا جاءتها بنت قالت له: إلهي، الأُنثىٰ هذه التي أمامي وقد وضعتها توّاً ليست كالذكر الذي كنت أرجوه في الخدمة والجهاد وما شاكل. أي أن هذا الشيء الذي كنت أتمنّاه لم يحصل.

وهنا نعرف أنه ليس المراد: تفضيل الرجل على المرأة، بل المراد: أن بعض الأعمال لا تقوم بها المرأة، لا لعدم قدرة منها عليها أو لعدم كفاءتها، وإنما للتشريع الإلهي الذي لم يكلّفها بها، وكلّف الرجال فقط بها. وبهذا فهي لم تقصد أن تبيّن أن إنسانية الذكر متميزة عن إنسانية الأُنثىٰ، وإلّا لعكست وقالت: «وليست الأُنثىٰ كالذكر».

وعلى أية حال فمن حيث المبدأ هناك تسوية بين الرجل والمرأة من حيث الإنسانيّة، ومن حيث التشريع، ومن حيث الحقوق، ومن حيث العطاء الربّاني، وما إلى هنالك من أوجه تشابه يمكن أن تجمع بينهما في الخِلقة والتكليف.

إذن فالمرأة لها أدوار في المجتمع كبيرة، ولو أردنا حصرها علىٰ مستوىٰ الأرقام، فإننا سنجد هذه الأدوار موزّعة بشكل منتظم على حيثيات الحياة العملية والروحية. ومن هذه الأدوار:

١ ـ الدور التبليغي والإعلامي، كما هو دور سيّدتنا العقيلة زينب الكبرى عليها السلام في إبراز الوجه الحقيقي الناصع للثورة الحسينية المباركة شأنها في هذا شأن الرجل متمثّلاً بالإمام السجّاد عليه السلام.

٢ ـ دورها الكبير والبارز في حثّ الرجال عند اندلاع الحروب؛ لأجل

دفهم لأداء واجبهم الجهادي في سبيل الله، وامتثالاً لأمره في أداء هـذا الواجب المقدّس.

٣ ـ دورها في إيواء الجرحى ومعالجتهم وتطبيبهم.

كما أن لها أدواراً جزئيّة أُخرىٰ يمكن أن تستنبطها من الأُصول العامّة للشرع الشريف.

إذن فالشارع قد أعطىٰ المرأة أدواراً كما أعـطىٰ الرجـل، وإن كـانت بعض الأدوار في بعض الحالات الاستثنائية أدواراً خاصّة بالرجل فقط، أو بالمرأة فقط؛ وهذا محدّد تبعاً لطبيعة الدور نفسه، ولطـبيعة المكـلّف نفسه، وهو هنا الرجل والمرأة.

فيما مُيّز به الرجل عن المرأة

إننا نعلم يقيناً أن الشارع الأقدس قد وقف موقفاً متوازناً في منع بعض الأعمال والممارسات علىٰ المرأة، أو قل: ميّز الرجل ببعض الأُمور عنها، ولعل هذا التعبير أدقّ أوضح. ومن هذه الأُمور نذكر:

الأول: الشهادة

فالمعروف مثلاً أن الشارع قد مـيّز الرجـل عـن المـرأة فـيما يـتعلق بالشهادة في الحقوق بأن جعل شهادة الرجل تعادل شهادة امرأتين. ولبيان موقف الإسلام من شهادة المرأة لابدّ من إجمال حـالات الشـهادة التـي يمكن أن تدلي بها المرأة، وهي على ثلاثة أنحاء باعتبار أنه ليس دائماً ومطلقاً أن المرأة تقبل شهادتها، وأنها شهادة امرأتين إزاء شـهادة رجـل واحد، وهذه الحالات هي:

أولاً: الحالات التي تقبل فيها شهادة المرأه منفردة

ففي بعض الحالات الجزئية تقبل شهادة المرأه منفردة، أي أن المشرّع الإسلامي لم يفرض احتياج شهادتها فيها إلىٰ شهادة رجل. وذلك فيما لا يصلح أن يطّلع عليه الرجال، فتقبل هنا شهادة المرأة دون ضم شهادة رجل، كالفحص عن حال الفتاة لمعرفة ما إذا كانت عذراء أم لا، وعن النفاس والرضاع، وعن العيوب الباطنيّة للنساء، والتي يريد العروس أن يتأكّد من انعدامها في عروسه. وفي بعض الأحيان تقبل شهادتها علىٰ نحو جزئي، كما لو شهدت امرأة أن فلاناً أوصىٰ لفلان بمبلغ من المال، ولا شاهد غيرها، فالفقهاء يقولون في المقام: إن شهادتها تقبل هنا بحسابها.

ثانياً: الحالات التي تقبل فيها شهادة المرأة مع شهادة الرجل

وهي فيما يخصّ الغالب من الأحوال.

ثالثاً: الحالات التي لا تقبل لها فيها شهادة أبداً

أما فيبعض الحالات فلا تقبل شهادة المرأة إطلاقاً، ومثاله شهادتها في القصاص؛ تحفّظاً واحتياطاً؛ لأن هذه القضايا خطرة تتعلّق بدماء الناس، كالقصاص، أو ترتبط بعبادة الأُمّة كرؤية الهلال.

وهذا الأمر في الواقع ناظر إلىٰ طبيعة التركيبة الفسيولوجية بل والنفسية التي بُنيت عليها المرأة. وهذا الأمر ثابت علمياً حيث يوصل المختصّون الفروق الموجودة فسلجياً ونفسياً بينها وبين الرجل إلى ما هو أكثر من

أربعين فرقاً في ذلك.

وقد اطّلعت على تقرير حول موضوعنا هذا لبعض المختصّين أثبت فيه أنه قد لوحظ بشكل عام أن كلّ ما فيالمرأة من أجهزة حساسة (أي أجهزة التفكير والغدد التي تتحكّم في الهورمونات المسيّرة للجسد وما إليها) هي أصغر منها عند الرجل، إلّا في «الهايبو ثالاماس» وهي غدّة تسيطر علىٰ عمل عدد من الغدد(١).

الثاني: مسألة نقصان العقل

ومن الفروقات التي وضعت في الباب مسألة نقصان عقلها عن عقل الرجل، وهو فرق يجعل المرأة مهيّأة لأن تكون في وضع نفسي وعاطفي، غريب ولطيف، يهيئها إلىٰ حمل أدوار البيت في الدرجة الأُولىٰ. وهذه هي سنّة الله تعالىٰ في الوجود، وما تتطلّبه أسباب بناء الحياة الاجتماعيّة، فهي التي تجعل المرأة مهيأة لهذا الدور؛ بما أنه تغليب لجانب على حساب جانب وفق الدور الذي سوف تضطلع به.

وعليه فليس معنىٰ هذا أنها ناقصة عقل في أصل المنشأ والخلقة، وإلّا فإنها لو كانت ناقصة عقل كذلك لما كان تكليفها مساوياً لتكليف الرجل

---

(١) إن وظيفة غدة الهايبو ثالاماس أنها تقوم بضبط عمل الغدة النخامية من خلال إفرازها لهرمون «ACTH». والغدة النخامية هي التي تقوم بضبط عمل معظم الغدد الصم من خلال الهرمونات التي تطرحها في الدم، حيث تقوم بضبط عمل الغدة الدرقية من خلال إفراز الهرمون المنشط للدرقية «Thyroid Stimulating Hormone» والذي يعبّر عنه اختصاراً بـ«TSH».

ومساوقاً له. ونحن نعلم من خلال استكناه كتب الفقه عند المسلمين عامّة أن المرأة مكلّفة تماماً كما الرجل. فلو كان عندها نقص في العقل لما كان تكليفها في الشرعيات كاملاً.

إن تعبير نقصان العقل هو تعبير إخراجي في الواقع، والمقصود منه أن المرأة نتيجة الزخم العاطفي الكبير الواقع عليها فـإنه سـوف يـؤدي إلى التأثير سلباً علىٰ الوظيفة العقليّة. وهذا التأثير السلبي هو الذي يعبّر عنه بنقصان العقل، فالمقصود بالتعبير هو هذا. والدليل علىٰ ذلك ما بيّناه من كونها تامّة التكليف كالرجل، ولو أنها كانت ناقصة العقل لكانت نـاقصة التكليف.

نعم، نحن لا ننكر أن هناك فروقاً لكنها تبقى فروقاً جزئيّة، كـإعفاء الشارع لها عن الصوم والصلاة في أيام دورتها الشهريّة، ومع ذلك فـهي تقضي صومها بعد طهرها دون صلاتها، لاستلزام ذلك العسر عـليها. إذن فهذا الفرق موجود، لكن من حيث المبدأ فالعقل عندها هو عـينه عـقل التكليف عند الرجل.

فلهذا التأثير علىٰ الوظيفة العقليّة سلباً عمد الشـارع إلى أن يـتحفظ على الحقوق البشرية، وجعل شهادة المرأة نصف شهادة الرجل.

فلهذا التأثير علىٰ الوظيفة العقليّة سلباً عمد الشـارع إلى أن يـتحفظ على الحقوق البشرية، وجعل شهادة المرأة نصف شهادة الرجـل، كـما رأينا في مسألة الشهادة مما مرّ بنا.

الثالث: الميراث

ومن الأُمور التي يمتاز بها الرجل هنا مسألة الميراث التي قرّرتها هذه الآية الكريمة، حيث تقول: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾[1]. وهذه المسألة يمكن الإجابة عنها بأمرين:

أولاً: أنه تشريع لوحظ فيه جانب فلسفي حول الأموال

إن هذه الجنبة خاضعة لفلسفة عالية في التشريع، وهي تمثّل نظريّة أو قانوناً ناظراً إلىٰ تخطيط اقتصادي دقيق بالنسبة إلىٰ المرأة والرجل. إن المعروف عند أغلب الشعوب سيما الشعوب التي نزل فيها القرآن الكريم أن الرجل عليه من الأعباء الماليّة ما ليس علىٰ المرأة، فهو المسؤول عن الزاد، والنفقة، وقضاء مافات الأبوين، ونفقة الجهاد، وهكذا غيرها من النفقات العديدة علىٰ الرجل. فمن الطبيعي إذن أن يقدّم الشارع المقدّس الرجل من أجل تحقيق الموازنة المالية داخل المجتمع، وهكذا شرّع هذا القانون.

ثانياً: أنه ليس كذلك على إطلاقه

لكن هذا التشريع الإسلامي ليس دائماً ومطلقاً، أي أنه يطبّق في حالات معيّنة، يتساوى الرجل والمرأة في الميراث، مثل الأُم والأب، في بعض الحالات يكون لكلّ منها السدس، وفي بعض الحالات كما لو مات زوج عن أب وأُمّ وزوج، فالزوج له النصف، والأُمّ لها الثلث، والباقي

(١) النساء: ١١.

للأب. إذن فهذا الحكم الشرعي المالي لا يسري مطلقاً، وإنما يسري في بعض الحالات.

الرابع: الحجاب

إن ما هو معروف مألوف أ الشارع المقدّس قد أعفىٰ الرجل من الحجاب في الوقت الذي لم يعفِ المرأة منه. إن الله تبارك وتعالى قد فرض الحجاب على المرأة؛ نظراً إلىٰ مصالح اجتماعيّة، وخلقيّة. وبالتأكيد ما من مخلوق إلّا ويدرك بالوجدان المفاسد الاجتماعية المترتّبة على عدم ارتداء الحجاب. واعتقد أن المطالبة ببيان مفاسد السفور وأضراره هو كالمطالبة ببيان مفاسد القنبلة الذرّيّة وأضرارها، وإذ لا أحد يجهل مضارّ القنبلة الذرّيّة أو الحرب مثلاً، فكذلك ينبغي أن تكون الحال أنه لا أحد يجهل مضارّ السفور وعدم الاحتشام. إن هذا مما يدرك بالوجدان.

وقد وقف القرآن الكريم أمام التبرّج والسفور وإظهار الزينة بشدّة إلّا ما شرعه الله تعالىٰ: ﴿**وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾، ومن ذلك يذكرون الوجه والكفّين والقدمين. غير أن بعضهم يشكل حتى في هذه الثلاثة إذا كانت تثير الريبة والرغبة، أو تقود إلى الفسق وتؤدّي إليه. ثم قالت الآية الكريمة بعدُ: ﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ**﴾. والمراد من الجيوب: منطقة النحر والصدر. ثم يتسلسل هذا النصّ الشريف حتى يصل إلى قوله تعالى: ﴿**وَلا يَضْرِبْنَ**

﴿بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾(١)، ذلك أن البعض من النساء أحياناً يضربن بأرجلهن على الأرض في حركة معيّنة حتى يسمع الحاضرون صوت الخلخال.

أما الفتيات المؤمنات فيعطيهن القرآن هذا التوصيف اللطيف: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾(٢)، والمراد من ﴿أَخْدَانٍ﴾: اصدقاء. فمفهوم الآية الكريمة أن على هذه الفتاة أن تكون شريفة عفيفة لاتسافح (أي لا ترتكب الحرام)، ولا تتّخذ أصدقاء؛ فتدخل في علاقات مشبوهة أو غير مشروعة. وهذا حرص بالغ يريد الإسلام من خلاله أن يرتقي بالفتيات إلى مصافّ الحور العين اللائـي وصفهن بقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾(٣)، وغيرها من التعبيرات الكثيرة، التي لا أُريد أن أُطيل فيها؛ لضيق المقام عنها.

الخامس: قضية تعدد الزوجات

وهذه الخاصّية قد أقرها الإسلام للرجل دون المرأة. وعن هذا التشريع يقول الشارع الأقدس: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾(٤). والعدل هنا: العدل بالقسمة أو النفقة، أي في الأُطر القانونيّة، وليس المقصود به: العدل القلبي؛ إذ إن هذا مما لا يمكن للإنسان إحرازه بحال. وهذا ما شهد به

(١) النور: ٣١. (٢) النساء: ٢٥.
(٣) الرحمن: ٧٠ ـ ٧٤. (٤) النساء: ٣.

القرآن الكريم حيث يقول: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾(١). والعدل القلبي ـ كما يقول الفقهاء ـ مما لا يخضع للتكليف، أي أنه غير واجب؛ لأنه ليس أمراً اختيارياً.

فالمراد من العدل هنا: الإطار القانوني أو الشرعي، فإذا استطاع الرجل أن يعدل بين نساءه فبها، وله حينئذٍ أن يعدّد الزوجات بعد أن أجاز له الشرع ذلك.

أما لماذا لا يجوز للمرأة، أن تعدّد الأزواج، فلأن ذلك يؤدي إلى مفاسد أخلاقية ونسبية بحيث إن طهارة المجتمع سوف تفقد حينها، وسوف يتفكّك هذا المجتمع نتيجة ذلك الاختلاط؛ حيث إن بهذا التعدّد سوف تختلط المياه ويضيع نسب الطفل. فالشارع إذن نظر أولاً إلىٰ حفظ المياه عن الاختلاط، وثانياً إلىٰ كفّ الفساد. في حين أنه حين أجاز تعدد الزوجات للرجل فإنه نظر إلىٰ مصلحة اجتماعيّة، وذلك كي يجنب الرجل الوقوع في الخطيئة والفساد، فهناك البعض من الرجال مَن تقتضي ظروفه الخاصّة أن يتزوّج، وهذا يعني في النتيجة أن هناك موازنة في هذه المسألة.

السادس: الولاية

لقد بيّنتُ فيما مضى من محاضرات أن الولاية هي حقّ الله جلّ شأنه،

---

(١) النساء: ١٢٩.

ولا تعطىٰ لأحد إلّا بدليل، وبيّنت حينها أن الدليل قائم علىٰ أن الولاية العامة كالإمارة مثلاً يمكن إعطاؤها للرجل بما فيها الولاية القضائيّة والولاية التشريعيّة، والولاية الإداريّة والحكوميّة والحسبية؛ سواء في البيت، بالنسبة للأب أو الزوج، ويعبر عنا بالولاية الخاصة، أو الولاية العامّة التي أجازها الشارع المقدّس للرجل دون المرأة لمصالح ذكرتها في حينها.

المرأة والاستقلال بالولاية

لكنْ أودّ أن أُورد هنا تعقيباً أرى أنه لابدَّ من ذكره، وهو أن المفهوم من الأدلّة أن الشيء الذي منعه الشارع بالنسبة إلى المرأة هو الاستقلال بالولاية، بمعنى أن تتولّى مثل تلك الأُمور الآنفة لوحدها. أما أن تدخل في مجلس نيابي مثلاً؛ بحيث إنها تشكّل صوتاً، وصوتها يشكّل فرقاً، فإذا انضمّ إلى فريق ما فاز هذا الفرق، ففي هذه الحالة يكون صوتها حاسماً للقرار. لكن ما هو الحكم الشرعي لصوتها هنا؟ أن مثل هذا النمط من الولاية غير معلوم أنه مشمول بأدلة الحرمة؛ لأن أدلة الحرمة منصرفة عن ذلك، وهذه الأدلّة التي ينص بعضها بالقول: «**لن يفلح قوم ولّوا عليهم امرأة**»[1].

فهذا هو المقدار المتيقّن من موارد الحرمة، أما أن تكون صوتاً من

(١) شرح الأخبار ١: ٣٩٦ / ٣٣٧، صحيح البخاري ٨: ٩٧.

الأصوات المؤثّرة، فهذا غير معلوم دخوله تحت أدلة الحرمة. وإلّا فـإن قوله ﷺ: «**ولّوا عليهم**» يعني الاستقلال بالولاية، وذاك ليس فيه استقلال، ولذا فإن في حرمته تأملاً.

إذن الإسلام، من خلال هـذا الاسـتعراض العـام قـد أنـصف المـرأة، ووضعها في موضعها الطبيعي، وأنصف الرجل ووضعه أيضاً في مـوضعه الطبيعي؛ حتىٰ يكونا معاً وسيلة بنّاءة وفاعلة في بناء المجتمع، كلّاً مـن موقعه ووظيفته وقابلياته واستعداداته.

أمير المؤمنين عليه السلام وعمرو بن ودّ

وكمثال على ذلك نذكر موقف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مـع مـرحب حينما همّ بقتله، وذلك حينما برز إلى قتاله. لقـد كـان مـن عـادة أمـير المؤمنين عليه السلام ألّا يتأخر في الإجهاز على أعداء الله تبارك وتعالى وقتلهم، ولكنه هذه المرة ـ في قتله لمرحب ـ قد تأخر على غير عادته، وبعد ذلك عاد وهو يحمل رأس مرحب، فكبّر رسول الله ﷺ فرحاً بـذلك، وكـبّر المسلمون لتكبيره، وهنا التفت إليه النبي ﷺ وقال له: «**لقـد أبـطأت يـا علي؟**».

فأخبره عليه السلام بأنه حينما قعد عـلى صـدره ليـحتزّ رأسـه، بـصق فـي وجهه عليه السلام، فقام عليه السلام عنه وتركه، فلما سئل عن سبب قيامه وتـركه قـتل الرجل بعد التمكّن منه قال: «**إنه لما بصق في وجهي اغتظت منه، فخفت إن**

قتلته أن يكون للغضب والغيظ نصيب في قتله، وما كنت أُحبّ أن أقتله إلّا خالصاً لوجه الله تعالى»[١].

ذلك أنه عليه السلام يريد لهذا الأمر ألّا يكون انتقاماً شخصياً، بل إنه يريد أن يكون لأجل الله تبارك وتعالى خالصاً، ولأجل ذاته محضاً. ومن هنا فإنه عليه السلام قد انتظر حتى زال ما به من غضب، ثم قتله لوجه الله تعالى.

إذن فالإمام أمير المؤمنين عليه السلام إنما يترجم بهذا أخلاق السماء، وأخلاق الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ويطبق تلك الأخلاقيات والأدبيات بحذافيرها دون أن يحيد عنها.

النضر بن الحارث

ومن هؤلاء نذكر كمثال على ما ذهبنا إليه النضر بن الحارث الذي يحدثنا التاريخ أنه وقف بوجه الإسلام وقوفاً شديداً لم يقفه أحد مثله إلّا بعض من عتاة قريش كأبي لهب وأبي سفيان ومن شاكلهما في عتوّهما، فالتاريخ يحدثنا عنه أنه كان يشتري الجواري المسبيات اللائي يجاء بهن من دول العالم من مختلف الجنسيات، ثم يأمرهن بمعاشرة المسلمين

(١) تاريخ الطبري ٢: ١٩٤، وانظر: شرح إحقاق الحق ١٨: ١٤٧ ـ ١٤٨، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ ٩: ١٥٤ ـ ١٥٥ / ٤١٧٦، عن الفخري: ٤٤، ولم يذكروا مرحباً، بل إنهم قالوا: إنه عليه السلام صرع رجلاً.

ليصرفهم عن دينهم، وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلّا انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه واسقيه وغنّيه.

وكان يقول لهم: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه، فنزلت هذه الآية الكريمة: **﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾**[1]...[2].

إذن فالنضر بن الحارث كان يمارس هذا الدور مع المسلمين في ذلك الوقت فكان يأمر جواريه بأن يخضبن أكفهن بالحناء ويتغنين بهجاء النبي ﷺ وشتمه، وكان من أمره أنه خرج لقتال النبي ﷺ في سرية من السرايا فجاؤوا به أسيراً إلى النبي ﷺ فقدموه بين يديه ليضرب عنقه فقال له: يامحمد، استبقني للصبية والعائلة. فقال له ﷺ: «**إن استبقيتك لهم، فهل ترجع عمّا أنت فيه؟**». فقال: نعم.

فعفا عنه رسولنا الأكرم ﷺ وأطلق سراحه، لكنه لم يحفظ العهد، بل عاد بأشدّ ممّا كان، وراح يمارس طريقته تلك بشكل أكبر، ثم جيء به أسيراً مرّة ثانية في معركة بدر، فأدخلوه على رسول الله ﷺ، فقال له: **ألم أعفُ عنك؟**». فقال: استبقني للصبية. فرفض نبيّنا الأكرم ﷺ ذلك، ثم أمر به فقتل.

---

(١) لقمان: ٦.　　(٢) تفسير الآلوسي ٢١: ٦٧.

وقد كتبت أُخته قتيلة أو ابنته إلى النبي ﷺ قبل إسلامها أبياتاً من الشعر رائعةً حرّكت مشاعر النبي الأكرم ﷺ، وهي هذه الأبيات:

يا راكباً إن الأثيل مظنّة من صبح خامسة وأنت موفّقُ
أبلغ به ميتاً فإن تحيّة ما إن تزال بها النجائب تخفقُ
مني إليه وعبرة مسفوحة جادت بواكفها وأُخرى تخنقُ
هل يسمعن النضر إن ناديته بل كيف تسمع ميتاً لا ينطقُ
ظلّت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقّقُ
صبراً يقاد إلى المنيّة متعباً رسف المقيّد وهو عانٍ موثقُ
أمحمد ولدتك صنو نجيبة من قومها والفحل فحل معرقُ
ما كان ضرّك لو مننت وربما منّ الفتى وهو المغيظ المحنقُ
النضر أقرب من أسرت قرابة وأحقّهم إن كان عتق يعتقُ

فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك الشعر منها تألّم كثيراً، وبكى ﷺ حتى اخضلّت لحيته الشريفة بالدموع وقال: «**لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه**»[1].

ومن هنا فإن الرسول الأكرم ﷺ حينما فتح مكة أمر بعض أصحابه بأن يقتلوا بعضاً من أهلها حينما يرونهم، وكان عددهم أربعة؛ لأن هؤلاء كانوا عقبة في طريق الإسلام، وحجر عثرة في سبيل انتشاره ونموه.

(١) الاستيعاب ٤: ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ / ٤٠٧٠، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٧١، أحكام القرآن ٤: ١٣٢، الجامع لأحكام القرآن ٨: ٥٩، الثقات ١: ١٤٤.

يروي المحدثون عن السدي أنه لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله ﷺ الناس إلّا أربعة نفر، قال: «**اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلّقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن أخطل، وقيس بن سبابة، و عبد الله بن أبي سرح**»[1].

إذن فالرسول الأكرم ﷺ لم يقتل سوى هؤلاء الذين لم يتجاوزوا عدّ أصابع اليد، فهل مثل هذا يقال له نبي الذبح، بعد أن عفا عن أُمة بكاملها، وبعد أن صفح عن كل من أساء إليه إلّا من بلغت إساءته حداً لا يـمكن معها العفو عنه، وذلك في تطاوله عـلى الله تـبارك وتـعالى وعـلى نـبيه الشريف ﷺ، وعلى دينه الحنيف؟

بحيرا الراهب

كان عمّه أبو طالب قد عزم ذات مرة على السفر إلى الشام ولم يقرّر أن يأخذ معه نبيّنا الأكرم ﷺ، وكان حينها غلاماً يـافعاً، فـهب له رسـول الله ﷺ، وأخذ بزمام ناقته، ثم قال له: «**يا عم، إلى من تكلني؟ لا أب لي ولا أم لي**». فرق له أبو طالب عليه السلام وقال: والله لأخرجن به معي، ولا يفارقني

(١) شرح الأخبار ٣: ٢١٦ / ١١٤٣ مجملاً، بحار الأنـوار ٩: ١٣٧، ٢٢: ٤٩، ١٠٨: ١٢٠، سنن النسائي ٧: ١٠٥ ـ ١٠٦، المستدرك على الصحيحين ٢: ٥٤، السنن الكبرى (البيهقي) ٨: ٢٠٢، ٢٠٥، ٩: ٢١٢.

ولا أُفارقه أبداً.

فمروا في طريقهم بصومعة لأحد الرهبان يقال له بحيرا، وكان قد رآه وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا وغمامة تظلّه من بين القوم، ثم أقبلوا حتى نزلوا بظل شجرة قريباً منه فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة، وتهصّرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها.

فما إن رأى بحيرا ذلك حتى نزل من صومعته، وقد أمر بطعام فصنع لهم، ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، وأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم، وحركم وعبدكم. فقال له رجل منهم: يا بحيرا، إن لك اليوم لشأناً؛ ما كنت تصنع هذا فيما مضى، وقد كنا نمر بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟ فقال له بحيرا: صدقت قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أُكرمكم وأصنع لكم طعاما تأكلون منه كلكم.

فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم ـ لحداثة سنه ـ في رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرا في القوم لم يرَه، فقال: يا معشر قريش، لا يتخلّف أحد منكم عن طعامي هذا. قالوا له: يا بحيرا، ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام هو أحدث القوم سناً، تخلف في رحالنا. قال: فلا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزّى، إن هذا للؤم بنا، يتخلّف ابن عبد الله

ابن عبد المطلب عن الطعام من بيننا.

ثم قام إليه فاحتضنه، ثم أقبل به حتى أجلسه مع القوم، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى أشياء من جسده قد كـان يـجدها عنده في صفته، حتى إذا فرغ القوم من الطعام وتفرقوا، قام بحيرا فقال له: يا غلام، أسألك باللات والعزى إلّا أخبرتني عما أسألك عـنه. فـقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لا تسألني باللات والعزى شيئاً، فوالله ما أبـغضت بـغضهما شيئاً قط**». فـقال له بـحيرا: فـبالله إلّا مـا أخـبرتني عـما أسألك عـنه. فقال صلى الله عليه وآله: «**سلني عما بدا لك**».

فجعل يسأله عن أشياء من حاله؛ من نومه وهيئته، وأُموره، ورسول الله صلى الله عليه وآله يخبره، فلما فرغ منه أقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ فقال: ابني. فقال له بحيرا ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. قال: فإنه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأُمه حبلى به. قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحـذر عـليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنّه شرّاً؛ فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن[1].

فبيّن له بأن اليهود ليسوا أعداءه فقط، بل هم أعداء دينه أيضاً وأعداء لكل من يتّبعه على هذا الدين عبر قوله له: فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما

(١) تاريخ الطبري ٢: ٣٣، تاريخ مدينة دمشق ٣: ١٠ ـ ١٢، أُسد الغابة ١: ١٥، الكامل في التاريخ ٢: ٣٧ ـ ٣٨، إمتاع الأسماع ٨: ١٨١، سيرة ابن إسحاق ٢: ٥٤ ـ ٥٥، عيون الأثر ١: ٦٢، السيرة الحلبية ١: ١٩٤ ـ ١٩٥.

عرفت ليبغنّه شرّاً. أي علامات النبوّة.

اليهود والمسلمون

وقد أصاب الراهب بحيرا بكلامه هذا وفي إرهاصته تلك، حيث أشار إلى حقيقة هامّة كانت تمثّل قدرنا نحن المسلمين منذ أن بعث الله تبارك وتعالى نبيه الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله؛ حيث إنهم ناصبوه وناصبوا دينه وناصبوا أتباعه العداء منذ أول لحظة أعلن فيها دعوته المباركة. وقد اشتدّ هذا العداء وتبلور، وبلغ أشدّه وشأوه والغاية العظمى فيه حينما وطئ نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله بقدمه الشريفة أرض يثرب، واستقرّ هناك لتأسيس الدولة الإسلامية كما سيأتي.

وهكذا فقد راح اليهود يشكلون خطراً كبيراً على الإسلام، وعلى صاحب الإسلام صلى الله عليه وآله، وصاحب الرسالة الإسلاميّة، بل على المسلمين جميعاً منذ أول لحظة وحتى يومنا الحاضر.

ومن يتفطن إلى ما يصنعه اليهود مع المسلمين، بل حتى مع غيرهم من أبناء الشعوب الأُخرى فإنه سوف يعرف الحقد الكامن في نفوسهم، والذي يضرم قلوبهم ناراً، وهو حقد يترجم ما كان عليه أسلافهم من حقد وكره وضغينة على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وعلى من انتمى إلى رسالته، وعلى من تسمّى باسم دين النبي، وهو دين الإسلام.

وقد عمل أبو طالب عليه السلام بوصية بحيرا، وحاول أن يُبعد ولده الحبيب محمداً عن أعينهم وعن أيديهم، ومع كل ذلك فقد حاولوا اغتياله مرات عدة دون أن تنجح محاولاتهم تلك، بل إنها كلها كانت تبوء بالفشل

والخسران؛ لأن الله تبارك وتعالى كان لهم بالمرصاد، وكان حافظاً وكالئاً لنبيه الكريم الحبيب المصطفى ﷺ من كيدهم وبغيهم وشرّهم وشرّ غيرهم ممّن شايعهم.

معاجز في الطريق إلى المدينة

وامتثل النور الأمر، فأضجع الإمام أمير المؤمنين علياً عليه السلام مكانه؛ حتى يعمّي على قريش خروجه، وأمره أن يقضي ديونه، وأن يردّ ودائع الناس إليهم، وأن يكون وليه في قضاء متعلقاتهم في مكة، ثم بعد ذلك يلحقه بالفواطم إلى يثرب. وفعلاً خرج الرسول الأكرم ﷺ مهاجراً إلى يثرب حيث وصلها بعد ثلاثة أيام كانت مليئة بالمعاجز التي جرت على يديه الشريفتين، ونحن نذكر هنا منها:

أولاً: معجزته ﷺ مع أم معبد

فمن المعاجز التي وقعت له وعلى يده في هجرته الشريفة هذه ما يرويه المؤرخون وكتاب السير والمحدثون عن محرز بن هديد قال: إنه سمع هشاماً أخا معبد يقول: إن النبي ﷺ لما خرج مهاجراً من مكة، هو وجماعة ممّن معه مرّوا على خيمة أُمّه أُمّ معبد، فسألوها لحماً وتمراً ليشتروا منها، فقالت: لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القرى. فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة، فقال ﷺ: «**ما هذه الشاة يا أُم معبد؟**». قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم. فقال ﷺ: «**هل بها من لبن؟**». قالت: هي أجهد من ذلك. فقال ﷺ: «**أتأذنين لي أن أحلبها؟**». قالت: نعم بأبي

أنت وأُمي، إن كان بها لبن فاحلبها.

فدعا رسول الله ﷺ بتلك الشاة العجفاء التي لا لبن فيها، فمسح بيده الكريمة المباركة على ضرعها، وسمى الله تعالى، ودعا لها في شأنها، فتفاجّت عليه ودرت، فدعا بإناء، فحلب فيها شخباً، فسقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب ﷺ آخرهم شرباً، وقال ﷺ: «**ساقي القوم آخرهم شرباً**». فشربوا جميعا علّاً بعد نهل، حتى أراضوا، ثم حلب ثانياً عوداً على بدء، حتى امتلأ الإناء، فغادره عندها، وارتحلوا عنها(١).

وصدر منه ﷺ كذلك الكثير من المعاجز التي صاحبته، وراحت تترى واحدة بعد الأُخرى بين يديه ﷺ، كاخضرار الشجرة اليابسة، وغيرها.

الثانية: نزول وجع الموت به ﷺ (روحي له الفداء)

كما أنه ﷺ قد نزل به وجع أحسّ منه بأنه وجع الموت، فخرج يتوكأ على كتف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والفضل بن السباع حتى وصل إلى بقيع الغرقد، فوقف عند قبور أهل البقيع وقال: «**السلام عليكم يا أهل القبور، السلام عليكم يا أهل البقيع، ليهنِكم ما أصبحتم فيه ممّا أصبح فيه الناس، لقد أقبلت الفتن كأنها قطع الليل المظلم يتبع آخرُها أوّلَها**». ثم استغفر

(١) الثاقب في المناقب: ٨٥ ـ ٨٦ / ٦٨، الأحاديث الطوال: ٨١.

لهم وقرأ لهم شيئاً من القرآن ثم أُرجع ﷺ إلى البيت وهو مثقل[١].

ثم إنه ﷺ لمّا أضجعوه على فراشه قال: «**ادعوا لي حبيبي**». فقالت عائشة: ادعوا له أبا بكر. فرفع ﷺ رأسه ثم وضعه وقال: «**ادعوا لي حبيبي**». فقالت حفصة: ادعوا له عمر. فرفع ﷺ رأسه ثالثة ووضعه، وقال: «**ادعوا لي حبيبي**».

فقالت لهم أُمّ سلمة (رضي الله عنها وأرضاها): لا تؤذوه، إنكم تعلمون من يريد، ادعوا له عليّاً عليه السلام.

فدُعي له علي عليه السلام، فاستدناه إليه فسارّه، تقول أُمّ سلمة: وضع صدره على صدره وراح يسارّه طويلاً إلى أن خرج[٢].

فأقبلت إليه ابنته فاطمة وهي تنادي: «**واغمّاه لغمّك يا أبتاه**». فأدناها النبي إليه وسارّها طويلاً فبكت، ثم سارّها فضحكت، فلما خرجت سألتها بعض نساء النبي: ما سبب ضحكك وبكائك؟ قالت: «**إني إذن لبَذِرة**». أي إن أفشيت سرّ رسول الله ﷺ.

ولما سئلت بعد ذلك قالت: «**نعى إليّ نفسه فبكيت، ثم أخبرني أنني أول أهل بيته لحوقاً به فضحكت؛ لأنني فرحت أن ألحق بأبي**».

حتى إذا ما اشتدت على رسولنا الأكرم ﷺ حالته وعلته نظرت إليه

(١) الإرشاد ١: ١٨١، شرح نهج البلاغة ١٠: ١٨٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٩٣، مناقب أمير المؤمنين (الخوارزمي): ٦٨ / ٤١، جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ١: ١٧٥، ينابيع المودّة ٢: ١٦٣ / ٤٦٢.

ابنته فاطمة وصاحت: «**واكرباه لكربك يا أبتاه**». فقال لها رسول الله ﷺ: «**لا كرب لأبيك بعد اليوم يا فاطمة؛ إن النبي لا يشقّ عليه الجيب، ولا يخمش عليه الوجه، ولا يدعى عليه بالويل، ولكن قولي كما قال أبوك على إبراهيم: تدمع العينان، وقد يوجع القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون**»(١).

عبد الملك بن مروان والعدوانيين

يروي المؤرخون عن عبد الملك بن مروان ـ وكان أديباً، يعنى بالأدب وبمعالجة النصوص الأدبية التي يقع عليها نظره ـ أنه قدم الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير، فدعا الناس إلى أخذ فرائضهم، فأتاه قوم من المسلمين، فقال: ممن القوم؟ قلنا: من جديلة. فقال: جديلة عدوان؟ قلنا: نعم. فتمثل عبد الملك:

عذير الحي من عدوا ... ن كانوا حية الأرضِ
بغى بعضُهُمُ بعضاً ... فلم يرعوا على بعضِ
ومنهم كانت السادا ... ت والموفون بالقرضِ
ومنهم حكم يقضي ... فلا ينقض ما يقضي
ومنهم من يجير النا ... س في السنة والفرضِ

ثم أقبل على رجل كانوا قدموه أمامهم؛ لأنه طويل جسيم وسيم، فقال

(١) تفسير فرات الكوفي: ٥٨٥ ـ ٨٦ / ٧٥٥.

له: أيكم يقول هذا الشعر؟ فقال: لا أدري. فقال أحدهم من خلفه: يقوله ذو الأصبع. فتركه وأقبل على ذاك الجسيم، فقال: وما كان اسم ذو الأصبع؟ فقال: لا أدري. فقال ذلك الرجل الذي هو من خلفه: حرثان. فأقبل على الجسيم الوسيم وتركه، فقال: لم سمّي ذا الأصبع؟ فقال: لا أدري. فقال ذلك الرجل الذي هو من خلفه: نهشته حية في إصبعه. فأقبل عليه وتركه، فقال: من أيكم كان؟ فقال: لا أدري. فقال ذلك الرجل الذي هو من خلفه: من بني ناجٍ الذين يقول فيهم الشاعر:

فأما بنو ناجٍ فلا تذكرنّهم ولا تتبعن عينيك من كان هالكا
إذا قلت معروفاً لتصلح بينهم يقول رهيب لا أُسلّم ذلكا
فأضحى كظهر العودجبّ سنامه تحوم عليه الطير أحدب باركا

فأقبل على الجسيم فقال: كم عطاؤك؟ قال: سبعمئة. ثم أقبل على ذلك الذي كان يجيبه كلّ مرّة، فقال: وأنت كم عطاؤك؟ قال: أربعمئة. فقال: يابن الزعيزعة (خازن ماله)، حطّ عن عطاء هذا ـ وأشار إلى الجسيم ـ ثلاثمئة، وزدها في عطاء هذا، وأشار إلى الرجل الذي أجابه عن أسئلته جميعها.

يقول: فرحت وعطائي سبعمئة، وعطاؤه أربعمئة[1].

إذن فجهل هذا الشخص وإن كان ذا قوام طويل ووجه صبوح جعل من

(١) الأمالي ١: ١٧٩ ـ ١٨٣، شرح نهج البلاغة ١٨: ٩٥، خزانة الأدب ٥: ٢٨٠.

عبد الملك يغضب منه وممن قدمه حتى إنه أمرهم بتنحيته في بعض المرويات، بل إن الرواية كما رأينا تخبرنا بأنه قد حطّ من عطاء الجسيم لصالح ذلك الرجل الذي أجابه، وكان أكثر منه علماً ومعرفة؛ لأن الجسيم كان معدوم الثقافة.

إذن فالقرآن الكريم يريد أن يرسم لنا صورة للجسد الإنساني على أنه كيان موجود، لكنه فارغ لا قيمة له، فليس له حظّ من المعرفة، ولا من كل ما يمكن أن يفتخر به الإنسان أو أن يصبح مورد افتخار له وهذا بخلاف الروح أو النفس التي هي مناط تلك المعرفة ومناط التصور ومناط العلم بالأشياء.

الاعتبار ومردوداته الإيجابية

ثم انتقل عليه السلام في خطبته الشريفة حيث قال: «**وَلأَنْ يَكُونُوا عِبَراً أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً**»، يريد عليه السلام بقوله هذا أن هؤلاء الآباء الذين مضوا والذين تقدم منهم من تقدم فكانت لهم بعض الأمجاد ينبغي أن يتخذهم الأبناء عبرة يعتبرون بها، لا أن يتخذوهم مفخرة يفتخرون بها، فالآباء قد جاؤوا في زمان ما وعاشوا في وقت ما وأخذوا حقهم من الوجود والحياة ثم بعد ذلك ذهبوا.

ومن هنا فإن على الأبناء إذا ما أرادوا أن يكونوا ممن يستثمر كل شيء في الكون وفي الوجود أن يتعظوا بتلك الحياة التي عاشها الآباء، فلا

يكرروا أخطاءهم، ولا يتركوا الشيء الصحيح أو الإيجابي عندهم. وبهذا فإنهم يكونون قد استفادوا من حياة الآباء والأجداد، وارتقوا عنها مرتقىً صحيحاً في سلم الكمال. يروي المؤرخون في هذا المجال أن أعرابياً دخل يوماً على المأمون وكان مجلسه حاشداً، فلمّا نظر المأمون إلى ثيابه وملابسه، وكانت رثة بالية ازدراه، حيث إنه رأى أن الأعرابي إنما وضع نفسه في مكان ليس له أهلاً.

ثم إن المأمون لما التفت إلى أن في المجلس جماعة كبيرة من أهل البادية، صعد المنبر وأراد أن يتبجّح أمامهم بفصاحته وبلاغته، وراح يتكلّم بعربية دقيقة ـ وكان منطيقاً فصيحاً، لكنه كان متكلّفاً لذلك ـ وكان وهو يخطب يعاود حدّ النظر إلى الأعرابي، فلما أنهى خطبته ونزل، قال له: أصلح الله الخليفة، أراك تحدّ النظر إليَّ، أنا الذي أُكلّمك لا عباءتي. فخجل المأمون، ثم قال له: ما تعدّون الفصاحة والبلاغة عندكم؟ قال: الاختصار مع الإفادة. فقال المأمون: فما تعدّون الفهاهة والعي؟ قال: ما كنتَ فيه منذ اليوم يرحمك الله.

فأطرق المأمون، ثم قال له: ابن من أنت؟ قال: أنا ابن نفسي يا أمير المؤمنين، والتي نلت بها هذا المقام منكم[1].

---

(١) البيان والتبيين ١: ٦٩، وهو في مجمع الأمثال ٢: ٢٥ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن.

غير أنّا لم نعثر على قوله: أنا ابن نفسي...منكم، ضمن هذه الرواية، وما في بعض الكتب أن غلاماً تكلم بين يدي عبد الملك بكلام ذهب فيه كل مذهب، فقال له وقد أعجبه: ابن من أنت يا

والمأمون كما تحدثنا كتب التاريخ والأدب إنه وإن كان خليفة عباسياً وربما جائراً إلّا إنه في الوقت نفسه كان عالماً، فقد كان يتميز بصفات العلماء؛ ولذا فإنني سوف أتناول هذه الشخصية إذا شاء الله تبارك وتعالى في يوم من الأيام لبيان فصول الحقيقة الكامنة حولها، ولتوضيح الغامض الذي يكتنفها. وعلى أية حال فإن المأمون بعد أن رأى هذا الأعرابي في مجلسه وكان يعرف أن بعض الأعراب هم أفصح فصحاء البادية حاول المأمون كما رأينا أن يبرز علمه وثقافته المعرفية أمام هذا الأعرابي ومن هنا فإننا نلحظ أن المأمون راح يسأل عن أشياء كما تقول الرواية الآنفة. وهذا الأعرابي حينما سأله المأمون عن الفهاهة نجد أنه لْم يخشَ المأمون بل إنه راح يبين له بأن الفهاهة هي الإطالة من غير سبب يحوج إلى تلك الإطالة، فكان أن اختصرها بقوله: ما كنت فيه منذ اليوم.

أي أنك تستطيع أن تبلغهم مرادك وقصدك بكلام مختصر ثم تنزل بعد ذلك عن المنبر، فليس الأمر أن يقف الخليفة أو الأمير ليسهب في الكلام ويقول ما يريد أن يقوله دون أن يراعي الآخرين، بل إن عليه أن يلتفت

غلام؟ قال: أنا ابن نفسي، يا أمير المؤمنين، والتي نلت بها هذا المقام منكم. وأخذه بعض الشعراء فقال:

كن أبن من شئت واتخذ أدبا ... يغنيك مأثوره عن الحسبِ
إنَّ الفتى من يقول ها أنا ذا ... ليس الفتى من يقول كان أبي

زهر الأكم في الأمثال و الحكم: ٣٦١، العقد الفريد ١، ١٨٣، ٤١٧.

بأنه ينبغي عليه أن يراعي هذه النقطة وهذا الجانب، وأن يبلغ الناس مراده بعبارة كلما كانت أوجز كانت أفضل.

وعلى أية حال فهذا الأعرابي يقول له أنا ابن نفسي، وفعلاً ينبغي على كل أحد منا أن يكون ابن نفسه وابن اللحظة التي هو فيها دون أن يجتر أمجاد الماضي، أو أن يعالج بها وجوده الحاضر ومستقبله دون أن يلتفت إلى ما في ذلك من أخطار، وإلى ما فيه من أغلاط ومضارّ.

آلية الاعتبار

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته: «**لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ**»، أي أن أُولئك الذين ليس لهم من هم ولا هدف في حياتهم إلّا افتخارهم بما كان عليه أسلافهم من آبائهم وأجدادهم، واجترار مآثرهم وأمجادهم التي ربما تكون أمجاداً حقيقية وربما تكون أمجاداً وهمية فإن هذا تصرف غير صحيح منهم كما ذكرنا.

وهؤلاء مثلهم كمثل ذلك الذي أصيب بالعشا فلا يرى طريقه الصحيح في أي اتجاه، ولا إلى أي اتجاه كان، فيسير في درب مظلمة وفي طريق حالك لا يبصر هدفه ولا يرى غايته. فهؤلاء مثلهم كما قال أمير المؤمنين عليه السلام إنما هم في غمرة جهالتهم ينظرون بعين لا ترى بالشكل الصحيح وهي عين العشوة؛ لأنهم لم يعرفوا كيف يمكن لهم أن يستفيدوا من أسلافهم، فهنالك طريقة يمكن لهؤلاء أن يستفيدوا عبرها من أسلافهم،

فإذا ما أحسنوا استخدام ذلك المجد الماضي، وأجادوا توظيف ذلك التراث فإنهم حينئذٍ يكونون قد استفادوا فائدة حقيقية وصحيحة منهم، وبخلافه فإن الوضع سوف يتحول إلى حالة أُخرى غير مقبولة تنتج حالات سلبية كثيرة في مستوى الأخلاق والقيم.

فالطريق الصحيح إذن هو أن يؤخذ من الأسلاف العبرة والسنة التي يمكن أن يستفيد منها الإنسان فلا يضل ولا يبتعد عن الحق أو يجانبه ولا يجافي الحقيقة حينها، عن ابن عباس قال: لما قدم على النبي ﷺ وفد أياد قال لهم: «**ما فعل قس بن ساعدة؟ رحم الله قس بن ساعدة؛ كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل أورق، وهو يتكلّم بكلام عليه حلاوة**».

فقال رجل من القوم: يا رسول الله، سمعته وهو يقول بسوق عكاظ: أيها الناس اسمعوا وعوا واحفظوا: من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آتٍ. ليل داجٍ، وسماء ذات أبراج، وبحار ترجرج، ونجوم تزهر، ومطر ونبات، وآباء وأُمّهات، وذاهب وآت، وضوء وظلام، وبِر وآثام، ولباس ورياش، ومركب ومطعم ومشرب.

إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا بالمقام هناك فأقاموا؟ أم تُركوا فناموا؟ يقسم بالله قس بن ساعدة قسماً برّاً لا إثم فيه: ما لله على الأرض دين أحب إليه من دين قد أظلّكم زمانه، وأدرككم أوانه. طوبى لمن أدرك صاحبه فتابعه، وويل لمن أدركه ففارقه. ثم أنشأ يقول:

فـــــي الذاهـــــبين الأوليـ ـن مـن القـرون لنـا بـصائرْ
لمـــــا رأيت مـــــوارداً للـموت ليس لهـا مـصادرْ
ورأيت قـــــومي نـــــحوها تـمضي الأصـاغر والأكـابرْ
لا يـــــرجـــــع المـاضي إليـ ـك ولا مـن المـاضين غـابرْ
أيـــــقنت أنـــــي لا مـــــحا لة حيث صار القـوم صـائرْ

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يرحم الله قس بن ساعدة، إني لأرجو أن يأتي يوم القيامة اُمة وحده**»[1].

التفاخر السلبي

ثم انتقل عليه السلام في خطبته المباركة هذه إلى قوله: «**وَلَـوِ اسْـتَنْطَقُوا عَـنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضُـلَّالاً، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالاً**»، وهو عليه السلام هنا يحث الناس ويأمرهم أن يـتّعظوا بالآثار والأشياء الباقية من الأقوام السابقة فيأتوا تلك الديـار التـي بـاد أهلها، والربوع التي أتى عليها الدهر، فيفكروا بأنها كانت فـي يـوم مـن الأيام عامرةً بأهلها، وها هم قد ذهبوا وولّوا ولم يتركوا شيئاً سوى هذه الآثار الباقية أو شذرات متناثرة ربما يكون تاريخاً شفافاً وواضحاً، وربما يكون تاريخاً مضبباً ومغلفاً بحالة من حالات عدم الوضوح. وهنا يأتي

(١) الأمالي (المفيد): ٣٤١ ـ ٣٤٤، كنز الفوائد ٢٥٥: الأحاديث الطوال: ٥٨، إمتاع الأسماع ٩: ٦٨ ـ ٦٩.

دور الإنسان عبر إبراز قابلياته في استنطاقه، واستخراج غامضه، وما هو قابع منه خلف ركم الضباب التاريخي. وعليه فإننا إذا ما أردنا الحق وأن نسير على هديه فإننا يجب أن نعتبر بتلك الآثار وأن نعمد إلى ذلك التاريخ وأن نغربله ونستخرج الصحيح منه، ثم نتعظ بما فيه من عظات ونعتبر بما فيه من عبر وسنن حتى نسخرها في بناء حاضرنا والتخطيط لمستقبلنا دون أن نحصر أنفسنا في زاوية من ذلك التاريخ أو في قوقعة من ذلك المجد الماضي الذي يصبح حينها أداة تضر الفرد ولا تنفعه.

إذن فمن ضمن ما يمكن أن يعتبر به الإنسان حينما يرى تلك الديار الخالدة والآثار، الباقية أنه سوف ينقدح في ذهنه كم من الأشخاص الذين عاشوا في هذه البلاد وعمروها ثم بعد ذلك رحلوا عنها، فهذا البيت مثلاً سكنته أجيال بعد أجيال، وتعاقبت عليه أفراد بعد أفراد، وقد أصبح اليوم عبرة للآخرين من أبناء البشر الذين عليهم أن ينظروا إلى حالهم، فيعتبروا بها بأنهم سوف يرحلون عن هذه الدنيا كما رحل غيرهم ممن سبقهم. وبهذا فإن عليهم أن يقدموا لدنياهم، وألّا يتركوها دون أن يعملوا فيها عملاً يرشدهم في الدنيا وينفعهم في الآخرة. يقول الشاعر:

مات من مات والثريّا الثريّا والسماك السماك والنسر نسرُ

ونجوم السماء تضحك منّا كيف تبقى من بعدنا ونمرُّ[1]

وهو ما يترجمه لنا أيضاً قوله عليه السلام المار: «**وَلَوِ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ**

(١) شرح نهج البلاغة ٩: ٢١١.

الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِـي الْأَرْضِ ضُـلّالاً وَذَهَـبْتُمْ فِـي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالاً»، أي أنهم قد ذهبوا وولوا كما الآخرون من قبلهم. وهي سنة كونية خالدة باقية في الإنسان أينما وجد، وفي أي ظرف أو زمان كان.

رواية الطائر الاخضر

ومعنى «**ضُلّالاً**» أن الروح بعد انفصالها عن جسم صاحبها فإنها سوف تبقى تسبح في العوالم، وتروح وتجيء حرّة لا يعوقها عائق. يروى عن يونس بن ظبيان أنه قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام جالساً، فقال: «**ما يقول الناس في أرواح المؤمنين؟**». قلت: إنهم يقولون: تكون في حواصل طيور خضر في قناديل تحت العرش. فقال عليه السلام: «**سبحان الله، المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طائر أخضر. يا يونس، المؤمن إذا قبضه الله تعالى صير روحه في قالب كقالبه في الدنيا، فيأكلون ويشربون، فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدنيا**»[1].

الإمام الهادي عليه السلام ويحيى بن هرثمة

وهنا تحضرني حادثة وقعت أيام الإمام الهادي عليه السلام بعد أن أرسل المتوكل خلفه ليستدعيه من المدينة، تقول الرواية: كان الإمام الهادي عليه السلام في المدينة حينما بدا للمتوكّل أن يرسل خلفه؛ لظنه بأن الإمام عليه السلام كان

(١) تهذيب الأحكام ١: ٤٦٦ / ١٥٢٦، كتاب الزهد: ٨٩ / ٢٤١، مجمع البيان ١: ٤٣٨.

يبغيه الغوائل، فاستدعى أحد قوّاده ـ وهو يحيى بن هرثمة ـ وقال له: إذهب إلى المدينة، واحمل إليّ علي بن محمد الملقب بالعسكري، بعد أن تعطيه هذا الكتاب، ولا تؤذِه، بل احمله إليّ معظماً مكرّماً، وانزل بنزوله وارتحل بترحاله، وقم بخدمته.

يقول يحيى: وكان في أصحابي الذين خرجوا معي قائد من الشراة[1]، وكان لي كاتب متشيّع، وأنا على مذهب الحشوية، وكان ذلك الشاري يناظر الكاتب، وكنت أسمع إلى مناظرتهما لقطع الطريق. فلما صرنا وسط الطريق قال الشاري للكاتب: أليس من قول صاحبكم علي بن أبي طالب: «**ليس في الأرض بقعة إلّا وهي قبر، أو ستكون قبراً**»؟ فانظر إلى هذه البرية أين من يموت فيها حتى يملأها الله قبوراً كما تزعمون؟ وتضاحكنا ساعة؛ إذ انخذل الكاتب.

وهذا هو حال المعاندين، فمع أن هذا الأمر ـ وهو أنه ليس في الأرض بقعة إلّا وهي قبر – مفروغ منه، وقد أشار إليه الخيام بقوله:

كُلُّ ذَرَّاتِ هذهِ الأرْضِ كانَتْ ... أوْجُهاً كَالشُّمُوسِ ذاتَ بَهَاءِ
اجْلُ عَنْ وَجْهِكَ الغُبَارَ بِرِفْقٍ ... فَهْوَ خَدٌّ لِكَاعِبٍ حَسْنَاءِ[2]

إلّا إن هؤلاء قوم رين على قلوبهم، فسدروا في غيّهم، وسفّوا في كفرانهم حيث سفّ العتاة.

(١) أي الخوارج.
(٢) رباعيات الخيام: ١.

وعلى أية حال يقول يحيى: ثم سرنا حتى دخلنا المدينة، فقصدت بيت أبي الحسن علي بن محمد بن الرضا عليهم السلام، فدخلت عليه فقرأ كتاب المتوكل وقال: «**انزلوا**». فلما حضرت إليه من الغد ـ وكنا في تموز أشدّ ما يكون من الحر ـ فإذا بين يديه خيّاط وهو يقطع من ثياب غلاظ له ولغلمانه، ثم قال للخياط: «**اجمع عليها جماعة من الخياطين، واعمد على الفراغ منها يومك هذا، وبكر بها إليّ في هذا الوقت**».

ثم نظر إليّ وقال: «**يا يحيى، اقضوا وطركم من المدينة في هذا اليوم، واعمل على الرحيل غداً في هذا الوقت**».

قال: فخرجنا وإنما بيننا وبين العراق مسيرة عشرة أيام، فما يصنع بهذه الثياب؟ ثم قلت في نفسي: هذا رجل لم يسافر، وهو يقدر أن كلّ سفر يحتاج فيه إلى هذه الثياب، والعجب من الرافضة حيث يقولون بإمامة من هذا فهمه. فعدت إليه في الغد في ذلك الوقت، فإذا الثياب قد أُحضرت، فقال لغلمانه: «**ادخلوا، وخذوا لنا معكم لبابيد وبرانس**». ثم قال: «**ارحل يا يحيى**».

فقلت في نفسي: هذا أعجب من الأول، أيخاف أن يلحقنا الشتاء في الطريق حتى يأخذ معه اللبابيد والبرانس؟

فخرجت وأنا أستصغر فهمه، حتى إذا وصلنا إلى موضع المناظرة في القبور ارتفعت سحابة، واسودت وأرعدت وأبرقت، حتى إذا صارت على رؤوسنا أرسلت برداً مثل الصخور، وقد شدّ على نفسه وغلمانه الثياب

الغلاظ، ولبسوا اللبابيد والبرانس، وقال لغلمانه: «**ادفعوا إلى يحيى لبادة، وإلى الكاتب برنساً**». وتجمعنا والبرد يأخذنا حتى قُتل من أصحابي ثمانون رجلاً، وزالت، ورجع الحرّ كما كان، فقال لي: «**يا يحيى، أنزل من بقي من أصحابك ليدفن من مات، فهكذا يملأ الله هذه البرية قبوراً**».

قال: فرميت نفسي عن الدابة، واعتذرت إليه، وقبلت ركابه ورجله، وقلت: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله، وأنكم خلفاء الله في أرضه، وقد كنت كافراً وإني الآن أسلمت على يديك يا مولاي. ثم تشيعت ولزمت خدمته إلى أن مضى[1].

إذن فهذا الاحتدام في النقاش بين الخارجي وبين الشيعي الكاتب أدى إلى أن يشكل يحيى بن هرثمة ذلك الإشكال على هذا الكاتب الشيعي على وفق ما أوردته إلينا الرواية الآنفة، فكان جواب الإمام عليه السلام.

العبرة من الرواية

ومما ينبغي أن يلتفت إليه هنا من خلال استعراض هذه الحادثة ووضعها على محكّ النقد أمران:

أولاً: أن لله تبارك وتعالى قوانينه التي تنفّذ بها مشيئته المباركة.

ثانياً: أن الإنسان ينبغي عليه ألّا يتسرع في إطلاق الأحكام قبل أن يتثبت كما فعل هذا القائد حينما أشكل على الإمام انغماسه وانهماكه

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥١٩، مدينة معاجز الأئمة عليهم السلام ٧: ٤٦٦ / ٢٤٧١، الثاقب في المناقب: ٥٥١ ـ ٥٥٣ / ٤٩٤.

للعمل في صنع ملابس شتوية مع أنهم كانوا في حمة الصيف، وشدّة حرارة الجوّ حيث إنه أخذ يسخر ويستهزئ بكون هذا الذي يدعى له الإمامة لا يعي أنه في الصيف وأنه حينما يسير في طريقه سوف يبلغ مقصده قبل انتهاء هذا الفصل، بل راح يمعن في تلك السخرية والاستهزاء. وعليه فإنه لا حاجة حينئذٍ لذلك اللباس الشتوي.

وعلى أية حال فهذا القائل اقتنع بعد ذلك كيف أن الإمام عمد إلى صنع هذه الملابس؛ لأنه ملهم السماء، ولأنه سفيرها في الأرض، حتى إنه رأى بعينه ما رأى من تلك المعجزة التي وقعت على يد الإمام عليه السلام حيث ضربتهم عاصفة ثلجية أصبحوا أثنائها لا يمكن لأحدهم أن يرى الآخر من شدتها وكثافتها وقساوة الجو حينها.

وهكذا كانت هذه الحادثة المباركة سبباً لتشيع هذا القائد (ابن هرثمة)، وعلة لاقتناعه بإمامة الإمام الهادي عليه السلام، وأنه وآباءه الأطهار عليهم السلام هم الأيمّة الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

الإمام الحسين عليه السلام وتراب كربلاء

وهذا هو حال من يقف على تراب كربلاء حيث إنه سوف يستحضر كل معاني البطولة والفداء التي قدمها سليل الأنبياء وسفير السماء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، فمن يقف على ذلك التراب الطاهر يلمح ذلك الرجل العظيم الذي قدم كل شيء على تراب كربلاء في سبيل الله تبارك

وتعالى وفي سبيل إعلاء دينه وإعزاز كلمته؛ ولهذا فإن تراب كربلاء لا يمكن أن يخفي معالم وجه الحسين عليه السلام، ولا أن يخفي معالم حركته التصحيحية أمام زائريه أبداً، وكذلك لا يمكن أن يخفي تلك الوجوه المشرقة وتلك الدماء الطاهرة التي سالت من أجل مواقف ومبادئ وقيم ناضلوا من أجلها، وقتلوا في سبيلها حتى لا تمحق ولا تمحى، فكذلك لا يمكن لذلك التراب أيضاً أن يحجب تلك الوجوه ولا تلك الدماء عن أنظار زائريهم وعن أعينهم، فالزائر يظلّ أبداً يرى أُولئك الشخوص ماثلين أمام عينيه في كل لحظة وفي كل حين سواء وقف على ذلك التراب أو لم يقف وهو يستحضرهم لحظة تذكره تلك المواقف وتلك البطولات.

إذن فالإنسان إذا ما أراد أن يكون محقاً فإنه لا يمكن له أن يحجبه حاجب أو يحول حائل بينه وبين ذلك الركب الإيماني الذي خرج من المدينة المنورة يحدوه الإيمان وتدفعه النزعة إلى تجسيد كلمة الحق وهي كلمة لا اله إلّا الله.. الركب الذي وقف ليقدم الأضاحي على تراب كربلاء أضحية بعد أضحية، وما تلك الأضاحي إلّا أنوار النبوة والإمامة وامتداد الرسالة، وكذلك أنوار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله والتابعين لهم الذين ساروا على نهجهم، وتابعوهم بإحسان.

إن كل إنسان منصف حينما يقف على ذلك التراب أو يستذكر تلك البطولات فإنه سوف تمر أمام عينيه كل تلك الصور وكل تلك الوجوه المشرقة التي تمثل له استقراء ذلك التراب، وكلّ ما وقع عليه وما شهده

من بطولات ومن تضحيات، وهذا ما يصوره لنا أدباء الطف حينما يقفون على ذلك التراب يستقرئون تلك المعاني ويستجلون تلك المواقف والمبادئ والقيم والبطولات، فيقول أحدهم:

هي كربلاءُ فقف على عرصاتِها ودعِ الدموعَ تهلّ في عبراتِها
سلها بأي قرىً تعاجلتِ الأُلىٰ نزلوا ضيوفاً عند قفرِ فلاتِها

ونتوجه إلى صاحب الأمر عليه السلام الذي يرسم لنا تلك اللوعة بزيارة الناحية التي يقول فيها: «**جدّاه... نكسوك عن جوادك، فهويت إلى الأرض جريحاً، تطؤك الخيول بحوافرها، وتعلوك الطغاة ببواترها، قد رشح للموت جبينك، واختلفت بالانقباض والانبساط شمالك ويمينك. تدير طرفاً خفياً إلى رحلك وبيتك، وقد شغلت بنفسك عن ولدك وأهلك، وأسرع فرسك شارداً، وإلى خيامك قاصداً، محمحماً باكياً.**

فلما رأين النساء جوادك مخزياً، ونظرن سرجك عليه ملوياً، برزن من الخدور ناشرات الشعور على الخدود، لاطمات الوجوه سافرات، وبالعويل داعيات، وبعد العزّ مذلّلات، وإلى مصرعك مبادرات. والشمر جالس على صدرك، مولغ سيفه على نحرك، قابض على شيبتك بيده، ذابح لك بمهنده، قد سكنت حواسّك، وخفيت أنفاسك، ورفع على القنا رأسك.

وسبي أهلك كالعبيد، وصفدوا في الحديد، فوق أقتاب المطيات، تلفح وجوههم حر الهاجرات، يساقون في البراري والفلوات، أيديهم مغلولة إلى الأعناق، يطاف بهم في الأسواق»[1].

---

(١) المزار (المشهدي): ٥٠٤ ـ ٥٠٥، الصحيفة الهادية والتحفة المهدية: ٢١٣.

الأنبياء عليهم السلام والتأريخ

ولهذا فإننا حينما ندرس حياة الأنبياء والرسل عليهم السلام فـإننا نـجد أنـهم والعمل كانوا يمثلون توءماً لا ينفك أحد طرفيه عن الطرف الآخر؛ فهنالك من الأنبياء من كان يعمل بالرعي، ومنهم من كان يعمل بالزراعة ومنهم من كان يعمل بالتجارة كما هو حال سيدنا وحبيبنا محمد المصطفى، ومنهم من اشتغل بدباغة الجلود وهكذا حال جميع الأنبياء وشأنهم. إن سيرتهم العطرة عليهم السلام تنبئنا أن العمل كان توءم كل نبي بعثه الله تبارك وتعالى على هذه الأرض؛ حتى يترجموا نظرية الإسلام في العمل، ويجسدوها واقعاً عملياً تُعرف ملامحه في تصرّفاتهم عليهم السلام وأفعالهم دون أن تـبقى مـجرّد شعارات فارغة ليس لها في الواقع سوى تردّد أصدائـها. فـهذا الرصـد التاريخي لسيرهم عليهم السلام يرصد لنا بدوره موقف الإسلام من العمل، ودوره في الحثّ عليه؛ وما ذلك إلّا لأن النبي يمثل الكمال، وعدم العمل يعني مدّ اليد إلى الآخرين وهو نقص، وهذا يتنافى مع كـمال الأنـبياء الذيـن كرمهم الله تبارك وتعالى وشرفهم، وفضلهم على غيرهم من العالمين.

وهنا نخلص إلى نتيجة هي أن من العيب والنقص أن يمدّ امرؤ يده إلى غيره فيأكل من عمله، فيصبح بذلك عائلاً عليه بحيث إنه يـترك العـمل اعتماداً عليه في شؤونه وحاجاته الدنيوية جميعها. إن كل إنسان قد أعطاه الله سبحانه قابليات وقوىً يتمكن بها من العيش في هذه الدنيا بكرامـة؛

فهنالك من أعطاه قوى عضلية يتمكن بها من العمل وكسب رزقه، وهنالك من أعطاه قوى عقلية وعلمية ليكسب معيشته وحياته عن طريقها، وهنالك من وهبه مكانة اجتماعية يتمكن بواسطتها من أن يكون كذلك.

ومن هذا نخلص إلى نتيجة ثانية هي أن العمل كان شريك الأنبياء عليهم السلام وتوءمهم بما أنهم أفضل المخلوقات، وهم أولى بأن يطبقوا هذا الأمر الذي أراده الله تبارك وتعالى. ومما يروى في المقام أن النبي داود عليه السلام كان يخرج في غالب الأيام أثناء حكمه ليقوم بجولات بين الناس ويسألهم عن حالهم، وعن رأيهم فيه دون أن يعرفوه، فكان يسمع مايقال فيه، و«ألسنة الناس أقلام الحقّ»؛ لأنه أراد أن يتعرّف مبلغ رضاهم عنه، فسأل أحدهم: «**ماتعرف عن داود؟**». فقال له: نعم الرجل؛ يقول ويعمل بالحقّ. وأثنىٰ عليه ثناء حسناً، فقال له: «**هل ترىٰ به عيباً؟**». قال: بلىٰ. قال عليه السلام: «**ماهو؟**». قال: إنه يأكل من بيت المال، إن خير الناس من يأكل من كدّه وكسب يده.

فرجع النبي داود عليه السلام متألّماً، وسجد في محرابه، وقال: «**أي رب، علّمني كسباً تغنيني به عن بيت المال**». فألان الله تعالى له الحديد، فأخذ يصنع من الحديد دروعاً ويبيعها، ثم يأخذ ثمنها ويقسمه أثلاثاً؛ فيعطي ثلثه لبيت المال، ويتصدق بثلثه الثاني، والثلث الآخر يعيش به. قال تعالى: ﴿**وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا**

﴿تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١]، فكان يتناول طعامه من كدّ يده[٢].

ومن هنا فإننا نستخلص من هـذه القـصة أن النـبي داود عليه السلام أراد أن يتعرف على آراء الناس في منهجه ووضعه في الحكم، وكيف هي نظرتهم عنه، فما كان من أحدهم ولم يكن يعلم أن هذا السائل هو النبي داود عليه السلام إلّا أن أخبره بأنه عنده خصلة واحدة يؤاخذ عليها وهي أكله مـن بـيت المال دون أن يعمل؛ لأنه إذا ما عمل فإنه يكون قد وفّر على بيت المال ما يأخذه منه؛ وبالتالي فإنه يسد حاجة إنسان مسلم فقير لا يستطيع العمل لضعف أو لمرض، أي أنه فعلاً يستحق ذلك المال الذي يأخذه من بـيت المال. فكان أن دفع هذا الأمر النبي داود عليه السلام إلى أن يتخذ قراره بأن يلجأ إلى العمل بعد أن يطلب من الله تبارك وتعالى إعانته على ذلك، وإيـجاد عمل له يستطيع من خلاله أن يكسب قوته وأن يأكل.

ضرورة إخراج الزكاة من جيد المال

هذا من جهة ومن جهة ثانية هي أنه إذا كانت ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس فإن على الإنسان المسلم حينما يريد أن يخرج ما يترتب عليه في ذمته من أموال زكوية، ومن ضرائب مالية أُخرى فرضها الإسلام، فـإن عـليه أن يخرجها من جنس ذلك المال ومن عينه، لا أن يخرجها من جنسٍ هـو

(١) سبأ: ١٠ ـ ١١.

(٢) المبسوط (السرخسي) ٣٠: ٢٤٦، تفسير القرآن العظيم ٣: ٥٣٥.

أدنى منها؛ كأن يخرج الحشف والتمر الرديء، أو التمر الجيد المـخلوط بالرديء زكاة عن التمر بعد أن يأخذ التمر الجيد؛ فهذا ما يرفضه الإسلام رفضاً قاطعاً؛ لأنه حينئذٍ لا يكون مصداقاً لآية المقام الكريمة.

ومما يروى في هذا المجال أن شخصاً أراد أن يُخرج الزكاة من تمره، فأخرجها من التمر الرديء والحشف، ولما جاء بها إلى النبي الأكرم ﷺ، أخذ ﷺ بيده حفنة من ذلك التمر، والتفت إلىٰ من معه، فقال ﷺ: «**ما ظنّ هذا الرجل؟ هل يقدم هذا الرجل مثل هذا التمر لأُمه وأبيه لو أرادا أن يأكلا؟**». قالوا: لا يا رسول الله. فقال ﷺ: «**فلم يقدّم هذا للمسلمين؟ أوليس المسلم أخا المسلم؟**»[1].

فإذا كان هذا الفرد لا يأكل الحشف ولا يأكل التمر الرديء ولا يطعم أبويه منه فإن عليه أن ينظر كذلك إلى أفراد المجتمع الآخرين، فكما أنه لا يأكل الحشف ولا يطعمه لأهله وأبويه فكذلك عـليه ألّا يـطعمه لأفـراد المجتمع الآخرين؛ ذلك أن على الفرد أن ينظر إلى أفراد المجتمع الآخرين على أنهم أفضل منه وعلى أنه يجب أن يقدمهم على نفسه وإذا كان الأمر كذلك فكيف إذن يأكل الطعام الجيد ويطعمهم الطـعام الرديء أو الجـيد المخلوط بالرديء؟

ولا أقل من أن الانسان إن لم ينظر إلى الآخرين على أنهم أفضل منه

(١) قريب منه في جامع البيان، المجلد ٢، ج٣: ١١٧، الدر المـنثور ١: ٣٤٦، ولم يـنسباه إلىٰ الرسول ﷺ.

وأحسن، وعلى أنه يجب أن يفضلهم على نفسه لا أقل من أن ينظر إليهم على أنهم وهو سواء، وعلى أنهم ندّ له؛ أي أنهم متساوون جميعاً في الحقوق والواجبات. وإذا كان الأمر كذلك فإن عليه ألّا يطعمهم من الجنس الرديء الذي يملكه بعد أن يكون قد خص نفسه بالجيد، بل إن عليه أن يطعمهم الجيد؛ ومن هنا فإن عليه أن يخرج الصدقة من المال الجيد لا من المال الرديء(١).

---

(١) أشار المحاضر في محاضرة (غواية الشيطان) في ج١٨ من هذه الموسوعة الشريفة إلى أن هذا التصرّف (إخراج الصدقة من المال الرديء) هو الفحشاء والواردة في قوله تعالى: ﴿ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾، على رأي البعض؛ حيث ورد هناك ما ملخّصه: إن الشيطان يأمر الإنسان بأن يعطي الزكاة من خسائس الأموال، فمثلاً حينما يترتب على الإنسان زكاة أغنامه أو زكاة غلاته أو زكاة النقدين فإنه يوسوس له بأن يخرج الزكاة من التمر غير السليم وكذلك من بقية الغلات الأُخرى وهي الزبيب والحنطة والشعير، أو أن يأمره بإخراج زكاة الأغنام بدفع الأغنام النحيفة العجفاء أو السقيمة التي لا سمن فيها، أو بالخراف الضعيفة، فيجعلها مورداً لإخراج الحقّ الشرعي، أو بأن يعطي الزكاة من الدراهم والدنانير المحكوكة أي الناقصة.

يروى عن النبي الأكرم ﷺ أنه خرج يوماً ومعه عصاه، وفي المسجد أقناء معلقة، فيها قنو فيه حشف، فغمز القنو بالعصا التي في يده وقال: «لو شاء ربّ هذه الصدقة تصدّق بأطيب منها؛ إن رب هذه الصدقة ليأكل الحشف يوم القيامة». ثم أقبل على الناس فقال: «أما والله يا أهل المدينة، لتدعنّها أربعين عاما للعوافي». قال: يعني الطير والسباع. مسند أحمد ٦: ٢٣، السنن الكبرى (البيهقي) ٤: ١٣٦، شرح معاني الآثار ٤: ٢٠٢، صحيح ابن حبان ١٥: ١٧٨، الدرّ المنثور ١: ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

وهنا يأتي قوله تبارك وتعالى ليكون هذا الذي نذهب إليه مصداقاً له؛ حيث يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[١].

وهذا الأمر يدل على تأصل روح الإنسان في كل تشريع جاء به الإسلام لتغطية الخدمات العامة، وحاجات المجتمع سيما الفقراء منهم.

الصدقة والتطهير

وعليه فإن هذه الصدقة إنما تطهر المال، وتطهر الضمير من الشعور بالإثم من ناحية أُخرى بعد أن يخرج الإنسان هذه الحقوق، حيث إنه سوف يبيت مرتاح الضمير مطمئن البال إلى أنه قد نفذ أوامر الله تبارك وتعالى ولم يعصها ولم يتقاعس في تطبيقها.

وهذا الإخراج ينبغي أن يكون بصورة مباشرة حيث يباشر الإنسان بنفسه إخراج الحقوق قبل أن تداهمه المنية، وأن يوافيه أجله، فيكون قد خسر الدنيا والآخرة؛ إذ لم يطع ما أمره الله تبارك وتعالى به. يروى أن أحد الصحابة أوصى في مرض موته أن عنده حظيرة فيها الكثير من التمر، وطلب أن يوزعها النبي الأعظم صلى الله عليه وآله بعد موته، فجاء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلىٰ حظيرة التمر ووزعها جميعها على وفق وصيته.

(١) آل عمران: ٩٢.

وكان أن بقيت حشفة في زاوية من زواياها، فأخذها النبي الأكرم ﷺ بين أنملتين من أنامله الشريفة وقال: «**والله لو تصدق بهذه في حياته لكانت أفضل له من جميع ما تصدّقنا به عنه بعد مماته**»[1].

والعلة في هذا أن الإنسان حينما يتصدق بالشيء في حياته فإنه إنما يتصدق به عن طيب قلب وعن مراعاة لقواعد الصدقة؛ واجبة كانت أو مستحبة، أما ما كان بعد مماته فإنه لا يكون كذلك؛ إذ إنه لا يستطيع أن يستمتع بها، فإعطاؤها هنا لا يتعارض مع هوى نفسه حيث يغلّب أوامر الشرع على هوى النفس فيما لو تصدق بها وهو حي، وهو بخلاف ما لو كان ميتاً. ورحم الله أبا نؤاس الذي يصور لنا هذا الحال في مقطوعة أدبية رائعة من مقطوعاته التي حلقت في فضاء الأدب والحكمة، والتي حاولت تصوير الحال التي عليها الإنسان تصويراً دقيقاً، فهو يقول:

يا بني النقص والغِيَرْ وبني الضعف والخوَرْ
وبني البُعدِ بالطبا عِ على القربِ بالصورْ

---

(١) لم نعثر عليه بهذا النصّ، وما في بعض المصادر أن رسولنا الأكرم ﷺ قال: «لأن يتصدّق المرء في حياته بدرهم خير له من أن يتصدّق بمئة عند موته». سنن أبي داود ١: ٦٥٥ / ٢٨٦٦.

وسأله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: «أن تصدّق وأنت صحيح حريص، تأمل البقاء وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم». سنن أبي داود ١: ٦٥٥ / ٢٨٦٥. وانظر الجامع لأحكام القرآن ٢: ٢٧١.

أيـــن مـــن كـــان قـــبلكم　　مـــن ذوي البأسِ والخــطرْ
ســــــبقونا إلى الرَّحـــيـ　　ـــــــلِ وإنــــا لَــــبالأثرْ
مَـــن مــضى عــبرةٌ لنــا　　وغــــداً نــــحن مـــعتبَرْ
فكأنـــــــي بكـــم غـــداً　　فـــي ثـــيابٍ مــن المــدرْ
قـــد نُـــقلتم مــن القــصو　　رِ إلى ظـــــلمةِ الحـــفرْ[1]

يريد بها أن يقرر حقيقة هي أن من مضى إنما هو عبرة لنا من خلال التجارب التي رأيناها، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن لم نتعظ بها ونطبقها، بل نسير خلف تداعيات غفلتنا وتناسينا ممتطين فرس النفس الشموس رهاناً على انسياقنا وراء هوى النفس تلك؟

أبو ذرّ رضي الله عنه يضرب كعب الأحبار في مجلس عثمان

وهذه النظرية قد وجدت لها تطبيقاً مباشراً في أيام الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري (رضي الله تعالى عنه وأرضاه)، حيث يروي المؤرخون أن أعرابياً سأل وهو في مجلس عثمان فقال: هل يجب عليّ من دفع زكاة أمواله في حول أن يدفعها ثانياً في حول ثانٍ؟ ونحن نعلم أن المال المزكّى له حالتان:

الأولى: أنه يبقى على حاله محفوظاً في صندوق أو خزانة أو في أحد المصارف، كما هو حال أبناء القرون المتأخّرة.

(١) ديوان أبي نؤاس: ٣٤٧.

الثانية: أنه يعود به صاحبه إلى السوق ثانية فيشتغل به، ويتاجر ويتصرّف به في مجالات التصرّف التجاري كافّة.

فسارع كعب إلى القول: لا. وكان أبو ذرﷺ جالساً، فرفع عصاه وضرب بها رأس كعب، وقال له: يابن اليهودية، من الذي جرّأك علىٰ الفتيا في ديننا[1]؟

وتقرير سؤال هذا المسلم الذي سأل الخليفة الثالث عثمان هو أن الإنسان بعد أن يزكي أمواله، أو يخرج منها الحقوق الشرعية المتعلّقة بها في حول ما؛ فإنه تارة يأخذ هذه الأموال ويدخرها في بيته أو في مكان حريز بحيث إنه لا يشغلها ولا يعمل بها في السوق، وتارة أنه بعد أن يخرج الأموال الضريبية منها يعمد إلى تشغيلها في السوق وإلى تحريكها وتنميتها عبر أنماط المعاملة التجارية أو المضاربة أو أي لون من ألوان الربح التي شرعها الإسلام كما أشرنا آنفاً.

وكانت هذه الواقعة بحضور أبي ذرﷺ الذي رأينا أنه لم يطق هذا التسرّع اليهودي، ولم يطق أحداً ليس من الإسلام يفتي في المسائل الشرعية والإسلامية سيّما المتعلّق منها بالجنبة المالية. ولهذا فإننا وجدنا من خلال هذه الرواية أنه قد رفع عصاه وضربه، وعنفه على تولّي أمر الفتيا، وهو ليس ابن بجدتها.

---

(١) بحار الأنوار ٣١: ٢٧٢، نقلاً عن تاريخ الثقفي، الفتنة ووقعة الجمل: ٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ١٩٧ ـ ١٩٨، الجامع لأحكام القرآن ٣: ٤١٧، ٤١٨، سير أعلام النبلاء ٢: ٦٨.

شخصية كعب الأحبار

وفعلاً فإن كعب الأحبار هذا كان يهودياً، بل كان مشبعاً باليهودية، وكان معروفاً بها حتى بعد أن أسلم، حتى إن الخليفة الثاني نفسه قد رفع الدرة (العصا) ذات مرّة، وضربه على رأسه، وقال له: قد أكثرت الكذب. ثمّ طرده[1].

وكذلك طرده الإمام علي عليه السلام؛ لأنه كان يهودياً متستراً بالإسلام؛ وقد قام بتسريب الأفكار والمفاهيم اليهودية إلى عقول المسلمين الذين ساهموا بعد ذلك في تأسيس المذاهب الإسلامية الأربعة، ومن ثم إلى مدوّناتهم.

فرية عبد الله بن سبأ

لكن مع هذا لم يقل أحد: إن الفكر اليهودي قد تسرب إلى المذاهب الإسلامية الأُخرى، أما الشيعة فينسبونهم جميعاً إلى اليهودية بمجرد فرية افتروها وأسموها عبد الله بن سبأ الذي ادّعوا أنه كان يهودياً، وقد قام بتسريب الأفكار اليهودية إلى الفكر الشيعي. ولسنا ندري هنا ما هو وجه الفرق بين هذه الأمثال التي ينبغي أن يكون حكمها فيما يجوز وما لا

---

(١) لم نعثر عليه عن كعب وإنما عن أبي هريرة، انظر شرح نهج البلاغة ٤: ٦٧، لكن نقل الشوكاني وغيره عن ابن عباس في تفسير الجبت والطاغوت قال: الجبت حيي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف. انظر: تاريخ المدينة ٢: ٤٥٢، زاد المسير ٢: ١٣٨، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٢٤٨، تفسير القرآن العظيم ١: ٥٢٥، فتح القدير ١: ٤٧٩.

يجوز واحد، كما تنص على ذلك القاعدة العقلية، فإذا كان الفكر الشيعي قد أصبح فكراً يهودياً نتيجة يهودي واحد قام بتسريب أفكاره اليهودية إليه، فلماذا لم تصبح المذاهب السنية يهودية مع أن عندهم أعداد كثيرة من أمثال عبد الله بن سبأ الذي نرمى به؟

فلماذا إذن اليهودي الذي يسلم عند المذاهب الإسلامية لا يقوم بتسريب أفكاره اليهودية إليها، واليهودي الذي يسلم عند المذهب الشيعي يقوم بتسريب أفكاره اليهودية إلى هذا المذهب؟ وما هو الأصل في هذه المفارقة؟ وما هو المسوّغ العقلي لها بعد أن عرفنا أن الأمثال حكمها فيما يجوز وما لا يجوز واحد؟

إن المعروف والثابت عملياً من خلال مطالعاتنا لكتب الفريقين (الشيعة والسنة) ومن خلال المتابعة الميدانية المنصفة في التراث الشيعي والسني فإننا نتوصل إلى نتيجتين هامتين هما:

الأولى: خلو التراث الشيعي من أي وجود لابن سبأ

إن التراث الشيعي؛ سواء كان تفسيرياً، أو حديثياً، أو فقهياً، أو في أي مجال من مجالات العلوم الشرعية الإسلامية يخلو تماماً من أي وجود لعبد الله بن سبأ، أو أي اعتماد على رواية يكون هو في سندها، أو أي نظرية أو فكرة يكون هو صاحبها. إن المتتبع المنصف لابد أن يصل إلى هذه النتيجة، وأن يقر بهذه الحقيقة، وهي أنه ليس هنالك من وجود أبداً لعبد الله بن سبأ في جميع مدونات التراث الشيعي. بل إنه حتى مع وجود

شخصية بهذا الاسم في كتبهم فإنهم يعتبرونه من الغلاة الذين ادّعوا أُلوهية علي بن أبي طالب، لا أنه مروّج لفكرة أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هو وصي رسول الله صلى الله عليه وآله، حتى إن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قدمه، فأحرقه بالنار. وكل كتب الشيعة التي تتناول هذا الشخص الذي ادعى الأُلوهية لأمير المؤمنين عليه السلام يلعنونه، بسبب أنه إنسان مغالٍ في علي بن أبي طالب عليه السلام، معطٍ إياه ما ليس له من صفات.

الثانية: امتلاء التراث السني بشخصيات يهودية كثيرة

أمّا كون التراث العلمي السني ـ المتمثل بالتفسير والفقه والرواية وما إلى ذلك ـ مفعماً إلى حد التخمة بوجود شخصيات يهودية كثيرة أسلمت لغاية ما ثم بعد ذلك حاولت تسريب الأفكار اليهودية إلى تلك المذاهب، فهذا ما نجده واضحاً من خلال الآراء والروايات الإسرائيلية المدسوسة، والتي يطرحها هؤلاء في أحاديث لم يقلها رسول الله صلى الله عليه وآله لكنها وضعت على لسانه، ومن وضعها هم هؤلاء اليهود الذين رأينا أنهم حاولوا أن يسربوا آراءهم اليهودية وأفكارهم الإسرائيلية ورواياتهم الأُسطورية إلى تراث المسلمين من أبناء المذاهب الإسلامية الأُخرى.

وهذا الأمر في الحقيقة يشي بمورد تعجب واستغراب جرّاء ما فيه من جرأة وتقوّل على الله سبحانه وتعالى، ونتيجة هذه المفارقة الخبيثة التي يستند إليها هؤلاء المدّعون. لكننا نكل هذا الأمر إلى الله تبارك وتعالى؛ ليأخذ لصاحب الحقّ بحقه.

مقارنة بين كعب الأحبار وعبد الله بن سبأ

ونحن هنا لابد من أن نثير تساؤلاً نعقد بمقتضاه مقارنة علمية هامّة، وهو: من هو كعب الأحبار؟ ومن هو عبد الله بن سبأ؟ إن كعب الاحبار هو شخصية حقيقية ثابتة يجمع عليها المؤرخون، ولا يختلف فيها اثنان منهم أبداً، فالكل مجمع على أنه شخصية حقيقية موجودة في زمن الرسول الأكرم ﷺ والنبي الأعظم ﷺ محمد بن عبد الله ﷺ، وقد أسلم في السنوات الأخيرة من حياة النبي الأعظم ﷺ ولذا فإنهم يعدّونه من الصحابة.

أما عبد الله بن سبأ، فهو شخصية وهمية مخترعة، ولا وجود حقيقياً لها، فوجودها لا يعدو حيّز خيالات واضعيها وأمراض ذهنياتهم، بل إن من حاول أن يثبت وجودها عن راويها[1] قد أسبغ عليه صفات تكاد تكون خرافية أو أُسطورية، حيث إنها تصفه بصفات كثيرة كلها خارقة لكل أمر معقول؛ فهي لا يمكن أن تكون لإنسان عادي، فتارة تصفه هذه المرويات التي تتناول هذه الشخصية الموهومة بأنه من أهل اليمن، وتارة تقول: إنه ابن امرأة سوداء، وإنه أسلم أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان[2]، وأنه تنقّل من اليمن إلى الحجاز فالبصرة فالكوفة فالشام فمصر،

---

(١) وهو سيف بن عمر المعروف بكذبه ووضعه الأحاديث، ومن جاء بعده كذلك ومن رام الاطلاع والتأكد والتوثق فعليه بكتاب عبد الله بن سبأ للسيد مرتضى العسكري.

(٢) تاريخ الطبري ٣: ٣٧٨.

كما سترى.

عبد الله بن سبأ والخلافة الإسلامية

ثم تأتي الطامة الكبرى حينما يحاولون أن يجعلوا منه الوسيلة الوحيدة والركيزة الأهم في التأسيس لفكر إسلامي أصيل ثابت الوجود وهو فكرة الوصاية والخلافة، فهؤلاء ينسبون إليه فكرة كون علي بن أبي طالب عليه السلام وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وخليفته لعبد الله بن سبأ الذي حاول أن يؤثر على الإمام أمير المؤمنين، وأن يقنعه بأنه هو وصي رسول الله، وأنه هو خليفته من بعده.

والخلاصة أن هؤلاء يدعون افتراء هنا أن المذهب الشيعي ما هو إلّا مذهب قائم على كذبة جاء بها عبد الله بن سبأ، وهذه الكذبة هي أن علياً عليه السلام وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وخليفته، وهو ليس كذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وآله لم ينص عليه، بل إن هذه الفكرة لم تكن موجودة في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله ولا بعده بفترة، حتى جاء عبد الله بن سبأ الذي زرع هذه الفكرة في ذهن أمير المؤمنين عليه السلام وجعله يطالب بها، وأقنعه بأنه صاحب الحق في الخلافة بعد رسول الله.

دعبل والمأمون

أقدم المأمون دعبل بن علي الخزاعي رضي الله عنه بعد أن طلبه، وقد قيل له: كيف السبيل إليه، وهو هارب منك، خائف من بطشك، غير آمن من عقوبتك؟ فآمنه على نفسه، وأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه، قال له: أنشدني قصيدتك الكبيرة، فجحدها دعبل، وأنكر معرفتها، فقال له: لك الأمان عليها كما أمنتك على نفسك. فأنشده رضي الله عنه:

تأسفت جارتي لما رأت زوري ... وعدت الحلم ذنبا غير مغتفرِ
ترجو الصبا بعدما شابت ذوائبها ... وقد جرت طلقاً في حلبة الكبر
أجارتي إن شيب الرأس يعلمني ... ذكر المعاد وإرضائي عن القدر

إلى أن قال:

أصبحت أُخبر عن أهلي وعن ولدي ... كحالم قص رؤيا بعد مدّكرِ
لولا تشاغل عيني بالأُلى سلفوا ... من أهل بيت رسول الله لم أقرِ
وفي مواليك للخدين مشغلة ... من أن يبيت لمفقود على أثرِ
كم من ذراع لهم بالطف بائنة ... وعارض بصعيد الترب منعفرِ
أمسى الحسين ومسراهم بمقتله ... وهم يقولون هذا سيد البشرِ
يا أُمة السوء ما جازيت أحمد عن ... حسن البلاء على التنزيل والسورِ
خلفتموه على الأبناء حين مضى ... خلافة الذئب في إنقاذ ذي بقرِ
لم يبق حي من الأحياء نعلمه ... من ذي يمان ولا بكر ولا مضرِ
إلّا وهم شركاء في دمائهُمُ ... كما تشارك أيسار على جزرِ

قــــتلاً وأســـراً وتـــخويفاً ومـــنهبة   فــعل الغـزاة بأرض الروم والخـزرِ
أرى أُمــــية مــــعذورين إن قــتلوا   ولا أرى لبــني العــباس مــن عـذرِ
قــوماً قــتلتم عـلى الإسـلام أولهـم   حتى إذا استملكوا جازوا على الكفرِ
أبــناء حــرب ومــروان وأســرتهم   بــنو مــعيط ولاة الحــقد والوغــر
أربع بـطوس عـلى قـبر الزكـي بـها   إن كنت تـربع مـن ديـن عـلى وطـرِ
هيهات كل امـرئ رهـن بـما كسـبت   له يــداه فــخذ مــا شــئت أو فــذرِ

فضرب المأمون بعمامته الأرض، وقال له: صدقت والله يا دعبل. كرّرها ثلاثاً[1].

إن أبرز صورة لمجزرة الطفّ يصوّرها لنا هذا البيت الذي يقول فيه:

قــــتلاً وأســـراً وتـــخويفاً ومـــنهبة   فــعل الغـزاة بأرض الروم والخـزرِ

فليس من علوي إلّا وهو عرضة لهذه الحالات التي ذكرها دعبل رحمه الله في قصيدته الكبيرة هذه، ذلك أنه ما من علوي أيام الأُمويين والعباسيين إلّا وهو مقتول، أو هارب، أو مطرود من وطنه، أو متعرّض للرعب والتخويف والترهيب.

(١) الأمالي (المفيد): ٣٢٤ ـ ٣٢٧ / ١٠، الأمالي (الطوسي): ١٠٠ / ١٥٦.

ملك بلجيكا وقيادة النساء للعربات

يروى أنه حدث حدثٌ في بلجيكا في إحدى السنوات حينما كـانت النساء يقدن عرباتهن بأنـفسهن؛ وهـذا مـا سـبب ازدحـاماً كـبيراً فـي الطرق؛ذلك أنهن كن يقفن في بعض الحالات ليتبادلن الحديث ومـا إلى ذلك حتى يؤدي الأمر إلى ارتباك الطرق. وحينما وصل الأمر إلى الملك عقد اجتماعاً مع وزرائه وطرح عليهم المسألة طالباً منهم الحل، فقال له أحدهم: إن حل هذه المشكلة سهل غير ممتنع، وهو أنك تصدر قراراً بمنع النساء من بقيادة العربات.

فلم يحبذ الملك هذه الفكرة؛ لأنه كان يعرف أن أغلب النساء اللواتي يقدن إنما هن نساء عليّة القوم؛ فهن زوجة فلان وزوجة فلان من أصحاب النفوذ في الدولة؛ وعليه فإنه لا يمكن أن يمنعهن. وهنا انبرى له أحدهم قائلاً: إن الحل سهل جداً، فإذا ما أخبرتك به فإنك سوف تقضي على هذه الظاهرة نهائياً.

فتوجّه إليه الملك وسأله عن الحل الذي بحوزته، فأجابه بأن يـصدر أمراً يعلق على ناصية كل شارع يقول فيه: تمنع كل امرأة لم تتجاوز سن الأربعين من قيادة السيارة، فإذا ما قرأت النساء هذا الأمر فـإنهن سـوف يمتنعن عن القيادة؛ لأنهن لا يردن أن يعترفن بأنهن قد تجاوزن الأربعين وإن كن قد تجاوزنه فعلاً، وبهذا فإنك تكون قد قضيت على هذه الظاهرة دون أن تغضب أحداً.

فاستحسن الملك الفكرة وأصدر الأمر، فكان أن أدى وظيفته بشكل كامل، وأوصل الملك إلى النتيجة التي يريدها وهي أن الزحام قد خف من الشوارع بعد أن كانت مكتظة بعربات النساء حيث لم يعدن يقدن سياراتهن ولا يوقفنها في وسط الشارع أو منتصفه لتبادل الحديث وإحداث ارتباك في عملية المرور فيه.

وهكذا فإننا نجد أن المرأة لها تأثير كبير على الرجل حتى إن الملك نفسه كان يخشى من أن يصدر أمراً بمنعهن من القيادة لأنهن نساء ذوات نفوذ في الدولة وبالتالي فإنهن سوف يؤثرن على أزواجهن ويتدخلن في هذا الأمر ثم لن يعود لأمر الملك قيمة أو فائدة.

أبو الشمقمق

ورحم الله أبا الشمقمق الذي يروى عنه أنه رآه أحد الأشخاص يوماً وهو جالس علىٰ الجسر ويأكل، فسأله مؤنّباً: لم تأكل في الطرقات وهو مما يُذهب المروءات؟ أما تستحي من هؤلاء الناس؟ فقال له: وهل هؤلاء ناس؟ قال: فماذا هم إذن؟ قال: انظر ماذا أفعل، وستعرف جواب سؤالك.

ثم صعد علىٰ عمود من أعمدة ذلك الجسر، فلما رآه الناس يوشك أن يسقط تجمعوا حوله يريدون أن يعرفوا سبب ارتقائه ذلك العمود. فلما كثر عددهم صاح: أيها الناس، حدثني فلان عن فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ أنه قال: من أخرج لسانه فوصل أرنبة أنفه دخل الجنة.

فراح الناس الواقفون يخرجون ألسنتهم ويجربون ذلك، فقال أبو الشمقمق للرجل: هل ترىٰ أن هؤلاء أُناس؟[1]

إن هؤلاء البسطاء والسذج من الناس بدلاً من أن يحاول الإنسان الذي يدعي العلم والمعرفة أن يستغلهم ويسخّرهم في خدمة أغراضه وأهدافه، وأن يستثمرهم في تمرير غاياته، بدلاً من ذلك عليه أن ينظر إليهم على أنهم أمانة في عنقه ما داموا على ذلك المستوى من الجهل والبساطة. فإذا ما نظر إليهم على أنهم أمانة في عنقه، ويعرف أن الأمانة إنما هي تكليف من الله تبارك وتعالى، وأنه جلّ شأنه أمر بحفظها ورعايتها، فإن عليه حينئذٍ أن يحاول تعليمها وتثقيفها، ورفع الجهل المحدق بها عنها، وأن يحاول أن يدفع عنها كل ما يضرها، لا أن يسعى هو جاهداً إلى إلحاق الضرر بها.

وعليه فليس معنى أن يجد أي إنسان أن الناس بسطاء أنه يسعى جاهداً إلى أن يستغل بساطتهم وسذاجتهم، ويتكلم معهم بما لا يعلم ليخدعهم، ويستغل عنصر الخير في نفوسهم فيسرقهم وجودهم، ويحيد بهم عن هذا الطريق.

(١) محاضرات الأُدباء ١: ٣٤١، وفيه أنه كلثوم وليس أبا الشمقمق.

ما هي الشجرة؟

وإلّا فإن الله تبارك وتعالى لم يكن ليفرض علينا أن نعرف ماهية تلك الشجرة واسمها وصفاتها، ولم يكلفنا بالإيمان بها أو بالبحث عنها، ولم يطلب منا أن نحشر أنفسنا فيما ليس لنا علم به، غاية ما في الأمر أن هنالك شجرة في الجنة قد ألقت بأوراقها على النبي آدم عليه السلام وعلى زوجه فسترتهما عن أعين بعضهما، أما أن تكون تلك الشجرة هي شجرة الحناء أو شجرة التين أو الزيتون أو ما إلى ذلك، فهذا ما لم نكلف بمعرفته، ولم نطالب بتفصيله والبحث عنه ما لم توضحه لنا القناة الوحيدة عن السماء وهي قناة الرسالة وامتدادها قناة الإمامة.

وإذا كان الأمر كذلك فإن الله تبارك وتعالى سوف لن يسأل الإنسان غداً عن هذه الشجرة وعن اسمها وصفاتها، بل إن الإنسان سوف لن يكون له أي علاقة بهذا الأمر؛ ذلك أنه سوف يسأل عن أعماله وعن عبادته وعن طاعته وعما قدم وعما لم يقدم من عبادات وطاعات وما إلى ذلك، أما هذه الأُمور فهي خارج موضوع الحساب والعقاب. يروي المؤرخون عن مجاهد قال: أتينا الشعبي فلم نوافقه في المنزل، فجلسنا ننتظره، فجاء رجل يريد الشعبي، فبينا هو إذ أقبل الشعبي ومعه امرأة تكلمه، فقلنا للرجل: هو ذاك الشعبي.

فذهب إليه، ثم جاء الشعبي وهو يضحك، فقال: هذا الذي أرسلتموه

إليّ؟ جاءني وأنا وامرأة قائمين، فقال: أيكما الشعبي؟ قلت هذه. فقال: أُريد أن أسألك عن الشجرة التي انحنت على آدم، ما هي؟ فقلت: لا أدري. فقال أنتم العلماء، ولا تدرون؟ فقلت له: أيها الرجل، إن الله تبارك وتعالى سوف لن يسألني غداً عن معرفتي بها وعدم معرفتي بها[١].

وهكذا فإن الشعبي هنا يبين له بأنه غير مسؤول غداً عن هذه الشجرة وعن ماهيتها حتى يتعب نفسه بالبحث عنها وعن اسمها. وفي الواقع نحن نجد أمثال هذه القضايا الكثير الكثير مما هو خارج مجال اختصاصنا وخارج مجال تكليفنا، وخارج مجال مساءلة الله سبحانه وتعالى حوله إيانا، لكننا مع ذلك نحشر أُنوفنا في هذه القضايا، ونلج فيها دون أن ننظر إلى عواقبها مع أننا غير مسؤولين عنها ـ كما ذكرنا ـ بأي شكل من الأشكال، أو بأي غرض من الأغراض.

وقد حاول أحد الشعراء الفرس أن يستغل هذه الظاهرة ويستنكر على آدم ما فعله بأبنائه حيث إنه باع الجنة بحفنة من حنطة وأخرج نفسه وبنيه منها مع أنه لو لم يأكل من تلك الحنطة لبقي هو وأبناؤه فيها، يقول هذا الشاعر في بيت له مصوّراً هذه الحقيقة:

أبـي آدم بـاع الجـنان بـحنطة فـلست ابـنه إن لم أبـع بشـعيرِ[٢]

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٢٥: ٤١٧، وانظر: تاريخ مدينة دمشق ٢٥: ٤١٦ ـ ٤١٧، تهذيب الكمال – المزي ١٤: ٣٧، تذكرة الحفاظ ١: ٨٧، سير أعلام النبلاء ٤: ٣١١، وليس فيها ذيل الرواية.

(٢) لم نعثر عليه، ولمحمود سامي البارودي بيت قريب منه، هو:

فهو يريد أن يقول: كما أن أبانا آدم قد باع الدنيا بحنطة، فإني سوف أبيعها بماء الشعير. وعلى أية حال فما نريد أن نذكره هنا هو أن القصة ليست بهذا النمط الذي يحاول بعض المفسرين أن يوصلها به إلينا، وهذه المسألة إذا صورت بهذا اللون فإنها لا تكون حينئذٍ إلّا إقداماً من هؤلاء على المعصية.

الإمام الصادق عليه السلام والشقراني

يقول الإمام الصادق عليه السلام للشقراني ـ وكان من ولد شقران أحد موالي رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد جاء ليأخذ عطاءه، وذلك أيام أبي جعفر، فخرج العطاء، فلم يصله منه شيء؛ لأنه لم يكن له شفيع.

وبقي متحيراً على باب أبي جعفر لايدري من يقصد، ولا إلى أين يتوجه، وبينما هو على تلك الحال إذا هو بالإمام الصادق عليه السلام، فقام إليه وقال له: جعلني الله فداك، أنا مولاك الشقراني. ثم ذكر له حاجته، فرحب به، ونزل ودخل ثم خرج وعطاء الشقراني في كمّه فأعطاه إيّاه وقال له: «**يا شقران، إن الحسن من كل أحد حسن وإنه منك أحسن؛ لمكانك منّا، وإن القبيح من كل أحد قبيح وإنه منك أقبح؛ لمكانك منّا**»[1].

أبــي آدم بــاع الجـنان بـحبة وبعت انـا الدنـيا بـجرعة مـاءِ

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٦٢، شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٠٥، قال ابن أبي الحديد: قالوا: فانظر كيف أحسن الإمام السعي في استنجاز طلبته، وكيف رحب به وأكرمه مع معرفته بحاله،

أي أنك محسوب على أهل هذا البيت الطاهر، وإذا كنت كذلك فيجب عـليك أن تكـون مـؤدباً، وأن تكـون مـلتزماً بآداب أهـل هـذا البـيت وبأخلاقهم التي منها طاعة الله تبارك وتعالى وعدم معصيته، فإن أحسنت كان الاحسان منك أحسن، وإن أسأت كان القبيح منك أقبح. ولهذا فإن عليك أن تكون مستقيماً، وأن تكون صالحاً ومؤمناً ملتزماً لا أن تشذ عن تعاليم هذا البيت الذي نرى أنك منه لمكانك منه.

فضة جارية الزهراء عليها السلام مثال للتربية الصحيحة

وكمثال على ما نقوله سوف نتناول جانباً من حياة فـضة (رضـي الله عنها وأرضاها) التي جيء بـها إلى رسـول الله صلى الله عليه وآله فأهـداهـا إلى ابـنته فاطمة عليها السلام لتساعدها على شؤون البيت بعد أن أخذت أعمال البيت ترهق الزهراء عليها السلام وتتعبها، فقد كانت الزهراء عليها السلام تـمارس كـل أعـمال البـيت بيدها، فكانت تطحن بيدها وتعجن وتخبز بيدها الشـريفة وتـعد الطـعام وتكنس البيت وتنظفه وترعى الأولاد وما إلى ذلك من متعلقات كل بيت وتلبية احتياجاته، فلم تكن تقوى على كل ذلك.

ففضة (رضـي الله عـنها) بـعد أن انـتقلت إلى بـيت السـيدة فـاطمة الزهراء عليها السلام راحت تساعدها وتعينها في أُمور المنزل. وكانت لها مواقف

وكيف وعظه ونهاه عن المنكر على وجه التعريض. قال الزمخشري: وما هـو إلّا مـن أخـلاق الأنبياء.

مع أمير المؤمنين عليه السلام ومع الزهراء البتول عليها السلام مشهودة وهي مواقف مشرفة، بل إنها حتى بعد انتقالها إلى خدمة السيدة زينب عليها السلام كانت لها تلك المواقف المشرفة معها.

وهذا الأمر في الواقع يرجع إلى مسألة واحدة هي مسألة التربية التي تلعب دورها في إعداد شخصية الإنسان وفي بنائه سايكولوجياً وفق متطلّبات المرحلة التي يعيشها.

فضة لا تتكلّم إلّا بالقرآن الكريم

وقد أمعنت فضّة (رضي الله عنها) في أدبها الإسلامي كثيراً سيما في أواخر حياتها، فقد أُثر عنها أنها لم تكن تتكلّم إلّا بالقرآن الكريم، فعن أبي القشيري أنه قال في كتابه: قال بعضهم: انقطعت في القافلة فوجدت امرأة، فقلت لها: من أنت؟ فقالت: ﴿وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[1]. فسلّمت عليها، فقلت: ما تصنعين هاهنا؟ قالت: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلّ﴾[2]. فقلت: أمن الجنّ أنت أم من الإنس؟ قالت: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[3]. فقلت: من أين أقبلت؟ قالت: ﴿يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[4]. فقلت: أين تقصدين؟ قالت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾. فقلت: متى انقطعت؟ قالت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[5]. فقلت: أتشتهين طعاماً؟ فقالت: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ

(١) الزخرف: ٨٩.
(٢) الزمر: ٣٧.
(٣) الأعراف: ٣١.
(٤) فصلت: ٤٤.
(٥) ق: ٣٨.

الطَّعَامَ﴾[١].

فأطعمتها، ثم قلت: هرولي وتعجّلي. قالت: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[٢] فقلت: أردفك؟ فقالت: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٣]. فنزلت وأركبتها، فقالت: ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[٤].

فلما أدركنا القافلة قلت: ألك أحد فيها؟ قالت: ﴿يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾[٥]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾[٦]، ﴿يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[٧]، ﴿يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾[٨].

فصحت بهذه الأسماء، فإذا أنا بأربعة شباب متوجّهين نحوها، فقلت: من هؤلاء منك؟ قالت: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٩]. فلما أتوها واستقر بهم الجلوس قالت: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾[١٠]. فمضى أحدهم فاشترى طعاماً، فقدّموه بين يدي، فقالت: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[١١]. ثم قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[١٢]. فكافؤوني

---

(١) الأنبياء: ٨.
(٢) البقرة: ٢٨٥.
(٣) الأنبياء: ٢٢.
(٤) الزخرف: ١٣.
(٥) ص: ٢٦.
(٦) آل عمران: ١٤٤.
(٧) مريم: ١٢.
(٨) القصص: ٣٠.
(٩) الكهف: ٤٦.
(١٠) الكهف: ١٩.
(١١) الحاقة: ٢٤.
(١٢) القصص: ٢٦.

بأشياء، فقالت: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1]. فزادوا علي، فسألتهم عنها، فقالوا هذه أُمنا فضّة جارية الزهراء عليها السلام لم تتكلّم منذ عشرين سنة إلّا بالقرآن[2].

مَن قُتل مِن أبناء الإمام الحسين في الطف

وعلى أية حال فإن الأمر قد انتهى بأن اسودّت الدنيا في عيني أبينا آدم عليه السلام بمقتل أحد أبنائه لكن كيف لنا أن نتصور الدنيا في عيني سيد الشهداء السبط الثاني الشهيد عليه السلام يوم عاشوراء بعد أن قتل كل أبنائه وكل أصحابه؟ إن التاريخ يحدثنا بأن الإمام الحسين عليه السلام قد فقد خمسة من أبنائه في أحداث معركة الطف؛ سواء في المعركة نفسها، أو في الطريق إليها، وهم:

الأول: سقط

فقد أجهضت به أُمه وهي في طريقها إلى الكوفة مع الإمام الحسين عليه السلام حيث أسقطته في طريق حلب جنب جبل الجوشن. وقبره موجود إلى الآن هناك، وقد بني قبل سنين. وإنما أسقطته أُمه لكثرة السير في الليل والنهار، وهو ما يضر بالمرأة الحامل سيما التي لم تعتد على ذلك العناء.

---

(١) البقرة: ٢٦١.

(٢) انظر: مجمع النورين: ٣١، وفي المستطرف من كلّ فن مستظرف ١: ١٢٨ ـ ١٢٩ عن عبد الله بن المبارك.

الثاني: طفله من أُم اسحاق

وكانت قد ولدته يوم العاشر من محرم الحرام، وقد أقبلت به إلى الإمام الحسين عليه السلام، ووقفت أمامه وقالت له: يا آل محمد، خذوا رضيعكم، لقد جف صدري من اللبن. فأخذه الإمام الحسين عليه السلام، وتأمّله وقد أطال النظر في وجهه، ثم قال عليه السلام: «**تعساً لقوم يكون جدك رسول الله صلى الله عليه وآله خصمهم يوم القيامة**». ثم خرج عليه السلام به من الخيمة، وبينما هو على صدره إذ أقبل له سهم فذبحه من الوريد إلى الوريد. وهذا الطفل هو الذي يقول فيه أحد شعراء الطفّ:

له الله مفطوراً من الصبر قلبه ... ولو كان من صُمّ الصفا لتفطّرا
ومنعطفٍ أهوى لتقبيلِ طفلهِ ... فقبّل منه قبله السهمُ منحرا
لقد وُلدا في ساعةٍ هو والردى ... ومن قبلهِ من نحرهِ السهمُ كبّرا(١)

الثالث: عبد الله الرضيع

وكان له من العمر ستة أشهر، وكان قد جاءت به أمه إلى الإمام الحسين تطلب منه أن يطلب من القوم حتى يسقوه ماءً بعد أن أضرّ به العطش، فكان أن عاد به الإمام الحسين عليه السلام مذبوحاً من الوريد إلى الوريد، حيث أُمّه الرباب عليها السلام، فدفعه إليها جثة باردة قائلاً: «**رباب، خذي إليك ولدك مذبوحاً**». فتناولت رضيعها ورجعت به إلى الخيمة وهي مذهولة عمّا حولها.

---

(١) ديوان السيّد حيدر الحلّي: ٧٨.

الرابع: طفل للإمام الحسين في السابعة من عمره

وهو الذي أقبل يشقّ طريقه إلى أبيه الإمام الحسين عليه السلام حينما سقط عن ظهر جواده إلى أرض المعركة، فلما وصل إلى أبيه الإمام عليه السلام أجلسه إلى جانبه وراح يكلّمه ويسلّيه، وهنا أهوى أبجر بن كعب بسيفه على الإمام الحسين عليه السلام ليضربه، فالتقاها ذلك الصبي بيده، فقدّها أبجر له، فلم يبقَ منها إلّا الجلد؛ حيث إنها بقيت معلقة به، فصاح الطفل بأبيه الإمام عليه السلام: وا أبتاه، أدركني. فأدناه إليه الإمام الحسين عليه السلام وقال له: «**صبراً ولدي، صبراً بني الكرام، والله لا لقيتم هواناً بعد هذا اليوم، إن الموت قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّ إلىٰ جنان الله الواسعة والنعم الدائمة. فأيكم يكره أنه ينتقل من سجن إلىٰ قصر؟ وهؤلاء أعداؤكم كمن ينتقل من قصر إلىٰ سجن وعذاب أليم. إن أبي حدّثني عن رسول الله صلى الله عليه وآله من أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»(١).

الخامس: علي الأكبر عليه السلام

وهو الذي فجّر الموقف في كربلاء، وأخذ كل مشاعر أبيه الإمام الحسين عليه السلام معه وهو يخرج إلى القتال؛ لأنه كان أشبه الناس خلقاً وخلقاً برسول الله، وكان عليه السلام إذا اشتاق إلى جده نظر إلى وجه ابنه علي الأكبر. لكنه عليه السلام بعد أن راح يقدم أبناءه الواحد تلو الآخر، جاء دور ولده علي الأكبر عليه السلام الذي قرّر النزول إلى القتال.

---

(١) الاعتقادات في دين الإماميّة: ٥٢، بحار الأنوار ٤٤: ٢٩٧ / ٢.

فلما برز للقتال قال الإمام الحسين عليه السلام: «**اللهمّ اشهد علىٰ هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك، وكنّا إذا اشتقنا إلىٰ نبيّك نظرنا إلىٰ وجهه. اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضِ الولاة عنهم أبداً؛ فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدَوا علينا يقتلوننا**»(١).

وهكذا فقد تألّم الإمام الحسين عليه السلام أشدّ الألم لخروجه، ولذا فإنه قبل أن يبرز إليهم قال عليه السلام له: «**بني ادنُ إليّ حتى اُودّعك**». فجمع يديه على عنقه، واستدناه إليه يقبّله ويشمّه إلى أن سقطا إلى الأرض معاً، ثم قال له: «**ابرز بني**».

فبرز وعينا الإمام الحسين عليه السلام تلاحقانه، وليلىٰ تطيل النظر إلىٰ وجه الإمام الحسين عليه السلام، فلمّا رأت وجهه قد تغيّر هرولت إليه وقالت: أبا عبد الله، أرىٰ وجهك قد تغيّر، فهل اُصيب ولدي بضرّ أو سوء؟ وهذا علىٰ رواية أن ليلى كانت موجودة في الطفّ، فقال عليه السلام: «**لا، ولكن برز إليه من يُخاف منه عليه، ادعي لولدك**»:

طبّت الخيمتها الغريبة تبجي وعلىٰ ابنيها بريبه
وتوسّلت لله بحبيبه بالحسين وشما بيه مصيبه
يا راد يوسف من مغيبه ليعگوب ومسچّن نحيبه
أريدك علي سالم تجيبه

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٢، العوالم / الإمام الحسين: ٢٨٥.

ولما سقط علي الأكبر عليه السلام من على ظهر فرسه أسرع إليه الإمام الحسين عليه السلام الذي أخذ مقتله منه مأخذه حتى رؤي وظهره منحنٍ، فقد تجمعت كل تلك الآهات والآلام والمصائب في مقتل علي الأكبر عليه السلام وفي مصرعه. ولما وصل إليه الإمام الحسين عليه السلام ألقى بنفسه عليه من على ظهر جواده ثم ألقى بنفسه إلى جانبه في ساحة المعركة وراح يمسح عن وجهه الشريف الدم والتراب:

ومحا الردى يا قاتل الله الردىٰ　　منه هلال دجىً وغرة فرقدِ
يا نجعة الحيّين هاشم والندىٰ　　وحمى الذمارين العُلا والسؤددِ

الصوم والتربية العملية

أما على صعيد الجبهة العملية فسأروي حادثة واحدة يغني إيرادها ودلالتها عن الشرح. يروى أن أحد الخلفاء أراد أن يرسل ابنه إلى أحد المعلّمين، ونحن نعرف أن التعليم في تلك الأيام لم يكن جماعياً كما هو اليوم، سيما بالنسبة للخلفاء والولاة، بل إنه كان فردياً بشكل عام، فكان أحدهم إذا ما أراد أن يعلم ابنه أرسل خلف معلم، أو أرسله إلى معلم ليباشر تعليمه. وعلى أية حال فإن ابن الخليفة هذا باعتباره ولي العهد فقد انتُخب له أحسن مدرّس موجود في البلاد.

وحينما وصل ولي العهد هذا إلى المعلم، وقد علم المعلم بذلك، أمر حاجبه أو خادمه بأن يتعامل معه بإهمال، وألّا يعيره أي اهتمام عبر الأُمور التالية:

أولاً: أمره أن يحجبه على الباب ثلاث ساعات ثم يدخله عليه.

ثانياً: أمره أن يؤخر طعامه عن موعده المحدّد ثلاث ساعات، ثم بعد ذلك يقدّمه إليه.

ثالثاً: أمره بأن يجلده بعد الطعام بعصا أعطاه إياها جلداً مبرّحاً حتى يستشعر الألم على يديه.

فنفّذ الخادم ما أمره به المعلم، فخرج ولي العهد منه بعد انتهاء الدرس منفعلاً أشدّ الانفعال، وغاضباً على تصرّفه المهين ذلك معه. فجاء حتى وصل إلى أبيه، فقال له: أصلح الله الخليفة، أنت إنما أرسلتني إلى جلّاد، لا إلى معلّم. فقال له: وكيف ذلك؟ فأخبره بما فعل معه المعلّم من حجبه إياه على الباب ثلاث ساعات، ثم تأخيره طعامه عن موعده المحدّد ثلاث ساعات كذلك، ثم أمره بأن يُجلد جلداً مبرّحاً.

فاستشاط الخليفة غضباً، لكنه تمالك نفسه وقال لابنه: أهدأ الآن حتى نرى أمر هذا المعلّم، فأنا لم أُرسلك إلى معلم عادي، بل أرسلتك إلى أحسن معلّم عندنا في البلاد، فلنرسل خلفه، ولنستعلم منه سبب تصرّفه ذلك. ثم أرسل خلف هذا المعلّم، وما إن وصل حتى راح يعنّفه على ما فعل بابنه، وقال له: أرسلت إليك ابنى لتهذيبه لا لتعذيبه. فقال المعلّم: أيها الخليفة، أمط غضبك عني (أي افسح لي المجال لأتكلّم)؛ لأُبيّن لك وجهة نظري، ثم بعد ذلك افعل ما بدا لك. فقال له الخليفة: قل ما عندك؛ فما أحضرتك إلّا لأجل هذا.

فراح المعلّم يشرح له سبب ذلك التصرّف، وبيّن له أنه أراد أن يكون

درساً عملياً لابنه قبل أن يشرع معه في الدرس النظري. فقال له: وكيف ذلك؟ قال: إن ابنك هذا سوف يحل محلّك في حكم الناس، وقد ولد وفي فمه ملعقة من ذهب، وتلاقفته الأيدي الحانية، والفُرُش الوثيرة، أي أنه لم يذق طعم الجوع والفقر والأذى والألم والعذاب، فأحببت أن أُذيقه إياها في درس عملي تطبيقي، حتى إذا ما أصبح هو الحاكم تذكّر هذا الدرس والألم الذي يستتبعه؛ فلا يحجب أحداً على بابه، ولا يمنع عطاء جائع، ولا يضرب أو يسجن لمجرّد رغبته بإصدار الأوامر بذلك.

فاستحسن الخليفة صنعه، وقال له: مثلك فليعلم أولاد الخلفاء.

وبعد أن أوردنا هذه الحادثة وعرفنا ما هو المراد منها والغرض والغاية، لنرجع إلى الصوم لمعرفة أثره على الصعيد العملي في الإنسان الصائم وتأثيره في أخلاقياته وسلوكه. إن الله عزّ وجلّ جعل الصوم أحد الشعائر الإسلامية، وجعل منه عبارة عن تطبيق عملي لإعطاء الإنسان درساًس أخلاقياً وتطبيقياً في هذه الحياة.

الإمام الحسين عليه السلام والصوم

وهذه اللحظات الملكوتية، والفيوض الربّانية، والسياحة في عالم الملكوت الأعلى قد مرّ بها الإمام الحسين عليه السلام، حيث إنه قد صام يوم العاشر من المحرّم، ولكنه لم يفطر فيه كما يفطر الناس عادة، بل إنه عليه السلام أفطر بعد الظهر بساعات على دماء نحره الشريف. وهذا هو المعنى الذي

يؤشّر له السيّد حيدر الحلي رحمه الله بقوله:

تـغلي الهـواجـر مـن هـجير غـليلها ... إذ كـان يـوقد حـره رمـضاءَها
مـا حـال صـائمة الجـوانـح أفـطرت ... بـدم وهـل تـروي الدمـا إظـماءَها
مـا حـال عـاقرة الجسـوم عـلى الثـرى ... نـهبت سـيوف أمـية أعـضاءَها[1]

إنه نمط من الصوم الذي تفرّد به هذا السبط العظيم.. نمط جعل الإمام الحسين عليه السلام متعلقاً بالله سبحانه وتعالى، ولا يرى سواه، ولا يستشعر وجود أحدٍ غيره. يقول هلال بن نافع: مررت على الإمام الحسين عليه السلام وهو في لحظاته الأخيرة، فرأيت شفتيه تتحركان، فقلت: إن كان يدعو علينا هلكنا ورب الكعبة. فدنوت منه فسمعته يقول: «**صبراً على قضائك يا رب،**

يا غياث المستغيثين، لا معبود سواك»[2]. ثم قال عليه السلام: «**اسقوني قطرة من الماء؛ فقد تفتّت كبدي من الظمأ**»[3]. وكأن لسان حاله عليه السلام:

تركت الخلق طرّاً في هواكا ... وأيـتمت العـيال لكـي أراكـا
فـلو قـطّعتني بـالحبّ إرباً ... لما مال الفؤاد إلىٰ سواكـا[4]

وتلفّت إلى الضحايا من أهل بيته وأصحابه، ثم رمق السماء بطرفه

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلي ١: ٢٥.

(٢) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣:٨٣.

(٣) من أخلاق الإمام الحسين عليه السلام: ٢٥٤.

(٤) بيتان ينسبان لابنٍ لإبراهيم بن أدهم. تاريخ مدينة دمشق ٦: ٣٠٦.

الشريف وقال: «**لك العتبىٰ يارب، صبراً علىٰ قضائك، ياغياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ**»[١].

وتـــمشَّيتَ تَســتبينُ الضَّــحايا	وزواكــي الدمـاءِ مـنها تَسـيلُ
ومشتْ فـي شـفاهِك الغـرِّ نَـجوى	نَـمَّ عـنها التسـبيحُ والتَّـهليلُ
يـا أبـا الطـفّ وازدهـى بـالضحايا	مـن أديـم الطـفوف روض خـضيلُ
ثــلّة مــن صــحابة وشـقيق	ورضــيع مــطوّق وشــبولُ
والشـباب النـضير جـفّ فـغابت	طــلعة حــلوة ووجـه جـميلُ
لك عُـتبى يـا رب إن كـان يُـرضيـ	ـك فــهذا إلى رضــاك قــليلُ
وسـجى اللـيلُ والرِّجـالُ ضَـحايا	والنِّســاءُ المــخدراتُ ذهــولُ
وبــقايا مُــخَيَّمٍ مــن رَمــادٍ	وعــليلٌ مُــصَفَّدٌ وكُــبولُ
ودمٌ شـاطىء الفـرات سـيبقى الـ	دهـرَ يـرويه والرُّبَـى والنَّـخيلُ

ثم همهمت شفتاه الشريفتان بذكر الله تعالى: «**صبراً علىٰ قضائك يارب، ياغياث المستغيثين، لا معبود سواك، لك العتبىٰ يارب**»[٢]

---

(١) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

(٢) ينابيع المودّة ٣: ٨٢.

دور المعجزة في وظيفة الأنبياء عليهم السلام

إذن فالنبي عليه السلام هو الوسيط والواسطة بين السماء وبين أهـل الأرض، فيبلغهم الآيات السماوية والتشريعات الإلهية المحملة عبر هذه الآيات بعد أن يتلوها عليهم ثم يبين لهم ما تتضمنه تلك الآيات من أحكام، فـيقول لهم: إن السماء تأمركم بالشيء الفلاني، وتنهاكم عن الشيء الكذائي. لكن متى ينبغي على البشر أن يقبلوا هذا، وأن يأخذوه عمّن جاءهم على أنه سفير السماء؟ وهل يعني هذا أن كلّ من ادعى النبوة والسفارة كان على البشر أن يصدّقوه ويأخذوا بقوله، ويؤمنوا بدعوته حتى وإن كانت باطلة؟

المأمون والمتنبّي

يروى أن رجلاً تنبّأ ـ أي ادّعى النبوّة ـ في خلافة المأمون، فـقال له المأمون: ما أنت؟ قال نبي. قال: فما معجزتك؟ قال: سل ما شئت. وكان بين يدي المأمون قفل، فقال: هذا قفل فافتحه. فقال له الرجل: أصلحك الله، إني لم أُخبرك أني حداد، وإنما قلت: إنـي نـبي. فـضحك المـأمون واستتابه ووصله[1].

إن هذا المدعي كان يريد أن يتخذ من ادّعاء النبوة وسيلة لسدّ جوعه واحتياجاته؛ لأنه كان يعي أن الناس إذا ما صدّقوه فإنهم سوف يـطيعونه

(١) شجرة طوبى ١: ٥١ نـهاية الأرب فـي فـنون الأدب ١: ٣٨٩، نـثر الدرر ١: ١٦١، التذكرة الحمدونية ٢: ٣٦٥.

بما يأمرهم به، وبالتالي فإنهم يحملون إليه الأموال والمتاع وما إلى ذلك مماّ يأمرهم بإحضاره إليه.

إذن فليس كلّ مدّعٍ للنبوة ينبغي على الناس أن يسارعوا إلى التصديق به ما لم يأتهم بدليل أو برهان أو معجزة تثبت تلك النبوة كما حاول المأمون أن يفضح هذا المدعي وأن يبين له بأنه مدّعٍ كذّاب لا أصل لنبوته.

النبي صادق من حيث إنه نبي

يروى أن النبي ﷺ كان يمشي يوماً في الصحراء فجاءه أعرابي وأمسكه من تلابيبه، ثم قال له: بعتك فرساً ولم تدفع لي الثمن. فقال النبي ﷺ: «**بل اشتريت وأعطيتك الثمن**». فقال الأعرابي: كلّا، لم تسدّد، هات الشهود. فانفعل الصحابة من الأعرابي، وانتظروا أن يسمح لهم النبي بدفعه أو قتله، فقال النبي ﷺ: «**دعوه، إن لصاحب الحقّ مقالاً**». ثم قال: «**من منكم يشهد لي؟**». فلم يشهد له أحد. فجاء خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه فلما رأى الجمع سأل عنه فقيل له: أعرابي يطلب من النبي ﷺ ثمن فرس، وقد حبسه في الشمس يطالب بحقه، والنبي ﷺ يطلب الشهود فلم يشهد له أحد. فقال خزيمة وقد رأى النبي الأكرم ﷺ واقفاً تحت حرّ الشمس، فهاله الأمر: أنا أشهد.

فناداه النبي الأكرم ﷺ وقال له: «**كيف تشهد، وأنت لم تكن معنا، ولم**

تسمع ولم ترَ؟». أي هل رأيتني بعينك وأنا أدفع له الثمن؟ فقال خزيمة: يا رسول الله، لقد صدّقناك على الوحي، وعلى أخبار السماء وما تنقل عن الله تبارك وتعالى، ولا نصدّقك في هذا؟

فهو يقول للنبي الأكرم ﷺ: إما أن تكون صادقاً فيكون قولك كلّه صدقاً، وإما أن تكون غير صادق وعليه فإن نبوتك كلّها غير صادقة حينئذٍ، ونحن عندما صدقناك صدقناك بكلّ شيء باعتبار أنك صادق، فأنا أعلم أنك صادق من حيث أعلم أنك نبي الله ورسوله. فقال النبي ﷺ: **«قد أجزت شهادتك، وجعلتها بشهادتين»**. فلقّب من حينها بذي الشهادتين[1].

وهكذا فإن خزيمة هذا بعد أن رأى ذلك الموقف، وشاهد وقوف النبي الأكرم ﷺ تحت أشعة الشمس استخدم عقله في المقام، وعرف أن النبي إذا كان صادقاً في أخبار السماء وقد صدقوه فيها، فإنه يجب أن يكون صادقاً في كلّ شيء. وبهذا فإن على المسلمين أن يصدقوه في كلّ شيء يقوله، وأن يشهدوا له في كلّ شيء يدعيه؛ ولذا فإنه قد شهد بتمامية البيع للنبي الأكرم ﷺ مع أنه لم يسمع بذلك الموقف، ولم يرَه.

وقد رتب خزيمة (رضي الله عنه وأرضاه) على هذه القاعدة العقلية التي توصل إليها عندما أعمل فكره قاعدة أُخرى هي أن النبي الأكرم ﷺ حينما أمرهم بالصلوات والصيام فصلوا وصاموا، وأمرهم بالجهاد الذي سوف يعرّضهم إلى القتل أو الأسر فجاهدوا طاعة له ولله تعالى، وحينما

(١) الانتصار: ٤٩١، سنن أبي داود ٢: ١٦٦ ـ ١٦٧/٣٦٠٧.

أمرهم بأن يدفعوا كمية من أموالهم كضريبة مالية للـفقراء فأخـرجـوها امتثالاً له، وحينما أمرهم بالحج وتطبيق شعائره مع مـا فـيه مـن مشـقة وصعوبة الطريق وتوفير الراحلة وأداء المناسك وما إلى ذلك من ظروف ربما تكون تحت برد قارص أو تحت حر حارق، فإنهم صدقوه في ذلك، وفعلوا ما أمرهم به، وبالنتيجة فإنهم امتثلوا كلّ ما أمرهم به من عبادات كالصيام وغيره مما ذكرناه ومما لم نذكر؛ فإنه يجب طـاعته وتـصديقه كذلك في باقي حيثيات الحياة واحتياجاتها ومتطلباتها جميعاً دون قبول أي شكل من أشكال التبعيض فيها.

وكل ذلك قد اعتمد على أمر واحد وهو تصديقهم به وبدعواه وبأوامره ونواهيه، فإنهم حينها إذ صدقوه في النبوّة فيجب عليهم أن يصدقوه في كل ما يقوله وما يحكيه في حياته وفي تـفاصيلها حـتى وإن لم تـتعلّق بالتشريع؛ لأن الصادق صادق في كلّ شيء، والثقة ثقة في كلّ شيء. فإذا انخرمت الموثوقية أو المصداقية في جانبٍ ما عند الإنسان، فإنها تكون قد انخرمت في الجوانب الأُخرى.

وهذا ما صار إليه حال المسلمين آنذاك حينما أبوا أن يشهدوا للرسول الأكرم بصحة البيع بناء على قوله هو ﷺ، وهو القول الذي يجب عليهم أن يصدقوه بناء على هذه القاعدة التي ذكرناها، والتي طبقها عن قـناعة خزيمة (رضي الله عنه وأرضاه)، واستفاد منها قاعدة عامة جـعلت مـنه يشهد للنبي الأكرم ﷺ بما لم يسمعه منه، وما لم يرَه أمام عينيه، لا لشيء

إلّا لأن الصادق صادق في كلّ أحواله، فإذا أمكن ألّا يكون صادقاً فإنه لا يكون كذلك في كلّ أحواله.

فكان جزاؤه رضي الله عنه عند رسول الله صلى الله عليه وآله على ذلك الموقف الكبير والنابع عن إيمان عميق وصادق بهذه الدعوة المباركة، وبصاحبها الأكرم صلى الله عليه وآله أن جعل شهادته بشهادة رجلين فلقب كذلك.

ولو أننا تأملنا في موقف خزيمة هذا لوجدنا أنه موقف ينم عن إيمان واعٍ، وعن تصديق حقيقي قائم على منهج علمي، وليس مجرد تصديق فارغ لا يستند إلى دليل عقلي أو إلى إعمال الفكر في المقام حتى يتمكن من أن يصل إلى ما وصل إليه خزيمة هذا. وهذا التصديق الواعي والمبتني على الجانب العلمي والمنهجي في الاتّباع قد أدى بخزيمة كما رأينا إلى أن يسارع ويبادر إلى الشهادة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله مع أنه لم يسمع ولم يرَ، وهذا في واقع الأمر قمّة الإيمان، وغاية التصديق بـدعوى الأنـبياء عليهم السلام الذين يجب على الإنسان الذي يؤمن بهم أن يكون إيمانه بهم بهذا الشكل وبهذا اللون لا أنه متجزّئ؛ حتى يكون اتّباعه لهم اتباعاً واعياً وليس آلياً ربما لا ينفع صاحبه، فينفصل عنه، ويترك دعوته والإيمان بها بعد أمد أو بعد حين، أو عند تعرضه إلى ضغط أو إلى تأثير من الآخرين[1].

---

(١) قال جلّ وعلا في محكم كتابه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران: ١٤٤.

وهكذا فإن خزيمة بتقريره أنه يعلم أن رسولنا الأكرم ﷺ صادق من حيث يعلم أنه نبي الله ورسوله يكون قد أسس قاعدة إيـمانية صـحيحة يجب على كلّ إنسان يؤمن بالنبي الأكرم ﷺ، وبدعوته أن يلحظها وألّا يفارقها، وألّا ينفكّ عنها بحال من الأحوال.

موقف النبي الأكرم ﷺ من القرشيين في فتح مكة

والدليل على أن النبي الأكرم لم يكن نبي سيف ولا نبي قتل ما فعله مع قريش حينما فتح مكة المكرمة حيث إنه عفا عـنهم جـميعهم إلّا بـضعة رجال كانوا قد استحوذ عليهم الشيطان استحواذاً كاملاً، فهددوا الإسـلام في كلّ كيانه وفي وجوده، وهددوا الرسول الأكرم ﷺ ومـن اتّـبعه مـن أبنائهم وغيرهم بالقتل والتشريد والتعذيب ومصادرة الأموال؛ فكان لابدّ من قتلهم. وإلّا فإن جميع أهل قريش قد عفا ﷺ حيث إنه ﷺ حـينما عزم على الخروج إلى مكة، سار بجيشه الضخم اللـجب، وكـانوا كـلما تقدّموا في سيرهم انضمت إليهم أعداد جديدة مـن سـائر القـبائل التـي عاهدتهم، حتىٰ بلغوا عشرة آلاف.

فلما دخل نبيّنا الأكرم ﷺ مكّة جاء العبّاس بن عبد المـطّلب بأبـي سفيان إليه؛ ليستأمنه له، فقال له رسول الله ﷺ: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تـعلم أن لا إله إلّا الله؟**». قـال: بأبـي أنت وأُمّـي، مـا أكـرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنّا شيئاً. فقال ﷺ له: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟**». قال:

بأبي أنت وأُمّي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! هذه والله كان في نفسي منها شيء حتى الآن. أي أنها كانت ثقيلة عليه، ولا تطاوعه نفسه أن يقرّ بِها.

فقال العباس: ويحك يا أبا سفيان، أسلم واشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. فأظهر الإسلام حينئذٍ؛ حقناً لدمه، فقبل النبي صلى الله عليه وآله ذلك منه. يقول ابن أبي الحديد عن هذا الموقف: قالها ولسانه يتلعثم.

فلما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمرّ به جنود الله فيراها**». قال: فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أحبسه، ثم مرّت به القبائل على راياتها؛ كلّما مرت قبيلة قال: من هؤلاء؟ فأقول: سليم. فيقول: ما لي ولسليم؟ قال: ثم تمرّ القبيلة تلو القبيلة فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: بنو فلان فيقول: ما لي ولبني فلان؟

حتى مر رسول الله صلى الله عليه وآله في الخضراء؛ وهي كتيبة كان فيها جميع المهاجرين والأنصار، لا يُرى منهم إلّا الحدق، فقال أبو سفيان: سبحان الله من هؤلاء يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله صلى الله عليه وآله في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قِبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد غدا ملك ابن أخيك الغداة عظيماً. فقلت: ويحك يا أبا سفيان، ليس هو الملك، وإنما هي النبوّة[1].

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٣٣١ ـ ٣٣٢، تفسير البغوي ٤: ٥٣٨ ـ ٥٣٩، الثقات ٢: ٤٦ ـ ٤٧،

ولمّا دخل النبي صلى الله عليه وآله مكّة، ورآه أبو سفيان وهو في المسجد الحرام، قال في نفسه: ليت شعري، بأي شيء غلبني محمّد؟ فأقبل إليه رسول الله، وضرب بيده بين كتفيه، وقال: «**بالله غلبتك**»[1].

وهكذا جبّ نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله عنه ماكان منه من انحرافات ومواقف عدائية ضدّ الإسلام، وضدّه صلى الله عليه وآله.

فلمّا أوقفوه عند المضيق، ورأىٰ القوّة الهائلة الّتي لا قبل لهم بها، قال: يا رسول الله، أرأيت إن اعتزلت قريش وكفّت أيديها، أهم آمنون؟ وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يرغب أن يدخل مكّة من دون أي قتال لتبقىٰ مكّة حرماً آمنا كما كانت، وكما يجب أن تكون وتبقى إلىٰ يوم القيامة، فقال صلى الله عليه وآله: «**نعم، من كفّ يده فهو آمن، ومن دخل دارك فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن ألقىٰ سلاحه فهو آمن**».

فرجع إلىٰ مكّة وصاح بأعلىٰ صوته: يا معاشر قريش، هذا محمّد قد

الكامل في التاريخ ٢: ٢٤٥ ـ ٢٤٦، السيرة النبوية (ابن كثير) ٣: ٥٤٩، تاريخ الإسلام ٢: ٥٤٠ ـ ٥٤٢، البداية والنهاية ٤: ٣٣١ ـ ٣٣٢، إمتاع الأسماع (المقريزي) ١: ٣٦٠ ـ ٣٦١، النزاع والتخاصم (المقريزي): ٥٧ ـ ٥٨، السيرة النبوية (ابن هشام) ٤: ٨٦٢ ـ ٨٦٣، المعجم الكبير ٨: ١١ ـ ١٣، الاستيعاب ٤: ١٦٧٨ ـ ١٦٧٩، الدرر (ابن عبد البرّ): ٢١٦ ـ ٢١٧، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٦٩ ـ ٢٧٠، كنز العمّال ١٠: ٥٠٦ ـ ٥١٠ / ٣٠١٧٣ تاريخ مدينة دمشق ٢٣: ٤٤٩ ـ ٤٥٠، عيون الأثر ٢: ١٨٦ ـ ١٨٧.

(١) بغية الباحث (ابن أبي أُسامة): ٢٨٤ / ٩٤٣.

جاءكم بما لا قِبَل لكم به، فمن دخل داري فهو آمن. قالوا: وما تغني عنّا دارك؟ قال: ومن دخل البيت الحرام فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن ألقىٰ السلاح فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن. فتفرّق الناس إلى حيث يأمنون.

ولكنّ هذا كلّه لم يمنع النبي الأكرم ﷺ من أن يتّخذ احتياطاته العسكرية وهو يدخل مكة المكرّمة، فأمر كلّ فرد من جيشه وهو يحيط بمكة أن يشعل ناراً، فلما رأت قريش ذلك هابوا الأمر، ووقع في أنفسهم أن النبي الأكرم ﷺ جاءهم بجيش لجب جرار، وهي حالة نفسية اتّبعها رسولنا الأكرم ﷺ معهم حيث أراهم أن المسلمين كثر عبر هذه الخطة الذكية التي تنبئ عن ذهنية عسكرية وقّادة.

ثم فرّق ﷺ الجيش أربع فرق، وأمره أن يدخل مكّة من جهاتها الأربع، وأمرهم جميعاً ألّا يقاتلوا إلاّ من قاتلهم، ودخل هو في باقي الجيش من المهاجرين إلىٰ مكّة من أعلاها في حذاء جبل هند من ناحية كداء ليضرب خيمته عند الحجون حيث يجتمع إليه الجيش هناك. وكان ذلك في صباح يوم الجمعة العشرين من شهر رمضان المبارك سنة (٨) هـ، وصرخ سعد بن عبادة والراية بيده:

اليوم يوم الملحمه اليوم تسبىٰ الحرمه

أذلّ الله قريشاً. فخفق قلب أبي سفيان، وخشي أن تكون له في قريش صولة، فجاء فكلّم رسول الله ﷺ في ذلك، فعزله رسول الله ﷺ وولّىٰ مكانه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فأخذ عليه السلام الراية منه، ودخل بها مكّة وهو

ينادي:

« اليوم يوم المرحمه اليوم تحمىٰ الحرمه

أعزّ الله قريشاً »[١].

ثم إنه صلى الله عليه وآله بعد فتحه مكة المكرمة أمر بلالاً أن يصعد على ظهر الكعبة ليرفع الأذان، فرفعه بصوته الذي بلغ أغلب بيوت مكة مكلّلاً نشوة الفتح بكلمة التوحيد، ثم صعد صلى الله عليه وآله المنبر وقال مخاطباً أهلها وكان ظنهم به أنه صلى الله عليه وآله سوف يفعل بهم مثل ما فعلوه هم به من أذى وتقتيل: «**ماذا ترون أني صانع بكم؟**». فأجابوه بالقول: أخ كريم، وابن أخ كريم، ملكت فاصفح، وظفرت فأسجِح[٢]. فقال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[٣].

وهكذا فنبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله حينما دخل مكة لم يأمر أصحابه بأن يقتلوا أهل مكة جميعهم، أو أن يعيثوا فساداً مع أنهم كانوا ألدّ أعدائه بل إنه أمرهم بعدم التعرض لأي أحد منهم.

وسائل قريش في الوقوف ضدّ النبي صلى الله عليه وآله والإسلام والمسلمين

هذا مع أن قريشاً ومن تابعها وشايعها على بغض نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله لم تترك وسيلة من وسائل الوقوف بوجه الإسلام إلّا واتبعتها، وإلّا وجربتها من أجل صدّ الإسلام، وصدّ الناس عن الإسلام، والوقوف بوجهه وبوجه

---

(١) المعجم الكبير ٢٢: ١٨٦ / ٤٨٥.

(٢) أسجِح: أحسِن العفو وتكرّمْ به وترفّقْ وتساهلْ. المعجم الأوسط ٢: ٤١٦ ـ سجح.

(٣) بحار الأنوار ٤٤: ٥، تاريخ الطبري ٢: ٣٣٧، إعجاز القرآن: ١٣٢، فتح القدير ٢: ٦٠.

من يحاول الدخول فيه، ولم تترك سبيلاً يمكن أن يضرّ مسيرة الإسلام الحنيف، ودعوة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إليه، وإلحاق الأذى بمن تبعه من المسلمين إلّا وخاضته ومشت فيه، ولم تترك سيفاً أو رمحاً أو نبلاً إلّا ورفعته وتوجهت به إلى صدر الإسلام وصدور المسلمين، فقاتلت المسلمين في كل واقعة سنحت لها، وحاولت القضاء على الإسلام في كلّ فرصة استطاعت أن تقتنصها، وتمكنت من القيام بها بعد ذلك. ونحن نذكر هنا اثنين من هذه المحاولات، هي:

أولاً: حصار رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله في شعب أبي طالب عليه السلام

لقد وصل بقريش الأمر من العتوّ والظلم إلى أن حاصروا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته في شعب أبي طالب عليه السلام فترة امتدت إلى ثلاث سنوات عانى فيها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته ما عانوا من الشدة والصعوبة، حتى إنهم في بعض الأحيان لم يكونوا ليجدوا قطرة ماء يشربونها، أو لقمة خبز يأكلونها، فكانوا يتقوتون على الفتات المتناثر على الأرض. وكان بعض من حوصر معه صلى الله عليه وآله يأكل ما دب فيها حتى أضرّ بهم ذلك الحصار إضراراً كبيراً.

ثانياً: تشريد المسلمين

ثم بعد ذلك شردتهم من أوطانهم، ونهبت أموالهم، وجردتهم من ممتلكاتهم التي كانوا يحتكمون عليها، فكان أن هاجروا من مكة حفاظاً على دينهم وأنفسهم.

موقف رسولنا الأكرم ﷺ منهم

ومع ذلك فإننا وجدنا ذلك الموقف الشريف والنبيل من النبي الأكرم ﷺ معهم حيث صفح عنهم، فنادى مناديه أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن دخل البيت الحرام فهو آمن، إلى آخر ما تذكره كتب التاريخ والسير لنا.

وكما رأينا فحتى مع مواقف أبي سفيان المشينة على طول خط الدعوة إلى الله تبارك وتعالى فإن النبي الأكرم ﷺ قد جعل من داره مأمناً، وجعل من دخل داره آمناً من القتل والعقوبة أو من القصاص بالمثل. وهذا بناء على طلب أبي سفيان من الرسول الأكرم ﷺ حيث قال له: اجعل لي كرامة عند قومي. فهل بعد هذا الموقف المشرف والنبيل من الرسول الأكرم ﷺ حتى مع ألدّ أعدائه كأبي سفيان وغيره من عتاة مكة يمكن لأحد أن يأتي فيقول: إن الإسلام دين قتل ودين سيف؟

إن هذا هو كلّ ما قابل به النبي الأكرم ﷺ أعداءه ومن دأبوا على عداوته وبغضه، واستعذبوا إلحاق الأذى به. وفيه دلالة على أنه ﷺ لم يكن بالذي تتملكه شهوة الانتقام ولا الرغبة العارمة بالقتل، بل إنه ﷺ قد عفا وأسجح، وأبان معدنه النقي الطاهر الثمين، ويكون بذلك قد عرّى أُولئك الطغاة العتاة عن معدنهم الخسيس والدنيء، وأبان للناس أُولئك سوء أخلاقهم وطباعهم، فكان أن ترك كلّ من آذاه ووقف في سبيله وفي سبيل دعوته إلى نفسه، ووكله إلى ضميره.

قريش والرسول والأُمويون والحسين

وهذا الموقف النبيل من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي عرّى به أُولئك العتاة أمام أنفسهم وأمام غيرهم، وفضحهم حيث أبان معدنهم كما ذكرنا كان ينبغي أن يقابل بالمثل؛ حفظاً لذلك الموقف النبيل منه صلى الله عليه وآله إذا ما تمكن أُولئك العتاة بعد ذلك من ذرية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. لكننا لم نجد هذا المعنى عندهم حيث إنهم قد فعلوا بذرية الرسول صلى الله عليه وآله ما فعلوا في واقعة الطف الأليمة والمفجعة، وهذا ما يصوره لنا شاعر أهل البيت عليهم السلام السيد علاء الدين الحلي حيث يقول:

وعليك خزي يا أُمية دائماً ... يبقى كما في النار دام بقاكِ
هلا صفحت عن الحسين ورهطه ... صفح الوصي أبيه عن آباكِ
وعففت يوم الطف عفّة جده الـ ... ـمبعوث يوم الفتح عن طلقاكِ
أفهل يد سلبت إماءكِ مثلما ... سلبت كريمات الحسين يداكِ
أم هل برزن بفتح مكة حسراً ... كنسائه يوم الطفوف نساكِ
يا أُمة باءت بقتل هداتها ... أفمن إلى قتل الهداة هداكِ
أم أي شيطان رماكِ بغيّه ... حتى عَراكِ وحلّ عقد عُراكِ
بئس الجزاء لأحمد في آله ... وبنيه يوم الطفّ كان جزاكِ
فلئن سررت بخدعة أسررت في ... قتل الحسين فقد دهاكِ دهاكِ
ما كان في سلب ابن فاطم ملكه ... ما عنه يوماً لو كفاكِ كفاكِ(١)

---

(١) الغدير ٦: ٣٨١.

أمير المؤمنين عليه السلام يسمع الوحي

وفي تلك اللحظات الهامة والحاسمة من تاريخ البشـرية.. اللـحظات التي غيّرت وجه التاريخ، وقلبت صورة الحياة، وصنعت معالم جديدة لها حيث ابتدأ نزول الوحي على صدر رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله كان هنالك صبي كريم اعتاد رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله أن يصطحبه معه في رحلته الدورية تلك إلى غار حراء حيث متعبدُه ومكان مناجاته، هذا الصبي هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان حاضراً تلك اللـحظة التـي نـزل فـيها الوحي على نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله حيث سمعه وهو يلقي عليه بواكير آيات الله تبارك وتعالى.

وهذه المسألة بما تنطوي عليه من حساسية هي إحدى المسائل الثابتة التي لا تقبل النقاش والتشكيك؛ لأنها قد ذُكرت في مصادر تاريخية مهمة وإن حاول بعض المؤرخين أن يلتفّ عليها فـينكر وجـودها أو يـؤوّلها بتأويلات باطلة؛ فقد حاول بعض أُولئك المؤرخين الذين لا يـريدون أن تكون هنالك فضيلة لعلي بن أبي طالب عليه السلام بأن قاموا بعملية التفاف حول هذه المسألة لينفوا هذه الفضيلة عنه عليه السلام. وهذا مـا سـنتناوله بـنوع مـن الايجاز إن شاء الله.

إسلام علي عليه السلام وأبي بكر

وكان الالتفاف حول هذه الواقعة يأخذ أبعاداً كثيرة، ويـتمثل بـصور عديدة، ولعل إحدى هذه الصور وأبرزها ما حاول هؤلاء المؤرخـون أن

يشوّهوا هذه الصورة الناصعة عبره وهو أن علي بن أبي طالب حتى وإن كان قد أسلم قبل غيره لكن إسلامه غير مقبول وغير مأخوذ به؛ لأنه كان حينها صبياً غير مكلّف[١].

(١) جمع المأمون فقهاء عصره لمناظرتهم في مذهبه، وهي مناظرة طويلة نقتصر منها على موضع الحاجة. قال المأمون: إن أمير المؤمنين يدين الله على أن علي بن أبي طالب خير خلق الله بعد رسوله، وأولى الناس بالخلافة له. فقال إسحاق: يا أمير المؤمنين، إن فينا من لا يعرف ما ذكر أمير المؤمنين في علي، وقد دعانا أمير المؤمنين للمناظرة.

إلى أن قال: يا إسحاق أي الأعمال كانت أفضل يوم بعث الله رسوله؟ قال: الإخلاص بالشهادة. قال: أليس السبق إلى الإسلام؟ قال: نعم. قال: فهل علمت أحداً سبق علياً إلى الإسلام؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن عليا أسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم، وأبو بكر أسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم. قال: أخبرني أيهما أسلم قبل، ثم أُناظرك من بعده في الحداثة والكمال. قال: علي أسلم قبل أبي بكر على هذه الشريطة. قال: فأخبرني عن إسلام علي حين أسلم لا يخلو من أن يكون رسول الله دعاه إلى الإسلام، أو يكون إلهاماً من الله. قال إسحاق: فأطرقت، فقال لي: يا إسحاق، لا تقل إلهاماً؛ فتقدمة على رسول الله؛ لأن رسول الله لم يعرف الإسلام حتى أتاه جبريل عن الله تعالى. قال: أجل، بل دعاه رسول الله إلى الإسلام. قال يا إسحاق، فهل يخلو رسول الله حين دعاه إلى الإسلام من أن يكون دعاه بأمر الله، أو تكلف ذلك من نفسه؟ قال: فأطرقت، فقال: يا إسحاق لا تنسب رسول الله إلى التكلف؛ فإن الله يقول: ﴿ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ص: ٨٦. قال: أجل يا أمير المؤمنين، بل دعاه بأمر الله. قال: فهل من صفة الجبار جل ثناؤه أن يكلف رسله دعاء من لا يجوز عليه حكم؟ قال: أعوذ بالله. قال: أفتراه في قياس قولك يا إسحاق أن علياً أسلم صبياً لا

أما أبو بكر فقد أسلم وهو رجل كبير ناضج؛ وعليه فإن إسلامه إسلام مقبول؛ لأنه في سن التكليف.

يجوز عليه الحكم، قد كلف رسول الله من دعاء الصبيان ما لا يطيقون، فهو يدعوهم الساعة، ويرتدون بعد ساعة فلا يجب عليهم في ارتدادهم شيء، ولا يجوز عليهم حكم الرسول ﷺ؟ أترى هذا جائزاً عندك أن تنسبه إلى الله عزّ وجل؟ قال: أعوذ بالله... قال: فهل بلغك أن الرسول ﷺ دعا أحداً من الصبيان من أهله وقرابته لئلا تقول: إن علياً ابن عمه؟ قال: لا أعلم، ولا أدري فعل أو لم يفعل.

إلى أن قال: يا إسحاق، هل تروي حديث الولاية؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: اروِه. ففعل، فقال: يا إسحاق، أرأيت هذا الحديث هل أوجب على أبي بكر وعمر ما لم يوجب لهما عليه؟ قال: إن الناس ذكروا أن الحديث إنما كان بسبب زيد بن حارثة لشيء جرى بينه وبين علي، وأنكر زيد ولاء علي، فقال رسول الله ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه». قال: في أي موضع قال هذا؟ أليس بعد منصرفه من حجة الوداع؟ قال: أجل. قال: فإن زيد بن حارثة قتل قبل الغدير، فكيف رضيت لنفسك بهذا؟ ويحكم لا تجعلوا فقهاءكم أربابكم؛ إن الله جلّ ذكره قال في كتابه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ التوبة: ٣١. ولم يصلوا لهم ولا صاموا ولا زعموا أنهم أرباب، ولكن أمروهم فأطاعوا أمرهم.

يا إسحاق، أتروي حديث «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قد سمعته، وسمعت من صححه وجحده. قال فمن أوثق عندك من سمعت منه فصححه، أو من جحده؟ قال: من صححه. قال فهل يمكن أن يكون الرسول ﷺ مزح بهذا القول؟ قال: أعوذ بالله. قال: فقال قولاً لا معنى له، فلا يوقف عليه؟ قال: أعوذ بالله. قال

أفما تعلم أن هارون كان أخا موسى لأبيه وأُمه؟ قال: بلى. قال: فعلي أخو رسول الله لأبيه وأُمه. قال: لا. قال: أو ليس هارون كان نبياً، وعلي غير نبي؟ قال: بلى. قال: هذان الحالان معدومان في علي، وقد كانا في هارون، فما معنى قوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»؟ قال: إنما أراد أن يطيب بذلك نفس علي لمّا قال المنافقون: إنه خلفه استثقالاً له. قال: فأراد أن يطيب نفسه بقول لا معنى له؟ فأطرق إسحاق، فقال: يا إسحاق، له معنى في كتاب الله بيّن. قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: قوله عزّ وجل حكاية عن موسى أنه قال لأخيه هارون عليهما السلام: ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْـمُفْسِدِينَ ﴾ الأعراف: ١٤٢. قال: يا أمير المؤمنين، إن موسى خلف هارون في قومه وهو حي ومضى إلى ربه، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله خلف علياً كذلك حين خرج إلى غزاته. قال: كلا، ليس كما قلت، أخبرني عن موسى حين خلف هارون، هل كان معه حين ذهب إلى ربه أحد من أصحابه أو أحد من بني إسرائيل؟ قال: لا. قال: أوليس استخلفه على جماعتهم؟ قال: نعم. قال: فأخبرني عن رسول الله صلى الله عليه وآله حين خرج إلى غزاته، هل خلف إلّا الضعفاء والنساء والصبيان، فأنى يكون مثل ذلك؟

ثم قال المأمون: وله عندي تأويل آخر من كتاب الله يدل على استخلافه إياه لا يقدر أحد أن يحتجّ فيه، ولا أعلم أحداً احتجّ به، وأرجو أن يكون توفيقاً من الله تبارك وتعالى. قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: قوله عزّ وجلّ حين حكى عن موسى قوله: ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ طه: ٢٩ ـ ٣٥. فأنت مني يا علي بمنزلة هارون من موسى؛ وزيري من أهلي، وأخي شدّ الله به أزري، وأشركه في أمري؛ كي نسبح الله

وبهذا فإن الخليفة الأول يكون قد سبق الإمام علياً عليه السلام إلى الإسلام؛ وإذا كان الأمر كذلك فإنه حينئذٍ لا تبقى أي فضيلة لعلي في هذا المورد.

ردّ ومناقشة

وهذا في واقع الأمر ما هو إلّا معالجة تنطوي على مغايرة للحق، كما أنها في الوقت نفسه تمثل التفافاً حول الحقيقة، وهذا ما يمكن بيانه وإيضاحه بما سنذكره هنا إن شاء الله حتى نبين غامض هذه المسألة إن كانت فعلاً غامضة عند أُولئك الذين يريدون أن يظهروا هذه المسألة بهذه الصورة، ويتعاملوا معها على هذا الأساس، وإلّا فإنهم يعلمون الحقيقة كاملة غير منقوصة، لكنهم كما ذكرنا إنما يقومون بعملية التفاف حول هذه الحقيقة وحول هذه المنظومة الواضحة المعالم من الوقائع الثابتة التي لا تقبل الشكّ ولا الارتياب ولا التنرييف.

إننا ذكرنا قبل قليل إحدى الحِكَم التي ارتأت المشيئة الإلهية على ضوئها أن يكون النبي عليه السلام معصوماً حتى لا يعبد غير الله تبارك وتعالى، وذكرنا قبل قليل أيضاً أن النبي عليه السلام إذا ما مارس العادات والعبادات والطقوس الشركية ولو لحظة في حياته وعلم الناس ذلك منه فإن نفوسهم سوف تأنف من اتباعه. وما ذلك إلّا لأن النبي الذي يعبد غير الله في لحظة من لحظات حياته فإنه لا يمكن أن يكون نبياً أبداً. وقد مثّلنا لذلك

كثيراً؛ ونذكره كثيراً. فهل يقدر أحد أن يدخل في هذا شيئاً غير هذا، ولم يكن ليبطل قول النبي صلى الله عليه وآله، وألّا يكون لا معنى له؟ العقد الفريد ٥: ٧٧ ـ ٨٤.

بإناءين أحدهما نظيف طاهر لم يصبه قذر أبداً والآخر أصابه القذر وأصابته النجاسة لكنه طُهّر بعد ذلك؛ فإن الناس عادة يقبلون على ذلك الإناء الطاهر الذي لم يصبه قذر، في حين أن الإناء الثاني الذي أصابه القذر تعافه أنفسهم. وقد بيّنا هذا مفصلاً آنفاً.

وهكذا فبملاحظة أمرين هامّين في المقام تسقط تلك الدعاوى الفارغة، وهما:

الأول: عدم سجود أمير المؤمنين عليه السلام لصنم قط

وهنا سوف نذكر هذه الآلية في الاستدلال مع هذه القصة التي نحن بصددها وهي إسلام علي عليه السلام وأنه صبي، فالملاحظ والثابت والمعلوم أن علي بن أبي طالب عليه السلام كما يقرّ به القاصي والداني، والعدو والصديق لم يسجد يوماً لصنم قط؛ حتى عبروا عنه بعبارات التكريم والتبجيل: (كرّم الله وجهه)، أي أنه قد كُرّم عن أن يسجد لصنم بمباركة من الله تبارك وتعالى حيث قالوا: (كرّم الله)، ولم يقولوا: (كُرّم وجهه). وهذا يعني أن الإمام علياً عليه السلام لم يعرف الشرك في حياته أبداً، وأن ذلك ليس محض صدفة أو عزوفاً تلقائياً، وإنّما هو عزوف مقنّن خاضع لرعاية إلهية مسبقة، ومتابعة ربانية أبت إلّا أن تصون هذا الطود العظيم عمّا صانت عنه سفراءها وأنبياءها عليهم السلام. وهكذا فهو عليه السلام حينما أسلم، أسلم عن قناعة وتفكير.. أسلم ولم يكن للشرك وجود في حياته، ولا في نفسه، ولا في ذهنه، ولا في منظوره الديني، أو العبادي.

إذن فالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام مثل ذلك الإناء لم يتدنس بدنس الجاهلية، ولم يتنجس بأنجاسها، ولم يلبس من مدلهمات ثيابها؛ فكان صافي القلب، نقيّ الوجود، طاهر السريرة، خالص التوجه إلى الله تبارك وتعالى. ومن هنا فإنه عليه السلام لا يمكن لأحد أن يدانيه في فضله، ولا أن يقاربه مجداً مؤثّلاً؛ فالله تعالى أراد لهذا الإنسان العظيم أن يكون له ذلك الشأن العظيم. وإذا ما كان الأمر كذلك فإنه تعالى لابدّ أن يطهّره من كلّ أدناس الجاهلية وأرجاسها، وأن يبعده عن جميع مدلهمات ثيابها، وأن يطهره من كلّ ما يمكن أن يدنس العقل والنفس الطاهرين النقيين الصافيين.

الثاني: رعاية الرسول صلى الله عليه وآله له رعاية خاصة لم تكن لغيره

هذا من جهة ومن جهة أُخرى فإنه حينما وُلد هذا الصبي المبارك علي ابن أبي طالب عليه السلام ذو الشأن الهام، والذي فتحت له الكعبة أبوابها ليولد فيها ـ وهي خاصية اختص بها دون غيره حتى من أنبياء الله تبارك وتعالى ـ سارع الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ـ وكان عمره الشريف صلى الله عليه وآله آنذاك ثلاثين عاماً ـ إلى أن تتلقّفه، يداه الكريمتان بالعناية الربانية، والرعاية السماوية المتجسّدة على يديه صلى الله عليه وآله، فكان يطلب من أُمه فاطمة بنت أسد عليها السلام أن تضع مهده إلى جانبه ليرعاه في الليل إذا ما انتبه أو استيقظ وبكى. ثم بعد أن اشتد عود علي عليه السلام كان صلى الله عليه وآله يحمله على كتفه، ويجوب به شعاب مكة وطرقاتها، ويذكر ما يذكر من أهمية هذا الوليد، وما

سيكون عليه من شأن وفضائل.

ولعل أهم أمر يمثّل عناية السماء المتمثّلة بعناية الرسول الأكـرم صلى الله عليه وآله بهذا الإنسان العظيم هو اصطحابه صلى الله عليه وآله معه إلى غار حراء حيث يتعبد الله تعالى؛ ليجبل نفسية علي عليه السلام على هذه العبادة، وليجعل منه شخصاً مطلعاً على مناجاته مع الله تبارك وتعالى وعلى هذه الديانة الحقّة، وعلى هـذا التوجه الصائب والصحيح في التعبّد والتألّه إلى الله تبارك وتعالى؛ ليستفيد منها أن ما كانت عليه قريش إنّما هو أمر باطل وبعيد كلّ البعد عن العقل وعن الشرائع السماوية.

وهذا ما لم يكن لغيره من أبناء المجتمع المكي إلّا لرسول الله صلى الله عليه وآله حيث إنه وُلد على الايمان، ونشأ على الإيمان، وترعرع على الإيمان، وتعبد الله على ديانة اختصه الله به قبل البعثة، فلم يعرف الشرك ولا عـباداتـه ولا طقوسه أبداً.

إذن فإننا نخلص من هذا إلى نتيجة هي أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم يكن ليفارق علياً عليه السلام منذ لحظة ولادته، فكما ذكرنا كان يطلب من اُمه فاطمة بنت أسد عليها السلام أن تضع مهده إلى جواره ليرعاه ليلاً، فضلاً عن أنه صلى الله عليه وآله كان يرعاه نهاراً.

وبعد أن اشتد عوده كان يحمله معه أينما ذهب، وكان يغدق عليه حنانه وعطفه ورقته وأخلاقه، ويغذيه بنبله وبكرم أخلاقه وبشيمه، وما إلى ذلك. وكما ذكرنا فإن أهم نقطة في حياة هذا الإنسان العظيم هـي اصـطحاب

النبي إياه إلى غار حراء حيث أراد له أن يسمع الوحي معه؛ لا لشيء إلّا لأنه لم يعرف الجاهلية، ولم يسجد لصنم قط، ولم يتعبد بعبادات الشرك أو طقوسه أو ممارساته الدينية الضالّة البعيدة عن الحق.

وفي غار حراء عاش الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لحظات التأمل وهو في سنيّ حياته الأُولى، والتي توّجها بسماعه الوحي وهو يطلب من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أن يقرأ القرآن ويردده وراءه، فكان ثاني شخص يسمع القرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان فمه الشريف بهذا ثاني فم تحرك بالقرآن، وأول فم تحرك بكلمة التوحيد بعد فم رسول الله صلى الله عليه وآله.

والدليل الدامغ على هذا أبياته عليه السلام الميمية التي ردّ فيها على افتخار معاوية بن أبي سفيان عليه، والتي يؤكد عليه السلام فيها هذه الحقيقة الناصعة حيث يقول:

محمدٌ النبي أخي وصنوي ... وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يمسي ويضحي ... يطير مع الملائكة ابن أُمي
وبنت محمد سكنى وعرسي ... فخالط لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ولداي منها ... فأيكُمُ له سهم كسهمي
سبقتكُمُ إلى الإسلام طراً ... صغيرا ما بلغت أوان حلمي

وهنا قال معاوية: أخفوا هذا الكتاب؛ لا يقرأه أهل الشام؛ فيميلوا إلى ابن أبي طالب[1].

(١) أقسام المولى (المفيد): ٣٨ - ٣٩، السنن الكبرى (البيهقي) ٦: ٢٠٦، شرح نهج

وكما ذكرنا فإن النبي الأكرم ﷺ عندما بُعث إلى أهل الأرض كان عمر علي عليه السلام عشر سنوات على رواية، وسبع سنوات على رواية أُخرى؛ ولهذا فإنه لم يكن قد بلغ أوان حلمه عليه السلام بعد.

خصوصية أهل البيت النبوي الطاهر عليهم السلام

وهنا ربما يقول قائل: هل إن إسلام الصبي يعتبر إسلاماً صحيحاً حقيقياً مقبولاً؟

ونجيبه بالقول: إن الواقع يأخذ بأيدينا ورقابنا إلى أن نسلم بحقيقة هي أن أهل هذا البيت ليسوا كغيرهم من الناس. والدليل على ذلك أن التفاف الناس حولهم لم يكن عن مشتهىً من مشتهيات أنفسهم، ولا عن رغبة نفسية بعيدة عن لحاظ جانب العقل فيها. لقد التفّ الناس حول أهل هذا البيت بدءاً من رسول الله ﷺ وانتهاء بأولاده؛ لأنهم كانوا على نمط شاءت له السماء أن يكون هدىً للناس وأن يكون إماماً لهم.. نمط أوسط يمثل اعتدال الأنبياء والأوصياء والأولياء عليهم السلام.

ومن هذا أننا نجد عبر مرويات التاريخ وعبر الكتب التي تناولت سيرة الرسول الأكرم ﷺ العطرة أنه كان يعامل الناس معاملة ترتبط بسنهم، فيعامل الكبير بنمط، ويعامل الصغير بنمط آخر. أما أهل هذا البيت، فقد

البلاغة ٤: ١٢٢، كنز العمّال ١٣: ١١١ / ٣٦٣٦٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٥٢٠، ٥٢١، الوافي بالوفيات ٢١: ١٨٤، البداية والنهاية ٨: ٩ ـ ١٠.

كان النبي ﷺ يعاملهم معاملة خاصة ومغايرة لما كان يعامل به غيرهم، فكان ﷺ يعامل صغيرهم كمعاملته كبيرهم. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن أهل البيت هؤلاء إنما هم نمط خاص، ولون متميز عن غيرهم لما هي عليه سيرتهم العطرة وأخلاقهم الحسنة، ولامتناعهم عن أن يسجدوا إلى صنم كما فعل غيرهم.

بيعة الصغير

ولعل أبرز دليل على معاملة النبي الأكرم أهل هذا البيت معاملة خاصة ما حصل في البيعة التي بايع المسلمون فيها رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، فنحن نعرف كما في كتب الفقه أن البيعة هي عقد من العقود اللّازمة، وإجماع المسلمين على أن العقد لا يُقبل إلّا من البالغ؛ فالصبي لا يُقبل منه أي عقد؛ سواء كان بيعة، أو كان بيعاً وشراء، أو زواجاً، أو ما إلى ذلك فإنه لا يصح عقده، ولا يقبل منه، بل لابدّ أن ينوب عنه وليه في ذلك. وهذا من بديهيات التشريع الإسلامي القائم على هذا المعنى؛ ولذلك فإن المعلوم أنّه من الناحية الشرعية لا يصح بيع الصبي ولا الشراء منه، ولا إجراء أي نوع من أنواع التعامل معه.

نعم يستثنى من ذلك أن يكون الصبي آلة في عملية البيع والشراء، أو في عملية المزارعة مثلاً أو ما إلى ذلك، ويعني قولنا: آلة أنه واسطة بين الطرف الأول الشرعي الذي بيده العقد وهو الأب مثلاً أو الأخ الأكبر البالغ حينما يرسله إلى البائع ليشتري له شيئاً. ففي مثل هذه الحالة يصح البيع

والشراء؛ لأنه لم يكن مع الصبي نفسه، بل إنه مع الطرف الآخر الذي هو الأب أو الأُم أو الأخ الأكبر البالغ، وإذا كان الأمر كذلك فإن المسألة حينها لا تعدو أن يكون الصبي فيها مجرّد آلة ينفّذ أوامر غيره ممّن أرسله لإجراء المبايعة، أو غيرها.

إذن فالبيعة لا تصح من الصبي؛ لأنها عقد، لكن الواقع والتاريخ يحدثاننا بخلاف ذلك حيث تذكر الكتب المختصّة أن النبي الأكرم والرسول الأعظم صلى الله عليه وآله قد قبل بيعة الحسنين عليهما السلام، مع أن الحسن كان عمره سبع سنوات والحسين كان عمره ست سنوات، وليست بيعتهما هنا آلية، بل إنها بيعة أصيلة أي أنها بيعة عن أنفسهما؛ لأن أباهما عليه السلام قد بايع رسول الله صلى الله عليه وآله عن نفسه.

ومن خلال هذه الحادثة وغيرها من الحوادث المماثلة نستشفّ أمراً، ونخرج بقاعدة هي أن مسألة صغر السنّ وعدمها عند أهل هذا البيت عليهم السلام لها خاصية لم تكن لتوجد عند شخص آخر أو عند بيت آخر من بيوتات مكة أو غيرها، فصغر السن لا يؤثر على قبول التكليف وعدمه. وهو لم يكن بالأمر الذي يؤخذ بالحسبان، فيبنى عليه صحة العمل من عدمه. ومن هنا فإن إسلام أمير المؤمنين عليه السلام وهو صبي لا يُتعامل معه على أنه إسلام قبل البلوغ، بل إن له حالة استثنائية خاصة، كما أن لمبايعة الحسن والحسين لرسول الله صلى الله عليه وآله لها حالة خاصة.

أمير المؤمنين عليه السلام الجندي المدافع عن رسول الله صلى الله عليه وآله

وبعد أن اشتد عود أمير المؤمنين عليه السلام، وأصبح قادراً على حمل السيف

كانت يده لا تفارق قبضة سيفه وهو يمشي خلف رسول الله ﷺ في تنقلاته داخل مكة وخارجها وهو يدعو الناس إلى الإسلام؛ ليدافع عنه ويدفع أذى كلّ من يحاول أن يلحق به أذىً قلّ أو كثر. فكان عليه السلام لا يفارق بيت النبي إذا ما كان النبي ﷺ داخل بيته، ولا يفارق النبي حينما يخرج ليدعو الناس إلى الله تبارك وتعالى.

وإذا ما تخلّف عليه السلام يوماً عن أداء هذه الوظيفة لظرف طارئ قاهر كان النبي الأكرم ﷺ يرجع إلى بيته بعد يوم مثقل وقدماه تدميان نتيجة رميه بالحجارة حيث إن بعض المناطق كان أهلها يأمرون صبيانهم بأن يرموا رسول الله ﷺ حينما يقصدهم ليدعوهم إلى الإسلام بالحجارة وهو في طريقه إليهم أو في منصرفه منهم.

وكل هذه العقبات والأُمور لم تكن لتثني رسول الله ﷺ عن عزمه في مواصلة الدرب، ومواصلة مسيرة الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، بل إنها كانت تزيده إصراراً على مواصلة هذه المسيرة المشرّفة، وعلى اختطاط خط الدعوة إلى الله حتى يتمّه من حيث بدأ دون أن تكون هنالك أدنى نقطة من التقصير موجودة فيه. لقد كان ﷺ يستمد من كلّ هذه المعرقلات والمعوقات عزيمة للمضاء في طريقه، وكانت تزيده صلابة على صلابته فتدفعه إلى أن يخرج ثانية وثالثة وإلى ما لا حدّ له من المحاولات إلى الناس من أجل أن يدعوهم إلى الله تبارك وتعالى؛ لعل الله يلقي في قلوبهم الإيمان بهذا الدين الجديد.

وكانت أول عبارة فاه بها بعد نزول الوحي عليه حيث وقف على مرتفع

في مكة بعد أن جمع الناس هناك: «**لو قلت لكم: وراء هذا الجبل قوم يريدون غزوكم، أما كنتم تصدقوني؟**». قالوا: بلىٰ، لأننا ما عرفنا منك كذباً، وأنت فينا الصادق الأمين. فقال ﷺ: «**والله لقد جئتكم بخير ما جاء به وافد قومه، قولوا: لا إله إلّا الله تفلحوا. انبذوا عبادة الأوثان، واتّجهوا لعبادة الرحمن**».

وخلال هذه الفترة من الدعوة التي كانت محوطة برعاية أبي طالب عليه السلام لم يكن القرشيون ليجرؤوا على أن تمتد أيديهم إلى النبي الأكرم ﷺ بأذى، أو أن يتمكنوا من أن يدنو له فيسببوا له عائقاً أو وسيلة منع؛ لأن أبا طالب كان الحامي والناصر والمدافع الذي بذل كلّ شيء في سبيل نصرة ابن أخيه وحمايته والدفاع عنه وعن دينه(١).

قريش وتعذيبهم الرواد الأوائل من المسلمين

غير أن الرواد الأوائل الذين استجابوا لداعي الله، وآمنوا بدعوته، وكانوا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ فَآمَنَّا**﴾(٢) كانوا قد تعرضوا لألوان من العذاب والتعذيب، وإلى شتى صنوف الملاحقة، حتى وصل الأمر بملاحقتهم أن انتهى معه أمرهم إلى حالات مرعبة من التعذيب الجسدي والنفسي الذي كان يمارسه القرشيون

---

(١) حتى قال ﷺ، «ما زالت قريش كاعّة حتى توفي أبو طالب». المستدرك على الصحيحين ٢: ٦٢٢، قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٢) آل عمران: ١٩٣.

ضدّهم.

إن التاريخ يحدثنا عن نماذج كثيرة من الممارسات التعسفية والتسلطية التي كان يمارسها عتاة قريش ضدّ المسلمين الأوائل، بل يتفنّنون باستخدامها وتنويعها، حيث كانوا يعذبونهم بشتى صنوف التعذيب، ويفعلون معهم كلّ ما استطاعوه يردوهم عن دينهم القهقرى.

الأنموذج الأول: أبو جهل وعبد الله بن مسعود

وكمثال على ذلك ما كان يفعله أبو جهل (أذله الله وأخزاه) بعبد الله بن مسعود (رضي الله عنه وأرضاه)، وابن مسعود هذا هو أحد القرّاء السبعة، والصحابي الجليل الذي صحب النبي الأكرم ﷺ منذ أول ولادة الدين الإسلامي. فكان أبو جهل يخرجه إلى الرمضاء ويضربه ويستمر بضربه حتى يوشك على الموت. بل يروي المؤرخون أن لحمه كان يرتفع مع السياط التي كانت تنهال على جسده.

لكن هذا كلّه لم يكن بالذي يردع هؤلاء (عبد الله بن مسعود وإخوانه من أبناء الجيل الأول من الصحابة) عن أن يستمروا على الثبات على دينهم ومبدئهم وعقيدتهم، وهو ما أثار عجب قريش واستغرابها؛ إذ رأت فيه صموداً خارقاً للعادة.

الأنموذج الثاني: آل ياسر

قد وصل كما أن ببعض هؤلاء الرواد إلى أن يسلموا أرواحهم إلى الموت ثباتاً على العقيدة تحت وطأة التعذيب دون أن يرتدوا عن دينهم أو

أن يرجعوا عنه القهقرى مهما كانت أدوات التعذيب ووسائله، ومهما كانت ألوانه وأصنافه. ومن هؤلاء ياسر وزوجه سمية (رضوان الله عليهما) حيث إنهما قد ماتا تحت وطأة التعذيب في محاولة لإفراغ ما انطوى عليه قلباهما من إيمان دون جدوى، فكانا أن ماتا شهيدين في سبيل العقيدة والمبدأ، وفي سبيل الثبات على هذا الدين الجديد.

ولهذا فإن بعض الصحابة في أول الدعوة كانوا يطلبون من النبي الأكرم أن يأذن لهم بمقاتلة المشركين على قلة عددهم، لكنه ﷺ كان يرفض ذلك، ويبين لهم أن الله تبارك وتعالى لم يطلب منه أن يقاتل الكافرين بعد، أو أن يأمر أصحابه بمقاتلتهم؛ فالإذن بالقتال لم يحصل بعدُ، ولم يحن وقته حتى تلك الساعة. ولذلك فإنهم بقوا على حالهم دون أن يشيموا سيفاً أو يرفعوا رمحاً في وجه أعداء الله حتى نزل الإذن بذلك عبر قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1]، فكان أن امتشقوا سيوفهم، وانتضوا رماحهم ونبالهم، وراحوا يقاتلون في سبيل هذا الدين وفي سبيل إحقاقه وإعزازه.

---

(١) الحج: ٣٩.

إرهاصات التحاقه ﷺ بالرفيق الأعلى وأعماله فيها

وعلى أية حال فالرسول الأكرم الحبيب المصطفى ﷺ بعد أن نزل به الوجع الأخير وكان ذلك في يوم السبت، أحسّ به أنه وجع الموت، وأن أجله الشريف قد حان، وعذره من الدنيا قد انقطع؛ ولذا فإنه ﷺ عزم على إنجاز بعض الأُمور، ومنها:

أولاً: زيارة البقيع واستغفاره لأهله

يروي المؤرخون أنه ﷺ حينما عرضت له الشكاة التي توفي فيها (أرواحنا له الفداء)، وكانت يوم السبت كما ذكرنا، وأحسّ ﷺ بالمرض الذي عراه، أخذ بيد أخيه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وتوجه إلى البقيع، فتبعه جماعة من المسلمين، فقال ﷺ لمن تبعه: «**إنني قد أُمرت بالاستغفار لأهل البقيع**». فانطلقوا معه حتى وقف بين أظهرهم فقال ﷺ: «**السلام عليكم يا أهل القبور، ليهنئكم ما أصبحتم فيه مما فيه الناس، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع أولها آخرها**».

ثم استغفر لأهل البقيع طويلاً.

ثانياً: عرض جبرئيل عليه السلام عليه ﷺ القرآن الكريم مرتين

ثم إنه ﷺ أقبل بعد ذلك على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وقال له: «**إن جبرئيل عليه السلام كان يعرض عليّ القرآن كلّ سنة مرة، وقد عرضه عليّ العامَ مرتين، ولا أراه إلّا لحضور أجلي. يا علي، إني خيرت بين خزائن الدنيا**

والخلود فيها، أو الجنة، فاخترت لقاء ربي والجنة، فإذا أنا مت فغسّلني»... إلى آخر كلامه الشريف.

ثالثاً: خطبته الأخيرة في المسجد الشريف

ثم عاد ﷺ إلى منزله، فمكث ثلاثة أيام موعوكاً، ثم خرج إلى المسجد معصوب الرأس، معتمداً على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بيمنى يديه، وعلى الفضل بن العباس باليد الأُخرى، حتى صعد المنبر فجلس عليه، ثم قال: «**معاشر الناس، قد حان مني خفوف من بين أظهركم، فمن كان له عندي عدة فليأتني أعطِه إياها، ومن كان له علي دين فليخبرني به. معاشر الناس، ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً، أو يصرف به عنه شرّاً إلّا العمل**»[١].

ثم بعد ذلك ازداد عليه الوجع، واشتدّت عليه العلّة، وكان ذلك في الحادي والعشرين من صفر، واستمر به الألم حتى اليوم الثامن والعشرين منه حيث وافته منيّته، وكان ذلك في يوم الخميس وعلى رواية أُخرى أنه يوم الاثنين. غير أن رواية الخميس هي الأكثر شهرة، ودليلها ما يرويه عبد الله بن عباس رضي الله عنه كما يرويه عنه البخاري[٢] ومسلم[٣] وغيرهما[٤] من

(١) الإرشاد ١: ١٨١ - ١٨٢، الطبقات الكبرى ٢: ٢٠٤، مسند أحمد ٣: ٤٨٩، سنن الدارمي ١: ٣٦ - ٣٧.

(٢) صحيح البخاري ٤: ٣١، ٦٥ ـ ٦٦، ٥: ١٣٧.

(٣) صحيح مسلم ٥: ٧٥، ٧٦.

(٤) مسند أحمد ١: ٢٢٢، ٣٥٥، السنن الكبرى (البيهقي) ٩: ٢٠٧، مسند الحميدي ١:

أصحاب المسانيد والصحاح وهو قوله رضي الله عنه: الخميس وما يوم الخميس؟ ثم بكى حتى بلّ دمعه الحصى. فقيل له: يا أبا العباس، وما يوم الخميس؟ قال: اشتدّ برسول الله صلى الله عليه وآله وجعه، فقال لنا: «**ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً**».

وكان يقول: الرزية كلّ الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين أن يكتب لنا ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم.

فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبيّ تنازع. فقالوا: ما شأنه أهجر؟ قال سفيان: يعني هذى، استفهموه. فذهبوا يعيدون عليه، فقال: «**دعوني؛ فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه**». وأمر بثلاث، قال: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم...**». وسكت سعيد عن الثالثة[1]، فلا أدرى أسكت عنها عمداً، أو نسيها.

وورووها مرّة كما في البخاري[2] ومسلم[3] وغيرهما[4] بلفظ: لما حضرت النبي صلى الله عليه وآله الوفاة، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال

---

٢٤١ ـ ٢٤٢ / ٥٢٦، السنن الكبرى ٣: ٥٨٥٤ / ٤٣٤، السنن الكبرى (النسائي) ٣: ٥٨٥٧ / ٤٣٥، مسند أبي يعلى ٤: ٢٩٨ / ٢٤٠٩.

(١) في الإيضاح (ابن شاذان): ٣٥٩ ـ ٣٦٠ أن الثالثة هي قوله صلى الله عليه وآله: «أنفذوا جيش أُسامة بن زيد».

(٢) صحيح البخاري ٥: ١٣٨، ٧: ٩، ٨: ١٦١.

(٣) صحيح مسلم ٥: ٧٦.

(٤) الأمالي (المفيد): ٣٦ – ٣٧ / ٣، مسند أحمد ١: ٣٢٥.

رسول الله صلى الله عليه وآله: «**هلموا أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبداً**». فقال عمر: لا تأتوه بشيء؛ فإنه يهجر، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قوموا يكتب لكم رسول الله، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما كثر اللغط والاختلاف قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**قوموا عني**».

وعبارة الخليفة الثاني هي التي هذّبها البخاري حيث غيرها إلى قوله: قد غلبه الوجع.

ولهذا كان ابن عباس رضي الله عنه يبكي حتى تبلّ دموعه الحصباء، كما رأينا.

فكان تنازع هؤلاء عند النبي صلى الله عليه وآله حيث كانوا بين مؤيد لإعطائه الدواة، وبين رافض لذلك، الأمر الذي أدّى إلى تألم النبي صلى الله عليه وآله منهم، فكان أن أمرهم بالخروج من عنده قائلاً: «**دعوني؛ فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه**». وهو تصديق لقول ابن عبّاس رضي الله عنه: ولا ينبغي عند نبيّ تنازع.

ثم انطوى صلى الله عليه وآله على نفسه وعلى ألمه الذي اشتدّ عليه نتيجة موقف المسلمين عنده، وكان بين آونة والأُخرى يرفع الغطاء عن وجهه ويقول: «**رفقاً بي ملائكة السماوات، رفقاً بي ملائكة ربي، لمثلها فليعمل العاملون**». ويقول صلى الله عليه وآله: «**حبيبي جبرئيل، عند الشدائد لا تخذلني**»[1].

ويقول صلى الله عليه وآله: «**اللهمّ أعنّي علىٰ سكرات الموت**»[2].

ثم أقبل الحسن والحسين عليهما السلام، فوقعا على صدره، فأراد الإمام أمير

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٧٣٦ / ١٠٠٤. (٢) الدعوات (الراوندي): ٢٥٠ / ٧٠٥.

المؤمنين عليه السلام أن يبعدهما عنه؛ لئلّا يضايقاه، فقال صلى الله عليه وآله له: «**لا، لا يا علي، دعهما أتزوّد منهما ويتزوّدا مني**»[١].

ثم أخذ يضمّهما إليه وهو في آخر لحظات حياته.

ثم جاءت بضعته وكريمته السيدة فاطمة الزهراء البتول عليها السلام، فألقت بنفسها عليه وهي تصيح: «**وا لوعتاه، وا ثكلاه بعدك يا رسول الله**». فأشار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن ينحيها، وكان صلى الله عليه وآله لا يزال به بقية من حياة، فأقبل إليها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وأقامها من على جسد أبيها برفق[٢].

لكنه صلى الله عليه وآله لمّا اشتدّ عليه الأمر بعد ذلك، وسجّاه أمير المؤمنين عليه السلام إلى القبلة، وأغمض صلى الله عليه وآله عينيه، ومدّد يديه ورجليه، وفاضت روحه الطاهرة الشريفة، وأقبلت إليه ابنته فاطمة عليها السلام، وألقت بنفسها عليه لم يكن بالذي يستطيع أن يأمر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بأن ينحيها عنه؛ ولذا فإنها راحت تغمره بقبلاتها، وراحت تحضن ذلك الجسد الكريم والصدر الرؤوم الذي طالما أحنى عليها وأحاطها برعايته وبحنانه، وأمتعها بأُبوته الثرة الغنية، فنادت عليها السلام: «**يا أبتاه، مِن ربِّه ما أدناه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه أجاب ربّاً دعاه**»[٣].

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٦٠٢/ ١٢٤٤.

(٢) انظر: الأمالي (الصدوق) ٧٣٢ـ ٧٣٦ / ١٠٠٤، مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠١ ـ ٢٠٣.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠٤، مسند أحمد ٣: ١٩٧، سنن الدارمي ١: ٤١، سنن ابن

وما إن علم الناس بأن روح نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله الشريفة قد ارتفعت إلى الملأ الأعلى عند بارئها حتى أقبلوا يهرعون إلى بيت رسول الله ويتنادون: وا رسول الله، وا نبي الله. حتى ضجت المدينة بأكملها ضجة واحدة. وبعد أن أكمل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تغسيله وتكفينه، وحمل المسلمون جثته إلى حيث يوارونه التراب، أقبلت السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام خلفهم، ثم راحت تخاطبهم قائلة: «**كيف سخت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله صلى الله عليه وآله**»[1].

ثمّ جلست عند قبره الشريف، وراحت عليها السلام تقول:

ماذا على من شمّ تربة أحمد ألّا يشمّ مدى الزمان غواليا
صُبّت عليّ مصائب لو أنها صُبّت على الأيّام صرن لياليا[2]

وهكذا أصبح هذا المكان الطاهر الشريف والمقدّس الذي ضم صدر أبيها وحنانه وعطفه هو المكان الأثير لديها، والمفضل عندها، فكانت تقصده كلّما حنّت إليه واشتاقت، فتذرف عنده دمعتها، وتبكيه وتندبه، حتى وصل الأمر بالقوم إلى أن دخلوا على أمير المؤمنين عليه السلام وطلبوا منه

ماجة ١: ٥٢٢ / ١٦٣٠.

(١) سنن ابن ماجة ١: ١٦٣٠ / ٥٢٢، المستدرك على الصحيحين ١: ٣٨٢، المعجم الكبير ٣: ٦٤، سير أعلام النبلاء ٢: ١٢٠، تاريخ الإسلام ٣: ٤٣.

(٢) المغني (ابن قدامة) ٢: ٤١١، نظم درر السمطين: ١٨١، سبل الهدىٰ والرشاد ١٢: ٢٨٩، ٣٣٧، مغني المحتاج ١: ٣٥٦.

أن يأمر فاطمة الزهراءعليها السلام بالكفّ عن البكاء، ونـدبة رسـول الله؛ لأنـها تؤذيهم بكثرة بكائها، ثم خيروه بأن قالوا له: إما أن تبكي أبـاها ليـلاً أو نهاراً، أما أنها تبكيه ليلاً ونهاراً فهذا ما لا يمكن.

فكان أن عمد أمير المـؤمنين عليه السلام إلى أن بـنى لهـا بـيتاً سـماه بـيت الأحزان، فكانت تأخذ بيد الحسنين معها إلى ذلك البـيت لتـندب أبـاها وتبكيه إلى أن يجنها الليل فترجع بهما إلى الدار مارة على قبر النبي (عليه أفضل الصلاة والسلام).

المسلمون وشجرة طوبى

ومن هذا النمط يكون معنى طوبى التي هي شجرة في الجنة، فمن كان عندها كان وجوده تحتها دليلاً على قربه من الله عزّ وجلّ، وعلى وصوله إلى عطائه جل شأنه.

شجرة طوبى تبتهج لزواج أمير المؤمنين عليه السلام

يروى أن هذه الشجرة المباركة قد كلّفت بتكاليف من أجل الرسـول الأكرم صلى الله عليه وآله، ومن أجل الإمام أمـير المـؤمنين عليه السلام، ومـن أجـل الأئـمة المعصومين عليهم السلام. وكذلك فإنه لا يخفى أن جـميع المـذاهب الإسـلامية تروي أن الله تبارك وتعالى لما أشهد ملائكته عليهم السلام على تـزويج سـيّدتنا ومولاتنا فاطمة الزهراءعليها السلام من الإمـام أمـير المـؤمنين عـلي بـن أبـي طالب عليه السلام، أمر شجرة طوبى أن تنثر حملها وما فيها من الحلي والحلل، فنثرت الشجرة ما فيها من ذلك، فالتقطته الملائكة، والحور العـين، ثـم

رحن يتهادَينه ويفتخرن به. ولا زلن على هذا إلى يوم القيامة[١].

شجرة أصلها في دار علي عليه السلام في الجنة

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ**﴾[٢]، قال: شجرة أصلها في دار علي عليه السلام في الجنة، وفي دار كلّ مؤمن منها غصن يقال له طوبى[٣].

وهذا المعنى هو الذي أخذه أحد أُدباء الشيعة المؤمنين، وصوره لنا نصّاً شعرياً رائعاً حيث يقول:

نصب الجليل لجبرئيل منبراً ... في ظلّ طوبى من متون زبرجدِ
شهد الملائكة الكرام وربّهم ... وكفى بهم وبربهم من شُهّدِ
وتناثرت طوبى عليهم لؤلؤاً ... وزمرّداً متتابعاً لم يعقدِ
وملاك فاطمة الذي ما مثله ... في متهم شرف ولا في منجدِ[٤]

موقف المسلمين من هذه الرواية

وبغضّ النظر عن كون هذه الرواية التي ذكرنا أن بعض أبناء المذاهب الإسلامية يروونها صحيحةً أو غير صحيحة فإننا نقول: إنها سواء كانت كذلك أو لم تكن فإنها لا يمكن أن تزيد في قدر الإمام أمير المؤمنين علي

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١١: ٣٦٨. (٢) الرعد: ٢٩.

(٣) تفسير الثعلبي ٥: ٢٩٠.

(٤) الأبيات للسيّد الحميري رضي الله عنه: مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٥، شجرة طوبى ٢: ٢٥٠. والمتهم: من يمّم تهامة، والمنجد: من يمّم نجداً.

ابن أبي طالب عليه السلام ولا أن ترفع من شأنه، كما أن عدم ثبوتها لا يعني نقصاً في فضائل هذا الشخص العظيم الذي عجز المحصون عن أن يحصوا فضائله ومناقبه وكراماته.

أمثلة من التحكّمات والنقد اللّاموضوعي

إن علي بن أبي طالب عليه السلام قد بلغ من الملاكات التي تبتني على أساس رقي مدارج الكمال، وبلغ من الكمالات في رُتب السموّ ما لا يحتاج معه إلى مثل هذه المنقبة. وكما ذكرنا فإن ثبوتها لا يزيده، وعدم ثبوتها لا ينقص منه منزلته بعد أن بلغ ما بلغ بحيث إنه بلغ حداً لا يمكن أن يكون فوقه في يومٍ من الأيام.

المثال الأول: الملائكة تنثر الدر والياقوت على روح ابن حنبل

ومع ذلك فإن أحد الباحثين من أبناء المذاهب الإسلامية حينما يمر بهذه النقطة ويدرسها، فإنه يعيب الشيعة عليها، ويصرح بأن الشيعة لا حياء لهم؛ إذ يؤمنون بالخرافات أمثال هذه الخرافة بعد أن صوروا أن في الجنة شجرة اسمها طوبى أوحى الله إليها أن تحمل اللؤلؤ الرطب، وأن تنثره على الحور العين فرحاً بزواج علي بن أبي طالب عليه السلام من سيّدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام.

وكما ذكرنا فإننا لا نريد أن نناقش هذه الرواية ولا أن نقف عندها، لكننا نريد أن نقف عند هذا الإنسان نفسه الذي ينكرها علينا، حيث إنه عنده من الروايات من أمثال هذه لكنه كأنه لم يلتفت إليها، أو لم يطلع

على هذا وهو ما سنوضحه له مما يروونه هم كما عن أبي إسحاق الشيرازي وكان له صديق حنبلي غاب عنه فترة طويلة، فلما عاد سأله عن غيبته، فقال: حدث لي أمر عجيب، وسوف أُخبركم به. قيل: ما هو؟ قال: رأيت في المنام أني دخلت الجنة، فرأيت شيئاً غير طبيعي يحدث فيها، فقلت: ما الخبر؟ قيل: قدم علينا روح أحمد بن حنبل، فرأيت الملائكة تأخذ من اللؤلؤ والدر والياقوت الذي هو حصى الجنة، وتنثره على روحه.

ثم أخرج لهم شيئاً من ذلك اللؤلؤ والدر والياقوت، ووضعه بين أيديهم وقال: هذا مما التقطت منه ممّا نثرته الملائكة[1].

---

(١) لم نعثر على هذا النص، وما في بعض المصادر قريب منه؛ فعن بندار بن بشار قال: رأيت سفيان الثوري، فقلت: إلام صرت؟ قال: إلى أكثر مما أملت. فقلت: ما هذا الذي في كمّك؟ قال: درّ وياقوت، قدمت علينا روح أحمد بن حنبل، فأمر الله أن ينثر عليه ذلك، فهذا نصيبي. سير أعلام النبلاء ١١: ٣٥٤.

وذكر أبو الفرج بن الجوزي قال: حدث إبراهيم الحربي قال: رأيت بشر بن الحارث الحافي في المنام كأنه خارج من باب مسجد الرصافة، وفي كمه شيء يتحرك، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وأكرمني. فقلت: ما هذا الذي في كمك؟ قال: قدم علينا البارحة روح أحمد بن حنبل، فنُثر عليه الدر والياقوت، فهذا مما التقطت. قلت: فما فعل يحيى بن معين وأحمد بن حنبل؟ قال: تركتهما وقد زارا رب العالمين، ووضعت لهما الموائد. قلت: فلِم لَم تأكل معهما أنت؟ قال: قد عرف هوان الطعام علي، فأباحني النظر إلى وجهه الكريم. وفيات

ولننتقل إلى هذا المفتري على الشيعة، والمتّهم إياهم بالجهل والخديعة، ولنقل له: إن المسألتين إذا كانتا من جنس واحد، والقضيتين إذا كانتا في سنخ ومقام واحد، فلماذا تعتبر إحداهما خرافة والثانية فضيلة علمية، مع العلم أنهما كليهما يرجعان إلى مفهوم واحد وإلى جنسٍ واحد؟ فإذا لم يكن في الجنة شجرة اسمها طوبى، ولم يكن بالإمكان أن تنثر اللآلئ والجواهر على حور العين فإنه من باب أولى ألّا يمكن أن يحضر أحد من أهل الأرض من ذلك النثار الذي تنثره الملائكة على روح أحمد بن حنبل.

فلماذا كانت مع علي بن أبي طالب عليه السلام خرافة، ومع أحمد بن حنبل حقيقة علمية، ومنقبة وفضيلة؟ فإما أن تكونا كلاهما خرافتين، وإما أن تكونا كلاهما صحيحتين.

ومن هنا فإننا نرى أن البعض وإن يصل إلى حد من العلم والمعرفة مما يمكن أن يعتبر معه عملاقاً في مجاله، لكنه أحياناً يصل به الأمر من العصبية والرواسب الجاهلية التي تصب في نفسه وعقله، والتي يقع تحت تأثيرها إلى أن يتصاغر أمامها، فتجعل من هذا العملاق قزماً أمام الحقائق، وتأخذ بيده وتكوره وتحوله إلى قزم صغير يتعثر ويقع بأبسط الأفكار وأسلمها إذا ما عالجها بناء على تلك العصبية والرواسب الجاهلية التي

الأعيان ١: ٦٥.

تعشعش في نفسه، فيقع عن جواد العلم مكباً على وجهه، مخطئاً في تقييمه.

حقيقة الزهد

وإذا كان الأمر على هذه الشاكلة التي صورناها فما هي حقيقة الزهد إذن؟ وما هو الزهد الذي يراد ويمدح صاحبه؟ وما هو الشيء المبغض إلى الله تبارك وتعالى بحيث إن ارتكابه يؤدّي إلى منافاة عمل الإنسان وقصده مع الزهد؟ إن الإجابة عن هذه التساؤلات هي إجابة سهلة وواضحة ذلك أن كلّ شيء من اللذائذ والمنافع التي يحصل عليها الإنسان في الدنيا إذا كانت من حلها، ووضعها في محلها فهي لذائذ وخيرات وتصرفات محبوبة إلى الله تبارك وتعالى، وإذا أخذها الإنسان من غير حلّها، ووضعها أو أنفقها في غير محلّها فإنها تصبح حينئذٍ أفعالاً وتصرفات ولذائذ مبغوضة إلى الله تبارك وتعالى.

وبناء على هذا فإن الزهد في الحياة لا يعني ترك الانتفاع بكل ما فيها حتى وإن كان ذلك الانتفاع على نحو الحلال، بل إن الزهد هو الابتعاد عن كل ما يبغّض فاعله إلى الله تبارك وتعالى، وألّا يجعل الإنسان من نفسه مملوكاً للدنيا ولمتاعها، فتسيره وتسير شهواته وغرائزه إلى حيث يصب في خدمة الشيطان.

الإمام الصادق عليه السلام وسفيان الثوري

مرّ سفيان الثوري في المسجد الحرام، فرأى الإمام أبا عبد الله

الصادق عليه السلام وعليه ثياب كثيرة القيمة حسان، فقال: والله لآتينه ولأوبّخنّه. فدنا منه، فقال: يابن رسول الله، ما لبس رسول الله صلى الله عليه وآله مثل هذا اللباس، ولا علي عليه السلام، ولا أحد من آبائك! فقال له الإمام عليه السلام: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله في زمان قتر مقتر، وكان يأخذ لقتره وإقتاره، وإن الدنيا بعد ذلك أرخت عز إليها، فأحقّ أهلها بها أبرارها: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ونحن أحق من أخذ منها ما أعطاه الله. غير أني يا ثوري ما ترى علي من ثوب إنما ألبسه للناس**»، ثم اجتذب يد سفيان فجرّها إليه، ثم رفع الثوب الأعلى، وأخرج ثوباً تحت ذلك على جلده غليظاً، فقال: «**هذا ألبسه لنفسي، وما رأيته للناس**»، ثم جذب ثوباً على سفيان أعلاه غليظ خشن، وداخل ذلك ثوب لين، فقال: «**لبست هذا الأعلى للناس، ولبست هذا لنفسك تسرّها**»[1].

الإمام الرضا عليه السلام وجماعة من الصوفية

ودخل جماعة من أهل الصوفية على الإمام الرضا عليه السلام، وكان حينها يلبس اللباس الحسن، فلامه أحدهم منتقداً إياه بقوله: إن أباك كان يلبس الخشن، ويأكل الجشب، ويركب الحمار، ويعود المريض، وأنت تلبس مثل هذا؟ وكان الإمام الرضا عليه السلام متكئاً، فاستوىٰ جالساً، ثم قال له: «**أما علمت أن يوسف عليه السلام نبي ابن نبي كان يلبس أقبية الديباج مزرورة بالذهب، ويجلس في مجالس آل فرعون يحكم، فلم يحتج الناس إلى لباسه وإنما احتاجوا**

(١) الكافي ٦: ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

إلى قسطه. وإنما يُحتاج من الإمام في أن إذا قال صدق، وإذا وعد أنـجز، وإذا حكم عدل. إن الله لا يحرّم طعاماً ولا شراباً من حلال وإنما حرّم الحرام قلّ أو كثر، وقد قال الله عزّ وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾(١)»(٢).

نعم، ينبغي ألّا يصل الأمـر بـنا إلىٰ حـدّ السـرف، وأن نـجعل سـيرة الأيمّة عليهم السلام المتكاملة نصب أعيننا، وأن نكون كما كانوا لا كما كان يعمل الخلفاء العباسيّون والأُمويّون، حيث يطلب أحدهم عند موته تابوتاً مـن العقيق يكلّف مئة وثمانين ألف دينار، أو يلبس اللباس الذي يكلف آلاف الدنانير أو الدراهم(٣).

وهؤلاء كأنما الأمر عندهم أن كلّ من قرأ وحصل شيئاً من المعلومات أو مقداراً من المعرفة والعلم أصبح في نظر نفسه عـالماً أو فـيلسوفاً أو مناظراً يستطيع أن يوجه النقد والانتقاد إلى الآخـرين دون حـرج؛ لأنـه يرى من نفسه أنه على مكانة علمية عالية.

وهذا داء يصيب الإنسان أياً كان نوع تفكيره، وأياً كان نمطه وتوجّهه؛

---

(١) الأعراف: ٣٢. (٢) الكافي ٦: ٤٥٤.

(٣) نقل الميانجي في مواقف الشيعة ٣ : ٢١٣ أن الوليد بن زيد دخل على هشام بن عبد الملك، وعلى الوليد عمامة فقال له: بكم أخذت عمامتك؟ قال : بألف درهم. فقال هشـام : عمامة بألف! يستكثر ذلك. فقال له الوليد: إنها لأكرم أطرافي، وقد اشتريتَ جارية بـعشرة آلاف دينار لأخس أطرافك.

ووجود هذا النمط في المجتمع البشري يؤدّي إلى حصول غرور عندهم، وبالتالي فإنهم يظنون أنفسهم علماء دون أن يكونوا علماء فعلاً، وهذا الأمر يؤدّي إلى أن يمتنع عن طلب العلم والمعرفة؛ ظناً منه أنه قد بلغ الكمال في ذلك.

وهذا الأمر لا ينطبق على شخص دون شخص، ولا على مجموعة دون مجموعة بل إننا نشاهد في مجتمعاتنا المعاصرة، بل حتى ممن نعرفهم أن ذلك الشخص مجرد أن يلبس لباس أهل العلم وما يستتبعه من لوازم فإنه يظنّ من نفسه قد أصبح في مرتبة الاجتهاد، فيروح يتصرّف في العالم والوجود على ضوء هذا التصور منه مع أنه ينبغي أن يلتفت إلى خطورة هذا التوجّه، وإلى أنه محاسب عليه يوم القيامة؛ لأنه وضع نفسه في غير موضعها اللائق بها(١).

نتيجة البحث

إذن فالله تبارك وتعالى قد خلق لنا كلّ هذه النعم، وأمرنا بأن ننتفع بها، فقال جلّ شأنه في كتابه الكريم: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾. وهكذا فإن الله تبارك وتعالى حينما خلق لنا النعم فإنه لم يخلقها لنا ثم أمرنا بألّا ننتفع بها، بل إنه خلقها لنا وأمرنا بأن ننتفع بها جميعها، لكنه

(١) وقد قال عليه السلام: «رحم الله امرأ عرف قدره، ولم يتعدّ طوره».

سبحانه نهانا عن بعض التصرّفات فيها، وهي التصرّفات التي تتقاطع مع قوانين الشريعة الإسلامية. وهكذا فإنه جلّ شأنه إذ نهانا عن اكتسابها والتصرّف بها، فقد نهانا عنهما لا مطلقاً، بل عن اكتسابها من غير حلها فقط وعن صرفها في غير محلها كذلك. أما إذا كانت قد اكتسبت من حلّ وصرفت في محلّها وفي حلال، فإنه حينئذٍ لا ريب في صحة ذلك العمل، وفي تقرب صاحبه من الله تبارك وتعالى.

ابن مسكويه وابن خلدون

وهذا الأمر يمثل مفارقة مقيتة في تاريخنا الإسلامي، وهو أمر لم يكن ذا توجه ضيق، أو ذا تطبيقات محدودة، بل إنه أمر قد أخذ أبعاده كلها على امتدادها، وعلى ما يمكن أن تتّسع له مع كلّ شخصية شيعية في مجال العلم والمعرفة. فالتاريخ مثلاً حينما يتناول شخصية ابن خلدون يتناولها بالإعزاز والإجلال والإكبار، وكأنه ليس هنالك من هو كابن خلدون بما عنده من نظريات ومن طروحات حاول عبرها أن يعالج بعض المشاكل التاريخية أو الاجتماعية.

ولكون ابن خلدون من فئة معينة فإننا نجد الدنيا تصفّق وتطبّل وتزمّر لذكره دون هوادة؛ سواء على مستوى الصحف والمجلات، أو الاذاعات، أو على مستوى المؤلَّفات، وما إلى ذلك. أما أُستاذه ابن مسكويه الذي كان ذا فضل كبير عليه فيما وصل إليه؛ فقد كان أُستاذاً له في الفلسفة، والذي

كثيراً ما دعمه بالآراء الاجتماعية ذات القيمة العلمية العالية، فإنه لم يكن ليُذكر إلّا على نطاق ضيّق، لا لشيء إلّا لأنه كان شيعي المذهب، علوي الميل الهوى.

فمع أن ابن مسكويه له آراء وله كتب مؤلفة في مجال اختصاصه في الفلسفة والأخلاق والاجتماع، وهي كتب قيمة؛ لما تحتويه من نظريات سطعت في أُفق العلم، ولمعت في سماء الأخلاق، وكان لها أن تأخذ مداها، لكننا مع ذلك لم نجد من يشيد بها أو به كما أُشيد بابن خلدون أو في مقدمته في التاريخ.. المقدمة التي كأنما لم يكتب ولن يكتب مثلها في التاريخ أبداً. وهذا كما قلنا يعود إلى كون ابن مسكويه شيعياً، وكون ابن خلدون ليس كذلك.

فالصحابي أبو ذر رضي الله عنه إنما دعا إلى ذلك الإنصاف في توزيع أموال الله تبارك وتعالى على عباده، وإلى تفتيت الملكية والثروات؛ لأنه كان متأثراً بدوافع ردود الفعل ضدّ المجتمع المكي القائم على جملة من التناقضات المرعبة المروعة، والتي ولّدتها عنده موقف ذلك المجتمع.

في إمهال الله الكافرين ومعاقبتهم في بدر

ثم قالت الآية الكريمة السابقة: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ وهذه الفترة القليلة التي أشارت إليها هذه الآية الكريمة هي الفترة الواقعة بين نزول تلك الآية الكريمة في بدء الدعوة الإسلامية وبين واقعة بدر الشريفة. فكأن السماء

توجه نظر النبي الأكرم ﷺ إلى أن عليه أن ينتظر أياماً ليرى هؤلاء العتاة والبغاة الذين يشكلون تلك المجموعة المتغطرسة صرعى بسبب بـغيهم، وذلك قريب حيث إنهم سيلاقونه في واقعة بدر الشريفة.

إننا حينما نرجع إلى وقائع تلك المعركة المقدسة، وإلى حوادثها، فإننا سوف نجد أن الطبقة المتجبّرة كلها قد صرعت فيها. وأدل دليل على هذا ما يرويه المؤرخون من أن النبي الأكرم ﷺ حينما أراد أن يأخذ البـيعة من الناس، وبعد أن بايعه الرجال بقيت النساء اللواتي آمنّ به، فأمر النبي الأكرم ﷺ بوضع طشت فيه ماء، فكانت المرأة تضع يدها في الطشت، ويضع الرسول الأكرم ﷺ يده في الجانب الآخر منه، ثم يشترط عـليها تلك الشروط التي أملتها الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١).

فكانت المرأة بعد أن تضع يدها في الطشت يخاطبها النبي الأكرم مبيناً لها بأنها ينبغي عليها ألّا ترتكب السرقة ولا أن تأتـي البـهتان مـن بـين الأيدي والأرجل ولا تقتل الأولاد وما إلى ذلك، تقول الروايـة إن النـبي الأكرم ﷺ لما بايعهن كان على الصفا، وكان عمر أسفل منه، وكانت هند

(١) الممتحنة: ١٢.

بنت عتبة متنقبة متنكرة مع النساء؛ خوفاً من أن يعرفها رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «**أُبايعكن على ألّا تشركن بالله شيئاً**». فقالت هند: إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال، وذلك أنه ﷺ بايع الرجال يومئذٍ على الإسلام والجهاد فقط. فقال النبي ﷺ: «**ولا تسرقن**». فقالت هند: إن أبا سفيان رجل ممسك، وإني أصبت من ماله هناة، فلا أدري أيحلّ لي أم لا. فقال أبو سفيان وكان حاضراً البيعة: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال.

فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال لها: «**وإنك لهند بنت عتبة؟**». قالت: نعم، فاعفُ عما سلف يا نبي الله؛ عفا الله عنك. فقال ﷺ: «**ولا تزنين**». فقالت هند: أوتزني الحرّة؟ فقال ﷺ: «**ولا تقتلن أولادكن**». فقالت هند: ربيناهم صغاراً، وقتلتموهم كباراً، فأنتم وهم أعلم.

وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يوم بدر.

ولما قال: «**ولا تأتين ببهتان**». قالت هند: والله إن البهتان قبيح، وما تأمرنا إلّا بالرشد ومكارم الأخلاق، ولما قال ﷺ: ﴿**وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ**﴾. قالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء[1].

وعلى أية حال فهذه المرأة مع أنها جاءت لتشهر إسلامها وتعلن إيمانها

(١) بحار الأنوار ٢١: ٩٨، الاستيعاب ٤: ١٩٢٣، تخريج الأحاديث والآثار ٣: ٤٦١ ـ ٤٦٢، شرح نهج البلاغة ١٨: ١٧.

لكنها بقيت على ذلك المستوى من الجرأة وانعدام الأدب في مخاطبة من هو أعلى شأناً، وأكرم مكانة عند الله منها ومن عتاة قومها، بل من أهل الأرض جميعاً.

وهند هذه بدلاً من أن تتّهم رسول الله ﷺ بأنه قتل رجال قريش في بدر، كان عليها ألّا تنسى بأنها وزوجها ومن حذا حذوهما وسار في ركابهما في محاربة الإسلام ورسول الإسلام ﷺ هم الذين دفعوا أُولئك الشباب إلى القتل بتحريضهم إياهم على مواجهة الرسول ﷺ، وعلى مقاتلته، وساهموا مساهمة كبيرة في ذلك بعد أن حثوهم على أنهم إن قتلوا النبي الأكرم ﷺ، فإنهم بهذا يكونون قد قضوا على الإسلام؛ وبالتالي، فإنهم يكونون قد حافظوا على دينهم وآلهتهم وطقوسهم العبادية.

والتاريخ يحدثنا بأنه ما من لواء من ألوية الشرك رفع في وجه رسول الله ﷺ إلّا وكان لأبي سفيان يد فيه، بل كان يقوده ويحث الناس على المسير خلفه.

كما أن هنداً هذه قد نسيت أيضاً العشرات من القتلى سواء من المسلمين الذين ماتوا في التعذيب الذي مارسته قريش ضدهم، أو أُولئك الذين قتلوا أيضاً في معركة بدر من الصحابة؛ المهاجرين والأنصار والهاشميين وغيرهم بسبب بغيها وبغي زوجها أيضاً.

فكل هذا ذهب أدراج الرياح، ثم لا تتردّد أو تخجل من أن تتجرأ على الرسول الأكرم ﷺ وتقول له: ربيناهم صغاراً، وقتلتموهم كباراً، فأنتم وهم أعلم.

وعلى أية حال فأُولئك الجبابرة قد صرعوا بسبب بـغيهم وعـنفوانـهم الكاذب، فأراد الله تبارك وتعالى أن يخزيهم، فكانوا أن قـتلوا فـي هـذه المعركة الشريفة، وكان أغلبهم قد قتل على يد علي بن أبي طالب عليه السلام ذلك الرجل الذي أراد الله جل شأنه أن يكرمه وأن يعظمه في نفوس الناس وأن يزيده من ثوابه عنده فجعله في أمر الجهاد هو المجلّي، وجعل المصارع كلها تجري على يديه حتى إن عدد قتلى المشركين في بدر كان سبعين رجلاً: خمس وثلاثون منهم قتلوا بسيف علي بن أبي طالب عليه السلام. وهـذا الأمر قد خلق له مشكلة تتمثل بمحورين:

الأول: محور الحسد

ذلك أن الكثير من المسلمين كانوا يحسدونه على ما آتـاه الله تـبارك وتعالى من فضله[1].

الثاني: محور البغض والكراهية

ذلك أنه لم يكن هنالك من بيت من بيوتات العرب إلّا ولعلي فيه نضح دم؛ فقد وتر عليه السلام الأقرب والأبعد في معارك الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كلّها، وفي معاركه مع المرتدّين والخارجين عليه وعـن سـلطانه الذي هـو سـلطان رسول الله صلى الله عليه وآله بنص رسول الله صلى الله عليه وآله عليه في واقعة خم المشهورة.

فما من واقعة اشترك فيها؛ سواء كانت في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، أو في أيام خلافته عليه السلام إلّا وهو المجلي فيها، وإلّا وله قتلى ربما تعد بالعشرات

---

(١) حتى نزل قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ النساء: ٥٤.

في كل معركة. وهذا ما سبب له حقداً في قلوب الناس، وكرهاً في أنفسهم، وضغينة تستعر في تلك النفوس والقلوب ضدّه، فخلق له رصيداً كبيراً هائلاً من ذلك الحقد في نفوس الناس، وهذا ما ترجمه أحد الشعراء بقوله:

بَدرٌ وأُحدٌ والهِراسُ وخيبرٌ ... والنَّهرَوانُ وقبلَها صِفِّينُ
كَفٌّ تُطيحُ بِهَا وَيَنذُرُ كَاهِلٌ ... وَيَدٌ تُجَذُّ وَيُجدَعُ العِرنِينُ
هَذا رَصِيدُكَ بالنُّفُوسِ فَمَا تَرىٰ ... أَيُحِبُّكَ المَذبُوحُ والمَطعُونُ
ومِنَ البَدَاهَةِ والبَدَاهَةُ حَيَّةٌ ... فِي أنْ يُقَاضَىٰ دَائِنٌ وَمَدِينُ(١)

فكان أن أخذ عليه السلام ذلك الرصيد الضخم من التقى، والرصيد الضخم من الحقد في قلوب الناس عليه نتيجة قتله إخوانهم وأبناءهم وآباءهم دفاعاً عن دين الله وعن رسوله الكريم صلى الله عليه وآله.

الله أرحم بعباده من الأُم بولدها

يروى أن أحد الصحابة جاء يوماً إلىٰ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وقد مرّ في طريقه على مكان فيه عشّ يمامة، وكان لها فيه فرخان، فمدّ يده إليهما فأخذهما ـ وكان ينوي جلبهما للحسن والحسين عليهما السلام ليلعبا بهما، ويأنسا ـ فأخذت اليمامة تحوم حوله وتتبع فراخها. فلما وصل إلىٰ النبي

(١) ديوان المحاضر رحمه الله: ٨٢.

الأعظم ﷺ، أخبره أنه جلب للحسن والحسين عليهما السلام طيرين يلعبان بهما، فقال له النبي الكريم ﷺ: «**ما أحسنت صنعاً؛ لأنك آلمت هذه الأُم**». ثم التفت إلىٰ أصحابه وقال لهم: «**هل رأيتم هذه اليمامة؟**». قالوا: نعم يا رسول الله. فقال ﷺ: «**هل رأيتم حدبها وشفقتها؟**». قالوا: نعم. فقال ﷺ: «**إن الله أرحم بكم من هذه اليمامة بفرخيها**»[1].

دعاء الإمام الحسين على أعدائه بالنار

وبناء على ما سلف من أن العذاب بالنار هو أشد أنواع العذاب، ولما في نار جهنم من صور مرعبة وأهوال تأخذ بالألباب، وتفقد أصحابها قدراتهم وقابلياتهم على التفكير، وتشل عندهم تلك الطاقة، فإن الله جلّ شأنه خص الكافرين والعتاة والطغاة بالعذاب بها. وهو الأمر عينه الذي رأيناه عند الإمام الحسين السبط عليه السلام وهو يدعو على قاتله بأن يحشره الله تبارك وتعالى في نار جهنم.

ومع أن البعض ربما يلتفت إلى حقيقة هي أن مثل هذا الدعاء من الإمام

(١) هناك قصة شبيهة لهذه رواها القرطبي في تفسيره قال: قال ابن عباس: رأى رسول الله ﷺ يوم أوطاس امرأة تعدو وتصيح ولا تستقر، فسأل عنها فقيل: فقدت بنيّاً لها. ثم رآها وقد وجدت ابنها وهي تقبّله وتدنيه، فدعاها وقال لأصحابه: «أطارحة هذه ولدها في النار؟». قالوا: لا. قال ﷺ: «لم؟». قالوا: لشفقتها. قال: «الله أرحم بكم منها». الجامع لأحكام القرآن ٨: ١٠٣.

الحسين عليه السلام أمر غريب، وهو خلاف ما عُهد عنه عليه السلام من أنه كان يـبكي لأعدائه؛ لأنهم سوف يدخلون النار بسببه، فخلق الحسين عليه السلام بما تتصف به من السمو والقداسة والاستمتاح من تعاليم السماء ترباً بـه عـن ذلك، لكننا مع ذلك نجد أن الإمام الحسين عليه السلام يدعو على قاتله بالنار. وهـذه مسألة ربما تحتاج إلى وقفة قصيرة لبيان هذا اللون من التقاطع بين هذين التصرفين عند أبي الأحرار الإمام الحسين عليه السلام، فهو عليه السلام إذا كان يبكي لهذا الجيش الضخم الذي سوف يدخل النار بتلك الأعداد الهائلة نتيجة قتاله له وهو سبط الرسول صلى الله عليه وآله ومثل السماء، فكيف يمكن أن يدعو على الآخر بالنار وبالعذاب بها؟

إن السبب الذي من أجله دعا الإمام الحسين عليه السلام على قائله بهذا لا لأنه قتله، بل لأنه حال بينه وبين عياله أن يراهم، وأن ينظر إليهم، وأن يـقوم على حمايتهم ورعايتهم، فهو بهذا قد ألهب قلب الإمام الحسين عليه السلام، وقطع نياطه؛ لأن رحل الإمام الحسين عليه السلام وعيالاته كانا يمثلان بالنسبة له بُعداً خطيراً وخطاً أحمر لا ينبغي تجاوزه، بل الاقتراب منه.

يقول أصحاب السير والمقاتل: إن الإمام الحسين عليه السلام حينما سقط إلى أرض المعركة، وقف عمر بن سعد قبالته يحث الناس على أن يعجّلوا في قتله، فكان يخاطبهم بقوله: ويحكم، عجّلوا عليه. لكـن دون أن يـجرؤ أحد من الناس على أن يدنو منه عليه السلام؛ ذلك أنه ما من أحد من أُولئك كانت له الجرأة على الاقتراب، بل ما إن يقترب منه أحد حتى يـحدقه الإمـام الحسين عليه السلام، ويرمقه بنظرة تلقي الرعب في قلبه، فيلقي السيف من يده

ويولي هارباً. ورحم الله شاعر أهل البيت عليهم السلام السيد حيدراً الحلي رحمه الله حيث يصور لنا هذا الموقف والمعنى بقوله:

ولما قضىٰ للعُلا حقَّها ... وبالسيف شيَّد بُنيانَها
تَرَجَّلَ للموتِ عن سابِقٍ ... لهُ أخلَتِ الخيلُ مَيدانَها
ثوى زائد البشر في صرعة ... له حبب العز لقيانها
كأن المنية كانت لديه ... فتاة تواصل خلصانها
جلتها له البيض في موقف ... به أثكل السمر خرصانها
فبات بها تحت ليل الكفاح ... طروب النقيبة جذلانها
وأصبح مشتجراً للرماح ... تحلي الدما منه مرانها
عفيراً متى عاينته الكما ... ة يختطف الرعب ألوانها
فما أجلت الحرب عن مثله ... صريع يجبّن شجعانها
تريبَ المُحَيَّا تظنُّ السَّمَا ... بأنَّ علىٰ الأرضِ كَيوَانَها
غريباً أرىٰ يا غريبَ الدِّيار ... توسد خديه كثبانَها[1]

فكان كلّ واحد يظنّ أن في نفسه الجرأة على الدنو من الإمام عليه السلام فيقترب منه، يولي هارباً نتيجة ما يتملّكه من الرعب نتيجة تلك النظرة القاسية التي كان ينظر بها الإمام الحسين عليه السلام إليه.

ولهذا فإن ابن سعد وجماعته تداولوا في هذا الأمر ليعرفوا ما الذي يمكن أن يفعلوه في هذا الخصوص حتى يستطيعوا أن يقتلوا الإمام عليه السلام، فكانت الآراء متباينة بين من يرى أنها خدعة يريد من خلالها الإمام أن

(١) ديوان السيد حيدر الحلي: ١٠٨.

يقترب الناس منه، حتى إذا ما فعلوا نضى سيفه، وهجم عليهم ليـقتلهم، وبين رأي آخر مضادّ له وهو أن الإمام عليه السلام قد أثخنته الجراحـات، وقـد أخذته السيوف، ونزف منه دم كثير بحيث إنه أصبح لا يقوى على الحركة ولا على القيام لشدة ما فيه من جراحات ومن نزف.

وهنا التفت ابن سعد قائلاً: إذا أردتم أن تعرفوا هل إنه لا زال على قيد الحياة أم إنه قد فارقها فاهجموا على الخيام؛ فلعمري أنه رجل كفء كريم وغيور. أي أنكم إذا ما هجمتم على عيالاته وكان به بقية من الحياة فإنه سوف يستجمع كلّ قواه ويحاول أن ينهض للدفاع عـنها، فـإن لم يـفعل فاعلموا أنه قد فارق الحياة لا محالة.

وبعد أن نفذت خطة ابن سعد، وتم الهجوم على الخيم تناهت الأصوات إلى سمع الحسين عليه السلام الذي كان على تلك الحالة التي وصـفناه بـها مـن حيث عدم قدرته على الحركة نتيجة ما هو فيه من جراحات، وما أثخنته منه السيوف، وما نزف منه من دم، فكان لا يقوى على الحركة حتى أتاه مالك ابن نصر الكندي الذي شتم أمير المؤمنين عليه السلام أولاً، ثم رفع سـيفه وضرب الإمـام عليه السلام ضـربة أطـبق بـها حـاجبيه عـلى عـينيه، فـقال له الإمام عليه السلام: «**لا أكلت بيمينك ولا شربت بها، وحشرك اللّه مع الظالمين**». ثم ألقى القلنسوة، ودعا بخرقة فشدّ بها رأسه، ودعا بقلنسوة أُخرى، فلبسها واعتمّ عليها[1].

(١) الإرشاد ٢: ١١٠، مثير الأحزان: ٥٥، ينابيع المودّة ٣: ٨٢. وروى القندوزي عن أبي

وذلك أنه حرمه من النظر إلى عياله وأطفاله، وهنا تناهى إليه صوت أُخته من داخل الخيمة وهي تصيح: أخي، أدركنا. وأنى له أن يدركهن؟

وصفاياك اللواتي دونها	ضرب الله من الحجب ستارا
أُبرزت حاسرةً لكن على	حالةٍ لم تبقِ للجَلد اصطبارا
لا خمارٌ يستر الوجهَ وهل	لكريمات الهدى أبقوا خمارا
لا ومن ألبسها من نوره	أُزراً منذ سلبوا عنها الإزارا
لم تدع أيدي بني حرب لها	من حجاب فيه عنهم تتوارى
لو تراها يوم فرّت وعلى	خدرها في خيله الرجس أغارا
يتسابقن إلى الحامي وهل	يملك الثاوي على الترب انتصارا
تربط الأيدي من الرعب على	مهجٍ طارت من الرعب انذعارا
تتوارى بثرى الرمضا أسىً	لقتيل بالعرا ليس يوارى
وهو ملقى بثرى هاجرة	يصطلى من وهج الرمضا أوارا
كلما صعّدت الوجدَ أبى	دمعها من لوعةٍ إلّا انحدارا
لم تجد من كافل إلّا فتى	مضّه السقم وأطفالا صغارا
بالظما أعينها غارت وما	ذاقت الماء فليت الماء غارا
تحرق البوغاء منهم أرجلاً	أنعلتها أرؤوس النجم فخارا
أفزعتها هجمة الخيل فرا	حت تتعادى بثرى الرمضا فرارا
كل مذعور كبا رعباً على	حرّ وجهٍ كسنا البدر أنارا

مخنف قال: لما أخذ الكندي عمامة الحسين عليه السلام قالت له زوجته: ويلك! قتلت الحسين وسلبت ثيابه؟ فوالله لا جُمعت معك في بيت واحد. فأراد أن يلطمها، فأصاب مسمار يده، فقطعت من المرفق، ولم يزل فقيرا حتى مات. ينابيع المودّة ٣: ٨٢.

كـــلما كـضّ الظـما أحشـاءه ألصقت بالترب أكباداً حراراً[(١)]

وهي الصورة التي يرسمها لنا أديب الطفّ، وشاعر الثـورة الحسـينية السيد حيدر الحلي رحمه الله لذلك المشهد الفظيع الذي ألمّ بالإمام الحسين عليه السلام في تلك اللحظة، فهو يقول:

كـم لكم من صِبيةٍ ما أُبدلت ثَــم مـن حاضنة إلّا رمالا
سل بحِجر الحرب ماذا رضعت فُـثديُّ الحـربِ قد كنَّ نصالا
رضـعت من دمِها الموت فيا لرضـاع عـاد بـالرغم فصالا
ونـــواعٍ بــرزت مــن خـدرها تــلزم الأيـديَ أكـباداً وجـالا
كـم عـلى النـعي لها من حنَّةٍ كـحنين النـيبِ فارقن الفصالا
كـبنات الدوح تـبكي شـجوَها وغوادي الدمع تنهلّ انـهلالا[(٢)]

حضور المرأة ودورها يوم تَحلاق اللمم

ونحن إذ نقول: نعم إنها لم تخلق لهذلك الأمر، فإننا لا نعني أنها غـير مؤهلة له، أو أنها لا تتوفّر على القابليات التي تمنحها صلاحية ولوجه. وهنا سوف نشير إلى واحد من تلك الأدوار وذلك الحضور وهو دورهـا في تلك المعارك الشديدة الضراوة التي وقعت بين قبيلتي بكـر وتـغلب، والتي راح ضحيتها الكثير الكثير من أبناء القبيلتين. وكانت معركة معروفة مشهورة سارت بأخبارها الركبان بين قبائل العرب ومضاربهم، وكان من

(١) أدب الطف ٨: ٣٣٧. (٢) ديوان السيد حيدر الحلي: ١٣.

أبطال بني بكر وأُدبائهم الذين اشتهروا بين الناس؛ كونه سيّد بكر وشاعرها، وقائدها وفارسها الفِند الزماني(١) الذي كان شاعراً مبدعاً مفلقاً، وقد أبدع لوحة شعرية رائعة في الحلم ينقلها لنا الكتّاب والمؤرخون؛ مبيناً فيها الوقت الذي ينبغي على الإنسان فيه أن يتصف بالحلم، والوقت الذي ينبغي عليه فيه ألاّ يكون كذلك، بل عليه أن يتّصف بالشدة، يقول فيها:

فلمّا صرّح الشرّ ... فأمسى وهو عريانُ
ولم يبقَ سوى العدوا ... ن دِنّاهم كما دانوا
مشينا مشية الليث ... غدا والليث غضبانُ
بضرب فيه توهين ... وتخضيع وإقرانُ
وطعن كفم الزقّ ... غدا والزقّ ملآنُ

إلى أن يقول:

وبعض الحلم عند الجهـ ... ـل للذلّة إذعانُ

وهو هنا يقارب الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(٢). ثم يقول:

---

(١) بكسر الفاء، وهو شهل بن شيبان بن ربيعة بن زمان الحنفي، من بني بكر بن وائل، شاعر جاهلي عاش في حدود القرن السادس الميلادي وتوفي نحو (٧٠) قبل الهجرة المشرّفة، أو (٥٥٥)م. وكان سيد بكر في زمانه، وفارسها وقائدها . وهو من أهل اليمامة. شهد حرب بكر وتغلب، وقد ناهز عمره المئة. الأعلام ٣: ١٧٩.

(٢) البقرة: ١٩٤.

وفـــي الشـــر نـــجاة حـــيـ ـــن لا يـــنجيك إحســـانُ[1]

وعلى أية حال فإن الحرب لما استعرت واشتدّ أُوارها بين الفـريقين، اشتدّ الضغط على قبيلة بكر بعد أن أحاطها تغلب وأحلافها، فأوقعوا فيهم الضرب والقتل، حتى أوشكّ البكريون أن ينهزموا، وهنا برزت فتاتان هما ابنتا الفند الزماني كما يقول المؤرخون، وأقبلتا وسط ساحةالمعركة، وهما تناديان:

وغـــى وغـــى وغـــى وغـــى ـــحـــر الحـــرار والتـــظى

ومـــــلئت مـــــنه الربـــى المـــــحلقون بـــــالضحى

يقول المؤرّخون: وما كادتا تخرجان تناديان بذلك النداء بين المقاتلين وهما تقودان الجيش حتى خرجت امرأة أُخرى من مؤخرهم، وهي امرأة معروفة عندهم يقال لها كرمة بنت ضلع أُمّ مالك بن زيد، وكانت بارزة بين نساء العرب، وهي تنادي:

نـــحن بـــنات طـــارقْ نمشي عـلى النـمارقْ

مشي القـطاة البـارقْ ان تـــقبلوا نـــعانقْ

او تـــدبروا نـــفارقْ عرس المـولّي طـالقْ

والعار فيه لاحقْ

والعرس: المرأة، أي من يولّي من المعركة، فـإنه سـوف يـجبر عـلى

(١) خزانة الأدب ٣: ٣٩٩، شرح نهج البلاغة ١٩: ٢٢١.

تطليق زوجته، أو أنها سوف تطلقه؛ لانهزامه من القتال، وبالتالي فهو ليس أهلاً ليكون بعلها، بل هو عار عليها وعلى أهله.

وهكذا ما إن ظهرن هؤلاء النسوة الثلاث، ونادين بذلك النداء حتى انتصر البكريون، ونالوا القدح المعلّى بعد أن دارت الدائرة على التغلبيين بعد أن كانت قد دارت عليهم. ثم سمي ذلك اليوم بـ« يوم تحلاق اللمم »؛ نسبة إلى قول ابنتي الفند: « المحلقون بالضحى ».

واللمم: جمع لمّة، وهو مقدّم شعر الرأس، وسمي ذلك اليوم كذلك؛ لأن السيوف قد أخذت تحصد رؤوس تغلب، وتقطع لممها، فكأنها تحلقها.

وبهذا فإن هذا الموقف البطولي من هؤلاء النسوة الثلاث أصبح مضرب مثل، ومورد استشهاد الكتّاب على ما يمكن أن تلعبه المرأة من دور ريادي حتى في المعارك، خارجة بذلك عن محاولة قولبتها في قالب معين. وجميعنا يعلم أن الرجل حينما تقف المرأة خلفه تشجّعه وتدفعه بالقول الذي يلهب المشاعر ويستفزّ مكامن النخوة عنده فإنه سوف تتضاعف قوته، ويصبح شديد المراس، بل إنه حينئذٍ سوف يفتك فتك الأُسود. ومعلقات العرب شاهدة على هذا المعنى، كما في معلقة عمر بن كلثوم حيث يقول:

على آثارِنا بِيض حِسَانٌ ... نُحاذِرُ أَنْ تُفارِقَ أو تَهُونَا

ظَعائنُ مِنْ بَني جُشَمِ بنِ بكرٍ ... خَلَطْنَ لِميسَمٍ حَسَباً ودِينَا

أَخَذْنَ على فَوارِسِهنّ عَهداً إذا لاقَوا فَوارِسَ مُعلِمِينَا
لَيَسْتَلِبُنَّ أَبداناً وَبِيضاً وَأَسْرَى في الحَديدِ مُقَرَّنينَا
إذا ما رُحْنَ يَمْشِينَ الهُوَيْنَى كَما اضطَرَبَتْ مُتُونُ الشّارِبينَا
يَقُتْنَ جِيادَنا وَيَقُلْنَ لَستُمْ بُعُولَتَنا إذا لَمْ تَمْنَعُونَا
إذا لَمْ نَحْمِهِنَّ فَلا بَقينَا لِشَيءٍ بَعْدَهنّ وَلا حَيِينَا
وما مَنَع الظَّعائنَ مِثْلُ ضرْبٍ تَرَى منهُ السَّواعِدَ كالقُلِينَا(١)

مشيراً إلى أن المرأة حينما تقف لتشجّع الرجل أعطته طاقة ضخمة فوق طاقته الاعتيادية.

وكذلك فإننا جميعاً نعلم بأن المرأة على مرّ التاريخ كان لها دور كبير وبارز في إشعال نار الحرب، وفي حسم المعارك عبر وقوفها إلى جانب الرجل حتى تأخذ بيده إلى النصر.

(١) جمهرة أشعار العرب ١: ٤٤.

المحتويات